

فؤاد التكرلي

الرجع البعيد

رواية

فؤاد التكرلي

الرجع البعيد



الرجع البعيد

روايــة

المؤلف: فؤاد التكرلي
عنوان الكتاب: الرجع البعيد
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 1994
الطبعة الثالثة : 2015



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

-١-

سارتا بخطوات وئيدة، عابرتين شارع الكيلاني وأشعة الشمس الحمراء والظِّلال الطويلة، وأخذتا بارتقاء الطريق الترابيّ. كلّمت أمّ مدحت حفيدتها:

- لاتْمشينْ بسرعة عيني سناء.

- نعم، بيبي.

كان الشارع، قبيل الغروب، صاخباً ورا ءهما، إلا أن ريحاً خفيفة حملت ضجته بعيداً، وكانتا تريان مواضع أقدامهما رغم أن المصابيح الكهربائية لم تكن قد أضيئت بعد، غير أن وجوه المارين لم تكن متميِّزةً بوضوح.

- هواية الخبز حارّ بيبي.

- الله يديم النعمة .

- إنشالله بيبي.

- عفية عيني سناء. تعلمي تحكين هالشكل. لاتْخَلِّينْ اسم الله يسقط من فمك.

- نعم بيبي.

كانت حزمة الفواكه والبيض والخضراوات ثقيلةً، وكانت تشعر بأنفاسها تضيق مع كلّ خطوةٍ ترقى بها الطريق المرتفع باستمرار، فتباطأت بسيرها ونقلت حملها إلى اليد الأخرى. رأت الصغيرة تتمايل مع قنينة الحليب وأقراص الخبز الحارّ.

- نرتاح شويّة بيبي؟ تعبتِ أنت.

- لاعيني سناوي، ما بقى شي للبيت.

عندئذٍ لمحته يخرج من انحناءة الزقاق القريب، طويلاً بارز الصدر متعثّر الخطوات. لم تعتقد أن بوسعها أن تتعرف على هوية الأشخاص في هذه الغابة من الظلال، ولاسيما أولئك الذين نظنهم بعيدين عنا.

- أوقفي عيني سناء. أريد استراح شويّة.

- نعم بيبي. آني قلت أنتِ تعبانة.

كاد، في تعثّر خطواته الخطر، أن يصطدم بالحائط، إلا أنه اعتدل وتراجع في اللحظة الأخيرة، وسمعت القحّة تهز جسمه. لم تخطئ في معرفته، ومن المستحسن ألا تراه الصغيرة. ولكن، أية ريح مخبولة عادت به من الكويت؟ ثم رأته يتوقف ليشعل سيجارة ارتفع دخانها من بعده، وسار مرفوع الرأس تنتاب خطواته هزة غريبة مثل مَنْ يتلقى لطمةً على صدغه.

- عيني بيبي، تره الخبز هواية حارّ.

- أي عيني. أدري. يالله دمشي لعد.

- نعم بيبي.

تراه يسير فتظنّه بشراً أو رجلاً مثل بقية الرجال! ومَنْ يدري، فقد

يبقى هذا الشوه حياً بعد أن يموت الجميع! لعل الصُغيرة لم تره. ولكنه كالبغل العنود، لايتحرك إلا كي يقف. شاغلت نفسها بما تحمله وأخذت تلتقط أنفاسها وتتكلم:

- اي عيني سناوي. لاتخلين اسم الله يسقط من فمك. وإذا تريدين اعطيني الخبز أشيله عنك.

- لا بيبي. آني ما أدير بال انشالله.

- عفية. عفية. ياالله دنمشي.

وسارتا.

- بيبي، تدرين. البارحة بالليل شفت حلم هواية حلو، لكن نسيته. حكيت لسها عنه من الصباح. تدرين بيبي، سها تكول آني لازم ما أشوف حلم! لويش عيني؟ لأن آني صغيرة؟ ليش البنات الصغيرات ما يشوفون أحلام! آني أصلاً كل ما أنام أكول ربي خليني أشوف حلم هواية.. هواية حلو. أحلى من سها.

ثم دفعت الصغيرة بقدمها باب الدار ودخلت مسرعةً. ألقت أم مدحت نظرة أخيرة على ظله المتمايل قرب الحيطان وتبعت حفيدتها. تمنت أن تستمر سناء على ثرثرتها وهما تقطعان المجاز المظلم الضيّق. ولكنها التزمت الصمت وهي تراقب بدقة موضع قدميها.

خاطبتها:

- ديري بالك عيني سناوي من الدبيب.

- نعم بيبي. آني أخاف من الظلمة.

- لاعيني، لويش تخافين؟ أنت عاقلة.

دفعتا الباب الكبير الآخر فصرَّ صريرا عالياً وانفتحت عليهما ضجة

البيت. تنفّست الصعداء وهي تطرق بقدميها طابوق الحوش المتحجر وتراقب الصغيرة تسرع نحو المطبخ القريب. سمعت ابنتها مديحة تنادي من الطابق الأول:

- منو جاء؟ ماما؟ سناء؟

فأجابت الصغيرة:

- أي ماما. إحنا جينا، آني وبيبي.

ارتمت أمّ مدحت على كرسي واطىء في زاوية من المطبخ، ووضعت حملها على الأرض. كانت متعبة من السير الطويل تشعر بقلق غامض في قلبها. ماذا جاء يفعل هنا، هذه الأيام؟ رأت الصغيرة تفتح قدراً كبيراً وترصّ فيه أقراص الخبز، ثم تمضي نحو الثلاجة بقنينة الحليب. لعلهم طردوه من الشركة بعد أن اكتشفوا حقيقة أمره. ولكن، هل سيعاود تمثيل تلك المهزلة معهم مرةً أخرى؟ سمعت صوت ابنتها مديحة تكلمها من الطارمة:

- يوم... يوم. أنت وين؟ بالمطبخ؟

- أي، يوم، أي. تعالي نزلي شويّة.

- نازلة.

كانت الضجة تأتي من غرفة العجائز، أمها وأخت زوجها. إنهما في معارك لسانية دائمة من أجل لاشيء. تبدّى لها ظل ابنتها في مدخل السلم، مقبلة نحوها، طويلة ممتلئة. هتفت تكلّمها:

- مديحة عيني، شعلي الضوء.

توقّفت ابنتها لحظة أضاء بعدها مصباح كهربائي مدخل المطبخ. قامت حاملةً البيض تضعه في الثلاجة فانتبهت إلى غياب الصغيرة.

سألت مديحة حين صارت على بعد خطوات منها:

- وينها سناء؟

- فوق.

ثم أردفت بسرعة:

- يالله ماما، الله يرضى عليك، خلّي ندبّر العشاء بالعجل. أكلوا قلبي صار لهم ساعتين.

- منو؟ عمّتك؟

- عمتي وبيبي. عمّتي صار لها ساعة تقول عيني دا أشمّ ريحة كباب، وبيبي قاعدة تحلم بالعكوس والتّشريب.

أوقدت أم مدحت الطبّاخ الغازي الصغير:

- ما راح يأكلون غير البيض المقلي والسبيناغ. أبوك رجع؟

جلست مديحة على الكرسي الفارغ. لاحظت بعض الإعياء في جلستها وفي ملامحها ولون وجهها. سألتها مرة أخرى:

- أبوك رجع من الفاتحة؟

- ماما، صحيح شفتوا حسين بالطريق؟

ثم رأتها ترفع عن صدغها خصلة شعر سوداء بحركة أكدت لها التعب الذي يتملّك ابنتها:

- سناء قالت لك؟

لم يفلت من ملاحظة الصّغيرة إذن:

- ظنيت ما خليتها تشوفه. كان مثل السكران. ما عندنا شي معه.

- أي.

ثم سمعتها تطلق تنهيدة طويلة، عبرت بها عن كل ما جرى معه.

سكتت وهي تشعر بأنها لا تستطيع - رغم علاقتها بمديحة - أن تبدي رأياً بما حدث. تكلمت ابنتها:

- آني عرفت ما راح يبقى هناك مدة طويلة. من هذا عبد الكريم قاسم قال الكويت تعود إلنا تخريط وضع العراقيين هناك. وهذا حسين يريدها من الله. الدنيا حارة وشرب ماكو... لويش باقي؟

كانت أم مدحت منشغلة بإخراج مواد العشاء من الثلاجة.

التفتت إلى ابنتها:

- ما عندنا شي معه يا بنتي. رجل صار له سنتين تاركك، أنتِ وبناتك. لا مراجعة ولا مصرف، ولا خط ولا خبر. يعني لا للموت ولا للحياة. الله يقبل هالشكل؟

نهضت مديحة بتثاقل وأجابت:

- أي يوم أي. آني أقول هذا.

سمعتا صوتاً متهدجاً من الأعلى:

- أم مدحت. نوريّة. عيني نوريّة. راح تسوّون الأكل؟ هاي عمة مدحت تره قلبها ساح من الجوع وتقول أريد قرصة خبز حارّة وشيشين كباب وخضراوات وطرشي.

قالت مديحة:

- اشتغلت رحمة الله. هاي بيبتي. عمتي ترسلها. شكو بيبي؟

عاد الصوت رقيقاً متوسلاً:

- عيوني مدّوحة، عمتچ تريد كباب وآني أريد أتعشى عكوس. خلّيها كلها بصينية. وهسه أرسل عليها سناوي. يالله عيوني مدّوحة، الله يرجع لك أبو بناتك.

خرجت أم مدحت من المطبخ وهتفت بوالدتها:

- أنت ليش تصبرين لحوحة يا يوم؟ ماكو غير البيض والسبيناغ.. هسه راح ناكل كلنا. إحنا ننتظر أبو مدحت.

ثم التفتت إلى مديحة:

- وين أبوك خاطر الله؟ ومدحت وكرومي؟ وينهم؟

- أبي ما رجع من الفاتحة بعد ومدحت يتمشى بالسطح.

ارتفعت غمغمة من أعلى:

- شلون ظلم هذا. الله أكبر. الشبعان ما يدري بحال الجوعان. سمعتِ ما يقولون؟ ماكو أكل. ماكو عشاء. كل هالرِّيحة تصعد لخشومنا، ويقولون ماكو أكل. لا كباب ولاعكوس.

أجابها صوت حاد من الغرفة:

- إلنا الله.

كلمتها مديحة:

- يوم، هذوله راح يعملون فرطنة إذا ما نسدّ حلوقهم. اتركيني آني أعمل الأكل.

- وين أروح؟ هسّه يجي أبوك ونحضّر العشا. وين راح كرومي؟

رأتها تضع يديها بين ساقيها وتنظر إلى الأرض بسهوم:

- ما أدري والله. بس أشوفه هواية مشغول هالأيام. يطلع يومياً العصر وما يرجع لنصّ الليل. ما أدري شكو عنده.

شعرت بغصة خفيفة في قلبها وهي تستمع إلى كلام ابنتها. هل هنالك أمر في البيت تجهله؟ خاصة بالنسبة لابنها الصغير:

- شنو يعني مديحة؟ شبيه؟ آني ما شفت عليه شي. يمكن ديعجبه

يقرا هو وفؤاد. حكى لك شي؟

- لاع. شيحكي لي؟ إذا ديحضرون للامتحان من هسه، زين. هواية زين.

سمعت وقع أقدام ثقيلة لشخص يخترق المجاز. قالت:

- هذا أبوك. هاتِ الطاوة عيني مديحة دا أقلي البيض.

ثم قامت من مكانها. سمعت ابنتها تتكلم من خلفها:

- ماما، لاتحكي لأبي عن حسين. يمكن الحكاية تمرّ بسلام.

سكنت قليلاً قبل أن تجيب:

- إنشا الله. إنشا الله بنتي.

صرّ الباب الكبير ثم رأت زوجها يقف في مدخل المطبخ:

- مساكم الله بالخير.

- أشو تعطّلت يا أبو مدحت، هاي شلون فاتحة!

رفع سدارته السوداء وجلس على الكرسي:

- مو هذا كان آخر يوم، ورادوا يحجزوني على العشا لاكن آني ما وافقت. ما عجبني وضعهم هالشباب. الناس قاعدة قائمة، داخلة طالعة، وهم عيونهم عشرة عشرة على الباب. يريدون الحكومة ترسل موظف يأخذ من خاطرهم. يابه مو إحنا جالسين حسب الأصول، أنتم والحكومة شنو العلاقة!

أجابت وهي تتناول الطاوة والبيض من ابنتها:

- مو ذنبهم.

مسح على جبينه ثم وجه حديثه إلى مديحة:

- وينهم الصغار؟ أشو ماكو لا حس ولا نفس.

- تركناهم فوق يحضّرون دروسهم. بكرة عندهم امتحان.

فقام من مكانه:

- راح أصعد يمّهم. وين مدحت؟

ثم مضى سائراً بخطوات بطيئة نحو مدخل الدرج دون انتظار الجواب.

كانت عيون الموقد المشتعلة تبعث حرارةً مزعجة، وقدور الطعام والدهن المحميّ في الطاوة الكبيرة تهمهم وتتهامس. شعرت بابنتها تقف في زاوية من المطبخ مظلمة، قرب الصحون البيضاء المصفوفة. أدارت نظرها إليها. كانت تمسح ببطء وذهول شيئاً زجاجياً في يدها. لم ترد أن تكلمها، لكنها لم تستطع:

- شبيك عيني مديحة؟

رفعت مديحة يدها ومسحت بخفة أسفل عينيها. كانت استدارة وجهها تبين بغموض، ولم تعلم أكانت ابنتها تبكي حقاً. أرادت أن تكرر سؤالها. همست مديحة:

- ليش ما يفرجها الله علي، علي وعلى البنات. شلون حظّ حظّي هذا!

وضعت الطاوة على جانب قرب النار:

- أقول لك، ليش هالأذى هذا؟ ولويش؟ أنت ساكنة في بيت أبوك، على العين والراس، تمام لو لا؟ أنتِ مستأجرة عندنا؟ قولي. الواحد لازم يحمد ربه يا بنتي. أبوك حي وحالته زينة والحمد لله؛ وإخوتك الله يخليهم لنا موجودين. وهذا الرجل حسين الله يرضى عليه ويجازي على قدر عمله، نتركه لوحده. لا عيني مديحة أنت عاقلة وتعرفين كم آني

أعزك وأحبك. أنت هالوحدة عندي يا عيوني.

ثم احتضنتها برفق وقبلت خدها المبلل. أحسَّت بها طفلةً في الخامسة من العمر، لم ترَ من الحياة شيئاً ولم تذق علقمها بعد. أمضّتها هذه الفكرة.

عادت مديحة إلى همسها:

- أعرف كل هالحكي يا يوم. لكن، شنو هالحياة الله يخلّيك. لا للموت ولا للحياة. والعمر دينقضي يوم ورا يوم.

- الصبر طيِّب يا بنتي، وهاذي مو أول نوبة. هاذي قسمتك يا قلبي ويمكن الله يفرجها عن قريب.

استدارت نحو الموقد وحرارته وأرجعت الطاوة فوق النار. سمعت مديحة تعاود الكلام بصوت ثابت:

- لا، لا، يوم. آني أريد أشوفه هالنوبة. هو رجع يشوف البنات. أدري. لاكن آني نويت أحسمها وياه على وجه. أحنا مو بحاجة له. آني اشتغل وعندي راتب وأبي، الله يحفظه، خيمة علي وعلى بناتي. لاكت هو لازم يعرف آني مو إنسانة عاطلة، زوجة احتياط، من يعجبه يرجع عليّ. راح ذاك الوكت.

قاطع مديحة صوت ابنتها سها:

- ماما. ماما. آني جوعانة. بيبيتي أم حسن تكول راح ناكل هاليلة لولاع.

هتفت مديحة:

- أي، عيني سها، راح ناكل. هسه يحضر الأكل. خلصتوا دروسكم؟

- نعم، ماما. آني خلصت، لاكت سناء بعدها. جدو يكول هاي ما بيها خير، كسلانة.

ارتفع صوت سناء تصرخ من الغرفة:

- كذب، ماما. آني هم خلصت. جدو ما كال عليٍّ شي. هاي سها كذّابة.

- آني مو كذّابة. هو جدو كال انتي كسلانة.

- شوكت عيني؟

لم تشعر أم مدحت بخفة في قلبها وهي تستمع إلى تلك المحاورات العابثة، وكانت تريد أن تنتهي من العشاء ومشكلاته كي تتحدث بهدوء مع ابنتها وتفهم منها بعض أفكارها.

- حضَّرتِ الصحون، مديحة؟

- نعم.

- أكول، ارسلي سها على خالها مدحت، ينزل. شكو عنده بهالبرد يتمشّى بالسطح. ما أدري كرومي راح يتعشى بالخارج؟

رأت مديحة تضع بعض الأواني البيضاء على المائدة القريبة. صار المطبخ حاراً وأحست بالعرق يتجمع فوق جبينها ويسيل تحت ثدييها. كان قلبها ضيقاً، تخزه هواجسها؛ وكانت تراقب ابنتها تتحرك آلياً كأنها لعبة لا عقل لها ولا نفس تتعذّب. ثم رأتها تخرج من ظلمة المطبخ وتمسح وجهها براحة يدها وتنادي:

- سها. سها.

أجابتها الصغيرة من بعيد، فطلبت منها أن تصعد إلى السطح وتخبر خالها مدحت بأن العشاء قد أعدّ. كان صوتها يرتجف عند بعض

المقاطع، فخطر لها أن ابنتها قد هرمت في وقت قصير جداً.

* * *

خرجت أم مدحت من غرفة نومهم تاركة زوجها يدخن سيجارته الأخيرة. كان الضوء الضعيف ينير الطارمة وقسماً من الإيوان، وكانت السماء السوداء مرصعة بالنجوم وبعض الغيم الأبيض يلطخها. وقفت متكئةً على المحجر الخشبي المتآكل. كانت ساحة الدار مظلمة كفم البئر. خطر لها أن ابنها عبد الكريم يتأخر في العودة ليلاً بشكل منتظم يثير الريبة. رأت النور مشعلاً في غرفة مدحت فسارت إليها. كانت متعبةً، تحسُّ بثقلٍ في نقل قدميها. تمنّت لو كان بمقدورها أن تنام هي الأخرى على الفراش الوثير الدافئ قرب زوجها. لم يفهم أبو مدحت لماذا كانت تريد الذهاب إلى غرفة البنات. ظن أنها تحبّ أن تشاهد فيلم السهرة في التلفزيون.

أطلّت برأسها في غرفة مدحت ذات الضوء القوي الأبيض. لم تجده فيها. سمعت صوتاً من الجانب الآخر للحوش:

- آني هنا. تريدين شي؟

التفتت بسرعة. لم تستطع رؤية الشبح البعيد أول الأمر. كان بمواجهتها، لايُميّز إلا بصعوبة على الضوء الشاحب. كلّمته:

- مدحت عيني، شكو عندك برّه؟

- دا أتمشى. دا أتمشى.

- زين عيني، اتمشى على كيفك. مو باردة شويّة؟

- لا. لا.

- زين. زين. لا تصير عصبي عيني.

خشيت أن تسأله عن أخيه وعن سبب تأخره في العودة كل ليلة. إنه لايطيق الحديث الطويل معها رغم أنها تشعر شعوراً أكيداً بحبه لها. تطلعت إلى الشبح القصير المتحرك ببطء وهي تسحب قدميها على الطارمة الحجرية. إن فيه بعض صفات أبيها، خاصة أعصابه المتوفزة، وليحفظه الله من مصير كمصير أبيها!

طرقت أذنها ضجة أصوات مختلطة في غرفة ابنتها قبل أن تصل إلى الباب وتفتحه. كان الضوء في الغرفة الواسعة، العالية السقف، ضعيفاً كئيباً، والحيطان قاتمة. رأت أمها وعمة مدحت جالستين على التخت الحديدي أمام التلفزيون. كانت ابنتها مديحة مستلقية على إحدى القريولات الكبيرة قرب ابنتيها النائمتين. سمعت عَمة مدحت تكمل حديثها:

- .... بستاننا كانت، وين هذا الجندي المدفون، من الجندي إلى الشط، وتمشين بجانب الشط على طول.. على طول حتى حدود بيت السيد. هي بستان عيني لو زيزة! الحمار يضيع بيها أربع أيام.

- يًا حمار؟

توقّفت العمّة عن الكلام، وبدا عليها أنها تزن سؤال أم حسن. استمرت:

- شنو يًا حمار؟ حمير مال ذاك الزمان.

جلست هي على طرف القريولة جنب ابنتها مديحة فاستدارت هذه إليها. سألتها:

- ناموا البنات؟

فهزت مديحة رأسها. كانت شاحبة الوجه، في بشرتها اصفرار لاتخطئه العين وفي ثنايا الشعر الأسود خيوط بيضاء لامعة. رأت مديحة تنظر بتمعن إلى عمّتها، فعادت تسألها بصوت خافت:

- تعبانة يُمّه مديحة؟

فتنفست هذه بعمق وهزّت رأسها. لم تفهم من ذلك شيئاً. كانت مديحة مرتكزةً على كوعها، واضعةً وجهها في راحة يدها اليمنى. كلّمتها:

- أشوف عيونك على عمّتك؟ دايخة من حكاياتها؟

رأتها تبتسم قليلاً وتجيب:

- دا أتفرج على شعرها الأحمر. كل أسبوع، ما تنسى تصبغه بالحنة. لويش هاي؟

التفتت إلى أخت زوجها. كانت كومة عظام صغيرة مغطاةً بكتلة كثيفة من الشعر الأبيض الملطخ بلون الحناء. لم تعد تكرهها بعد كل هذه السنين، وكانت تخاف منها وتتجنب مخاصمتها. بدا عليها أنها تنازلت أخيراً عن حقها في أخيها! إلا أنها لاتزال متشبثة بأجدادها النبلاء! ولسانها لا يهرم أو يتوقف حين تبدأ بالحديث عنهم.

- لا. لا... أبويه هواية كان طويل الله يرحمه. أحنا ما طلعنا عليه. طلعنا على أمّي. أمّي كانت قصيرة الله يرحمها. طويل كان أفراط. يتزّل رأسه من كان يدخل باب الإيوان. ورجليه، بعيني أشوفها، رجليه تخرج من التخت من كان ينام بالسطح. وشلون خلقة! شلون طلعة! بدر أبو أرباطعش. وجهه تكولين قرصة خبز. ومن يمشي يتمايل عيني. سيّد اسماعيل بن حجي عبد الرزاق. قضية ما فيها لعب. هدومه نيلي

وساعة الذهب تلمع على صدره وتخشّ بالعين، والفينة شويّة صفح.

قاطعتها أم حسن:

- ما جعت صفيّة؟

سكنت العمة لحظات:

- ساعة بيش؟

- بعد ما وذن.

- يا وذان؟

- وذان العشا.

- صايرة بركندة طابوري عيني أم حسن أنت. وذان العشا صاح به من كانت هاي المكموعة دتغني على زعيمها المخبّل بالتلفزيون قبل ساعتين.

- يُمّة آني شايفة تلفزيون، سامعة تلفزيون.

لاحظت البسمة الخفيفة تعود إلى فم مديحة وهي تستمع إلى حوار جدّتها وعمّتها. لعل الساعة جاوزت العاشرة، وإلا فإن أمها لا تتحدث عن الطعام إلا إذا شعرت بالجوع. كلمت أمها:

- يوم إذا جعتِ أكو شوية جبن وخبز بالمطبخ، انزل أجيبه؟

أجابتها أمها أم حسن:

- لا عيني نوريّة. أقوم أفتّش يمكن بقى شي من الكعك. كرومي الله ينطيه جاب لي أوقيّة قبل يومين. خوش كعك، كعك السيد.

تكلّمت عمة مدحت:

- آني قلبي ساح والله مثلك. قومي عيني أم حسن أجي ويّاك.

قامتا ثم سارتا ببطء تتمايلان، تمسك إحداهما بالأخرى. خرجتا

وتركتا الباب مفتوحاً خلفهما. وصلتها نسمةٌ خفيفةٌ من نسمات ليل ربيعي منعشٍ. كان السكون مطبقاً على البيت الكبير، وكانت تحسّ بالتعب يخدّر جسمها. رأت ابنتها مغمضةِ العينين فكلّمتها برفق:

- مديحة، بنتي. قومي نامي إذا نعست.

فاعتدلت مديحة جالسة على الفراش ومسحت عينيها ثم غطت الصغيرتين النائمتين باللحاف جيداً. سألتها:

- أخذتك الغفة؟ نامي عيني. آني هم رايحة أنام. عبالي أكو شي بالتلفزيون.

أجابتها ابنتها:

- هو هذا تلفزيون لو صخام ولطام. لو أناشيد وخطب، لو ماكو شي.

وأدخلت نفسها تحت اللحاف ثم سحبته حتى رقبتها. لم تدر أتستفسر منها الآن عما في ذهنها تجاه زوجها أم تترك ذلك لوقت آخر. أخبرتها بأنها لم تقل لأبيها بأنهم رأوا حسين، فلم تجب مديحة إلا بهمهمة غامضة. كانت تريد، عبثاً، أن تستشف من ابنتها شيئاً ما عن خططها للمستقبل. لافائدة. أحكمت تغطيتها والصغيرتين باللحاف وهي تهمس:

- مديحة بنتي، سمعي. أنت ما تسوّين شي إذا ما تخبريني به، دا تفهمين؟ ما أريد الماء يمشي من تحت رجلي مرّة أخرى، بنتي.

صمتت لحظات:

- نامت.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

قامت وأطفأت الضوء ثم خرجت مغلقة الباب خلفها. لم تجد مدحت

في الطارمة. كانت في الجو برودة خفيفة والسماء صافية. لابدّ أنه استوفى حقه من المشي وعاد إلى غرفته. طرقت أذنها أصوات أمها وعمة مدحت ترتفع بشكل غير اعتيادي من غرفتهم القريبة. ترددت قليلاً. لم يعجبها أن تتدخل بينهما. لكنها لاتحسّ بنفسها مرتاحة رغم تعبها. كانتا متربعتين، كل واحدة على فراشها، تقضمان الكعك بعد بله من كأس ماء على الأرض قربهما. وكانتا، تحت النور الأحمر، تتكلمان في الوقت نفسه وبحمية غير مألوفة. رأتها أمها حالما دخلت فوجهت الكلام إليها:

- هاي نوريّة. تعالي الله يخليك، شوفي حكايتنا هاذي.

هدأت العمّة وشاغلت نفسها بالأكل. عادت أمها إلى الحديث:

- شوفي يمة نورية. مليحة زوجة هذا الشيخ في بعقوبة..

قاطعتها العمة:

- يا شيخ أم حسن الله ينطيك. بائع خضروات على باب الله.

- ما علينا. شيخ لو بايع خضروات. فلوسه هواية والله مفضّل عليه.

- أي. الله مفضل عليه، لاكت هو مو شيخ عرب.

توجّهت الأم بحديثها إلى أم مدحت:

- حكايتنا على مليحة، أم عدنان. كم ولد عندها وكم بنيّة؟

أجابت العمة بسرعة:

- ثلاثة أولاد وثلاث بنات.

أيّدتها أم مدحت:

- أي تمام. أحسبي معي. عدنان وهو الكبير وصكبان وسلمان.

والبنات سليمة وفهيمة وبدعة. سليمة وفهيمة توأم.

هتفت أمّ حسن بشك:

- ومنيرة، يمّه؟ هاي المعلمة الحلوة؟ مو بنت حليمة؟

ضحكت أم مدحت وأرادت أن تجيب، لكن العمّة سبقتها:

- عيني أمّ حسن مخرّفة. أكو واحدة ما تعرف حفيدتها؟ منيرة مو بنت أم مصطفى، أخت أم مدحت؟

- أي صحيح يا يوم. شلون تخربطين بمثل هالحكاية؟ منيرة ومليحة خوات، بنات أختي نجيّة أمّ مصطفى، ليش نسيتِ؟

أجابت الأم:

- منو نسي، يمّة نوريّة؟ أكو واحد ينسى ذريّته؟ لاكت هم بعيدين الله يسلمهم وصار لي كم شهر ما شايفة وحدة منهم. آني أريد أروح ليعقوبة بس شوية تدفى الدنيا.

قالت العمة:

- اقعدي بمكانك أحسن. ذاهبة وراجعة! هم هسّه يأتون في العطلة.

- منو؟

-شنو منو؟ منيرة وأمّها غير؟ قابل تريدين أمّ عدنان وأطفالها؟

- لا عيني. هاي أم عدنان منو يريدها. صار لها كم سنة ما أحد شايفها. ملتهية تحبل وتلد.

سارت أم مدحت ببطء وجلست على حافة فراش والدتها أم حسن، ثم مدت ساقيها أمامها على الزوليّة. لم تكن مرتاحة في جلستها وكانت تحس بعظام جسمها في غير مكانها. أعاد إلى ذهنها حديث العجوزين عن أختها وبنتيها شيئاً لم تعد تتذكره بوضوح الآن. كانتا

مشغولتين بأكل الكعك المبلل بالماء وكانت تحاول أن تسترجع الأمر الذي أفلت من ذاكرتها قبل قليل، حين سمعت أمها تكلمها:

- الباب تندقّ نوريّة.

توقف فم العمة حالاً عن الحركة، وبدا عليها الاهتمام لحظات، ثم قالت العمة:

- لا، ماكو شي. منو يدقّ الباب بهالليل؟

كررت الأم بهمس متردّد:

- والله يمة آني أسمع الباب تندق كل وكت. أشو مرة يبين أكو طارش ومرة...

أكملت العمة:

- تطلعين يا خنش.

- أي يمة، أطلع يا خنش... غلطانة.

سمعن وقع خطوات يقترب من باب الغرفة. أطلّ مدحت برأسه وكلّم أمه:

- الباب صار لها خمس دقائق تندق. شنو كريم ما عنده مفتاح؟

جفلت وقامت من مكانها بعجلة. سمعت أمها تتكلّم:

- ها عيني؟ كلّ من يحكي تضربوه على فمه!

قالت لابنها مدحت:

- شلون ما عنده مفتاح! كلّ ليلة يرجع وما نحسّ به، ليش الليلة يدق الباب؟ أنت شلون تعرف هو كريم ديدقّ الباب عيني مدحت؟

فأجابها وهو ينصرف:

- ما أدري. ظنّيت. آني راح أنزل أشوف منو بالباب.

تبعته مسرعة. كان يسير بخطوات ليِّنة مخترقاً الطارمة الضيِّقة ومتجهاً نحو السلم. تملكها قلق مفاجئ وهي تجهد نفسها كي تلحق به. لم يكن أمراً مألوفاً أن تُطرق الأبواب في مثل هذه الساعة من الليل! وكان بودِّها أن تخبر زوجها. فكرت بذلك وهي تنزل درجات السلم بحذر. عادت الطرقات متواليةً حينما كانا يتوسطان باحة الدار شبه المظلمة. كان قلبها يخفق بشدة وخطر لها عدة مرات أن لحسين علاقةً بالأمر. لعله جاء يتفاهم معهم على طريقته الخاصة بعد أن عبَّ قنينة عرق! أشعل مدحت المصباح الكهربائي فوق الباب الكبير، فرأت وجهه النحيل متصلباً متوتر الملامح. رنَّ المجاز الضيق بصدى الطَّرق الشديد العالي وهما على بعد أمتار من الباب. هتف مدحت:

- منو؟

فأجابه صوت عبد الكريم حالاً:

- آني. آني كريم.

ارتاحت نفسها لسماع صوت ابنها الثاني واستطاعت أن تتكلم:

- هاي شلون نكتة يا كرومي. تخوِّفنا بالليل هذا!

كان مدحت يعمل في يده في القفل دون كلام. بدت لها كتفاه ضيقتين على الضوء الخافت، فشعرت بحنان عظيم يتمازج في صدرها نحوه. كم يحبّهم بسكون!

لم تلحظ شيئاً غير اعتيادي في هيئة ابنها عبد الكريم وهو يواجههما ثم يعتذر لفقدان المفتاح ويمضي أمامهما نحو الداخل. بدا صوته أكثر خشونةً، متقطعاً بعض الشيء؛ وكان مسرعاً لغير سببٍ واضح.

تبعتـه وتأخر مدحت لقفل الباب. وجّهت له الحديث طالبةً منه أن يتمهل قليلاً في سيره، لكنها لم ترَ منه أنه سمعها. وقفت منتظرةً في باحة الدار الخافتة الضوء قرب أشجار الحديقة الصغيرة، وكانت تنصت إلى خطوات عبد الكريم وهو يرتقي السلم. تعـثـر مرةً أو مـرتين، ربما ثلاث. لم تقل ذلك لمدحت حين جاء يسير صامتاً قربها. اخترقا الحوش ثم صعدا درجات السلّم المظلم. سارت أمام ابنها وهي تجهد ساقيها كي تسبقه. كانت عازمةً على أمرٍ ما، عرفه مدحت وقال لها متجهاً إلى غرفته:

- روحي، يوم، شوفي شبيه. يمكن يرتاح أكثر ويّاك.

فهزت رأسها واندفعت نحو غرفة عبد الكريم المجاورة. كان ضوء الغرفة ساطعاً، تزيده الحيطان البيضاء سطوعاً، وكان عبد الكريم جالساً على سرير نومه دون سترة وهو ينظر بذهول واستغراب إلى بنطلونه ويديه. رفع عينيه إليها أول دخولها. أنبأتها نظراته بما يضطرم في داخله من قلقٍ واضطرابٍ. كان خائفاً، مرتبكاً، مستنجداً. سحبت بصرها بقعة كبيرة داكنة على القسم الأعلى من بنطلونه وأطراف ثوبه الأبيض. أرعبتها نظراته وما انطبع على وجهه. أسرعت إليه فركعت قربه على الأرض:

- شبيك ابني كرومي؟ شبيك عيني؟

كانت ذراعاه ترتعشان، ترتعشان؛ هتف:

- دم! هذا دمّ فؤاد. دم فؤاد هذا يوم.

ثم صرخ صرخةَ مجنونٍ:

- دم فؤاد. فؤاد.

احتضنت ساقيه المرتجفتين دون أن تدري لماذا. ثم أخذت تنادي مدحت بأعلى صوتها.

-٢-

كانوا في الإيوان، يتحدّثون ويشربون الشاي ويتحدّثون؛ وكنتُ، على سرير مرضي، استمع إليهم، خمّنت أنهم سيأتون لرؤيتي هنا. كنت أفضّل أن ألبث مستمعاً إليهم دون أن أشاهدهم، ولكن رؤيتها - كما أعلم - كانت تسرني. ولهذا بقيت منتظراً أن ينتهوا من أحاديثهم كي يأتوا إليّ.

كانت الشمس تلقي بآخر أشعتها الحمراء على حائط الجيران العالي، تحت سماء زرقاء. في أوائل حزيران، تعوّدنا أن نصعد لننام على السطح. تعوّدنا أن نكون قد صعدنا منذ زمن؛ منذ أواخر مايس. إلا أننا هذه السنة بقينا في غرفنا، نكتفي بفتح النوافذ ليلاً. أعتقد أنني لم أرها منذ عدة أشهر، خمسة أو ستة. منذ تعيُّنت مدرسةً خارج بغداد، صارت أيام غيبتها تطول. وكنت أتمنى ألا أكون مريضاً هكذا، ينتابني الدوار إثر أي حديثٍ طويلٍ ممل أو بعد قراءة صفحات قليلة. كان مرضي هو سبب عدم اشتراكي في امتحان الدور الأول. لابد أنها عرفت كل هذه الأمور عني. لاشيء يمكن أن يخفى طويلاً في هذا العالم. ثم أنّ

المرض ليس من المستطاع تجنبه دائماً، لاسيما أني لم ألقَ عنايةً كافيةً. إذ أن الحب لايعطي كلَّ شيء، وأمي - لذلك - لم تقدر على شفائي بحبها فقط. وهكذا لا أزال طريح الفراش لغير سببٍ ظاهرٍ. أقبلوا نحو غرفتي. إن المرض إذا أُخذ كحادثة طبيعية جسدية، فإنه لايستعصي على الفهم والعلاج. دخلوا عليَّ مسلِّمين. هي وأمها ومدحت وأمي ومديحة. أما إذا كان نتيجة لحاجة نفسية أو صدى لفكرة استحواذية، فإن النجاح في علاجه سيكون أمراً مشكوكاً فيه جداً. كانت في ثيابٍ سوداء تزيد من كثافة الكحل المحيط بعينيها الصفراوين. جلسوا حول سريري وسألوني عدّة أسئلةٍ لا أهمية لها. كانت لاتزال تضع العباءة على كتفيها، وعلى وجهها الجميل كآبة ذكائها. كيف حصل أني فارقتها طوال هذه الفترة! ثم رأيت القلق في عينيها. كانت خصلات شعرها الأشقر مطوية على جبهتها دون عناية وكانت تعبث بشفتها السفلى كلما توقفت عن الكلام، وكانت عيناها قلقتين. ذلك القلق، أين رأيته مرّةً، أين واجهته، متى انتصب، فيما مضى، أمامي؟

كنت أنظر إليها، ذائباً في علاقتي بشعاع القلق هذا، بروح القلق المنبعث منها. كانت منصهرةً: مثلي ومثله يومذاك، بقوة لا انفكاك منها. وكنت أحس بهيئة فؤاد وملامحه الغامضة تحيطها وتحيطني وتربطنا إلى ذكراه القريبة.

كانت عيناه، ذلك المساء الخريفيّ، مثل عينيها، تتألقان كآخر شعلةٍ من الجمر؛ وكان يرتجف رغم الدفء ويغمرني بقلقه الفائض، المنبثق من كلِّ حركة صغيرةٍ من حركات أنامله وشفتيه والتفاتاته السريعة. لم يبح لي بشيء عن باطن نفسه وما كان يحسّه في تلك الأمسية من الخريف

الماضي. كنت أتطلّع إليه، محاطاً بالغروب وبسماء لا لون لها في سطح مقهى (بلقيس) على شاطئ النهر. وكنت أراها هي أيضاً أمامي، في صفرة عينيها الملتمعة سرّ يشابه سرّه. وكانت تحدثني ببعض الاضطراب، وتسألني عن مرضي وامتحاني وكتبي وعمّا بي حقاً؛ ولم أسمعها جيداً وهي تتكلم، فشعرت بحرارة تندي جبيني. ابتسمت لها فأجابتني بشبح ابتسامة تغفر لي سهومي. لم أكن الشخص الذي تتوهمه؛ إنها تجهل الكثير عني خلال هذه الأشهر الماضية. لقد كنت مريضاً، ولم يكن ذلك خفياً على أحد؛ أحيا مرضي بوعي ولا أجد بديلاً عنه؛ وهو الذي يقرّبنا لبعضنا. إنه المرض الذي يجمعنا، مرضي ومرضها. قاموا فجأة خارجين؛ قطعوا سويعات وجودها المضيء في غرفتي، بسبب والدتي. لاحظتْ، كما يبدو، حالة الضعف والانهيار التي أصابتني.

خرجوا وتأخَّرت منيرة لحظات خلفهم. وقفت قرب الباب مستديرة نحوي. كانت شاحبة السمرة، لايتضح لي من خطوط وجهها غير تلك العينين الصفراوين. تمنَّت بجدّ أن ينتهي كل شيء بخير. كانت عباءتها تكشف عن مرتفع ثديها الأيسر، ومن موجات صوتها الآسي فهمت أنها كانت تتمنى الخير لنفسها أيضاً.

فرغت الغرفة بعدهم بشكل غريب، ولبثت مضطجعاً على فراشي أتساءل مرة أخرى وليست الأخيرة: لِمَ أنا مريض إلى هذا الحدّ؟ ثم، وأنا بين طيّات الظلام الرمادي الذي تركوه لي، كنت أهفو إلى الخروج خلفهم وإلى أن أصير منهم. كانت صورتها تحبِّذ لي أن أكون صحيحاً محبّاً للشمس. وكنت - رغم ذلك - عاجزاً عن القيام للضغط على زر الضوء الكهربائي!

رأيت من نافذتي الطويلة قطعة من السماء بيضاء ناعمة، في زرقةٍ خفيفةٍ؛ وحيطان الجيران السوداء تحتها كئيبة راكدة، لا معنى لها. قمت من فراشي ببطء وسرت ثم وقفت في إطار الباب. لم أكن بالغ الضعف كما تصوّرت. لابدّ لي إذن أن أقبل المرض على حقيقته؛ لا مبالغة ولا تجاهل صبيانيّ. انفتحت السماء فوقي فاستراح لها نظري. لم يكونوا في الإيوان وسمعت أصواتهم تأتي من غرفة عمتي، وهم يتكلمون بحيوية لم تكن لديهم عندما كانوا معي. إنهم يشعرون بمرضي أكثر مما أشعر به أنا، وهم يعيشونه أحياناً - أمي على الأخص - بعمقٍ. ولكن هذه المشاركة لم تهزّني يوماً، مع أنها يجب أن تفعل.

خرجت سها من غرفة عمتي ركضاً فلمحتني في وقفتي تلك فبدا عليها الذهول قليلاً ثم استنار وجهها وهي تخبرني بحماسة عن قرار الجماعة بالصعود إلى السطح للنوم منذ هذا المساء. كانت عصفوراً مغرّداً. توقعت، منذ مجيء منيرة ووالدتها، أن تنتقل العائلة إلى الأعلى؛ إذ لم يكن من السّهل إيجاد مكان ملائم لاثنين بسرعة.

سررت بفكرة الصّعود إلى السّطح كأنّني سأشارك فيها، إلاّ أنّ دواراً خفيفاً تملّكني آنذاك فأرجعني إلى السّرير وجعلني أعيد التّفكير في المسألة.

... كان ضابط البوليس يتقدّم خطوتين أو ثلاثاً ثمّ يقف غير بعيد عن الكرسيّ الذي قيدّت إليه؛ يقف كالطاووس بعينين ملتهبتين ويتّخذ شكل أحد ضبّاط الجستابو مرة وهيئة رجل من رجال محاكم التفتيش الإسبان مرة أخرى؛ ثم يبدأ بالكلام معي محدّقاً بعينيّ:

- يجب أن تعلم أن واجبي يحتم عليّ أن أقبض عليك بتهمة القتل

والإهمال والخيانة.

ثم يؤدي التحية الهتلريّة التي كانت تخيفني أكثر من كلماته. كانت أطرافي متثلّجة متصلبة والعرق يتصبب من جسمي؛ ولم أكن مقيداً ولكني أحسست أنني كذلك. وجاءني مرةً أخرى:

- يجدر بك أن تفهم أن واجبي كموظف شريف وكمواطن، يفرض عليّ أن ألقي القبض على كلّ متّهمٍ بالقتل والإهمال والخيانة. ماذا تظنّنا نفعل في هذا العالم؟

تحيّة غريبة. عودة ثالثة:

- لاتدع لذهنك أن يختلق مسألة أخرى غير توقيفك بتهمة القتل... والإهمال... والخيانة.

كان يعلق صورة مدورة صغيرة في صدره؛ ولقد ألحّ في الإشارة إليها بعد أن انتهى من كلامه، ولم يؤدّ التحية هذه المرة. وكانت الصورة تقترب بسرعة من عيني في لقطة سينمائية مقرّبة. عند ذاك بدأت أصرخ؛ عند ذاك فقط بدأت أصرخ وأصرخ. كانت الصورة تخطيطاً مشوّشاً مثل آثار النمل على التراب، ولكنها تبرز بشكل عميقٍ واضحٍ: وجه فؤاد في لحظاته الأخيرة...

كان بودي أن أصرخ وأن أبكي نافثاً حرقتي مع أنوار الفجر الأولى. جلست في فراشي أنظر إلى الفضاء بين النافذة وبيني. كنت أسبح بعرقٍ باردٍ لزجٍ وأنفاسي سريعة مضطربة يضيق بها صدري. أمسكت بقطعة القماش التي وضعتها أمي قريباً مني ومسحت عرقي، ثم قمت مرتجف الأوصال أحاول الخروج من الغرفة. أنعشني بعض الشيء هواء الفجر البارد، فأخذت أسير ببطء قاصداً الثلاجة في الإيوان. شربت قليلاً من

الماء المثلج ثم غسلت وجهي ببقايا الكأس. كانت الدنيا ساكنةً، ساكنة كالقبر المفتوح. لم يكن هنالك وجود للبشر معي. أمسكت بالمحجر واتكأت عليه. لماذا تحدث لي مثل هذه الأمور المريعة؟ كنت أريد أن أمرض كما يمرض الناس، وأن أشفى كما يشفون. ولكن الفكرة هي التي تفترسني لا المرض. الفكرة المجهولة الواحدة؛ الوحش الذي يركب كتفي. عدت إلى غرفتي. كنت مستنفداً، خاوياً؛ فتمددت على الفراش. رأيت السماء من خلال الباب المفتوح، تترقرق مثل مياه الغدير. لن تشرق الشمس قبل ساعةٍ أو أكثر. إني وحيدٌ هكذا منذ مدة لا أتذكّر بدايتها. فإن لم يكن للزمن معنى في هذه الشؤون، أفلست محكوماً إذن بأن انتهي كما أنا الآن؟ ولن أكون مذنباً، ولكني لن أكون بريئاً أيضاً. إن ما مرّ بي لن يعرفه سواي. ولعلي الوحيد الذي يمكنه أن يبحث. فإذا كنت أخشى الألم والحزن والحسرة وتأنيب الضمير، وهي الأشباح التي لا تفارقني في منامي على الأقل، فإني سأمهد بشكل أكيد لحكمٍ أشدّ قسوةً لن يتأخر صدوره عليّ.

اشتدّ النور على صفحة السماء. ليت أعماق النفس تُضاء هكذا! إنها ليست مثله، منيرة. لا علاقة في الشكل بينهما؛ ولكن الروح، ولكن الهالة التي تحيط بهما. كان يسير بمحاذاة الرصيف، قامته النحيلة منتصبة مع انحناءة بسيطة في الظهر، وخطواته متمايلة قليلاً والضوء الأصفر يحدّده من كلّ الجهات. انصرفنا تلك الليلة مبكّرين على غير عادتنا. كان البيت الكبير فارغاً، وقد اعتقدت لفترةٍ من الزمن بعد أن رأيتها تخرج من الغرفة وتشير إليّ إشارةً خاصةً فهمت منها أنّ الأمور سارت بشكل طبيعي أخيراً، اعتقدت أنه سيجد راحةً أو شيئاً ما

يشبهها. رأيت وجهه أول ما أطلّ من الباب. كان الشحوب الشديد فيه يختلط بصفرة وسمرة شديدتين؛ والعينان المحترقتان فارغتين منطفئتين. جرني معه بعجلة. لم يرد أن يراها؛ وأحسست بأصابعه باردةً لزجةً لاقوة فيها. سبقني في الخروج وخطا عدة خطوات على الطريق ثم توقف واتكأ على سياج الدار المجاورة. اقتربت منه قلقاً مأخوذاً. ظننت أنه مريض أو يشعر بالغثيان ويريد أن يتقيأ. لم يكن باستطاعته ذلك. كان يرتجف؛ كلّ جسمه، حتى أرنبة أنفه. أمسكت به دون كلام. أحطته بذراعي، وكان ساكناً مثل عصفور يموت. أحطته بذراعي شاعراً بألم يحرق قلبي، ولم أنطق بحرف رغم أني لم أفهم كل شيء. كان ذلك وقت الصمت، حينما لا تعود للكلمات حاجة. ومرّت اللحظات، مثل سنوات العذاب الطويلة. كنّا شيخين قضى عليهما مصيرهما. رأيته يغمض عينيه ثمّ يطلق آهةً كنشجة الباكي وينسل مبتعداً عني سائراً بمحاذاة الرصيف. وهكذا، سائراً بمحاذاة الرصيف، سأبقيه في حياتي. لم يكن ميتاً آنذاك، كان مثل الزهرة النضرة المغطاة بندى الفجر. ولن يجدي أحداً أن يتلاشى من الوجود. لذلك سأبقى على حق مادمت مانعاً الفناء عنه، عن تلك الومضة الرائعة؛ إنه أملي في أن أعيش وأن استمر على العيش.

كنت أقرب إلى الهدوء وأنا مطروح على فراشي أتسمّع إلى زقزقة العصافير الأولى على شجرة الزيتون العقيمة. شعرت أن حلّي - إن كان هنالك حل - لمشكلة حياتي، هذا الحلّ الأعرج، لن يقاوم السقوط طويلاً. أن ألبث منتزعاً نفسي من كل شيء، أحاول أن أتجمّد خلال الزمان على سرير المرض! وكل ذلك، قبيل شروق الشمس وغروبها!

قطعت خطوات أول النازلين من السطح عليّ لحظات التأمل هذه.

كان وقعاً خفيفاً لأقدامٍ خُيِّل إليّ أنها أقدام والدتي. إنها تسير بلين هكذا، كأنها تخشى أن تجرح إحساس الأرض تحتها! أهي ينبوعٌ دائمٌ للحب؟ ولعلّ القلق عليّ هو الذي أيقظها في هذه الساعة المبكرة من الصباح. كان باب السلم أمام غرفتي، وكنت أتوقّع أن تبادر إلى رؤيتي حالما تجتاز الطارمة الفاصلة بيننا. لم يبقَ على شروق الشمس غير دقائق قليلة؛ وكانت السماء البلورية تضيء الحوش والطارمة والحائط القديم بفيض نورها الناعم. رأيتها لحظةَ نزولها، لحظةَ بزوغها من باب السلم، وهي تخطو بخفة الطائر خطوات بطيئة، ثم تقف مستندةً إلى المحجر قربها. كانت نحيلةً في ثوبها الأزرق الطويل؛ وقد برزت عظمتا كتفيها وبدا قسم من رقبتها وصدرها أبيض ناصع البياض. اتكأت على المحجر بكلتا يديها وخفضت نظرها نحو الأسفل؛ وحينذاك بدأت في نفسي لحظات سحرية لا حدّ لجمالها. كنت مذهولاً، مبهوراً برؤيتها على هذا الشكل وفي هذا الوقت نفسه. لم تكن هي منيرة، ابنة خالتي التي أعرفها. كانت دفقة نور في حياتي الضائعة. إنها حزني وماضيّ المفجع؛ وهي حبي ولهفتي وتعاستي ومرضي. كانت ساكنة في وقفتها، تبدو كأنها كائن علوي مقبل من عالم أثيري. رفعت يدها وأزاحت عن جبينها خصلة من الشعر الطويل. ثم أخذت تدير نظرها بتمهّلٍ في أنحاء الدار. مرّت على غرفتي مروراً عابراً. تملكني هلع من فكرة رؤيتها لي. قد يدنّسها وجودي أو حتى رؤيتي. يدنّس حالها، وضعها البعيد عن وضع البشر. إنها تتعبد؛ تتأمل في نفسها وفي أمر إلهي لا علاقة لي به من قريبٍ أو بعيدٍ. كنت ضئيلاً وأنا أتطلع إليها تنتهي من تلك الصلاة الفجرية، ثم تمضي ببطء سائرة كالطيف نحو غرفة عمتي. شعرت بتعب

بعد اختفائها، ولم يخطر لي أن أخرج لرؤيتها. مرّت على وجهي الحار نسمة باردة خفيفة، فأغمضت عينيّ. لعلي كنت محموماً أو موشكاً على انتكاسة مرضية، لكن قلبي كان يموج بعواطف غريبة، ضاقت بها نفسي. إني أعاود عيش تجربة مؤلمة سابقة؛ حياة فاجعة مضت. لم أفقد فؤاد، ولم يغب عن عالمي. كذلك، لم أخنه، لم أخنه لحظةً. مطلقاً. إنه يحيا، بشكل ما، في هذه المخلوقة ذات الأبعاد المبهمة التي لم آلفها. إنه يجذبني إليه من ليلي. أنا أحسُّ به يجذبني؛ إنه يجذبني.

كانت عيناه تلتهبان ذلك المساء الخريفيّ وهو جالس أمامي إلى الطاولة المتربة القذرة في سطح كازينو «بلقيس». صعدنا إلى الأعلى كي نتحاشى الجالسين البلداء. رأيته يرتجف انفعالاً على غير العادة، فراعني ذلك منه. لم يكن حاد العواطف هكذا؛ ألفت منه التأنّي والاقتناع بنتائج التفكير الطويل. إلا أن قلبه خُطف منه، كما حدثني، دون أن يريد أو يعلم. كانت ابنة جيران سكنوا داراً متواضعة قرب بيتهم الكبير شهرين أو ثلاثة، ثم مضوا. كانوا من أولئك الناس الذين تلاحقهم، طوال الحياة، أخطاؤهم. وكانت أمها بغير زوج. قيل عن الأب إنه كان ضابطاً انكليزيا أحبَّ الأم، الاعرابية الجميلة، فتزوجها وأنجبت له ثم سافر مع فرقته ولم تتسلم منه إلا بضع رسائل، انقطع بعدها كلُّ شيء. لم يكن أخوها قادراً على توجيه هذه العائلة نحو أي شاطئ آمن، فوقع على كاهل الأم أن تدبر أحوالهم. كان آنذاك في السابعة عشرة، ولم تجاوز هي الخامسة عشرة. حب أطفال، ولكنه لم يمت. حدثني عنها بعد تردد. كان الأمر شاقاً عليه، مخجلاً بشكل من الأشكال. لم يكلمها مرةً، ولم يرد ذلك، إلا أنه بقي يتعقب أثرهم خلال السنوات الأربع التي

تلت هجرتهم من الجوار. كانت كل شيء بالنسبة إليه؛ رمز العالم والحياة التي يحلم بها؛ ولم تكن تعلم شيئاً عنه، ولا أراد هو منها أن تعرف شيئاً عنه. لقد طهرته تلقائياً بوجودها في نفسه وأشعلت فيه شعلةً لا تموت. وكان بوده أن يرفض المقولات التي ورثها عن آبائه وأجداده والتي ترسم خطوطاً لبدايات الحياة ونهاياتها؛ كان بوده أن يقف على قمة توهجه بحبها، وألا ينتهي معها أي شيء؛ أن يدوم كل شيء دوام الحياة. وكان يتعذب باستمرار، لأن أموره لا تبدو طبيعيةً ولا مقبولةً. أراد أن يكتب لها وأراد أن يكلمها وأراد أن يتزوجها! ثم أراد بعد ذلك أن ينساها وأن يتركها وشأنها؛ وكان ذلك أمراً منطقياً ومناسباً لأفكاره. ما فائدة تعقبها هكذا ومراقبة الدّور التي ينتقلون إليها دورياً ورصد تحركاتها ودخولها وخروجها! إن مصيرها لايتجه وجهته؛ ولم يكن أمام تلك المخلوقة العزيزة غير الحياة الآسية ذات الأعماق المظلمة، وكانت تنتظرها مثلما كان يفعل هو.

كان يخفي عينيه، تلك الأمسية، براحتيه، صامتاً. رأيت السماء الحمراء تملؤها غيوم داكنة تسير بسرعة نحو الجنوب. لم أقطع صمته. كنت عاجزاً عن استيعاب أي شيء. حدثني مرة أنه أضاع أثرها منذ أكثر من سنة وأنه قلق عليها دون أن يدري لماذا. لم تكن أمامها غير المأساة؛ وكان مثل محكوم بالإعدام لايعلم متى يصدق الحكم عليه وينفذ. قال فجأة دون أن يرفع يديه عن وجهه، إنه رآها مصادفةً في أحد البيوت المشبوهة.

أمسكتُ بيديه وأنزلتهما. كنت بحاجة أن أرى عينيه كي أصدق أقواله. كانتا حمراوين مبللتين. ابتعد بنظره عني وضغط على أصابعي.

شعرتُ، وفؤاد قربي والسماء مغطاة بالغيوم والهواء البارد الخريفي يحمل رائحة النهر، بجو غامض مأساوي يحيطنا. لم تكن في صوته نبراتٌ حادة ولا رنّةُ بكاءٍ، وهو يسرد عليّ كيف رآها وكيف جلس منهوك القوى ساعةً يتأملها بذهولٍ. ولم تلتفت إليه أو تعيره اهتماماً خاصّاً. ألم يختر بشكلٍ من الأشكال، ألا يدخل حياتها؟ ثم ما لبث أن رأى أنه يجب أن ينصرف. كان الجلوس أمامها هكذا جحيماً حقيقياً لايحتمل. ولم يجد الجرأة للعودة إليها بمفرده؛ وكانت ليالي القلق والتمزّق تزداد طولاً عليه. وأدركت من نظراته إليّ ومن خطوط الأرق السوداء المحيطة بالعينين المتعبتين رغم توهجهما ومن صمته ومن يديه المرميتين باستسلام على الطاولة، أنه يناديني ويستغيث بي كي أعيش أيام حياته الشاقة هذه. ولم أحسب، لم أحسب قط، أن هنالك، في نهاية الليل، شيئاً يسمى الموت. ولذلك ربتُّ، بقلب خفيف حقاً، على يده الحارة سائلاً عن موعد ذهابنا إلى ذلك البيت.

كنت أعتقد، حين دخلنا الهول في الدار الكبيرة وجلسنا منتظرين قدومها، أنه قد انتهى إلى نتيجة مع عواطفه ووضع كل ما يتعلق بأوهامه الماضية وتخيلاته الخاصة عن الحب وغيره، وضع كل شيء في مكانه الذي يجب أن يكون فيه. كانت نحيلةً، شديدةَ النحول، في حركاتها ثقل ولايجذب في وجهها غير عينيها ذاتي الأهداب السوداء. جلستْ قريباً منا. كنت أحدّق إليها محاولاً معرفة السرّ في نوع النقاء الغامض الذي يحيطها ويغلّف ملامحها وإيماءاتها، حينما جذبت سمعي أنفاسه المتسارعة. رأيت في وجهه الشاحب المتوجّه نحوها عمقَ التمزّقات التي تعمل في نفسه؛ وكانت أصابع يديه متشابكةً فيما

بهنها. لم تتطلّع لأحدٍ وهي تعدل من حال شعرها الأسود القصير، وكانت شرايين رقبته المستديرة تنبض بقوةٍ مع أنفاسه المتلاحقة. لم يكن هنالك أي أملٍ في سعادة بشرية لمثل هذين المخلوقين. إن الأفق مسدودٌ تماماً. ولعل هذا الطهر الذي بدا لي أنه يحيطها، إنما هو من تأثير كلامه عليّ وعواطفي المخلصة نحوه. إلا أني لا أعيش منهما غير حواشي مأساتهما، وكنت أستطيع القول إنها فتاة تافهة المحتوى والمصير. لم يكن ذلك ليضيرني؛ ولهذا كنت أتساءل بهدوء عن الحل. ولكن تلك الليلة كانت قصيرة، إذ لم يتركنا أحد الحمقى نستشعر وضعنا هذا كما نريد، فأشار إليها؛ ولم يكن أمامه، وأمامي، غير الهرب. وهكذا بدأت الحلقة المفرغة. أيام من الأحاديث والتعبير عن الهواجس والقلق ثمّ زيارة ليلية يقطعها فرار غير مسوّغ. لم يصبني التعب ولا الضجر، ولكني صرت أعاني عجزه وخجله ورعبه أحياناً. ثم بدأ الشعور المميت باللاجدوى والخزي يزحف إليّ. وكانت هي تلك الليلة، حينما أردتُ.. حينما خطر لي خاطر فقط، ولم أرد أن أفعل ذلك حقيقةً؛ كانت تلك الليلة تلبس ثوباً أخضر خفيفاً وتشوب الخفة حركاتها ونظراتها. ظننت لحظة أنها تستخفّ بنا، وكنت أهم بأن أقول لها شيئاً ما، لعله كان عتاباً أو زجراً أو دعوةً.. لكني لم أقل شيئاً على كل حال. رأيته يمسك بيدها برفق ويمضي بها. ولن أنسى نظرته الخاطفة إليّ وهو يختفي وراء الباب معها. أيمكن أن يدرك كنه شيء لم يقع؟

وكنت أودُّ أن أسأله بعد ذلك وهو يسير أمامي، تلك الليلة، بعد خروجنا، عما أراد أن يقوله لي. وشعرت وأنا أراقب شبحه يبتعد عني أن عقدة ذنب تلتفّ حول قلبي. تعثّر مرةً فناديت عليه. كان يسير

بمحاذاة الرصيف، قامته منتصبة نحيلة، يحدّها الضوء الأصفر وخطواته متمايلة. ناديت عليه مرة أخرى، فرأيته يرفع ذراعه اليمنى إلى أعلى ليدلّني أنه سمع ندائي، ثم أنزلها إلى وجهه. هل كان يبكي؟ أسرعت نحوه.. ولكني لم أصله. مرقت السيارة بجانبي أولاً؛ وفي خلال لحظات انفجر العالم علينا بكلّ شروره. سقط تحت العجلات فجأة. لم تزلّ به قدمه، ولكنه لم يرد أن يموت. لِمَ يجب أن يموت؟ بأي شيء إذن يمكن تسويغ هذا الحادث أو تفسيره؟ زلّت به قدمه أو تعثر في سيره؛ ماذا يجدي كل هذا مادام الأمر قد انتهى به تحت العجلات الوحشية؟ وسحبتُه من الشارع ووضعت رأسه على ساقي ثم أمسكت بيده أودّعه، منعزلين عن العالم، وداعي الأخير. كانت آلامه شديدةً، ولم يعرفني إلا بعد هنيهات. لمحت في طرف عينه دمعة كبيرة سالت على خدّه، ولم يستطع الكلام. هنالك لحظات في حياة الإنسان، لحظات ليس غير، تطول وتعمق لتتشكل بعدها الحياة بشكل آخر لامحيص عنه. كان العالم الضاج حولنا، بعيداً بعد النجوم؛ وكنت أتتبع أنفاسه المختنقة رويداً رويداً، بقلبي الواجف. لم تكن حياتنا معاً قد اكتملت، ولم أود أن أفقده وأنا وسط أزمتي الخاصة. وهكذا كانت شهقته الخافتة وارتماءة رأسه، إيذاناً ببدء عذابي. سحبوه من بين ذراعي محمّلاً بيأسي وأخذوه إلى حيث لم أره. وبعد ذلك، لم أعلم وأنا جالس على تراب الرصيف فارغ الذراعين، هل بكيتُ من أجل تلك العينين الذاهبتين إلى الأبد، أم جزعاً من أيام الشكّ المريع المقبلة؟

* * *

فوجىء حسين برؤيتي جالساً في زاوية من الباص، وأراد أن يدفع الأجرة لكني سبقته. لم أره منذ سمعت بعودته من الكويت. كانت لحيته النابتة، سوداء لامعة، وشعره مضطرباً ورائحة العرق تفوح من فمه. عدت من الكلية والساعة تقترب من الثانية عشرة ظهراً وأخرني شراء بعض الكعك لجدتي قبل أن أصادفه في الباص. سألني عن صحتي وعن دراستي وعن الأهل، وكان واضحاً أنه يتجنب الاقتراب من الموضوع الذي يشغله. لم يكن موقفنا مريحاً، ولم أرد أن نتكلم عن أشياء حساسة لا أستطيع أن أدلي برأي قاطع فيها. أخبرني أنه يزور مدحت في الدائرة بانتظامٍ، وأنه أراد عدة مرات أن يأتي لرؤيتي وأنا على فراش المرض. كانت رائحته كريهة حقاً رغم أن الحر لم يكن شديداً؛ وكنت لا أريد أن أدخل في أية تفاصيل عن أي شيء. أرهقتني، وأنا في دور النقاهة، زيارتي للكلية، وأزعجني ما رأيت وسمعت فيها. لاحظت عليه شروداً أثناء الحديث يجعله يدير نظره نحو الخارج ويتابع عناوين الشارع المتلاحقة ببطء. بدا لي واعياً بكل تعقيدات علاقاتنا وتصرفاتنا ومواقفنا من بعضنا؛ وكانت أمارات همٌ أكيد وقلق مرسومة بوضوحٍ على وجهه الشاحب. وحينما قمت من مكاني أريد النزول من الباص، بهت قليلاً ثم ردّ على سلامي بكل فخفخة ممكنة.

اشتريت عدة قطع من الكعك لعمتي وجدتي، ثم بدأت مسيرة العودة إلى البيت خلال شارع الكيلاني. كنت أحسّ بظلامٍ في نفسي بعد رؤيتي لحسين. لم يسل عن ابنتيه أو عن مديحة، ولعله كان يعتقد بأنني لست الشخص الصحيح للكلام معه عن مثل هذه الشؤون.

كانت الشمس حارةً والشارع طويلاً فارغاً مما ينسي الإنسان نفسه؛

وكنت متعباً لا يواجهني إلا الانزعاج والقلق. لم أفهم معنى أن يطالبوني في الكلية بتقرير طبي مصدّق، يؤيد مرضي ويسوّغ غيابي عن الدوام، رغم ما أبدوه من لطف نحوي أشعرني ببلادتي وبعزلتي. كنت متعباً، في الروح والجسد؛ أحس بالعرق يتصبب مني أكثر مما يجب. نسيت أن أمرّ على أبي في دائرته كما أوصتني والدتي. لم يوائمني الذهاب إلى الكلية هذا اليوم. لا أزال مقطوع الصلة بعالم الآخرين. ومن شعوري بمثل الصدأ في داخلي وبابتعادي عن كل شيء، تحاشيت اثنين من أصدقائي. أربكني هذا التصرُّف. إن شعوراً - أم لعله فكرة؟ - أو خليطاً من الأفكار والمشاعر تنتابني وأنا بصدد شخص أو موقف، كي تفسّر أو توضح جوانب غير مرئية من الشخصية أو الموقف. هل أتفوق بميزة ما على أمثالي؟ ميزة قراءة ما بين سطور الحياة، ما بين سطور بعض البشر؟ منيرة مثلاً أو أمها خالتي. ولكنهم مقتنعون - مثلي - بأني شخص مريض، ميزتي الوحيدة هي أني لا أملك كل صفات الإنسان الصحيح. عندما تشرب الشاي، بعض الأمسيات في الإيوان قرب غرفتي، تمسك الاستكان بأنامل رقيقة وترفعه ببطء إلى شفتيها. أحياناً، حينما ترتكن عن عالمنا أو تظن ذلك، يتوقف الاستكان قبيل وصوله إلى الشفتين. وأرى عينيها الصفراوين تغيبان وتغيمان، ثم تبدوان طافيتين على أمواه غريبة. بعدها ينحني الرأس إلى جانب وتتحرك خصلات الشعر الملفوف، ثم تعود الأنامل الرقيقة واستكانها إلى الانخفاض دون أن تمسه الشفتان. أهي في مناجاة مع نفسها، أم مع مخلوقات لا توجد، لم توجد؟

كانت باحة الدار خاليةً وأنا أخترقها سائراً ببطء نحو السلم. سمعت

أصوات الجماعة ترتفع مَن غرفة عمتي. استرحت قليلاً على فراشي ولم يخطر لي أن أبدّل ثيابي. كانت هي في ذهني؛ وكنت قد لاحظت في ارتداء البيجامة ابتذالاً لا أستطيع أن أنساه وأنا معها. حملت كيس الكعك وقصدت غرفة عمتي منتظراً أن أسمع مجمل أخبار البيت خلال الصباح. كانت مضطجعةً على سريرها، تضع يدها على جبينها وأمها جالسة على الأرض قربها. اعتدلت وسحبت طرف ثوبها رغم اعتذاري وقولي بأن سأنصرف، ثم ابتسمت في وجهي ابتسامة مضيئة لم تترك لي مجال الاختيار فبقيت واقفاً. هللت عمتي وجدتي للكعك الذي جلبته لهما وتناولتاه بلهفة. كانت أمها ساكنةً فارغة العينين بشكل غير اعتيادي. لم تكن معنا، ولم تكنِ قادرةً على الفرار بعيداً. جلستُ على طرف سريرها. كانت ثيابها بسيطةً غامقةً. هكذا حالها منذ قدومهم. سألتني عن صحتي وعمّا وجدته في الكليّة وهل كان الحر مزعجاً؛ وانتبهت إلى عمتي تتكلم في الوقت نفسه وتلح علي في معرفة سبب تأخري بالعودة. ألقيت عليهن بخبر مقابلتي لحسين لعلني أستريح، فلم يحدث ذلك صدى. كانت شاحبة الوجه، يبدو عليها الضعف. رأيت أمها تمسك بيدها مرتين فتسحبها منها ببعض الحدّة. سألتُ عن أختي مديحة فقيل لي إنها ذهبت إلى المدرسة في عمل خاص وأخذت معها الصغيرتين. كانت عمتي لاتزال تضج بأسئلتها الموجّهة نحوي عن سبب تأخري في الكلية وهل امتحنت أو درست وماذا حصل لي هناك. التزمت منيرة الصمت أثناء ذلك كله، مثل أمها؛ وشعرت لغير سبب ظاهر أن في كلام عمتي ما يمسّها. كلّمتُها بلطفٍ سائلاً عن صحتها وكيف قضت نهارها فسمعت أمها تتنهد. أسرعت جدّتي أم حسن لإجابتي، فأخذت

تتحدث بحكاية عدنان ومجيئه إلى دارنا صباحاً أثناء غيابي. كانت تتكلم وهي تنظر بحذر إلى عمتي، التي قاطعتها بسرعة وطلبت منها أن تهتم بموعد الغداء لأنها تحس بالجوع الشديد. أزعجني الموقف ولم أفهم معنى حكاية جدّتي ومَنْ هو عدنان هذا. قمت وسألت عن أمي، فلما قيل لي إنها في المطبخ تعجلت في الخروج من الجو الثقيل. ابتسمت لها ولمحتها تعود إلى ضجعتها وأنا أغادر الغرفة.

كنت أشعر ببعض الإعياء والقلق خلال نزولي السلم متجهاً إلى المطبخ. وجدت والدتي في زاوية مظلمة من المطبخ، جالسة باستسلام تدخن سيكارتها. لم تهشّ كثيراً لرؤيتي؛ وأعادت عليّ الأسئلة المملة عن الصحة وأسباب التأخر في العودة وماذا حصل لي في الكلية. كانت صفحة وجهها البيضاء متغضنةً كلها. لبثت واقفاً دون كلام لحظات ثم سألتها عمن جاء أثناء غيابي. نظرت إليّ نظرة حادة استغربت لها وسحبت نفساً من سيكارتها ثم نفثت الدخان من فمها وأنفها. أجابت بصوت جامد بأن مليحة أخت منيرة أرسلت ابنها الكبير عدنان ليسأل عن خالته منيرة ويخبرها بأنهم يطلبونها في المدرسة وبأن عليها العودة إلى بعقوبة.

بقيت أنظر إليها دون أن أفهم بشكل محدّد، المعنى الذي أرادت أن تقوله لي. عدنان، بعقوبة، المدرسة؛ بِمَ يمكن أن تعنيني هذه الأشياء، أنا المتعب القلب والنفس؟ وكنت أنتظر منها إيضاحاً أو كلمة ما. لم تقل والدتي شيئاً آخر، لا بفمها ولا بعينيها؛ وأحسست، منتظراً ذلك المجهول منها، أني لن أقوى على الوقوف طويلاً. كانت أطرافي ترتجف قليلاً والحر، في ذلك المكان المخنوق، يدقّ رأسي. لن يهمني بعد الآن أي

شرح أو توضيح. إن العالم، بأسبابه الخفية، يمرضني؛ وأنا أشعر أن ليس بمقدوري معاركته بهذا الشكل الملتوي. قامت والدتي، حينما رأتني أعاود مسح جبهتي، فأمسكت بذراعي وأجلستني على كرسي جلبته من طرف المطبخ. لا أدري ما أصابني آنذاك، لكن رغبةً في التقيؤ كانت تتصارع في أسفل معدتي وتجعل العرق البارد ينبجس من جبيني. دفنت رأسي بين راحتي وأغمضت عينيّ المضبتين. كنت قصبة فارغة يهزّها الغثيان. ألن أُترك إذن، طوال حياتي، بهدوء؟

سمعت خطوات والدتي تبتعد بسرعة. هبت علي نسمة خفيفة. تنفست بعمق عدة مرات فشعرت ببعض الارتياح وأنزلت يدي. كنت وحيداً، في إحدى زوايا المطبخ الحار. قمت إلى حنفية الماء القريبة فغسلت وجهي ثم نشفته بمنديل وعدت أجلس مرةً أخرى. تناهت إليّ نداءات أمي ثم ارتفعت ضجة الباب الداخلية الثقيلة وصوت الصغيرة سناء تهتف باسمي. ناديتها فدخلت المطبخ بتردّد. كانت متورّدة الوجه منتثرة الشعر. أخبرتني أن شخصاً عجوزاً يسأل عني. كان يسأل عن موقع بيتنا في بداية الطريق فصحبنه معهن، هي ووالدتها وأختها. أقبلت مديحة أثناء ما كانت ابنتها تلثغ بحديثها الغريب. قالت إن شيخاً تعتقد أنه والد فؤاد قد جاء يريد رؤيتي. بقيت لحظات أتطلع إليها دون أن أجيب. لم يكن الأمر معقداً، لكن ذهني ونفسي المنهوكة لم تكونا على استعدادٍ لفهمه أو تقبُّله. كررت مديحة السؤال ثم أضافت بأن من الممكن أن يخبروه، إذا أردت، بأني لست في الدار. سمعت أمي تؤيدها، من بعيد، وتدعوها أن تقول له ذلك. حينذاك وبشعورٍ مفاجئ بالفزع قفزت من الكرسي وأغذذت الخطى خارجاً من المطبخ، مخترقاً

المجاز الطويل في حالة تشبه الحلم. ألست أنا الذي كان عليه أن يفتش عن مقابلة مثل هذه؟ ألست أنا، الذي يُسحب إلى الظلام ويُحرم من الحياة، مَنْ يجب عليه أن يبحث عن كلمة أخرى من فؤاد، كلمة أخيرة تنبثق بعد أن أغلق عينيه.. تأتيني كالشمس من وراء القبر؟؟

كنت في خضم دوامة من المشاعر الفائرة والأفكار، أحسُّ بنفسي وكأنني أغوص إلى أعماق سحيقة، وأنا أقترب من البوابة الخارجية الكبيرة. كان واقفاً على مبعدة، مستنداً إلى الحائط بظهره؛ شيخاً قارب السبعين من عمره، منحني القامة. فوجئت بهيئته. لم أتذكره يوماً على هذه الصورة. كانت غضون وجهه عميقةً متهدلةً، والشعر الأبيض يغطي وجنتيه. مرّت علينا هنيهات لم يرني فيها. كنت قبالته، وكانت عيناه الصغيرتان ضائعتين في أفق بعيد. سلّمت عليه، فعدت به إلى عالمنا. اقترب بخطوات قصيرة ثم مدَّ يده فصافحت العظام والعروق الزرقاء والجلد الناعم. كنت متعلقاً بفمه وبعينيه. إنه الرمز الذي قد يصوغ حياتي مرةً أخرى. سألني بصوتٍ مرتجف عما إذا كنت عبد الكريم حقّاً، صديق ابنه فؤاد؟

هززت رأسي. عصر قلبي ذلك الاسم الذي لفظه بشكلٍ عجيب. خُيِّل إليّ أن هذا الشيخ المتهدِّم قد أُرسل من قبل ابنه، وأنه ما جاء يحدِّثني إلا لعلمه بأني لست بعيداً عن تلك الروح الغائبة. لبثت أهزّ رأسي حتى رأيته يعاود الكلام ثانيةً. قال إنه لا يتذكّر أنه رآني معه، رغم أن فؤاد كان ابنه الوحيد. ثم سألني فجأةً ألم أكن معه حين وفاته؟

اتكأتُ على الحائط خلفي. كنتُ ساكتاً، يابسَ الفم. لم أتوقّع سؤاله، لم أفهمه. شعرت أنه يريد أن يستحضر شيئاً ما، صورةً ما،

أثناء حديثه عن ولده. أعاد عليّ أنه يخشى أن يثقل عليّ بحضوره وكلامه، ولكنهم أخبروه في المستشفى عن أشياءٍ غير معقولة؛ معاناته الطويلة واحتضاره. تلامعت عيناه بغشاوة خفيفة من الدموع وهو يحدّق في وجهي منتظراً جواباً، كلمةً مني. كان يتعذّب وهو يتكلم، وكان يحتضر هو الآخر. بقيت صامتاً، ساكناً؛ غير موجودٍ معه. كنت جالساً على الرصيف المغبر واضعاً ذلك الرأس العزيز في حضني. ثمّ أخذوه من بين ذراعي، في منتصف الليل تحت النجوم، وهمد كل شيء من حولي ولفتني غيمةٌ سوداء. وعدت، تلك الليلة، إلى الدار ولبثتْ الحياة تسري فيّ حتى وأنا أصرخ طوال أيام بعد ذلك. كنت أحيا بعد أن عانقت الموتَ.. موته. لم يحتضر. لم يتعذّب. لايمكن لهذه الأمور أن تلتصق به. لقد مات بين ذراعيّ. انطفأ مثلما ينطفئ النهارُ.

كانت دموعه تفيض من العينين الحائلتين وهو يتطلّعُ إلى ذراعيّ الممتدتين إلى أمام؛ ولم أدرك بمَ كنت أهذي وإلى أي شيء أشير إلا حين أمسك بهما. ارتجفت. لعلي كنت مريضاً ولعلي أحسست بحضور الموت بشكلٍ ما. كانت ثنايا فمه متقلصةً ودموعه تسيل بين غضون وجنتيه. لم تخرج الكلمات من بين شفتيه ورأيته يغلق عينيه عدة مرات هازاً رأسه الأشيب بما يعني شيئاً ما. كنت متراخي الأطراف، وقد أنزلتُ ذراعيّ إلى جانبي وبقيتُ أراقبه بسكون. لا شيء عندي يمكن أن يواسي هذا الشيخ الحزين. إني صامتٌ محترقُ القلبِ مثله.

فكّ راحتيه عني وتراجع خطوةً أو خطوتين ثم مكث يتطلّع إليّ هنيهةً، استدار بعدها ومضى منصرفاً دون كلام. سار ببطء منحني الظهر قريباً من الجدار. كنت لا أزال أرتجف، غير قادر على الثبات

طويلاً. لم أناده؛ وخطر لي أنه لايعلم بأني قد سقطت مريضاً منذ ذلك اليوم. عدت داخلاً الدار، مخترقاً المجاز الضيق بخطوات غير متوازنة. وعلمت، بعد ذلك، بأني قد هويت إثر ارتكائي على البوابة الثقيلة في نهاية المجاز المظلم. لم أكن دائخاً، ولكني أتذكّر جيداً بأني لم أكن راغباً في معاودة العيش كما كنتُ.

- ٣ -

جلست عمّة مدحت في فراشها على الأرض، تراقب باهتمامٍ الصغيرة سناء من خلال الشباك المفتوح وهي تتجه إلى غرفتهم سائرةً بحذرٍ، تحمل صينية الفطور بين يديها. كانت العصافير تزقزق على أغصان التينة العجفاء بُعيد شروق الشمس ونداء الحمام يأتي بين حين وآخر؛ ولم يزل الهواء بارداً. ترى ماذا أرسلت إليها أم مدحت؟ إن الجوع يخزها منذ ساعة أو أكثر. حبذا لو احتوى الفطور على القيمر ومربى المشمش والخبز الحار. رأت سناء تقف في إطار الباب ناظرة إليها بتساؤلٍ. أشارت لها أن تدخل وهمست:

- تعالي يمّة سناوي. خشي على كيفك.. على مهلك.

هزّت الصغيرة رأسها وارتقت عتبة الغرفة العالية. رأتها تنظر إلى القريولة التي تتمدّد عليها منيرة. نزلت من السطح فجراً واضطجعت مغطيةً جسمها بشرشف خفيف. همست عمّة مدحت مرة أخرى:

- على كيفك سناوي. على كيفك يمّة.

كانت سناء تسير ببطء نحوها. اقتربت ووضعت الصينية بحذرٍ

أمام الفراش على الأرض. رأت في الصينية استكانَي شاي وقرص خبز يغطي صحناً ثم طاسة صغيرة مليئة بالزيتون الأسود. رفعتِ الخبز بسرعة فتبدت لها تحته شرائح من الجبن الأبيض وبعض الخضراوات. سألت عمة مدحت سناء التي رأتها تجلس قرب حافة الفراش:

- لويش استكانين؟

- واحد إلك وواحد لبيبتي أم حسن. أشو بعدها نايمة؟ أصّحيها؟

- لا عيني، علويش؟ شكو عدنا پاچة، هريسة؟ خلّيني دا آكل براحة شويّة.

وبدأت بتحريك الملعقة في استكان الشاي الأحمر. لا مناص من أن تأكل ما يُقدمٌ إليك. هنا وبمجهود بسيط يمكن للإنسان أن يموت جوعاً. لفّت شريحةً الجبن وبعض الخضراوات بقطعةٍ من الخبز ثم قضمت منها لقمةً قبل أن تكلّم الصغيرة بفمٍ ممتلئ:

- أكلتِ أنت؟

فهزّت سَناء رَأسها بالإيجاب. كلّمتها مرةً أخرى:

- أمّك طلعت؟

- لاع. هسّه راح نخرج أنا وياها وسها.

- وين تروحون، يمّة؟

- للمدرسة.

- شكو عندكم بالمدرسة؟ أشو منيرة عافت المدرسة وجاءت لبغداد.

- ماما عندها شغل يمكن.

- شغل شنو، هسّه مو عطلة؟

- ما أدري.

- شلون حكي هذا سناوي يمّة.

ثم بدأت تحضّر لقمةً أخرى وهي تتطلّع إلى حيث ترقد منيرة. كان شعرها مبعثراً على المخدة ومنحنيات جسمها تتبدى تحت الغطاء. أقبلت هي وأمها، على غير انتظار، منذ عدة أسابيع وسكنتا معهم. لم تبقيا في بعقوبة غير أشهرٍ قليلة. عاشتا هناك مع أختها مليحة أم عدنان. مليحة هي أخت منيرة الكبرى، تزوجت وهي صغيرة من سركال اغتنى فجأةً، وكيل لبيع المخضرات يغتني بصورةٍ غامضة!

كانت تلوك الخبز في فمها من جهةٍ إلى أخرى. تعيّنت معلمةً في بعقوبة فذهبت مع أمها للسكن فيها. كان المفروض أن تمكثا فترة أطول؛ لكنهما قطعتا إقامتهما وجاءتا منذ أسابيع إلى بغداد. لا أقارب لهم في بغداد غير خالة منيرة، أم مدحت، لأن أخاها مصطفى في الشمال وزوجته وأولاده مع أهلها. سمعت سناء تهمس:

- عمّة، أقعّد بيبتي من النوم؟ أنتِ راح تخلصين.

أشارت بيدها أن لا، ورشفت من الشاي الدافئ رشفةً طويلةً:

- شكو عندك ويّاها؟ خليها تستراح، يمّة. خالك كرومي وينه؟ سمعت راح يخرج.

- أي عمّة، راح يروح للكلية. ديحلق هسّة.

هذا خبر حسن. ستوصيه ليشتري لها أوقيّة كعك من محل السيد. ستعطيه نقوداً ليشتري لها كعكاً طازجاً. عبثت في صرّةٍ صغيرة أخرجتها من تحت المخدّة ثم أخرجت درهمين وأعادت الصرّة إلى مكانها. كلّمت سناء:

- هاي ميّة فلس سناوي. أنطيها لخالك كريم يشتري لي أوقيّة

كعك مال السيد. ركضي عليه قبل مايطلع. حبّوبة.

تناولت الصغيرة قطعتي النقود وانسابت بخفة إلى الخارج. عادت عمة مدحت إلى إكمال فطورها. لم تبق غير شريحتي جبن هزيلتين وكسرة خبز محروقة. من المستحسن أن تتوقف عند هذا الحد. كانت أم حسن تنفخ الهواء من فمها وهي متكوّمة على فراشها غارقة في نوم عميق. ستطلب مزيداً من الجبن؛ هذا شيء أكيد. ولن تبخل عليها به ابنتها أم مدحت. وأما هي فإن طلباتها لاتلقى أي جواب. شربت بقية الشاي وأعادت الاستكان إلى مكانه، ثم هتفت وهي تمسح فمها:

- أم حسن. يا أم حسن. أشصار عليك هالنّوم، نوم أهل الكهف!

لمحت سناء ترجع مسرعةً. تعثرت عند دخولها فاصطدمت بالباب. رفعت منيرة رأسها فتوقفت الصغيرة في منتصف الطريق محرجة. سألتها منيرة:

- ها، سناء؟ شبيك؟

- العفو أبلة منيرة. عثرت بالباب. صباح الخير.

ابتسمت لها منيرة:

- صباح النور.

وعادت إلى الرقاد. أشارت عمة مدحت إلى سناء بأن تأتي قربها. كلّمتها حالما جلست:

- ديري بالك من تمشين سناوي. خرج خالك كرومي لو بعده؟

- بعد ما طلع. يكول ممنون آني لعمتي.

ربتت على ذراع الصغيرة بارتياح ثم خاطبت منيرة:

- عيني منيرة.

رفعت هذه رأسها وجلست نصف جلسة على الفراش وعلى وجهها بعض التقطيب والتساؤل. استمرت عمّة مدحت:

- أمك وين راحت الله يخلّيك؟

- نزلت يم خالتي أم مدحت.

كانت عيناها كحيلتين وشعرها جزلاً منتشراً حول كتفيها. التفتت العمة إلى سناء:

- صحّي أم حسن سناوي. الشاي راح يبرد يمّة.

فتحركت الصغيرة مقتربةً من فراش جدّتها. رأت منيرة تجلس ثم تدلي بساقيها إلى الأرض. كان ثوب نومها رقيقاً يكشف عن رقبتها وبعض صدرها وذراعيها. إنها جميلة بلا شك. ماذا تريد من مجيئها؟ هي وأمها جاءتا كاللاجئين. فمان زائدان يجب أن يُطعما. وهذا المسكين أبو مدحت، أخوها، يكد ويكدح طوال النهار، وسيزداد كده وكدحه. ولكنها جميلة، هذه الشابة. كل شيء فيها ينادي الرجال، ينادي الأزواج. الزواج! إنه ليس بعيداً عن ذهنها، شأنها شأن كل الشابات في هذا العمر. كانت منيرة جالسة بسكون تنظر إلى الأرض ويداها متشابكتان في حضنها. هل هنالك شيء آخر غير الزواج؟ ولعلها تفكر بمدحت. من يدري. عمره ووظيفته وأهله؛ كل ذلك يجعله زوجاً مناسباً. ولن تجد أحسن منه. ولكنها، بشكل من الأشكال، تبدو فاقدة الاهتمام بأمور كهذه. كأنها تعيش في دنيا أخرى. مَنْ يدري، لعلَّ هذه وسيلة جديدة لاقتناص الرجال. كل شيء مسموح به في هذه الأيام. انتبهت إلى أم حسن تستيقظ وتتحاور مع سناء بصوت خافت. بقيت تراقب منيرة. رأتها تتثاءب وتخفي فمها بكفّها ثم تمطت فبرز ثدياها قليلاً. كانت

نحيلة الجسم تميل بشرتها إلى السمرة، وتضيء في وجهها كالمصابيح عينان طويلتان. لن يصعب الأمر عليها، أمام ذلك المخلوق المختلّ الأعصاب. أحست بسناء تمسك ذراعها برفق وسمعت أم حسن تغمغم:

- ماكو رحمة ولا أكو شفقة. لو يموت الواحد من الجوع، يرقصون بمنديلين. هاي حال؟

همست سناء:

- بيبي تكول هذا الجبن ما يكفيها للفطور.

لبثت صامتة. لمحت أم حسن تميل بجسمها وتمد يدها تحت الفراش ثم تستخرج كيساً مهترئاً من الورق الأسمر. أمسكته براحتها، ورأتها تنظر إليها من طرف عينيها. كلمتها:

- إنتِ أم حسن ليش ما تعرفين شلون أكل يرسلون لنا؟ وين أكو فضلات أكل، يجمعوها، وقبل ما يذبّوها بالزبالة، يرسلوها إلنا. ليش إنتِ غشيمة الله يخلّيك.

سحبت أم حسن استكان الشاي بصمت وهمهمت وهي تحرك الملعقة فيه:

- الله ينتقم من القوم الظالمين.

ثم أخذت تعبث بكيس الورق الأسمر ورأتها، بعد هنيهة، تمسك بقطعتين من الكعك بين أصابعها. كان ذلك آخر ما تتوقّع. لقد نفد الكعك منذ شهر أو أكثر وبقيتا محرومتين منه بسبب مرض عبد الكريم. والآن، ها هي أم حسن تحرك يدها فيهبط عليها الكعك من السماء! سمعتها:

- الله ما يقطع بعباده إيه!

وغمست قطعة الكعك في استكان الشاي وهي لاتزال تنظر إليها من طرف خفي. قامت سناء وخرجَت وهي تبتسم. كانت تشعر ببعض الحنق وهي تكلّم أم حسن:

- من أين هذا الكعك، يمة؟

لم تجبها. شاهدتها تدخل قطعة الكعك في فمها ثم تبدأ تلوكها بشكل قبيح.

ازداد حنقها:

- لويش هالفصل لعد وأنتِ مدبرة أمورك؟

توقّفت أم حسن عن المضغ قليلاً ثم بلعت اللقمة الكبيرة وشربت رشفة شاي بعدها وقالت:

- راح يصير الفطور سمّ هالصباح.

وعادت بسكون إلى غمس الكعك في الشاي.

همّت بالإجابة، لكنّها لمحت عبد الكريم، خلال الشباك المفتوح، وهو يخرج من غرفته ويسير ببطء مخترقاً الطارمة الكبيرة. كان منحني القامة قصير الخطوات. تمنّت لو لم تره أم حسن، لو أفلت من رقابتها، كي يمكنها أخيراً أن تستأثر بالكعك الذي سيشتريه لها. التفتت إلى منيرة. لم تزل جالسةً على السرير، تتطلع هي الأخرى إلى ابن خالتها. إنه أصغر منها سناً، لم يتخرج بعد، ولقد أخّره المرض عن الامتحان. كلا، إنه لايصلح لها زوجاً، وهي لايمكن أن تخطئ في هذا الشأن. ومهما بدا من توثق العلاقة بينهما فإن ذلك أمر طارئ. كانت منيرة تتطلّع إليه بنظرات ساهمة، كأنها لاتزال نائمةً، ويداها مشتبكتان في حضنها. لايمكن أن تخطئ في مثل هذه الأمور.

سألتها:

- أمك عندها طلعة اليوم عيني منيرة؟

رأتها تخرج من ذهولها بحركة عنيفة من رأسها، وخُيِّل إليها أن صفحة وجهها قد ازدادت احمراراً:

- شنو؟ شنو عمّة؟

بمَ كانت تفكر هذه الحمقاء؟ هل تظنه يصلح زوجاً لها؟ أعادت سؤالها:

- أمك ما راح تخرج اليوم؟

- لا. لويش؟

كانت جامدة الصوت، في إجابتها جفاء وعدم ارتياح. ردّت عليها:

- هيك والله. أردت أشوفها. يمكن تصعد بعد شويّة.

قامت منيرة فجأة واتجهت نحو الباب:

-آني راح أنزل أقول لها.

رأت عظمتي كتفيها بارزتين، تضفيان على الجسم الفتي ضعفاً أنثوياً. كانت تسير بخفة وسرعة. لم تكرهها. أرادت أن تتيقّن من صحة أفكارها عنها، فقررت أن تزيد من مراقبتها لها. التفتت إلى أم حسن، فوجدتها متكئةً على مخدّتها وهي تقضم شيئاً في فمها، راميةً بنظرها بعيداً نحو الشباك. كلّمتها:

- ما تعب فمك من الأكل! كافي عد.

فأدارت أم حسن عينيها بسكون إليها وتوقفت حركة فكّيها:

- صايرة المهداوي على راسي؟

ثم استدارت ببصرها متظاهرةً بعدم الاهتمام وعاد فكاها إلى

حركتهما الرتيبة.

أجابتها بحنق:

- ويقولون عليها مخرِّفة. قاعد بالسفينة وكاسر عين القبطان. ها، يابه؟

توقف الفكّان لحظات ثم عادا إلى الحركة.

كانت الشمس قد أوشكت أن تصل الشبابيك وموعد الغداء لايزال بعيداً. لابأس من إغفاءة قصيرة. لاشيء مهماً يمكن أن يحدث في هذه الفترة. تمددت على الفراش مستديرة بوجهها نحو الغرفة واضعة كفها اليسرى تحت صفحة خدها. كانت ترى أمّ حسن ساكنةً، هامدة قربها. لعلّها أنهت أكلها أخيراً. أطبقت جفنيها وحاولت ألاّ تفكّر بشيء معيّن. لكنهم لم يدعوها تغفو كما يجب. كانت تفتح عينيها حين يخيل إليها أن أحداً دخل غرفتهم فيواجهها وهج الشمس الآتي من الشبابيك. رأت منيرة تعود مرتدية فستاناً غامقاً فتقف تمشط وتتزين أمام المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط. حركات آلية تمسد بها الشعر المتلامع الطويل. استعدادات لامتناهية. ثم جاءت أم منيرة بعد ذلك وجلست على الأرض قبالة أمها، أم حسن. بدأتا تدخنان. سمعت أم حسن، التي كانت تراها بغموض، تغنّي بصوت خافت:

من أيديهم من أيديهم رحنا من أيديهم
ماتنفع الحسرات رحنا من أيديهم

تلك المخرِّفة! وكانت منيرة وأمها تبتسمان، كأنهن جميعاً لا يشعرن بها تريد أن تنام! ثم رأت منيرة تخرج بعد قليل وأم حسن تصفق مع لحنها الذي تؤديه بصوتها المتلاشي. كان الضوء أبيض قوياً لايطاق

والسكون مخيِّماً على البيت. أغمضت عينيها. لم يضايقها غناء أم حسن ولا تصفيق يديها العظميتين وشعرت أن الغفوة لن تفلت منها هذه المرة.

* * *

... كانتا تتحاوران دون أن تسمع كلماتهما، تتقاذفان بالجمل القصيرة والإشارات وبما تخفيه من رعب وذكريات. منيرة مستندة إلى الحائط قرب السرير، تمسك بحديده الأسود الصدئ وهي شاحبة الوجه تتّسع عيناها بشكل غير اعتيادي وتتلامعان مع حركات شفتيها السريعة، وأمها تقف على مبعدة من الباب.

أزاحت عمة مدحت كفها عن أذنها ورفعت رأسها عن المخدة قليلاً. كانت منيرة تلهث مع الكلمات:

- ... علويش؟ ماكو عندي شيء وياه. دتفتهمين؟ ماكو عندي شي أبداً.

رفعت أمها ذراعاً في الهواء:

- ابن أختك وجاء من بعقوبة. شيقولون الناس آخر؟

بكلمات بطيئة تكاد تموت على شفتيها. تطاير الشرر من عيني منيرة ومن هيئتها ومن الأصبع الذي رفعته في وجه أمها:

- لاتحكين هالحكي. لاتكولين منو هو ولا تكولين الناس. ما عندي شي وياه ولا وياه الناس. دتفتهمين؟ كولي، دتفتهمين لو لاع؟

ساد السكون لحظات. خيل إلى عمة مدحت أنها تسمع دقات قلبها المختنق. لو استمر الحديث فترة قصيرة أخرى لأمكنها أن تعرف كل

شيء. ترامت منيرة على السرير. جلست بهدوء ثم انطوت على نفسها شيئاً فشيئاً؛ أحنت رأسها ووضعت يديها في حجرها، فتهدّل الشعر مع انحناءتها وأخفى وجهها. شبكت أمها كفيها وبدا البؤس لأول مرة يطفح على تقاطيعها. كانتا، الأم وابنتها، شقيّتين دون شك.

رنّ، من الطابق الأسفل، صوت أم مدحت تنادي:

- نجيّة، يا نجيّة.

رفعت منيرة رأسها. كانت عيناها يابستين ووجهها شديد الشحوب. كلّمت أمها:

- خالتي تنادي عليك. نزلي، كولي آني موهنا.

استدارت أم منيرة وارتفع نداء أم مدحت ثانيةً:

- عيني منيرة. يا منيرة.

أجابت أمها وهي تخرج من الغرفة:

- زين. زين. آني جاية أم مدحت.

استمرّت أم مدحت تهتف:

- عيني نجيّة. هذا عدنان ديلح هواية، ما أدري شكو عنده. نزلي الله يخليك شوفي شيريد. لا ديقبل يخشّ ولا..

ثم ضاعت كلماتها مع همهمة أمّ منيرة وهي تسعى للنزول.

عادت منيرة إلى انكفائها على نفسها، كأنها مكسورة الظهر. لم يخطر لها أن تكلّمها. كان بودّها أن تتسمع لهما مدة أطول. هذا الطارق المجهول هو عدنان إذن. عدنان ابن مليحة. مليحة أخت منيرة. مليحة أم عدنان. لعله جلب لهما أخباراً غير سارة. عاشتا هناك فترة طويلة، وقد تعودان إلى بعقوبة إذا لم تستطع منيرة أن تنتقل إلى بغداد. لا مورد

لهما يعيشان منه غير راتبها الضئيل. مدرّسة جديدة، تخرجت منذ ثلاث سنوات فقط. أخوهم الكبير، مصطفى، ضابط في الجيش، ولكنه متزوج، إضافة إلى أنه الآن في الشمال. عائلة فقيرة لاتاريخ لها يعرفه الناس. ولا تدري عمّة مدحت حتى اليوم كيف حصل أن تزوج أخوها واحدةً من بنات هذه العوائل. يقولون إنها القسمة والنصيب. ومع ذلك فإن أم مدحت لم تكن فتاة رديئة الخلق لحسن الحظ. لا يمكنها أن تكون هذا، خاصة تجاهها هي. إن للأصل العريق تأثيراً على أمثال هؤلاء الناس؛ ويستحسن ألا ينسوا ذلك.

كانت الغرفة مضاءة بانعكاسات أشعة الشمس على الجدار الأبيض العالي. أضجرها هذا التظاهر بالنوم. لم تكن تسمع أو تعلم شيئاً عما يجري في الأسفل. وكان ذلك أمراً ممضاً غير مقبول. تحركت في فراشها ثم اعتدلت جالسةً. انتبهت حالاً إلى أن مكان أم حسن يخلو منها، فبعث ذلك فيها القلق وأنساها نفسها فهتفت:

- هاي وين راحت أمّ حسن؟ ما تقدر ترقد بفراشها عيني هالمخرّفة.

رفعت منيرة رأسها. بدا عليها الاندهاش وهي تنظر إلى عمّة مدحت:

- شنو عمّة؟ شنو؟

كانت نصف منحنية، تشتبك يداها في حجرها. تطلّعت إليها عمة مدحت:

- وينها بيبيتك أم حسن؟

- ما أدري عمّة. يمكن نزلت، لو راحت للحمّام.

- يا حمّام عيني منيرة؟ هسه وكت غسل راس؟

- لا عمّة. العفو. يعني للمرحاض.

- أمّك وينها؟ أكو خطار، لو شنو؟

بدا بعض الاضطراب على وجه منيرة:

- أمي مع خالتي أمّ مدحت. ماكو أحد. ماكو أحد.

كانت عيناها صافيتين رغم انزعاجها، وشعرها يترامى بخصلات لطيفة على كتفيها. لم تكن هي نفسها تلك الفتاة الشرسة التي زجرت أمها قبل دقائق. سمعت وقع خطوات خفيفة ثم رأت أمّ حسن تمدّ رأسها من فتحة الباب:

- منيرة عيني. تعالي الله يخلّيك صعديني هالدرجة. متت عيني.

أسرعت منيرة فأمسكت بذراعي جدّتها أم حسن وجذبتها إليها فارتقت الدرجة العالية، ثم سارت معها إلى الفراش وهي لاتزال ممسكةً بها. كلّمتها عمّة مدحت:

- وين كنتِ أمّ حسن؟

كانت تسير ببطء وقامتها منحنية وهي تلهث بشدة:

- يا الله. يا محمد. يا الله. عيني الله ينطيك مرادك منيرة. آخ. يا الله.

جلست على الفراش وهي تهزّ رأسها بين الشهيق والزفير وتنفخ الهواء من فمها. عادت منيرة إلى محلّها. سألتها مرة أخرى:

- أقولك وين كنتِ أم حسن؟

أجابتها بين الأنفاس المتلاحقة:

- انطيني فرصة. بالكنيف كنت، وين كنت؟ شكو عندك؟

صمتت لحظات وهي تراقب منيرة تقوم وتخرج من الغرفة. ثم كلّمت

أم حسن:

- أنت صايرة ما تقبلين الكلام من أحد، شبيك؟

ثم أردفت:

- آني ظنيت أنت نزلت تحت. هذا عدنان ابن مليحة جاء طارش من بعقوبة. ما أدري شكو عنده، بس الجماعة انخبصوا هذيك الخبصة.

رفعت أم حسن عينيها:

- عدنان؟ يا عدنان؟ ابن الشيخ؟

- ابن مليحة. بائع مخضرات. أبوه مو شيخ. ما أدري شكو عنده.

- آني هم ما أدري عيني. خلّيني بحالي. كرومي ما جا؟

أثار سؤال أم حسن عن عبد الكريم استغرابها. سألتها:

- لويش؟ لا. ما جا بعد.

- بلكي الله يهديه ويجيب وياه شوية كعك.

تحفّزت عمة مدحت في جلستها وسألت بصوت عالٍ:

- شنو، شنو؟ لويش ديجيب لك كعك، يمّة؟ على الحاضر!

التفتت إليها أم حسن، غير بادٍ عليها أنها تفهم:

- قلت لعل الله يجعله رؤوفاً. الله أكبر. ماكو رحمة بقلبك.

ثم استدارت بنظرها مستاءة وهي تهمهم:

- عيني الدنيا راح تنقلب. دتصرخ عليّ كأني أكلت مال أبوها. صوج، ذنب؟

همت أن تشرح لها ما حدث، إذ لم تشعر برغبة في الدخول بمعاركة كلامية قبيل الظهر، إلا أنّ قدوم منيرة وأمها أسكتها. كانتا منهوكتي القوى. اضطجعت منيرة على السرير حالاً وجلست أمها أرضاً على

حشية صغيرة. وبقيتا هكذا صامتتين. كل شيء يجري بسكون معهما. راقبتهما مليّاً. سمعت أم حسن تكلم ابنتها أم منيرة:

- منو أكو تحت، عيني نجيّة؟

- ماكو أحد.

بدا على أم حسن القلق وعاودت الكلام وهي تنظر إلى عمّة مدحت:

- شنو ماكو أحد؟ الغدا منو راح يحضره لعد؟ آني صار لي ساعة قلبي سايح.

لبثت أم منيرة تنظر إليها بجمود، دون أن تجيب. تكلّمت عمة مدحت:

- أنتِ ليش تصيرين لجوجة. ما دتشوفين منيرة صحتها غير جيدة؟

أسرعتَ أمّ منيرة تقول:

- منيرة ما بها شيء. شويّة دايخة.

- لا، عيني شوفيها. باوعي وجهها أصفر مثل الكركم. شكو عنده عدنان جاء عليكم؟ أشو ما افتهمنا لويش هو جاء. الله يرضى عليه، حتى على بيبته أم حسن ما خشّ سلّم.

اعتدلت منيرة بسرعة، جالسة في سريرها. كانت صفراء الوجه بشكل ظاهر وتحت عينيها دائرتان داكنتان. هتفت تكلّمها بصوت حاد غير مرتفع.

- آني مو مريضة. كلشي ما بي، وأنتِ عمّة لاتصيرين فضولية هالشكل.

كانت عيناها تشعّان غضباً مكبوتاً وبدأ صوتها يرتفع قليلاً:

- ماكو عدنا شي نخفيه عليكم. لاكت أنتو لاتدخلون نفسكم بكل

شيء. أنتم ما لكم علاقة بيننا. روحوا اسئلوا أمّ البيت، منو جاء وعلويش جاء. لاتحكون معي ولاتدخلون بشغلي. آني، خلّوني على جهة. دتفتهمون؟ آني ما عليكم بيّ. ما عليكم بيّ.

كان صياحها مذهلاً مهيناً؛ صدم عمّة مدحت وأحزنها. لبثت تنظر إليهما، إليها وإلى أم حسن، لحظات؛ فأدارتا عيونهما عنها. كانت تقاطيع وجهها شاحبة متصلّبة، ولم يبدُ عليها أنها على وشك البكاء. لمحتها تعود إلى اضطجاعها بعد قليل. كانت أمها ساكنة، تدخّن سيكارتها كأنها لم تسمع شيئاً. رأت أم حسن تنظر إليها فقالت لها بصوت خافت مرتجف قليلاً:

- حكينا فد شي غلط أم حسن، يمّه؟

هزّت هذه رأسها عدة مرات وأجابت هامسة:

- آني شعليه عيني. أنت ماجعتِ بعد؟

- اسكتي، شلون ما جعت! نفسي دتلعب من الجوع. نادي على أم مدحت لعل المرق حاضر. ناكل شويّة خبز حار ومرق. شنسوي عيني، الله ما يقبل هيك حكم على عباده.

- ما بقى عندي حيل أنادي.

- قلبي سايح تماماً.

ثم اختلست أم حسن نظرة من طرف عينيها إلى منيرة وأمها وعادت تشير بيدها إشارة تدل على اليأس.

كانت الغرفة ساكنة، وخيط من الدخان الملتوي يرتفع من سيكارة أم منيرة. لم تدرِ عمة مدحت عما كان يمكنها أن تفعله، وهل جانبها الصواب حين تركت منيرة تتكلم معها هكذا دون إجابة؟ لقد انكشفت

لها اليوم صفحة مجهولة من حياتهما، وعقد لسانها إحساس غامض بأن شيئاً مكسوراً، غير معتاد، في حياة هذه الفتاة هو الذي جعلها ترميهما بكلماتها الحادة.

تنهدت منيرة تنهيدة طويلة ثم استنشقت الهواء البارد بقوة؛ فارتفع صدرها، عالي النهدين، وانخفض ببطء. كانت ترى ساقيها، صقيلتين تميلان إلى البياض، وطرف ثوبها يجاوز الركبتين.

وجّهت السؤال إلى أم حسن:

- أم حسن، ساعة بيش الله يخلّيك؟

- عربي لو على وكت الحكومة؟

- على وكت الحكومة عيني.

- ما أدري.

- عربي، لعد.

- هم ما أدري.

لبثت تنظر إليها، غير متأكدة أكانت تمزح في هذا الوقت العصيب أم أنها تخرّف بين الحين والآخر حسب مزاجها. كانت أشعة الشمس قد ابتعدت عنهم ومالت إلى الجهة الأخرى، وكان الصمت يلفّ البيت كلّه. لقد جاوز الوقت منتصف النهار وليس في الأفق ما ينبئ بأن هنالك من يعدّ الغداء. أتراهم سيعاودون تجربة ذلك الانتظار المرير، انتظار عودة مدحت وأبيه من الدائرة؟

قطعت سلسلة هواجسها خطوات في الحوش تبعها إغلاق الباب فأنصتت حابسةً أنفاسها. أهو عبد الكريم أخيراً؟ ركّزت نظرها على مدخل السلم. ستتبيّن خلال لحظات ما إذا كان قد جلب لها الكعك أم

لا. لم يظهر على الجالسات معها أنهن سمعن شيئاً. كان يسير بخطوات بطيئة مقوّس الظهر، لايبدو عليه أنه سعيدٌ بحمل كيس الكعك الضخم. اجتاز الطارمة الكبيرة ودخل غرفته. لم ينتبهن إليه. ألسن بلا بصر! كانت أم حسن تعبث بأصابع قدميها وأم منيرة تطفئ بإصرار سيجارتها. ثم رأته يخرج حاملاً الكيس متجهاً نحو غرفتهن. لم يرق لها أن تخبر أم حسن، لكنها لم تستطع صبراً.

- أبشّرك أمّ حسن. كرومي جاب لنا كعك. ترى آني أعطيته فلوس مال أوقيّة، الله وكيل، شوفي شغلك أنت يمّة عد.

كان يقف في فتحة الباب مبتسماً، يسلّم على منيرة وأمها. رفعت منيرة نفسها وانكمشت في زاوية من السرير وهي تجيب على سلامه وتعدل من شعرها. هتفت أم حسن:

- هلا بهالمصباح عيوني كرومي. سلاماة، سلاماة

كان شاحباً، يبدو عليه الإنهاك بوضوح. تقدّم وأعطاها كيس الكعك وقطعتي النقود قائلاً:

- عمّة، هذا الكعك والبقصم. هذه المرّة على حسابي. هاي فلوسك ما ناقصة. بس اعطوني خبر من يخلص، وآني ممنون.

- يابه الله يهنّيك بشبابك وينطيك العافية. أشو تأخّرت، عيني؟

استدار وتردّد قليلاً قبل أن يجلس على الناحية الأخرى من السرير. لمحت تبدلاً طفيفاً في ملامح منيرة وهيئتها. تلاينت نظراتها وبدا عليها الارتياح بشكل غامض. لم تسمع حديثهما. ألهاها فتح الكيس الورقيّ واستخراج الكعك والبقسماط، وإعطاء أم حسن حصتها منه وإعادة قطعتي النقود إلى صرّتها. ثم طرق سمعها فجأة حديث أم حسن عن

زيارة عدنان، فرفعت رأسها إليهم. كان عبد الكريم يبتسم بغباء وبعدم فهم، ومنيرة تنظر إلى الأرض. خيّل إلى عمّة مدحت أن وجهها قد أحمرَّ قليلاً. تنهّدت أم منيرة عدة مرات. لحظات حرجة لا فائدة فيها لأحد. قطعت الصمت فسألت أمّ حسن عن موعد الغداء، ثم سمعت عبد الكريم يستفسر عن أمه وعن أخته وابنتيها. قيل له إن أمه في الطابق الأسفل فقام متردّداً وخرج. ابتسمت له منيرة ثم عادت إلى اضطجاعها وأشعلت أمها سيجارةً أخرى. كانت أمّ حسن تدور بنظرها في وجوه الجالسات دون كلام. كنّ ساكنات، كل واحدة منهنّ مشغولة بأفكارها الخاصة، ولم تكن عمّة مدحت تميّز جيداً الأصوات الخافتة التي كانت تسمعها آتيةً من الحوش. إن أمامهم ساعةً وبعض الساعة من الانتظار قبل مجيء مدحت وأبيه من الدائرة. وهذه هي أكثر الأوقات مشقّةً ومرارةً. لا مجال فيها للأكل أو النوم أو الحديث. انتظارٌ مريرٌ يبقيهنّ كالسجينات، لايعرفن ما يصنعن بأنفسهنّ. ارتكت على المخدة بذراعها واضعةً خدّها في راحة يدها اليسرى. لاتستطيع حتى أن تغفو غفوة قصيرة! لن يوقظها أحد، وقد يعني ذلك فوات موعد الغداء وضياع كلِّ شيء.

تعالت في الأسفل ضجةُ الصغيرتين وهما تدخلان وتصرخان في آن واحد، فاعتدلت في جلستها منتبهةً. ها قد أتت مديحة أخيراً. ستسمع نتفاً من أخبار العالم الخارجي؛ إلا أن مديحة لن تصعد قبل أن تساعد أمها في تهيئة الغداء. هذا حسن. لايمكنها أن تترك أم مدحت تشتغل بمفردها طوال النهار. ولعلهما قد تستطيعان تدبير طبخ الطعام بوقت أسرع. لايمكن تحمل مثل هذا الانتظار المؤلم، لاسيما لأشخاص في مثل عمرها. بالإضافة إلى ذلك، فإنهما، هي وأم حسن لاتعلمان بالتأكيد

ماذا ستأكلان! وليس هذا من الأمور الطبيعية في أي مكان. يجب أن يؤخذ رأيهما، على الأقل، في الشيء الذي ستبلعانه.

طرق سمعها فجأة اصطفاقُ الباب الكبير في الطابق الأسفل بعنف غير اعتيادي. اهتزّ زجاج الشبابيك، ثم انهدّ جسم ثقيل تلته صرخة من أمّ مدحت وأخرى من مديحة. رفعت رأسها فرأت منيرة تقوم وكذلك أمها. كان قلبها يخفق بشدة ولكنها لم تنبس بكلمة. همست أمّ حسن:

- يا ستّار يا رب. اللهم ادفع الشرور عنا بالتي هي أحسن.

ارتفع صوت أم مدحت، مبحوحاً مرتجفاً:

- عيني مديحة، كرومي وقع. كرومي يابه. ركضي، ماي بارد، ركضي يوم بالعجل. شبيك ابني؟

كانت منيرة، ممتقعة الوجه، في منتصف الطريق إلى باب الغرفة. توقّفت ثم أمسكت بصدرها واستندت إلى الحائط لحظات. صاحت هي بها:

- انزلي يمّة منيرة. شوفي شصار بالولد. شلون مصيبة هاي يا ربّي.

كانت الأصوات الآتية من أسفل، نواح أم مدحت وعياط الصغيرتين وبكاؤهما، تبدو مختلطةً مضطربةٍ كأنها أصداء عالم يتمزق. تماسكت منيرة واندفعت تركض خارجة. لمحت، هنيهةً، قلقاً هائلاً في وجهها وفي التماع عينيها المتسعتين. تبعتها أمها بغير عجلة ظاهرة.

أرادت أم حسن أن تقوم هي الأخرى، فكلّمتها عمة مدحت:

- أنت وين رايحة، يمّة؟ قعدي بمكانك قعدي.

فعادت إلى جلستها بعد أن سوّت المخدة وغمغمت:

- قلبي مَع كرومي. أخاف عليه عيني.

ثم أردفت وهي تنصت إلى الضجّة:

- يا ساتر يا رب. استر علينا وعلى أمّة محمّد.

ثم أخذت تعبث بأصابع قدميها:

- يا الله، يا محمد. آني دا أشوف إحنا ما راح ناكل هاليوم إلا ورا أوذان العصر. شتقولين أنتِ عمةِ مدحت؟

لم تجبها، كانت تنصت، حزينة النفس، إلى ما يصلها من أصوات.

لم تكن صحةُ عبد الكريم على ما يرام منذ وفاة صديقه قبل أشهر. ولكنه لايزال شاباً صحيحَ الجسم، ويجب أن يعلم أهله لماذا يتهاوى هكذا وسط الحوش والنهار في عزّه، ولما تمضِ دقائق عليه حينما كان يتحدث ويضحك وحينما كان موضع إعجاب من ابنة خالته الجميلة.

* * *

كانت عمّة مدحت جالسةً معهم في الإيوان بعد العصر بقليل، منزوية فوق إحدى القنفات المريحة، تراقب ما يحدث وتتساءل عن الأشياء التي لاتحدث. لم تغرب الشمس بعد في هذه الأمسية من أواخر حزيران، وقد انتهوا، قبل فترة قصيرة، من شرب الشاي. لايزال استكانها في محلّه جنب استكاني أخيها أبي مدحت ومدحت. تغدّوا متأخرين اليوم ولذلك لم تأكل كعكاً مع الشاي لئلا يقطع شهيتها للعشاء. جاء الطبيب في وقت غير متوقّع وفحص عبد الكريم بسرعة. رأته من بعيد ولم تشعر بأية ثقة فيه. لاتدري لماذا. أعطاه، كما قيل لها، مقوياً ومهدئاً يشربهما الواحد بعد الآخر. ثم أخرجوا له سريراً

وضعوه في الطارمة لصق الإيوان، تخلُّصاً من حرّ الغرفة؛ وقبعت أم مدحت قربه وهي تنظر باستمرار إلى وجهه الشديد الشحوب البارز الوجنات.

سمعت أبا مدحت يكلّمها:

- صفيّة.

فالتفتت إليه فسألها:

- أقول، أولاد سيد خليل، تزوّجوا قبل ما ينتقلون من باب الشيخ؟

أجابته:

- هاشم وقاسم أولاد سيد خليل بقوا ما متزوجين بسبب أختهم الكبيرة رحمة. أرادوا أن تتزوج قبلهم.

أيدها أخوها أبو مدحت:

- تمام. تمام. رحمة الله، أختهم الكبيرة.

ارتاحت لتصديق أبي مدحت لها. كان يسبّح بسبحة صفراء. عاد يتكلّم:

- جا عني سالم ابن عمّهم. عنده شغل عندنا بالطابو. يقول قاسم تزوج صار كم سنة، وخرج يسكن في بيت وحده، وأختهم «رحمة الله» ماتت وراء زواج أخوها. هسه هاشم باقي هو ووالدته.

سمعت أم مدحت تكلّم مدحت:

- عيني مدحت، ما تقوم تشوف منيرة ومديحة شديعملون بالمطبخ. ساعة صار لهم ديسخنون الشوربة مال القواطي.

قام مدحت من مكانه بسكون وانصرف. سألت أبا مدحت:

- لويش ماتت رحمة؟ قوية كانت عيني. هي رحمة لو غضب.

تشتغل بالبيت من طلعة الفجر إلى المغرب وتخرج للزيارة بالليل. يومياً على هالحال. ما تخلّي اجتماع نساء يعتب عليها. تگعد وسط النسوان، شايلة هاشم وحاطّة قاسم. تريد تزوّجهم وما تريد. تريد وما تريد. شوف ربك شلون موّتها بأجلها.

أجابها أبو مدحت:

- أكو إنسان ما يموت بأجله؟

- يعني. دا أقول.

تردّد وقع أقدام في الطارمة وبانت منيرة ووراءها مدحت. كانت تحمل صينية متوسطة الحجم عليها صحن شوربة يرتفع منه البخار. وضعتها برفقٍ على طاولة قريبة من سرير عبد الكريم. هبّت أم مدحت تساعدها وعاد مدحت إلى مكانه. كانت منيرة في ثوبها الغامق الذي ارتدته صباحاً وقد لفت شعرها بشريط من الخلف. وكانت صبوحة الوجه خفيفة الحركة. لم تختف الابتسامة من فمها وهي تجلس على كرسي مقابل مدحت وتقول بصوت خافت:

- هاي الشوربة من عمل مديحة توه. آني جبتها بس.

اعتدل عبد الكريم في جلسته بمساعدة أمه وسمعته عمة مدحت يتكلّم:

- أشكرك منيرة. ما أدري شوكت راح أخدمكم آني هم. يبين الوكت راح يفوت قبل ما يجي.

كان صوته أجشّ متكسّراً. بدا التأثّر على وجه منيرة فاختفت ابتسامتها. قال أبو مدحت:

- شنو هالحكي، كرومي. أنت بشر لو حديد. يعني ما يصير

الإنسان يتمرض! عجايب!

رأت مدحت ينظر إلى منيرة. قالت أم مدحت:

- كل وكت يحكي هالشكل ويخلّيني ما أشوف دربي.

كان يتفحص ابنة خالته بشكل غير مألوف وفي عينيه المصوبتين نحوها تألقٌ ظاهرٌ. لم تره يكلمها من قبل، إلا أن نظراته تنبئ أنه يود ذلك ويحلم به.

كانت أشعة الشمس على «التيغة» العالية حمراء ذابلةً، والهدوء يسود البيت لاتقطعه غير ضجة غسل الصحون في المطبخ. إنها مديحة وبنتاها يغسلن صحون الغداء. تأخروا اليوم في تناول طعامهم بسبب عبد الكريم. أحزنتهم جميعاً هذه الانتكاسة غير المتوقّعة. إنهم مدينون له بالكثير من الخدمات وساعات المرح. ولن يسرّهم أن يروه هكذا، ممدداً بين الصحة والمرض.

سمعت مدحت يسأل عبد الكريم:

- وين رحت اليوم، كريم؟

توقّف عبد الكريم عن شرب الشوربة وصمت لحظات قبل أن يجيب:

- رحت للكلية. قالوا لازم أقدم تقرير طبي مصدق كي أدخل امتحان الدور الثاني. تعبت شوية. الدنيا حارة كانت.

- منو جاء عليك الظهر؟

نظر عبد الكريم إلى مدحت بنظرات فارغة كأنه لم يفهم كلامه.

تدخلت أم مدحت:

- أشرب الشوربة عيني كرومي. راح تبرد.

ثم التفتت إلى مدحت:

- اتركه يرتاح عيني مدحت. ما عنده حيل يحكي هواية.

فأجابها:

- أدري، يوم. بس حبيت أفتهم، عدنان جاء عليه، لو شخص آخر.

هتف عبد الكريم بصوتٍ متقطعٍ جامدٍ:

- عدنان! يا عدنان؟ عدنان ما جاء عليٌّ. أبو فؤاد كان يريد يشوفني.

فسأل مدحت أمه:

- علويش جاء هذا عدنان لعد؟

كانت منيرة تنظر إلى أصابعها المرتمية في حضنها. عاد عبد الكريم يتكلّم:

- أبو فؤاد كان يريد يحكي معي. آني.. كنت مع فؤاد... ذيك الليلة.

قاطعته أمه:

- بس عاد يابه كرومي. لاتتعب روحك.

نظر إليها عبد الكريم طويلاً دون كلام. ثم رفع صحن الشوربة وأعاده إليها. استدار بوجهه عنهم وانكفأ نحو الحائط. لاحظت مدحت يراقبه باهتمام. رفعت أم مدحت الصينية والتفتت إلى زوجها وفي ملامحها شكوى وألم:

- دتشوف عذابي ويّاهم؟

هتف أبو مدحت:

- ليش كرومي؟ ليش ما تشرب الشوربة، بابا؟ هواية زينة ألك. تقوّي جسمك.

لم يجب عبد الكريم أباه وران عليهم صمت قصير. سارت أم مِدحت نازلة إلى الطابق الأسفل. التفت مدحت إلى منيرة فجأةً ووجّه إليها الكلام:

- العفو منيرة، عدنان جاء يريد يشوفكم؟

كانت في صوته رقةٌ غير معتادة، رفعت منيرة عينيها إليه:

- نعم؟

عينان طويلتان فاقعتا الصفرة. لبثت ناظرةً إليه دون كلام، في شيء أشبه بالتحدي.

قال:

- عدنان كان عنده شغل معكم؟

كانا يتبادلان النظرات ببرودة. رأت الإصرار في تقاطيعها المتصلبة:

- ليش هو ما يجي عندكم من قبل؟

قطع حوارهما أبو مدحت على غير توقّع:

- أقول، هذا عدنان تخرج من المدرسة لو بعده يشتغل مع أبوه في محل بيع المخضرات؟

استدار إليه مدحت:

- ما أدري والله بابا بالضبط. بس ما أعتقد نجح من الثالث متوسّط.

- عجايب! ليش كم صار عمره، صفيّة؟

والتفت إليها. كانت منتبهة بكليتها إليهما فأجابته حالاً:

- خلّص الثمنطعش. بِكْر مليحة هو.

ثمَّ وجَّهت الكلام إلى منيرة بحذر:

- مو هيك عيني منيرة؟

كان الانزعاج ظاهراً عليها. نظرت إليها ببرودة:

- نعم

هتف أبو مدحت:

- لعد شكو عنده رايح جاي بالسيارة، وعامل ضجة بالشارع، وهو شهادة مال ثالث ما عنده؟ شلون عالم هذا!

أجابته:

- الله رازقهم يا أبو مدحت. ليش ما يركب السيارة ويخبص الدنيا. ذاك اليوم كان أبوه فلاح وخادم في بيت حجي محمد، يركض من هنا إلى هنا ونعاله مثقوب. شعليك. شوفه هسه. بائع مخضرات وبطنه هالكبر عبالك شيخ عرب.

ضحك مدحت وابتسمت منيرة. قال لها مدحت:

- مهلاً عمَّة وعلى كيفك. تره بعد ماكو شيوخ. ما سمعت الزعيم شيقول؟

- أوي. كلّ ما أحكي حكاية ترمي علي هالمخبل!

- مجنون أو غير مجنون، أربع سنين صار له يحكمنا، ويمكن ما أكو أحسن منه.

قال أبو مدحت:

- أربع سنين شنو ابني؟ هذا حساب غلط. أنت أحسب كم سنة بقيت له، كم شهر، يمكن كم يوم. وعلى هالمقياس تقدر تعرف شلون جهنم عايش فيها.

- لا بابا. على هالحساب كلنا راح نعيش بجهنم.

- بلى. صحيح. إذا حسبت أيامك على نفسك ما راح تنقضي الحياة، ولو الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى.

- لويش أقضي حياتي، خلّيني أعيشها على أحسن ما أقدر. يعني...

التفت إلى منيرة أثناء كلامه:

- ولو الأعمار بيد الله، لكن آني حياتي هي لي. أيامي بيدي. ماكو أحد عنده حق يسألني ماذا سأعمل بيها.

كانت تنظر إليه يكلّمها، نظرة استغراب. ثم بدا عليها كأنها تتأمله، قالت:

- إذا ما تريد أحد يسألك، أنت هم لازم ما تسأل أحد.

وكانت أكثر جداً منه. هتف أبو مدحت:

- لا، خير. ما تنقضي الدنيا على هالترتيب. أهل الكهف، خو مو أهل الكهف! لا، خير. لازم أكو سؤال وجواب. ارتباط مولانا والأعمار بيد الله.

لم تجب. سألها مدحت:

- يعني.. شنو؟ تقصدين.. الناس والحريّة؟

- ما أعرف. هاي يمكن فلسفة ما أعرفها زين. لكن كلامك ما يطبق عندنا. ماكو أحد هنا يتركك بلا سؤال وتدخل بحياتك. تريد أو ما تريد.

- آني أرفض. أقدر أرفض كل تدخّل.

لاحظت أنه منفعل وأنها لاتفهم كلّ ما يقولون. كانت الظلمة قد

بدأت تتوغل في الإيوان وتحجب وجوه الجالسين. أرادت أن تقصّ عليهم إحدى ذكرياتها. سمعت أبا مدحت:

- شنو ترفض؟ الإنسان يعني يفعل ما يشاء، استغفر الله؟ آني مثلاً أبوك، ما أقدر مولانا أسئلك شتعمل بنفسك؟

سمعوا خطوات خفيفة مسرعة وبانت أمّ مدحت وبصحبتها سناء. هتفت أمّ مدحت:

- ليش قاعدين بالظلمة؟ دشعلوا الضو الله يخلّيكم. لخاطر كرومي.

ثم مدّت يدها وضغطت على زر الكهرباء فاستنار الإيوان. كان عبد الكريم مستديراً برأسه نحوهم يبدو عليه الاهتمام وهو يستمع إلى حديثهم. اقتربت أمه من السرير وسألته.

- شلونك عيني كرومي؟ أسخّن لك الشوربة؟

- لايوم. أشكرك. بعد قليل.

تقدّمت سناء من منيرة وجلست قربها. سمعتها تسأل الصغيرة:

- وينها أمي، سناء؟

- بالمطبخ مع ماما. ديحضّرون العشا.

قامت منيرة تهمّ بالانصراف فوقفت سناء أيضاً. كلّمت عمةُ مدحت منيرة:

- عيني منيرة، ما تشوفين بيبيتك أم حسن أكلت لو لاع.

أجابتها أمّ مدحت:

- لاع. شتاكل؟ بعد ما حضّرنا العشاء يا صفيّة. أنطيني مهلة أنزل مع مديحة للمطبخ.

ابتعدت منيرة بصحبة سناء. رأت مدحت يراقبها وهي تختفي في ظلمة الطارمة، ثم يرفع يده ليمسح جبينه عدة مرات. التفت إلى أبيه:

- هذا حسين يريد يشوف البنات. صار كم مرة يجي للدائرة عليّ.

أسرعت أمّ مدحت تقول:

- ليش هو يعرف عنده بنات؟

كانت تجلس على حافة السرير قبالة عبد الكريم، مستديرة بظهرها للجالسين، استمرّت:

- الأب اللي يهجر أهله سنتين، ما له حقّ يشوفهم.

تكلم أبو مدحت بهدوء:

- ليش ما يجي يشوفهم؟ يأتي يزورنا مثل كلّ الزوار. يشوفهم وينصرف.

كان يتحدّث مع ابنه مدحت، كأنه لم يسمع ما قالته زوجته. استمرّ بعد قليل:

- إحنا ما ننكر حقه. هو ما عرف حقّ زوجته وبناته عليه، لكن إحنا ما نصير مثله. إحنا ما ننكر حقّ أحد.

ثم التفت إلى عمة مدحت:

- صفية، تذكرين حكاية أبي، الله يرحمه، مع حجي شاكر؟ جاء إليه يستشيره بقضية خالته. امرأة كبيرة وحيدة متروكة، تشتغل على باب الله خدامة وغسالة هدوم. على باب الله. ماكو أحد يصرف عليها ويعيشها. حجي شاكر سمع بأنها تشتغل في بيت مشبوه، وكان يريد يقتلها. امرأة عمرها فوق الستين سنة. أذكر حكاية أبي. قال له أنتم ما عرفتوا حقوقها عليكم، ليش هسه تسألون عن حقكم عليها؟ الحجي ما

أخذ بحكاية أبي. أشقياء كان. راح قتلها الملعون الوالدين. امرأة كبيرة عمرها ستين سنة.

سأله مدحت باهتمام:

- وماذا عملوا له؟

- لاشيء. جماعته جمعوا فلوس من المقاهي ووكّلوا محامي عنه. والنتيجة انحكم ثلاث سنين قضى منها سنتين إلاّ كم شهر وطلع يتخم بالدروب. امرأة كبيرة مسكينة، فوق الستين سنة عمرها.

قالت عمة مدحت:

- حجي كان، كما يدّعي. ذاهب لبيت الله. لكن الله ما يقبل هيك حجّة.

كرّرت أم مدحت:

- ما له حق على بناته؛ لايعطي نفقة لا يعرفهم بقرش پارة صار له سنتين.

سأل عبد الكريم والدته فجأة بصوت خشن:

- لويش ماما ما تخلّين حسين يشوف بناته؟

- آني شعليه يا عيني يا كرومي.

كان صوتها مرتجفاً يتخلله بعض الاضطراب. استدارت إليهم:

- لكن الله ما يرضى هالشكل يعمل مع أهله.

- لازم هو مطمئن عليهم. قاعدين بيت جدهم ومعهم أمهم وما محتاجين.

- شلون ما محتاجين الله يخلّيك.

نظرت إلى زوجها:

- اترك هالحكي عيني. أجيب لك الشوربة. لو يعجبك تاكل معنا؟

أيّدها مدحت:

- أي كريم، لازم تأكل شويّة. ولو كم لقمة على الواهس.

ثم أردف يسأل أمه:

- يوم هذا عدنان شكو عنده جاء هنا الصبح؟ أنت رأيتيه؟

- ما عنده شغل يابه. آني كنت بالمطبخ من جاء. ما كان أكو أحد. آني فتحت له الباب. ما عرفته أول نوبة. وجهه أحمر وثوبه مفتوح وعيونه زائغة. سألني عن خالته منيرة. لا سلام ولا مرحبا. خالتي منيرة هنا. شلون صايرين أبناء هالوكت؟ لا عيني، أولادنا غير شكل. ما عنده تربية هذا.

كانت تتكلّم بعدم اهتمام. سألها حينما توقفت:

- أي؟ شيريد؟ ما عرفت شنو اللي يريده؟

- أكول لك ما عنده شغل معنا. كان ديريد يحكي مع منيرة وأمها. سمعته يقول لهم ليش ما تأتون لبعقوبة، منيرة يريدوها بالمدرسة.

- وهو شنو علاقته؟ يجي يدقّ أبواب النّاس. هو هذا شغله؟ ما يروح يدبّر أموره. خلي يصير براسه خير.

تأمّلته يتكلّم بحمية غير معتادة ثم سمعت أبا مدحت:

- لا بأس يابه مدحت. شاب طائش جاء وهو يظن أنه يعمل فضل عليهم. أكول أمّ مدحت، شوكت راح نتعشّى؟ الدنيا صارت حارة وأريد أصعد للسطح من وكت هاليوم.

قامت أمّ مدحت:

- راح أنزل. تتعشّون هنا؟

أسرعت عمه مدحت تجيب:

- أي عيني، وين نروح لعد. هنا أحسن. نادي عليهم ينقلون الأكل معك.

لم تنظر إليها أم مدحت، كأنها لم تسمعها. انصرفت حين لم يتكلم أحد غيرها. كانت صفحة السماء تبدو قاتمة خلال ظلمة الدار؛ وكانت تسمع ضجة البنات وأم حسن تأتي مكتومة من غرفتهم وهن يشاهدن التلفزيون. ينسين كل شيء حين يجلسن أمام تلك الشاشة الصغيرة. أرادت، منذ أول الصيف، أن تصعد لتنام في السطح، لكن درجات السلم الكثيرة أخافتها. ستقضي نحبها في منتصف الطريق. قام مدحت وانصرف بهدوء قاصداً غرفته. كان مربوع القامة نحيلاً. إن اهتماماته هذه الأيام تثير الانتباه. لم يسل يوماً عمن جاء وماذا حدث في البيت أثناء غيابه. التفتت إلى أخيها وسألته بهمس:

- ما عندك نية تزوّج مدحت؟

- لويش هالحكاية؟ سمعت شي؟

- يعني لازم اسمع؟

- لعد؟

- أقول..

قطعت كلامها نداءات من الأسفل، ثم أضيء مصباح في الطارمة الصغيرة، وبدت منيرة بصحبة الصغيرتين. ركضن ضاحكات أمام الإيوان. ألقت منيرة بنظرة سريعة على عبد الكريم. كانت متوهجة العينين وشعرها يتلاعب منتشراً على كتفيها. تنحنح أبو مدحت عدة مرات وقام من مكانه:

- الله يرضي عليك. تحكين حكاية وتقطعيها على النص. آني دا أقوم أغسل أيدي.

سرّها قوله هذا. أرادت أن تقوم هي الأخرى لتغسل يديها، لكنها خشيت أن تفوتها رؤية الطعام حين يحضر. كانت الضجة ترتفع باستمرار من الحوش، والمصابيح الكهربائية مضاءة في كل مكان. ظهرت أمّ حسن، من بعيد، في بداية الطارمة الضيقة وبدأت سيرها نحو الإيوان متمسكة بالمحجر الخشبي. ظلّت تراقبها وهي تتمايل في مشيها البطيء وخطر لها أن ظهور أم حسن في الساحة يعني أن العشاء لن يتأخر طويلاً.

- ٤ -

فتح حسين عينيه فضربهما الضوء الساطع المنهمر من النافذة. عاد فأغلقهما بقوة. رفع يده اليسرى وعصر كرتيهما ثم أراح أصابعه عليهما. كان يحس نبضاً تحت أنامله. خشي أن يعاود فتح عينيه مرة أخرى، واستكان إلى ظلمته الداخلية. كان قلبه يدقّ بعنفٍ وكذلك معدته وكرتا عينيه وصدغه. لم يشعر هكذا بخفقان جسمه من قبل؛ لكنه لم يسجل متى بدأ ذلك. لن يفتح عينيه. سيبقى مغلقاً في أعماقه. أمس نهض بعد العاشرة، وأما اليوم فلن يغادر السرير. ماذا عملوا في دكان أوانيس المسكين، ليلة البارحة؟ آني، آني. آني. ذلك المجنون عدنان. الأحمق المفتون. ولكنه لم يسجّل كل ذلك. مثل دقات جسمه المجهولة. وقف بينهم يتكلّم كأنه يرقص. «گخذلته» الخبيثة تعطي شبابه، رونقاً أنثوياً. ولم يكن يقول شيئاً محدداً. وكان هو منجذباً إليه ومغتاظاً منه. اللعنة، إن فتح عينيه هذا الصباح. رأسه يدقّ ويدقّ. جلس قاعداً على الفراش. لم يأكل أمس شيئاً ولا يتذكر مَنْ دفع ثمن المشروبات. لعل الربع دينار لايزال في جيبه. سيحاول أن يتذكر بعد أن يغتسل. أنزل يده

يمسح فمه وأنفه ثم فتح عينيه. كان مرتدياً لباسه فقط والفانيلا الخفيفة. شعر فخذيه كثيف أسود مفتول، واللحم تحته بادي الوساخة. تحسس لحيته النابتة. هل حلق أمس؟ متى حلق إذن؟ كان ذهنه كتلة مخلوطة من ذكريات حائلة، ولم يكن يحب هذه الساعة من ساعات حياته. ساعات صحوه وانخذاله وهبوطه حتى القاع. لو أمكنه أن يغتسل اليوم. في حمام شرقي رغم الجو الحار. كان يقضي، أيام البرد، ساعة وبعض الساعة مغموراً بالبخار وقدماه على الأرض الدافئة ورائحة صابون أبو الهيل... ورائحة الصابون؛ وهو يغني أغنية أم كلثوم «يا حبيبي... يا حبيبي» وعيناه تدمعان. أسعد أوقات مراهقته بلا شك. ثم اكتشف العادة السرية فانقلب كل شيء إلى جحيم. الجنس اللذيذ الخداع. سراب الحياة. لم تعد «يا حبيبي.... يا حبيبي» تفيد؛ وكان يلمّ نفسه، بعد كل مرة، مثل الجنين. يبقى ساكناً، مصغياً إلى صمت نفسه الثقيل، في عالم يرن رنيناً غير مألوف البتة؛ ويسكب الماء الحار على رجليه وكتفيه فيرتفع البخار الكثيف ويخفيه.

كان يحك بإصرار جلد فخذه اليسرى ويتمعن في قطع الأوساخ التي تقتلعها أظافره. مسامات الجسم يجب أن تصان من الانغلاق؛ وذلك بالاستحمام المنتظم والتدليك وترطيب الجسم بالبخار طبعاً. بالبخار على الأخص. أنزل إحدى ساقيه ثم قام واتكأ على خلفية السرير. استدارت الحيطان أمام عينيه فأغمضهما. انتظر هنيهات مستسلماً لنوبة الدوار المفاجئة هذه. كلما تأزمت أمور حواسه أغلق نوافذه على العالم وتقوقع في ظلمة نفسه الداخلية. هروب مؤقّت؛ أو قل فترة راحة. باغته وجع شديد في معدته. كانت تنقبض وتتلوّى. أمسك بها. كانت تنقبض

وتتلوى، وأحسَّ بازدياد في خفقات قلبه. عصر بطنه وفركها. يخاف أن يتقيأ. اللعنة. بدأت العاصفة في مكان ما من أمعائه. أيادٍ رهيبة تعتصر جوفه وتدفع بقاياه إلى الأعلى... إلى الأعلى. هذه هي النوبة تأتي. لا رادّ لها. يخاف أن يتقيأ منذ كان صبياً. احتضن أمه بقوة متوسلاً إليها ألا تدعه يتقيأ وأطلق محتوياته على ثوبها الأسود وعباءتها الخشنة، فبكت معه. بدأت ساقاه، في تخاذل سريع، تنحنيان. استقرَّ على ركبتيه قرب السرير. كانت الدفقة الأولى من الالتواءات المعوية تتصاعد إلى حلقومه. أخذ يبلع ريقه وينفث أنفاساً ثقيلة. كان العرق البارد يتجمع على جبهته ورأسه وصدره. احتضار حقيقي. يا لرعب الموت! وأحسَّ بنسمةٍ باردةٍ تمرُّ على وجهه من النافذة. لم تتوقف الذراع المندفعة نحو قلبه، وكان يمسك بالسرير وهو متكوِّم على الأرض. ستأتي اللحظة الحاسمة بعد ثوانٍ، بعد سنواتٍ من العذاب. ثمَّ.. أطلق صوتاً مخنوقاً، حشرجةً تشنجيةً، من فمه وأنفه وعينيه وأذنيه؛ واندلق سائلٌ حاد المرارة من حلقه إلى الخارج. ابتلع ريقَه. كان السائل المرير ينحدر من أطراف فمه المسترخي ومن أنفه؛ وكان يلهث، مغمضَ العينين، والعرق يتسايل ببطء نازلاً من صدغه. ثم هبطت أحشاؤه وبدا كأنها استقرت في موضعها مرةً أخرى. عصفت به خلال لحظات تلك القوةُ المتوحشة وتركته هكذا.. كتلةً من اللحم تتفصد عرقاً بارداً. هبت عليه نسمة خفيفة ناعمة، فتنفس بعمقٍ الهواءَ النقي. أحسَّ بقطرةٍ، لعلها دمعةٌ أو ما أشبه، تنحدر بتردّد من عينه اليمنى المغمضة، ثم اخترقت جسده قشعريرةٌ غير متوقّعة. كومة من اللحم كان؛ باردة لكنها لاتتعذّب، لاتمر بأزمة الموت. نظرت في عينيه طويلاً، تلك الفتاة الجميلة

الغـريبـة الأطوار، فـأمـسك بأصـابعـهـا اللينة. قـالوا عنهـا إنهـا، في حقيـقتهـا، بغي. كـانت يدها بضـة بريئة. لم تقل له شيئاً كثيراً ولا كان لديه الكثير ليقوله لها. وكان البخار كثيفاً حوله في الحمام وهو يغني «يا حبيبي... يا حبيبي» ويسكب الماء الدافئ على رجليه وكتفيه. ما أحلى الطفولة والجنس، الطفولة الجنسية. الجنس الطفل. عادت إليه القشعريرة ففتح عينيه. كان الضوء في الغرفة لامعاً، مريعاً. فرك عينيه وصدغه، ثم تشبث بطرف السرير وقام فقعد على الفراش. مسح وجهه مرةً أخرى. كانت نوبة مفاجئة؛ تلك قوتها... المفاجأة. ولقد تركته مرتجف الأوصال والقلب. نظر إلى ساعته فرآها تشير إلى العاشرة والنصف. لم يلتفت أحد في الدار إلى تقيّئه ولايزال بوسعه الحلاقة ثم زيارة مدحت. تطلّع من الشباك إلى الحائط المقابل. بدت له أشعة الشمس قويةً أكثر من المعتاد. لعل ضعف جسمه هو الذي زاد من قوة إشعاعها! مَنْ يدري.

نزل من سريره وسارخطوات فتملكته نوبةٌ أخرى وزاغت عيناه قليلاً. توقف مستنداً إلى الجدار. ستمضي مع الماء البارد الذي سيغتسل به. ليست هذه هي المرة الأولى، لكن يجب أن يعترف أنها إحدى المرات السيئة. عاد يكمل سيره. نوبة سيئة حقاً، وفتح باب الغرفة. لم يسمع شيئاً من الطابق الأسفل. أين ذهب أقرباؤه التعساء.. الحجي وزوجته العجوز؟ وكانت ضجة الشارع تأتي من بعيد. تجشأ مرتين واتجه سائراً نحو المغسلة.

... أن تستيقظ متقيئاً أو أن تتقيأ يقظتك؛ ذلك شأنك. المهم أن فمك امتلأ بحمضيات جوفك الصدئ؛ حمضيّات لبنان؛ وأن عليك أن

تبدأ يومك المشرق هكذا. أرض الدربونة متعكّرة ملتوية، مثل حياة ساكنيها. وأنت تصعد وتهبط في سيرك يا ملعون الأهل. السلام عليكم حجي وهيب. عليكم السلام ورحمة الله. هل أستدين منه؟ ينظر إليك كأنك الشيطان أو امرأةٌ عاريةٌ. تصعد وتهبط وتهبط ثم تصعد. يجب أن تعتدل في مشيتك. هكذا. تدفع صدرك إلى أمام. هكذا. وتعود تصعد وتهبط؛ يا ملعون الأهل، يا ملعون الأهل. والربع دينار؟ لا وجود له، في الجيوب المثقوبة. ثمن المشروبات. بالتأكيد. إن بعض الساعات الأخيرة ستبقى سوداء في الذاكرة. وأنت تسير هكذا. طوب أبو خزامة، دون فلس واحد في جيبك. ولكن هنا.. هذا الدرهم اللعين المستوحش. ها.. ها. يا ملعون الأهل. ما تراها تناست اسمي لما. وتلتفت إليه الكردية الجميلة مبتسمة العينين قبل أن تغلق الباب. تدخل بخفة وتنزع عنها كل شيء، وتضمها إليك وتشمّها وتقبّلها. يصعد ينزل يصعد ينزل. وهل يمكنها أن تقول شيئاً؟ تراها تراك. تباوع. تباوع. تباوع. تباوع. يعني شنو؟ تباوع. تباوع. أفهم ذلك. وضعنا أمامكم أيها السادة هو الدليل القاطع على عهر المزبورة. ثم تقتل وتحيا ثمُّ... تباوع، تباوع. ثم تقتل وتقتل. يا مضاريط. يا مضاريط. الشاي مهم لمن لا أهمية له. تجلس على المقعد الخشبي. التخت في الحقيقة. لنطلق عليه اسمه الحقيقي لا المستعار. ثم يأتيك، يتهادى يتبختر يسير الهيدبى أو الخيزلى، حسب الطلب، أرزوقي الأعور صانع القهواتي. كله كبرياء فخمة. لا تهم درجة قذارته ورائحته الكريهة. توجّهوا إلى الأعماق أيها السادة. هناك، هناك الجيفة الأصيلة. وشايه مثله ومثل هؤلاء المحترمين الجالسين عن الشمال وعن اليمين. يحسبون الحركات عليك مع حبات

السبحة. تك تك تك. يقف تقف. يمرّ تمرّ. يلحقها تلحقه. يفعل بها تفعل به. ونحن؟ ونحن؟ نحن الأشراف، أين ندسُّ أنوفنا؟ أو بالأصح، ذلك العضو الآخر منا؟ أين ندسّه؟ قولوا لنا، قولوا للأشراف الملتفين بعباءاتهم، ينزون عرقاً كريهاً؟ تك تاك تاك. أليس عجيباً أن يستطيع أرزوقي الأعور احتقارَكَ؟ ازدراءَكَ؟ ويرمي فنجان الشاي الأسود على المائدة بحيث يقلب محتوياته في الماعون؟ وهو يجد ذلك طبيعياً، منسجماً مع مركزه وشخصه. ومن الواجب ألا ينساه. وأنت لو سألته عن السبب لراوغ ويكى بعينه العمياء واتّهم شخصاً ما يعرفه أو لا يعرفه؛ بأمورٍ يعرفها أو لايعرفها. ليش يابه ما تخلي استكان الچاي زين؟ ما عاجبك؟ لويش ما يعجبني؟ وكان يقول.. لويش يعجبني.. عيناه مليئتان بالقذى وصدره ذو الشعر الأسود المقرف، معروض أمامك بافتخار. هاكه.. إنسان المستقبل. وينطلونه حائل مبتّل. هاك الارستقراطية العريقة. ارستقراطية الفكر والذوق. وكان شايه مثله. وأنت يا غراب البين، مالك ومال صنّاع المقاهي الأرستقراطيين؟ لِنَكْتَفِ بالانحناء أمام الأعور المبتل. ثم إنك لن تقضي الوقت هكذا؛ وأمامكَ مسيرة طويلة. لا فائدة من اختراق الجامع إلى الباب الآخر. انتهت المدارس ولايمكن رؤية البنات. سها وسناء. سناء وسها. السخف العائلي. كل شيء في الوجود لو تدبرنا الأمر. يا أولاد الحرام. أولادكم، فلذات أكبادكم. أكبادكم التي بدأت تتشمّع. ليضعوهم في متحف الشمع إن كانوا صنعوا من الأكباد المتشمّعة! لاتجادلوا. المسألة مسألة منطق لا غير. منطق واسع. وأمام المنطق تنحني القامات. كذلك أمام أرزوقي الأعور. إذن، دون تعقيدات، المنطق هو أرزوقي الأعور. خلص.

روح حرك. معظم. معظم. سيقول له بلا مقدَّمة إنه يجب أن يرى ابنتيه. أليس للأب مثل هذا الحقّ؟ أي أبٍ على سطح الأرض، حتى في العراق! وكل قوانين الدنيا تؤيد حقه في رؤية ابنتيه. حقّ الأب في أن يرى أبناءه. والمشكلة.. أتوجد مشكلةٌ؟ روح شوفهم شوكت ما تريد. أيطبك مرض. منو ديركض وراك؟ فلس پارة. لا أخي. لنبحث الموضوع على مستوى آخر. مستوى إنساني يمكن أن تضيع فيه كلّ القيم.. كل الواجبات والالتزامات والحقوق.. إلخ. هذا هو المستوى المعقول الملائم لمن كان في مثل هذه السن والثقافة والمركز. دعنا نتجنّب الملتويات المادية والشمس الحارة. لنعبر إلى الجهة الموضوعية حيث الفيء. ولنضع أمامنا، على المائدة أو المشرحة حالتنا الآنية. لنضعها بكل جوانبها ثم لنمزّقها بحثاً. حقوق الأب أولاً أيها السادة. حقوقه الأكيدة المضمونة. لقد ركب كل شيء كي ينجب أبناءه. لا أدب جنسياً من فضلك. وثم ومن بعد أن تثبت هذه الحقوق يمكننا أن نتحاور ونتجادل في وجود واجباته من عدم وجودها. قل لي حقوقك أقل لك من أنت. حيوان. إنسان. ديناصور. حشرة. حصان فص كلاص. تيرت. ميدن. المهم أن تؤكد حقوقك. أن تستولي عليها. وأما الواجبات، فمن يسأل عنها هنا؟ ليكن من بعدي الواجب. صباح الخير سيِّد حسين. صباح النور أخي. خير انشا الله. أين كان يختبئ هذا الوجه المنسي؟ شلون الصحة؟ الله يسلمك بخير، أنت شلونك. يرتدي السترة والرباط الأحمر في هذا الضوء المتوهج. ماكو هالأيام سيِّد حسين؟ أن تُسأل مثل هذا السؤال يعني أنك محاط بعناية خاصة. وعيونه ترمش، كأنه يستحي. بخٍ، بخٍ. ولكن، من هو؟ والله أخي بالكويت. نشتغل. وسترته مكوية بعناية. زوجة راضية جنسياً.

أنت وين يا أخي هسّه؟ مدير شركة. اللعنة. أليس مجنوناً هذا المدير كي يحشر أنفه بما لا أهمية له! تسمح لي، فيما لله. ثم فرّ هارباً. فرّ بكل ما يحمل هذا الفعل من معنى واقعي ومجازي. ويقي مجهول الهوية. اللئيم. دون دعوة، يأتيك. ثم يخونك كأنه يهوذا الأسخريوطي حالما يشعر أنك تفكر بالاستدانة منه. هل تطلّ المقاصد والمعاني هكذا من العيون؟ الحل إذن أيها الإخوان. نظارة سوداء. حينئذ لايمكنهم أن يعرفوا السر قبل انكشافه. الكارثة قبل وقوعها. وهكذا تفاجئهم بنظاراتك السود وبطلبات الاقتراض القوية كطلقات المدفع. استدانات مضمونةٌ وسريعةٌ. ربع دينار، نص دينار. ربع. دينار. نص. نص. نص. وتتجمّع الأموال، وتتجمّع. نظرية جديدة في الاقتصاد. الاقتراض اللامتناهي. قرض يسدد بقرض يسدد بقرض.. وهكذا دواليك. لِمَ غابت هوية هذا المدير عن الذهن؟ ألم يكن رئيس شعبة في المصرف سنة ١٩٥٩؟ شيوعي متلاعب. نعمان سلوم. حتى أنك لاتستطيع أن تعلم عن يقين إن كان مسيحياً أم مسلماً! اختفاء ظاهري؛ أو ظهور اختفائي. أشخاص الكواليس؛ ولكنهم يمدّون أرجلهم وأيديهم نحو الأضواء بين الحين والحين. فإذا تدفؤوا قليلاً سحبوها بهدوء كيلا تلفت الأنظار. مدير شركة! نعم. رئيس شعبة، كان. خرنگعي، إذا أردت وصفاً دقيقاً له. خرنگعي غير قابل للإيذاء، غير قابل للكسر. شخص بمأمن من عوائد الزمان. جرده، مثلاً، من ألبسته؛ ألبسته الظاهرة، المادية؛ وتلك الخفية التي لاترى. انزع عنه أولاً سترته واسمه، ثم بنطلونه ووظيفته. وباشر بعد ذلك بتمزيق ثوبه الأنيق وسيارته. وعندئذ لنقف قليلاً نتضاحك معاً على النتائج المحزنة التي سنحصل عليها. ولكنهم، أيعملون أشياءً من

هذا النوع؟ هذه هي الأعمال الأصيلة. ماذا يعني أنك تشرب يومياً وأنك مفلس لا مورد لك البتة؟ إنها القشور الأولى؛ السترة والبنطلون والثوب الأنيق. وأما اللباس والحذاء فتلك شؤون أخرى. نعمان سلوم مثلاً، ماذا يفعل لو كان مدمناً مطروداً من وظيفته وأهله؟ ولكن هل تظنّه يستطيع الوصول إلى هذه الأعماق؟ خرنكعي أصلي. إنما هذه الشمس لا تحتمل؛ وأنت تغذ الخطى كأنك ذاهب للقاء حبيبة. يا ملعون الأهل؛ وأنت ونعمان سلوم على طرفي نقيض. لكنكما في الطريق سواء. تخافان، تخافان. إنها مرعبة، هذه الحياة. جلست في فراشك ذات فجر، منذ آماد، ترتجف رعباً. لم يكن هناك موجب للاستيقاظ في ذلك الوقت العسير. لم تنم إلا حوالي الثانية صباحاً بعد عراكٍ رخيصٍ وملاسنة وتدافع وإهانات من مديحة. وكنتَ تعباً مخذولاً؛ تلك كانت المرة الثالثة التي تصرف فيها الراتب خلال الأيام الأولى دون إعطائها فلساً واحداً. سكرٌ مستمرٌ لاينطفئ أجيجه وقمارٌ وجنسٌ قذرٌ. واستيقظت قبيل الفجر ولما تزل متعباً مدحوراً. لم تصل أنوارِ النهار الأولى إلى الغرفة الضيقة، وجلست في فراشك المفرد. وكنت مستوحشاً متوحِّداً لغير سببٍ، خافقَ القلب منكمشَ الجسم. كانت الغرفة خاليةً شبه جرداء؛ كانت قد طردتك من غرفتها، وكنت متوحداً مثل راهب خائن حينما فاجأك ذلك الخوفُ. اكتسحك رعبُ الموت، الرعب من أنك قد انتهيت، وأن لا فائدة من أي شيء بعد الآن. عبثاً كل ما تعمل، عبثاً كل ما يعملون. لن يفسِّروا مصيرك المدمَّر. وارتجفت وسال عرقك البارد وأنت في السرير، متوحداً خائناً نفسك وعالمك. وفي تلك الغرفة الجرداء أحاطك الهلاك الذي كان ينبع من كل زاوية فيها، وبدأت تعيش انهيارك البطيء.

* * *

دخل غرفة مدحت في الوزارة بعد أن أخبره الفرّاش أنه خرج وسيعود بعد قليل. جلس في كرسيه المعتاد قرب الشباك المطلّ على النهر، متجنباً النظر إلى الخارج. لم تهدأ عيناه بعد من ضربات النور الساطع في الشارع، فأغمضهما مستكيناً إلى الضوء الخافت الذي يملأ الغرفة. أنهكته هذه المسيرة اللعينة من باب الشيخ حتى السراي تحت هذه الشمس المتوهّجة. إلا أن جسمه أكثر تعباً مما ألف. وهذه الطّرقات الداخلية لاتزال تعمل عملها، وخفقان قلبه والتواءات معدته لم تفارقه تماماً. رنّ جرس التلفون مرتين أو ثلاثاً قبل أن يدخل الفراش فيرفع السماعة. لمح على المكتب علبة سجائر وشخاطة. انتظر خروج الفراش فقام بتثاقلٍ وأشعل واحدة سحب منها نفساً عميقاً. دغدغ الدخان رئتيه وأراحه قليلاً. شعر أنه يستطيع أن يعدّ نفسه فارغاً من كلّ شيء؛ بلا هموم ولا مستقبل ذي قيودٍ. زورق يطفو بين القاع والسماء. يتمرجح، يتمرجح. لايمسّ السماء ولاينحدر إلى القاع. توازن من نوع خاص. التوازن الأفضل. لذّة البقاء، دون عملٍ، في منطقة تعادل القوى. وليعملوا ما يعملون. هل من فائدةٍ ترجى، أن تبدأ من جديد، أن تبدأ على الإطلاق؟ امتصّ سيكارته بشغفٍ فضاق صدره وقحّ عدة مرات.

فُتح الباب بسرعة ودخل مدحت مبتسماً مشرق الوجه، يحمل بيده رزمة كتب. تصافحا. لم يفاجأ برؤيته وخُيِّل أنه سرّ بها. سأله بعد أن جلس وضغط على الجرس.

– صار لك هواية هنا؟

أجابه بالنفي. دخل الفرّاش:

– نعم عمّي.

- تشرب شي أبو سها؟

ثم أردف مكلّماً الفرّاش:

- شوف قادر. شفت هسّه أبو الكبة قاعد برأس السوق. هاك جيب لعمك أبو سها كباية حارة وقطعة خبز.

وأعطى الفرّاش نقوداً:

- وجيب وياك شايين من ترجع.

هتف هو:

- كبة ألمن، مدحت؟

- ألك طبعاً.

- آني شسويّ بالكبة!

لم يوجّه مدحت إليه الكلام:

- يالله قادر. كباية حارة وخبزة. بالعجل.

فخرج الفرّاش مسرعاً. التفت إليه:

- لو تشوف وجهك بالمراية، تعرف أنت ما فطرت. جيت مشي؟

هزّ حسين رأسه وسحب نفساً أخيراً من السيجارة. كان مدحت يقلب الأوراق على المكتب ويفرزها إلى قسمين ثم يكتب ملاحظات على بعضها. بدا له أنيقاً في بدلته الرمادية الفاتحة وربطة العنق الخضراء؛ أنيساً متفتّحاً أكثر من المعتاد ونظيفاً. لعلّه يتوهَم كل هذه النظافة والأنس والتفتّح في الناس. مَنْ يدري؛ ولعل سبب ذلك أنه يفتقد كل هذه الأوصاف. سأله وهو يطفئ سيجارته:

- شكو عندك بالسوق، مدحت؟

رفع نظره. كانت عيناه ضيقتين سوداوين بعمق:

- اشتريت... هيك... شويّة قصص خفيفة لمنيرة. يعجبها تقرأ مرات.

- شلونهم؟ مرتاحين عندكم؟

- زينين، أعتقد. منيرة لازم تنقل لبغداد، وضعهم أبعقوبة ما كان مريح. يمكن يُدبّر نقلها قبل نهاية الصيف.

شعر أنه يجب أن يسأله عن شيء مهم نسيه. لفتت انتباهه طريقته في الكلام عن منيرة ونطقه باسمها. سأله:

- هي معلّمة؟

- منو؟ منيرة؟ لاع. مدرسة بالمتوسطة. دير بالك سيِّد.

- أي نعم. لازم أدير بالي.

دخل الفرّاش بصورة باغتته، حاملاً خبزةً محشوة بالكبة ومن خلفه الچايچي. لم يرد أن يأكل، وبقي ممسكاً باللفة المنتفخة، يتأمل الشاي الأحمر الذي وضع أمامه بعناية. خرج الفرّاش وعاد مدحت إلى أوراقه. كانت الرائحة فاغمة، تخرق الأنف. تكاثر اللعاب في فمه وهو يستنشقها متردّداً. تطلع إلى مدحت فرآه منشغلاً بعمله وهو يدير الملعقة في قدح الشاي. قضم قطعة من الخبزة الحارة والكبة، فشعر بالدهن واللحم والبرغل والبهارات تختلط في فمه المملوء. لن يحتاج إلى أكلة أخرى حتى المساء. لابأس بهذا الحل الغذائي. المهم أن يتذكره في الوقت المناسب.

سمع مدحت يكلمه:

- كبة برغل ممتازة، مو؟

كان يشرب الشاي بهدوء مستديراً نحوه. اللعنة. ابتلع اللقمة

الكبيرة بصعوبة ثم شرب جرعةً من الشاي هو الآخر. أجاب:

- لا بأس. لا بأس. هواية ممتازة فكرتك هاي عن الأكل.

تناول مدحت علبة السجائر وأشعل واحدة. جرع جرعةً أخرى من شايه. قال مدحت:

- على قضية البنات.

أنصت باهتمام. هذا هو الأمر اللعين الذي كان يفلت من ذاكرته. استمرَّ مدحت:

- الجماعة ما عندهم فكرة معينة. مديحة طبعاً ضدك وضد كل شيء يتعلق بيك.

ثم أشار بيده إشارةً دائريةً:

- شكو بينكم، ما أدري. شي يخصّكم، وما أعتقد أنتو أبرياء اثنينكم. المهم..

قاطع مدحت بسرعة:

- شنو ضدي، يعني؟

يا لسخف الإنسان ولهفاته وآماله! أجابه مدحت:

- شوف حسين. أنت تعرف مشاعري تجاهك. لا تخلّيني أدخل طرف بقضية أحسّ بيها خاسرة. خلّينا نحصل أول نوبة على... على.

وأشار بيده مرةً أخرى تلك الإشارة الدائرية:

- على أشياء تعتبرها أنت أساسية وضرورية لراحتك.

ساد بينهما الصمت. لن يقاطعه هذه المرة بأسئلة لا جدوى منها. توقف عن تحريك فكيه وأخذ ينظر بانتباه إلى مدحت. كانت عيناه السوداوان صافيتين، يكسوهما معنى من معاني الترفّع لايمكن تفسيره بسهولة. سمعه:

- والدي أيّدك بشكل عـام. هذا فـد شي مـهم. يقـدر يأثر على مديحة بالتالي.

ثم أشرق وجهه بغتةً، ياالله، كم أشرق وجهه الأسمر:

- منيرة والله دافعت عنك هواية.

- صدك؟ عجيب.

شعر بما يشبه الفرحة تساوره وهو يلوك اللقمة الأخيرة من الخبز متطلعاً إلى ملامح مدحت يعلن له أن هنالك مَنْ يدافع عن قضيته مجاناً. عاد مدحت يسأله:

- أنت بعدك في بيت عمتك، مو؟

هزّ رأسه بالإيجاب. كان يشرب بلذّة بقايا شايه على معدة ممتلئة:

- وين صاير؟ بحيّ الأكراد؟

- أي، في الجهة الأخرى من باب الشيخ، بعد مقهى ياس. لويش؟

- فكرت أجي آني والبنات عندك بعد الظهر أحد الأيام، شتقول؟

أقلقه هذا الاقتراح:

- لا. لا. لويش داخلين أزقة ودروب مظلمة. نخرج كلنا إلى الباب الشرقي أو نذهب إلى حديقة قريبة منكم. آني.. يعني. إذا رأيتهم دقائق تكفي. كنت أشوفهم يروحون للمدرسة. أقف من بعيد على جهة. حكيت مرّة مع سناء. يعني قصدي بلا حرج. تعرف أنت أحسن مني مدحت.

رآه يهزّ رأسه ويطفئ سيجارته، ثم يلبث صامتاً بعضَ الوقت:

- زين. زين.

هتف هو:

- تعرف مدحت، ما أحب البنات يشوفون ذيك المحلات والمكان اللّي أعيش فيه، ولو موقّتاً. ويعني.. يمكن النزهة بالحديقة تفيد صحتهم.

- زين. زين.

لم ترحه هذه الكلمات المختصرة المقطوعة؛ لكنه خشي أن يستمرّ في حديثه المتعثّر فيسيىء إلى نفسه أكثر مما فعل. لم يدَّعِ يوماً أنه كان والداً مثالياً، وهم يعرفون ذلك. إلا أن أمراً ما انفضح أثناء حديثه... شيئاً غامضاً عن جبنه وتفاهته وعدم اهتمامه الجدي ببنتيه؛ شيئاً يحطّ من منزلته كإنسان. ولكم أراد أن ينكره وينفيه! وها هو ذا يتنامى مع الدقائق والكلمات ويتصاعد، جداراً من حديد، بينه بين مدحت. انتبه إلى مدحت يتكلم في التلفون مع شخص لم يعرفه. شعر بنفسه ثقيلاً في الغرفة، فآلمه ذلك. لم يكن بينه وبين مدحت غير الود والصفاء. كانا صديقين قبل أن يتزوج أخته؛ وبقيا على شيءٍ من التفاهم طوال أزمة الزواج والافتراق والسفر. ولم يكن يخفي الكثير عنه، فإذا أخفى بعض الأمور فبسبب خجله منه. أحسّ دائماً أنه يجب أن يظهر أمامه بأحسن ما فيه، فكرياً وإنسانياً.

سمعه:

- وين دتروح هالأيام؟

أراحه، بشكل ما، هذا السؤالُ:

- والله مدحت، واحد ما يدري وين وشلون يقضي وقته. ماكو شي يستحق. حيرة. لاقهوة مال أوادم، ولا سينما. والقراءة... إلى متى؟

كان ينظر إليه، وفي ملامحه خليطٌ من السخرية والفضول وعدم

التصديق. ما جدوى كل هذه المناورات! استمرَّ:

- أكو فد بار رخيص. بالحقيقة هو محل بيع مشروبات وخلفه فد ساحة صغيرة نقعد فيها. محل أوانيس. لابأس به. أروح هناك مرات. رخيص شويّة. تعال فد يوم إذا تريد. صدك والله مدحت. خوش جماعات يأتون مرات. البارحة جاء هذا عدنان.

- يا عدنان؟؟

- هذا عدنان ابن مليحة بنت خالتك. نسيت اسم أبوه الملعون الوالدين. قريب أمي فوق ذلك.

- عرفته. عرفته. هو هذا جماعتك الجيدة؟ وكيف صار قريب أمك؟

- مو أمي أصلها من «الهويدر»، عيني مدحت. هذا أبوه أصله من هناك. وسيط زراعي يعني سركال، حافي، حافي حقيقي أقول لك؛ وأمّي لايعرف يقرا ولا يكتب. ولعلمك، لايزال. شلون صار غني وبراسه خير، ما أدري. عفية على خالتك أم مصطفى شلون عثرت عليه.

- أمّ مصطفى؟! ها، تقصد أم منيرة. تاريخ قديم هذا.

ثم بدا عليه الاهتمام:

- قل لي حسين، هذا عدنان، شنو من شي؟ أيّ نوع من الشخصيات هو؟

- مراهق، مستهتر، فاير دمه. لاشغل لاعمل. سيّارة تحته، ورايح لبغداد وراجع لبعقوبة وهلمجرا. شكو عنده؟ آني هم ما أدري. لكن المسألة ما تتعدى التعرصة، وباللغة العربية.. السفاهات.

- جاء قبل كم يوم لبيتنا، البارحة يمكن، ما عرفت ما يريد من

منيرة وأمها.

- لاتخلوا يخشّ للبيت. سرسري، مدلل، مستهتر.

تطلع إليه مدحت:

- متحامل عليه هواية.. السبب؟

لم يجبه حالاً. هذا الصنف من البشر، الحمقى المحظوظون، لا يميل إليهم. تراهم يتصفون بكل غباء الحيوانات وخشونتها، ولكنهم يعيشون كأفضل الناس؛ دون أزمات، دون مشكلات جديّة. قال:

- متحامل عليه؟ لويش؟ ما أدري، يمكن والله. ما يعجبني.

لم يدفع الحساب عنه ورفض أن ينقله بسيارته. جعله يمرّ بتجربة ذل جديدة؛ أن تشعر بالحاجة لمثل هذا الشخص. اللعنة. سمع مدحت:

- أريد والله حسين، أجيء فد يوم أراكم.

- وين؟

- لهذا المحل، محل أوانيس. قل لي أين يقع؟

أسعده هذا الكلام:

- في «الباب الشرقي» قرب سينما دار السلام. المنطقة مو راقية، لكن احنا شعلينا. هذا الملعون الوالدين أبو كمال يبيع المشروبات شويّة رخيص. ماكو غيره بذيك المنطقة. تعال بالله مدحت تعال اليوم. شكو عندك؟

- أحاول. ساعة بيش أنت تروح إلى هناك؟

- بيش ما تريد. سبعة ونص، ثمانية. كيفك أنت.

- أي ثمانية، ثمانية ونص وقت جيد.

- صار.

قام وتناول علبة السجائر من المكتب وأشعل واحدة ثم عاد إلى مكانه. قال:

- شفت اليوم واحد كان يشتغل ويايه بالبنك، نعمان سلّوم اسمه. ما عرفته والله. يقول إنه صاير مدير شركة. عرض عليّ اشتغل معه. قلت له أنا أنتظر فلوس توصل من الكويت لكي أشوف دربي أول نوبة.

- مدير يا شركة؟

- نسيت والله. قال لي اسمها لكن نسيته. هواية صاير دا أنسى. ما أدري لويش. قلت له لازم يرسلون الفلوس؛ هل ينكروها عليّ؟

صمت لحظات. بقي سؤاله دون جواب. عاد مدحت إلى عمله دون أن يبدو عليه أنه مهتم بما يقوله له. صارت هذه المواضيع مشكوكاً بها، ولن تفيده بعد الآن. شيء مؤسف. كان طعم السيجارة مقبولاً بعد الكبة والشاي. لن يكرّر المحاولة مرةً أخرى. مازالت في جيبه بقايا الخمسين فلساً وسيستعملها للعودة بالباص. ثم سيأخذ غفوةً طويلةً حتى العصر وما بعد العصر. لن يهمه أن يفشل في الاستدانة، لن يهمه كل هذا. كان الضوء في الغرفة لطيفاً خافتاً وكذلك الحرارة. لم يشعر برغبة في مغادرة المكان. كل شيء يريحه هنا؛ وكان ينفث دخان السيجارة ببطء.

دخل الفرّاش حاملاً بعض الأوراق. وضعها بهدوء على المكتب ثم خرج. سمع الساعة من بعيد تدق عدة مرات. لعلّها جاوزت الثانية عشرة ظهراً. منتصف النهار الحار. سيقوم بعد قليل لينغمر في محيط النور والحرارة والعرق والأجساد النتنة. لا مجال لتلافي ذلك أو محاربته. نحن أورثناه لكم. لنعشه إذن. لتعشه خالي الفكر والجيب.

اطفأ سيجارته بعد أن شعر بدخانها يلذع لسانه؛ ثم قام:

- زين يابه مدحت. لعد نشوفك اليوم إنشالله؟

كانت لهجته حزينة مؤسية. رفع مدحت نظره إليه مندهشاً:

- وين رايح؟

- أرجع للبيت.

- شكو عندك بالبيت؟

فوجئ قليلاً:

- ما عندي شي. استراح. أقرأ شويّة.

- أقعد الآن. حارّة الدنيا. انتظر نهاية الدوام ونرجع سويّة.

لم يجلس. زاد ذلك الحديث من حزنه فصمّم أن يعود لينام:

- لا، عيني مدحت. أحسن لي أرجع الآن خاطر أنام شويّة.. ورا الغداء.

- كما تحب. إحنا على موعدنا، على كل حال.

سلّم بيده وخرج مغلقاً الباب بهدوء خلفه.

كان لايزال حزيناً حين واجهته أشعة الشمس الملتهبة والساحة الفارغة ثم الشارع المليء بحركة الناس والسيارات. تحسّس جيبه فعثر على بعض القطع من النقود المعدنية.. أربعين فلساً. يمكنه إذن أن يعود مستقلاً الباص؛ وسيفعل. لم يكن جائعاً ولا متعباً، ولكنه أحسّ بجسمه لايستجيب لحركات سيره. خطر له أن هذا قد يكون تعباً روحياً؛ وكان عليه أن يفسر ذلك لنفسه فيما بعد.

* * *

... رأى أبا شاكر ينزل كأس العرق ويضعها بحذر على الأرض

قـربـه، ثم يمسح فـمـه وينظر إليـه. كـان قـابعـاً في الدكنة قـرب المدخل. نظارتاه السوداوان وسدارته المرتفعة تسبغ عليه مسحة المآتم. سمعه:

- أخ حسين..

يمطُّ كلماته ويرخيها «خفّاش ليلي. لعنة والديك».

- ... آني دا أشوف..

«ضائع كثير، حذاء فمه»!

- .. يعني إذا تسمح لي..

لحيتـه تغطي وجهه النحيل وملابسه غامقة كلها. «لازم أخذه العرق من زمن. ابن اليمني».

- .. آني دا أشوفك أخ حسين..

«لا والله. لا دتشوفني ولا بطيخ».

- .. متأخر هواية بالشرب. يعني إذا تسمح..

- تفضّل أبو شاكر. ليش ما أسمح؟ شكو بيها؟

«بقيت على هذه!»

- لايعني.. مو تمام؟

ثم تحرك عدة حركات سريعةٍ ومضطربةٍ ونظر إلى ساعته:

- .. تره ساعة ثمانية وربع!

«كأنه اكتشف النفط بالعبخانة». لمعت نظارتاه وخُيِّل إليـه تحت الضوء الشاحب أنه يرى فمه يعوج قليلاً. «أفقده العرق اتّزانه». أجابه:

- بسيطة أبو شاكر. دا انتظر جماعة.

بدت الدهشة على أبي شاكر:

- يعني هذه مو أول قنينة بيرة؟

«بالإسلام»؟

- ميخالف أبو شاكر. علينا بالتالي.

«ومن يدفع؟ يابنَ الغبية»! ضحك طويلاً وتراجع منكمشاً كالخنفساء في مقعده الخشبيّ:

- خوش حكاية هاي أخ حسين. عند الصبح تسمع العياط.

«ما هذا الكلام اللامترابط؟.. لا مربوطيات حقيقية» انزاحت الستارة التي تفصل الدكان عنهم وبدا أبو ناظم:

- السلام عليكم. والله من باب المعظم جئت مشي إلى هنا.

صرخ أبو شاكر:

- الله أكبر.

«لعنة والديك. أفزعني والله»:

- عليكم السلام. لويش أبو ناظم؟ ماكو باصات؟

جلس على المقعد الخشبي جوار أبي شاكر وأخرج كفيّة قذرة أخذ يمسح بها وجهه:

- شارع الرشيد مليان سيارات، واقفة كلها. الباصات تمشي خطوة خطوة والناس ديختنقون داخلها. هاي حال يا جماعة؟

كان ينزّ عرقاً، أحول، كثُّ الشعر مليء الجثة. هتف أبو شاكر:

- لويش يابه؟ شكو؟ ما تقول لي شكو.. أشصار؟

- ماكو شي أبو شاكر. قلت آني أحسن ما أدفع فلوس وأختنق، خلّي أتمشّى وأضع فلوسي بجيبي. تمام؟

صرخ أبو شاكر مرةً أخرى:

- أحسنت. أحسنت أبو ناظم.

«هاي شلون الليلة مع هذا الحمار»؟ نادى أبو ناظم:

- أبو كمال. يا أبو كمال.

أطل أوانيس برأسه:

- نعم..

- ربع عرق الله يخلّيك ويخلّي والديك أبو كمال.

- صار.

هل سيأتي مدحت أخيراً؟ لايمكن أن يخطئ في إيجاد المحل. سمع أبا ناظم يكلّمه:

- شلون الصحة أبو سها؟

- الحمد لله. الحمد لله أبو ناظم. أنت شلونك؟

- عال. ممتاز.

همس أبو شاكر شيئاً في أذن أبي ناظم فمال هذا إليه. كانا مثل غرابين، في زاوية الغرفة المظلمة، وكان الحرّ مزعجاً. دخل أوانيس بخفة فوضع قنينة العرق والكأس قرب أبي ناظم ثم خرج بعد أن نظر إلى كأسه هو. ألن يأتي مدحت؟ رفع الكأس وشرب ما تبقّى في قعرها من بيرة حارة. كانت يده ترتجف قليلاً وفي جسمه تسري حمى خفيفة أو ما يشبهها. لم يأكل شيئاً منذ الصباح؛ بعد تلك الكبة الخالدة! ولقد أفاده أن ينام ساعات بعد الظهر دون إزعاج. نوم الأموات؛ دون أحلام أو إحساس بالحرّ. لكن اليقظة أتت بعد ذلك. عاد صاحياً قلقاً مرتجفَ اليدين. وهو يعلم جيداً أنه لا يستطيع طويلاً احتمال حالته هذه. سيبدأ بشرب العرق بعد قليل. لن تعوزه الحيلة لتدبير ثمن ربع العرق؛ حتى ولو اضطرّ للاستدانة من أبي ناظم. كانا لايزالان على تهامسهما المريب. قال لهما:

- يابه، إذا تردون آني أقوم أخرج. أنتم خذوا حريتكم يا جماعة.

صرخ أبو شاكر:

- الله أكبر أخ حسين. شنو هالحكي؟

وهتف أبو ناظم:

- مولانا شكو عدنا. أنت ما تعرف أبو شاكر! ألف حكاية بلا فائدة. خلّي دنشرب يابه.

ثم انحنى يدير لنفسه عرقاً في الكأس المليئة بقطع الثلج. «ما ديشوف الحمار، آني ما عندي مشروب؟ هاي شلون راح ندبرها مع هذوله الخرنكعية؟» وأضاف ماء فتحلب السائل في الكأس. وضعه على الأرض ثم أخرج من جيبه كيساً ورقياً صغيراً فتحه وقدمه له:

- تفضل أبو سها. فستق عبيد. بعده حار.

«واصل».

- أشكرك أبو ناظم.

سمع شخصاً يكلم أوانيس في مقدّمة الدكان، عرفه من صوته فقفز من مكانه.

كان مسروراً وهو يعود بمدحت ويعرّفه بالجماعة ثم يجلسه في مقعده، ويسحب برميلاً فارغاً فينزوي جواره. شعر كم كان متوحّداً مستوحشاً، دون شراب ولا نقود. لم يألف أن تستجيب نفسه للشاربين معه وهو لايزال صاحياً. طلب ربع عرق وقنينة بيرة مثلجة. كانا، أبو شاكر وأبو ناظم، في حديث مبهم آخر؛ غرابين لا أهمية لهما الآن. بدا له مدحت أنيقاً شاباً تنبعث منه رائحة طيبة. قال له ذلك بعد جرعتين قويتين من السائل السحري. ابتسم مدحت ولم يجب. كانت الساعة

تقارب التاسعة. سأله:

- الجماعة رضوا على الكتب؟

نظر مدحت نظرةً سريعةً إلى رفيقيهما ثم همس:

- منيرة؟

فهزّ له رأسه. «شلون حلو اسمها». سمعه:

- أي. أعجبتها الكتب.

ورآه يجرع جرعةً كبيرةً من البيرة فرفع رأسه هو الآخر وشرب.

كان محتاجاً أن ينتقل من عالمه ذاك، ولم يهمه ألا يجد مزّة مع العرق. قال لمدحت:

- شفت كرومي قبل كم يوم. هواية ضعيف وأصفر شفته. شلونه هسّه؟

- الحمد لله. زين ومو زين. تعرف كان مريض، حكيت لك. بقي مريض مدة طويلة. مرض غريب. لاتعرف ما به. كأنه ما يريد يعيش، ما يريد هالحياة.

- لويش؟ خير انشالله؟

- ما أدري والله بالضبط. قضية معقدة. كان عنده صديق يحبه هواية، دهسته سيارة أمامه؛ وأثّر هالحادث كثير عليه. هو من صغره لا يتكلم ولا يختلط بأهل البيت. قبل كم يوم وقع بالحوش. أغمي عليه. أزعج الأهل كثيراً. ما أدري شنو قصّته هالولد..

كان يتكلم ببطء وبلهجة حزينة. لم يكمل وعاد يشرب جرعة كبيرة أخرى من البيرة. رفع كأسه بسكون هو أيضاً. «يبيّن ناويها اليوم». أشعل مدحت سيجارة وقدم له واحدة فأخذها. كان أبو شاكر وصاحبه

يتحاوران بحماس عن شيء غير مفهوم؛ وكان يخشى أن يقطعا عليهما الحديث، فلم يلتفت إليهما وتظاهر بأنه غير مهتم بما يبحثان.

- شلون وضعكم بالبيت، مدحت؟

- أي وضع؟

- وضعك أنت، والجماعة شلون.. مرتاح أنت؟

هزّ رأسه وأشار بيده إشارة لامعنى لها:

- يعني:

ثم سأله فجأة:

- أنت شلونك؟ أقصد شلون حقيقتك؟ وين راح توصل حسين؟

حكّ رأسه. «مو خوش بداية على بختك» ونفث دخاناً من أنفه:

- ما أظن راح أوصل. لويش دا أوصل؟

ثم ضحك. رأى الكآبة ترين على وجه مدحت. «مو خوش بداية يا فحل» استمرّ:

- شوف مدحت، آني أعرف أنت تحبّني مثل ما أحبك وأنت دتسألني مو بصفتك خال بناتي، لكن..

ثمّ شعر بنفسه يبتسم:

- تره فات الوقت.

- شنو هالكلام؟ أي وقت وعلى أي شيء فات؟

- لاتنخدع. لاشيء يفوت ولا تحسّ به، مثل حياتك. لاتقول لي الشباب يبدأ بالأربعين لو بالستين. شوفني آني هسه.. آني بهالوضع، وأحسب بقدر ما تريد. شنو النتيجة؟ ارجع للوظيفة؟ وبالتالي ارجع مع مديحة والبنات؟ أنت تعرف أي واحدة من الاثنين لن تتحقق. ماكو

وظيفة إليّ مادام..

ورفع كأسه عالياً بعض الشيء:

- چريو.. صحتك.

ثم جرع جرعة كبيرة. «خوش تمثيلية». كان متأثراً بشكلٍ ما، من كلامه. لم يحدّث نفسه بمثل هذه الصراحة من قبل ولا كان بودّه أن يحدث مدحت هكذا. سمع مدحت:

- شوف حسين. خلّي المسائل العائلية والاجتماعية من فضلك على جهة.

- شنو بقى لعد عيني مدحت؟

- بقي شيء آخر. هو هذا اللي أريد أسألك عنه. أنت. نفسك. حقيقتك.

«راح تشتغل الفلسفة. الله يسترنا». أجابه:

- آني شنو؟ هذا آني ماكو شي مخفي. أكو؟ بقايا ورواسب المجتمع والعائلة. تف.

- كلّنا هالشكل. كلّ البشر. مو هذا قصدي. شوف، المهم..

قاطعه بحماس:

- ماكو شي مهم عيني مدحت. كل شي يساوي كل شي. «فرويد» الله يرحمه مثل أي زبّال عراقي «بالهويدر» الله يرحمه. وكتاب «أصل الأنواع» يساوي..

رفع مدحت يده فأشار إليه:

- دقيقة. آني مو عدمي بالطبع ولا ملحد. آني، بس، مفلس. مفلس من الحياة. لا، مو يائس، أبداً.

كانت في رأسه دوامة من الأفكار لم تتضح تماماً في أقواله ولم يستطع أن يعبّر عنها:

- ... من أي شيء أيأس؟ آني بالأصل ما أريد شي من الدنيا. لويش أيأس؟ وهذه الدنيا، أخذها مني، راح تمشي على هالحال بعد ميت سنة.. ميتين.. ألف. شنو يعني؟ أكو معنى بهذا الشيء؟ إذا ماكو معنى.. إذن انتهى وإذا أكو، خبرني عنه من فضلك.

ثم تناول كأسه وكان حزيناً. لقد بدأت ليلته قبل قليل، زمنه الحقيقي. رأى مدحت يدخّن سيجارته بجمود، دون أن ينظر إليه. يمكنه الآن أن يواجه أيَّ شيءٍ رهيبٍ، أية مؤامرةٍ. لن يستطيع أحد خداعه أو التغلب عليه. إنه، خلال زمنه الحقيقي هذا، شخصٌ ممتازٌ في قدراته الذهنية والجسدية والعاطفية. كان الحرُّ مزعجاً ولغط رفيقيهما يعكّر عليهما الحديثَ. التفت إليه مدحت. بدا له متضايقاً:

- شوف حسين، هذه حالتك وأفكارك ما أقدر أبحثها وياك هسّه. آني دا أفكر بمستقبل معين وأنت تسدّ كل الأبواب.

- يا مستقبل؟

ثم أردف دون أن يعرف لماذا:

- أنت تريد تتزوّج. مو بالله مدحت؟

أطفأ مدحت سيجارته وكرع بقايا كأسه. لبث فترة صامتاً ينظر أمامه وكأنه غير موجود قربه. ثم سمعه يتكلّم بصوت أجشَّ:

- المسألة أنت ما تريد تخلّي أمامك مستقبل؛ ما تريد تحسب له حساب. وهذا شيء سهل ومريح. خاصة إذا قدرت عليه، إذا كنت منسجم مع نفسك.

توقّف. رأى في وجهه، خلال دخان السكائر المتكاثف والظلام الخفيف قلقاً أو ما يشبهه. استدار إليه نصف استدارة ونظر في عينيه مباشرةً. نظرةً حادةً، شرسةً:

- هذا الحكي ما يخدعني حسين. أنت علاقتك مع نفسك شلونها؟ مرتين سألتك هالسؤال.

ثم أخذ يتكلم بهمسٍ فجأةً:

- شلونك مع صوتك الداخلي حسين؟ قل لي، أعندك صوت يركض وراك أين ما تتجه، يسألك عن كل شي ويعلق على كل شي؟ هذا شنو، هذا ليش عملته، هذا صح، هذا غلط، هذا نفاق، هذا تعدي، هذي خربطة، هذي هزيمة؟ صوت لاينام ولايتعب. يحكي وياك أثناء ما تحكي وأثناء ما تسكت. من تكون بوحدك، أو أنت مع الناس. عندك مثل هذا حسين؟ عندك؟

كان خافقَ القلب لغير سببٍ وهو يحاول أن يبعد بصره عن وجه مدحت المعذّب. بمَ يمكن أن يجيبه؟ بالخيبات والانتكاسات ولحظات الخجل والعار؟ أبمقدوره أن يعلن له أن الآخر عنده هو الذي صنعه؟ قال بتردّدٍ:

- شنو.. يعني هالصوت، عيوني مدحت؟

- ما عندي شي أضيفه. أنت لو تفتهم من أول كلمة لو ما تفتهم. ماكو وسط.

هل اختار حياته هذه؟ هل صمّم عليها؟ إنها تلك الدقائق الحاسمة من الزمن الطويل هي التي صنعت حياته. كلمة زائدة حيناً وأخرى ناقصة في حين آخر. لحظة ملل لايمكن التغلّب عليه. إغراء كأسٍ. استدارة

ردف. فشل جنسي. سأله:

- إذا تقصد.. ما أدري والله..

توقّف. سأل مرة أخرى:

- لويش أحكي مع نفسي؟ مخبل آني، الله يخلّيك مدحت؟

غامت عينا مدحت وانكفأ عنه يولع سيجارةً. ثم سمعه يتكلّم بصوتٍ خافتٍ:

- كما تشاء حسين. إذا ما تريد تحكي.. كيفك. بس أنت دتفتهم. ليش هالقدر يائس؟

أحزنته لهجة مدحت الكئيبة المنخذلة:

- قلت لك مدحت آني مو يائس، آني مفلس من الحياة. أنت ظنيت أنا كنت دا أسخر.. أو دا أبالغ. لاكت هذا هو الواقع.. واقعي. شسوي؟

رفع كأسه. «لعنت والديّ إذا ما أفرغه كله هالنوبة».

- جربت مرة أضع نفسي على المشرحة. أقشرها. أشوف شنو آني؟

زادت من حماسه تلك الحرارة الأليفة التي اشتعلت في جوفه:

- شنو آني؟ من أي شيء أتكوّن؟ شنو هالجوهر الخرة مالي؟ من أي شيء متركّب؟ شلون آني صاير هالشكل؟

شعر بالكلمات تتثاقل وهي تخرج من فمه المرتخي الشفتين. دار رأسه قليلاً ثم استكان. كانت الكأس فارغة أمامه، فتناول قنينة العرق وصب منها في الكأس ثم وضع قطعةَ ثلجٍ وبعضَ الماء. كان بودّه أن يقول شيئاً فذاً يذهل مدحت ويثير إعجابه. لكن الكلمات اللعينة لاتواتيه، وذاكرته تظلم بين فترة وأخرى وتتركه وسط ركام ألفاظه المبعثرة ضائعاً مهاناً. وهو لايحب أن يعيد تجارب من هذا النوع. إلا أن

مدحت معه الآن، وهو يتمنى ذلك منذ سنوات. هتف:

- تدري.. مــدحت.. يعني شــقــدر.. والله بالكويت.. كم كنت أتذكّرك؟

صرخ أبو شاكر:

- رايح للكويت أخ حـــسين؟ جكاير أخي. جكاير روثنام الله يخلّيك.

- ماكو كويت ولا بطيخ، أبو شاكر. منو يقدر يروح هالأيام؟ الدنيا مقلوبة هناك.

كان مدحت ملتفتاً إليه، ينتظر. لم يكن يصغي إلى ما يقوله أبو شاكر. «هواية دياخذ القضية جدياً». استمرّ:

- حياتي بالكويت كانت كسيفة. ما كنت مستقر ولا مرتاح. أكو مشروب طبعاً. لكن ما تقدر ترتاح بالأوتيل. المهم..

سأله مدحت بصوت ثابت:

- صحيح جرّبت تعثر على نفسك.. مثلما قلت؟

أخذ يفتّش في جيوبه عن علبة سجائر لم يجدها. «خوش ورطة اليوم، سيد قندرة». قدم له مدحت سيجارة فتناولها وأشعلها ثم امتص منها نفساً طويلاً. كان يشعر أنه على وشك أن يصل إلى قمّته المعهودة. قمة زمنه الحقيقي، حين يختلط الفرح بالعالم والانذهال بالحياة، فيصير الصدق خيالاً وتتلاشى الجدران. لم يرد أن يكذب على مدحت:

- ما أدري. يمكن. فد مرة طلعت من البيت وما رجعت. كنت أشتغل ذاك اليوم بمصرف الرافدين وكنت متزوج صار لي ثلاث سنين أو أربعة. ما أتذكر زين. حالتنا المالية لابأس بها، وكنت متصل ببعض

الجماعات السياسية التقدمية والأدبية. نعم، خرجت، بس وين راح أروح، ما أدري. شأعمل؟ ما أدري. شي واحد كان بذهني.. ما أريد أعيش نفس حياتي.

... أغراه صديقه فاروق بلعبة «پوكر» عالمية في إحدى الدور المشبوهة. شراب وقمار ومن المحتمل.. نساء أيضاً. خرجا بعد الدوام يحملان راتبهما ووصلا إلى الدار في منطقة من مناطق الكرادة بعد الظهر ولم يتصل حتى تلفونياً بمديحة ليخبرها أنه لن يعود للبيت. وجدا ترحيباً حاراً ولم يمض وقت طويل حتى باشرا باللعب مع الحاضرين ومع من أتى بعدهم...

- ما كان عندي قصد معين من رحت للأوتيل وأخذت غرفة. كنت أريد اختلي بنفسي بس، أريد أشعر ماكو عندي أي روابط ولا مسؤولية قدام أي شخص. كنت مثل واحد تلبسته فكرة. شنو آني بلا وظيفة ولا عائلتي ولا أطفالي وبلا بيت ولا أصدقاء؟

... تلك كانت ليلة رائعة. قمار وورق مدهش ونقود تتكوّم أمامه ويسكي يفيض من الكؤوس وماري. كانت مندسّة قربه، تسحق نهدها البارز على كتفه مرةً وتتكئ بردفها على كرسيه مرةً أخرى، وتتهامس معه وتتعابث وتتغامز. والساعات تمضي أقصر من الدقائق...

- شنو آني، كنت أسئل نفسي، إذا رميتني، ربّي كما خلقتني، على جزيرة أو في زيزة؟ شنو آني بلا ماضيٍ ولغتي؟ بقيت أفكر. وبالحقيقة.. يعني كنت مثل المسجون بهالأفكار طول الوقت، مثل مريض بالتفكير. بلا أكل ولا شرب طول الليل.

... كان الورق فذاً طوال تلك الليلة وما دامت ماري اللذيذة بجانبه

تسقيه وتداعبه. ومضت السّاعات وانبلج الفجر ولم يستريحوا غير فترة قصيرة تناولوا فيها طعاماً خفيفاً وتلمّس طويلاً نهدي ماري وقبّلها في زاوية من الدار. وعادوا إلى المائدة وكان رأسه فارغاً، يرنّ كالطبل...

- ونمت وجلست بعد الظهر. بقيت بفراشي بلا أكل ولا حلاقة. ما شفت أحد ذاك اليوم وكنت أريد أبقى على هالعزلة.

... جاوزت الساعة الواحدة ظهراً، فلم يعد يستطيع رؤية الورق جيداً وطلب أن يستريح قليلاً. أراد أن ينام فقط ولم يخطر له قطّ أن يعود إلى داره وأطفاله وأن يتصل بهم بأي شكل كان. كان رابحاً مبلغاً لايتذكره من المال وكان يريد أن يجامع ماري. طلبت رقماً من الدنانير فأعطاها إياه دون تردد ورافقها إلى غرفة في جهة من البيت...

- قمت أتمشّى بالغرفة. زين أتذكر تلك الساعات. كمن يركض وراء خيال.. شيء لايُمسك ولا يرى. وانتهيت بالتالي لنتيجة وحدة.. ما أقدر، آني هالإنسان، بهالوضع بهالحالة العقلية.. ما أقدر أوصل إلى نتيجة، لأن ما دا أقدر أثبت شي ولا دا أعرف منين أبدأ.

... يا للخيبة! خيبته وخيبة ماري اللعوب. كان رقوده على الفراش اللين يعني تخديراً له. لم تعد في جسمه أية طاقة لمقاومة التعب والإرهاق. وهكذا، ما ان وضع رأسه على المخدة، يريد أن يستريح لحظة، حتى تهاوى في نومٍ عميقٍ أبعده عن ماري وعن جسمها الحار...

- لكن ساعات التفكير هذي خلتني أحسّ فد صفاء بنفسي ما جرّبته من قبل. خرجت من الأوتيل وكان الوقت ليل ورحت إلى أقرب بار. شربت وشربت كأني أشرب روح الحياة. شعرت بنشوة هائلة وبقيت أشرب إلى نصّ الليل. ما اكتفيت، اشتريت قنينة ويسكي وأخذتها معي

للغرفة وبقيت أشرب إلى الفجر.

... أيقظوه بعيد العصر، ولم تكن ماري معه. ذهبت دون أن تترك له شيئاً، حتى ولا رائحتها. جلس إلى المائدة وهو يحسّ، لغير سببٍ، أنه فقد جزءاً من نفسه. لايزال يتذكّر لحظات جلوسه تلك قبل أن تأتي بقية اللاعبين. كانت السماء تبين له من خلال الشباك، زرقاء صافية مليئة بالفرح والنور. كانت عالماً نقياً بعيداً أرعبه فجأة. وعاد إلى اللعب وفارقه كل حظّه. قاوم بعنف وتشبث بآخر ورقة نقدية له. ولم ينفعه ذلك. شعر أن حكماً قاسياً صدر عليه حين كان ينظر نظرته تلك إلى السماء. وانتهى كل شيء عند الفجر وخرج من الدار فارغاً مستنزَفاً...

– وخرجت من غرفتي مع طلوع الفجر. نفسي شعرت بها فارغةً. بقيت أمشي بوحدي بالشوارع الخالية. كنت مفلس ومهزوم. مهزوم مرتين ومكسور. عرفت ذاك الوقت شنو آني.

لايزال مدحت يصغي إليه والدخان في الغرفة كثيفاً والحرارة لا تطاق. رفع كأسه وشرب جرعةً كبيرة من السائل اللاذع البارد. كان مرتخي الجسد، يدغدغه شيءٌ ما غامضٌ في عقله وأعصابه. أراد أن يكلم رفيقيه البعيدين وأن يسمع منهما شيئاً مضحكاً أو بذيئاً. همس مدحت:

– شنو هالكلام الفارغ هذا؟

تماسك منصتاً. ليس مستبعداً أن تخدعه أذناه. أحّد نظره نحو وجه مدحت. لم يكن مخطئاً في فهم كلماته. بدا له في انطباقة فمه وفي عينيه الضيقتين أنه لن يسكت عن قريب. عاد يتكلم بصوتٍ خافتٍ حادٍ:

- ظننتك مخلص مع نفسك. ظنيت عندك حكايات فيها معنى.

ثم رآه يتناول الكأس بسرعة ويفرغها في جوفه. شعر بقشعريرة تمرُّ من عنقه إلى صدره وظهره. بقي ساكتاً متوجّساً. لا مجال أمامه لكي ينفي أي شيء قال. لا شيء على الإطلاق. لم يكن مستعداً لمعركةٍ مع مدحت عن الحقيقة والحياة. قال:

- شبيك عيوني مدحت؟ حكيت غلط؟ أزعجتك؟

وكان صوته يابساً مرتجفاً. لم يجبه مدحت. طلب قنينة بيرة أخرى، فصاح منادياً أوانيس فأسرع هذا إليهما. وجد متنفساً لأعصابه وهو يسمع نفسه يطلق النداءات. كان ذلك عملاً طيباً. ثم عاود مدحت الكلام:

- آني أحترم وضعك حسين. ما أقدر أقول لك أين الخطأ بأعمالك. هذا مو شغلي. يمكن آني افتهم ضعفك وبعض تصرفاتك، لكن خداعك لي تره ما أقدر أطيقه. أنت لويش تتظاهر عندك مغامرات فكرية وروحية، وأنت تعرف زين كم تزيّف الأمور وتغشّ؟ آني أريد أعرف معاناتك من هالحياة الوسخة. شلون يعاملوك الناس. مذلتك. إهانات الدنيا. ظلم العالم. أريد أعرف أنت دتفتهم.. دتراقب.. دتعرف إلى أين وصلت؟

كان فمه جافاً وفي فكّيه أحسَّ ارتخاءً غامضاً. قطع أبو شاكر وأبو ناظم حديثهما وتوجّها بالنظر نحوهما. بِمَ يمكن أن يجيب وكيف يتصرّف؟

كان يدخن سيجارته بعدم اهتمامٍ وكأنه بمفرده. سأله بصوت منخفضٍ خامدٍ:

- لويش تهينني عيوني مدحت؟ آني أحبك مثل أخي.

رآه يتنفس طويلاً، ويعمق ثم يلتفت إليه:

- آني ما أقدر أهينك حسين. أنت زين تعرف هذا. آني بالعكس أريد احترامك، أريد أشعر لا يزال فيك أمل. بس، مثل ما قلت لك، لاتخدع نفسك وتخدعني. ما عندي وقت حسين لمثل هالأشياء. آني أيضاً عندي مشاكل أتمنى لو أقدر أحكي لك عنها.

سرّته هذه الكلمات. شعر أنها تعبّر عن حقيقته بشكلٍ ما. قام فقبّل مدحت في رأسه:

- أنت أخويه مدحت، وأنت تعرف أحسن مني شنو آني.

هتف أبو شاكر:

- فيها الخير يا جماعة. لاع. إنشالله ماكو شي.

أيّده أبو ناظم:

- نعم. نعم.

- مولانا أحنا أقرباء. أخوة وأقرباء. عن أي شيء تحكون؟ في صحّتكم، إخوان.

لم يكن خجلاً، لكنه تمنى أن يكون في فراشه، في غرفته تلك المنعزلة، أو في حمام شرقي مليء بالبخار، مقرفصاً يسكب الماء الحار على كتفيه. لعله ينسى ما يقال له، لعله ينسى تاريخه وما يجب أن يعمل. لقد أراد مدحت بإخلاص أن يشاركه شقاءه، ولكن، هل بمقدوره أن يخبره ألا فائدة تَرجى من ذلك؟

كانا يشربان بهدوء وبطء دون أن يتبادلا الكلام. بدا له أن وقته مع مدحت سيكون قصيراً، فآثر أن يلزم الصمت لئلا يثير غيظه مرةً

أخرى. قال أبو شاكر يكلّمه:

- أخ حسين. حكاية الأخ.. الأخ الحلو..

غصّ أبو ناظم بضحكة مكتومة شاركه فيها أبو شاكر. ابتسم هو ونظر بحذر إلى مدحت. رآه مشغولاً بأفكاره وعلى وجهه مسحةٌ من الغياب عن عالمهم. أراد أن يخفّف عن أعصابه قليلاً بمداعبة رفيقيه، إلا أن القادم الجديد قطع عليه مشروعه. كان طويلاً بغير رباط وشعره الأسود اللامع يتناثر على جبهته:

- مساء الخير.

ووقف وسط الغرفة حين لم يجد له مكاناً. هتف:

- مساء النور. أهلاً. أهلاً عدنان.

- مرحباً أخي. هسّه كنا نسأل عنك.

تراجع عدنان إلى الوراء ونادى بصوت عالٍ:

- أبو كمال. كرسي بالله كرسي.

قال له:

- تعال هنا أجلس إذا تريد.

وسحب برميلاً فارغاً من وراء كرسيه. أشار إليه عدنان برأسه أن لا، ثم رآه يرى مدحت ويتراجع ثانيةً:

- شلون الصحة أستاذ مدحت؟

خُيِّل إليه أن صوته انكسر مرة أو مرتين. أجابه مدحت:

- كلش زين. أشكرك عدنان. أنت شلونك؟

- الحمد لله.

دخل أوانيس حاملاً كرسياً من القصب فتناوله منه عدنان ووضعه

في المدخل وقال وهو يجلس:
- بيرة «ديانا» باردة بالعجل أبو كمال.
- صار.
- الله بالخير. الله بالخير.
- مسّاكم الله بالخير.
ثم أخرج علبة سكاير قدم منها للحاضرين. لم يأخذ مدحت وبقي يراقب عدنان بفضولٍ، سأله هو:
- ليش كنت مستعجل البارحة عدنان؟ على الأقل وصّلنا.
وضع عدنان ساقاً على ساق:
- كان عندي شغل أبو سها.
شعر بالغيظ يتملّكه. هذا الأخرق! يعتقد أن بضعة دنانير في جيبه تعطيه الحق في احتقار مَنْ يشاء من الناس. سمع مدحت يسأله فجأةً:
- أنت جئت البارحة لبيتنا شتريد عدنان؟
فانهار بناؤه. سحب السيجارة من فمه وعدّل من وضع ساقيه. صفهما أمامه متلاصقين، وأسرع يجيب:
- نعم. نعم. جئت أسأل عن منـ.. على خالتي. خالتي يريدونها بالمدرسة.. في بعقوبة.
- شيريدون منها؟ وأنت ما علاقتك بالمدرسة؟
بلع ريقه. رآه يبلع ريقه. لم يسبق له أن شاهده هكذا. الملعون الأهل. كان مضطرباً كالنعجة. تكلم متلجلجاً:
- أمي.. هه.. أمي هي راحت. آني ما لي علاقة.
دخل أوانيس يحمل قنينة البيرة المضبّبة فخطفها منه عدنان وأسرع

يسكب محتوياتها الفوارة في الكأس. طفحت الرغوة البيضاء وسالت على الجوانب. تعالت هتافات الحاضرين:

- لا. لاع. على بختك. يا معوّد. حرماة هالبيرة الحلوة!

غمس عدنان فمه في الكأس المليئة وجرع جرعةً كبيرةً فتبلّلت جوانبه وشعيرات شاربه. ثم رفع يده بالكأس هاتفاً:

- صحتكم يا جماعة. العفو. صحكتم.

- صحتك. صحتكم. چريو.

وشربوا. كان مدحت يتأمل عدنان ساكناً غير مهتم بما يجري حوله. لم تشغله ضوضاؤهم عن تفحّصه. تمنّى هو ألا يكرر مدحت أسئلته تلك. إنها تخلق جواً لايرتاح له قلبه، وهو لم يفهمها بالضبط ولم يدرك ما تعني على مستواه الشخصي. سأل مدحت محاولاً أن يجذب انتباهه:

- شقاعد تقرا هالأيام مدحت؟

التفت إليه ومطّ شفتيه دون جوابٍ. سأله مرةً أخرى:

- والبنات، شلونهم بالمدرسة؟ سها وسناء؟

- ناجحات، الاثنتان. سناء درجاتها أحسن من سها. تبيّن أذكى.

- ها! هواية كانت ذكية سها أيضاً.

سمع أبا شاكر يهتف:

- أخ حسين. شنو قضيتك؟ أشوفك تسأل عن بناتك؟ ما تعرف أخبارهن؟ خير إنشالله!

لم تكن نظارتاه السوداوان تخفيان عينيه بقدر إخفائهما لمشاعره ونيّاته. دهمته فكرةٌ مجنونةٌ وهو يمسك بكأسه ويرفعها إلى فمه... أن يرميها بكل ما تحتوي على هذا الوجه الأسمر المحروق المتغضّن. وجه

القرد. صبَّ العرق البارد في جوفه فأحسَّ بالحرارة تنبثق في وسطه وتتصاعد إلى أعلى جسمه. لن يجيبه. أدار نظره إلى الحائط عن يمينه، ثم مسح أنفه وجبهته. لن يجيب. يتظاهر بأن الوخزات لا تؤذيه. سمع مدحت يهمس:

- لاتلوم شخص ما يعرفك، ولا يعرف حياتك. لا تلومه.

التفت إليه. كان رأسه في دوامة يشتدُّ دورانها كل لحظة. خشي أن يفوته الوقت الذي يستطيع فيه أن يضبط نفسه. رنَّ صوته في أذنيه وهو يتكلم بلثغة خفيفة:

- أبو شاكغ، أحنا أولاد القرية.. كل واحد من عدنا..

قحَّ بعنفٍ ثم أشار بذراعه إشارةً عريضةً أرادها أن تكون بذيئةً:

- يعغف.. يعرف أخيه.

وكان يقوِّم لسانه ببعض الجهد كي يكون مفهوماً:

- هذاك الصبي بالكويت اللي قطعت عليه مهر..

عاط:

- وين صاغ؟ وين صار يابه؟

ضج عدنان بضحكةٍ رنانةٍ وهتفَ، محمَّر الوجه تغطي جبهته خصلة شعر، وكأسه في يده:

- أويلاخ! صحتكم يا جماعة.

أجاب أبو شاكر صارخاً هو الآخر:

- أخ حسين، أنت لويش دتسأل كأنك ما تدري؟ كل واحد على راحته. أنت أخذ راحتك وآني آخذ راحتي أيضاً.

بدا كل شيء منطفئاً في وجهه ذي الثنايا الملتوية. استمرَّ:

- آني، اعذروني يا إخوان، شخص.. آدمي ما عندي أمور خفية. يا هو مالتي.. ما علاقتي؟ كل واحد يدوّر على راحته. آني يا هو مالتي؟ صح لو غلط يا إخوان؟ آني يا هو مالتي إذا الأخ حسين يشرب ليل نهار مستمراً وما يعرف دربه؟ لو إذا الأخ حسين يركض ورا.. تكرمون.. وراء النسوان من دكان إلى دكان وهو كل خطوة يسقط؟ آني يا هو مالتي. أخ حسين ياخذ راحته. أخ عزيز، هو يشوف شغله. هو شنو علاقته يا إخوان، إذا آني قطعت مهر على صبيّة تكرمون.. لو على صبي؟ آني أعرف شغلي. آني أشوف اللّي يصرف لي. آني أريد آخذ راحتي. صح لو غلط، يا إخوان؟

عادت ضحكات عدنان تجلجل. رأى مدحت ينصت باهتمام إلى ذلك الهذر المستطيل. شعر بسخف الموقف أكثر من شعوره بالحنق. هكذا أبو شاكر كلما أخذه العرق. لايمكن أن يجيبه بشكل جدّي. تكلّم مدحت:

- شنو يعني تاخذ راحتك أبو شاكر؟

رفع أبو شاكر كأسه ببطء وشرب منها متمهلاً:

- والله يا أخي، مثل ما قلت هسّه قبل شويّة. آني آخذ راحتي. شنو أحتاج؟ شتريد نفسي؟ ها.. يابه؟ شنو يدور بدماغي؟

صرخ هو:

- ولد حلو طبعاً. صبي جميل.

رنّت ضحكات الحاضرين. أكمل:

- لكن أبو شاكغ. تره لعلمك آني ما وقعت يوم بالشارع ولا سقطت. أنت لويش دتخترق.. دتختلق عليّ حكايات من عندك دون أساس؟

- أخ حسين، آني شفتك بعيوني هذه!

وأشار إلى نظارتيه السوداوين، فصرخ هو:

- ها! بعيونك هاي.. عيون الصقر؟ هيك لعد. انتهى الموضوع يا جماعة.

دَهَمَتْهُ، خلال لحظات السكون، صورة تلك الفتاة العجيبة. برزت في الشارع أمامه من لا مكان. سمراء سوداء الشعر، سوداء العينين، لا يجاوز عمرها العشرين ربيعاً. ودخلت مخزناً من المخازن. كانت ترتدي ثياباً بيضاء مزركشة ومعها امرأة أو اثنتان. وكان متعباً من سهرة مزعجة ومن العمل طول النهار في الشركة، جائعاً ضائعاً. وجد في وجهها الفتي ذي الفتنة الغريبة راحة لاتفسير لها. كان بوده أن يتأملها إلى الأبد، أن يغرق في بحر تلك العينين المسحورتين. اقترب منها عدة مرات فابتعدت عنه. لم تكن كويتية كما تبين من لهجتها، وكانت شفتاها عريضتين بحمرة قانية وشعرها العميق السواد مرتمياً بكثافة على كتفيها وظهرها. ودّ أن يلمسها. تلك الأصابع السمراء الرقيقة جداً والعينان الكحيلتان والالتفاتات. ولم يجد ذلك أمراً طبيعياً رغم الجوع الجنسي الذي كان يفترسه. كان انجذابه إليها أوسع وأعمق من قضايا الجنس والمتعة العابرة. بدت له تحقيقاً لأرق عواطفه نحو المرأة وتلاقياً مع أحلى أحلامه عن الحب. ثم رأى صورته في مرآة كبيرة وهو يكاد يلتصق بها، ورأى بوضوح وجهه الأصفر الملتحي ذا النظرات الضائعة، فذهل أمام ذلك الشبح الذي واجهه على غير انتظار. كان أبو ناظم يكمل حديثاً سابقاً:

- ... قلت لهم وآني من أين أجلب لكم طعام يا ملاعين الوالدين؟

قالوا لي سيدي إحنا بدخلك، تريدنا نموت من الجوع، نموت. تريدنا نعيش دبّر لنا أكل والله يجزيك خيراً على خير. هاي شلون ورطة. كانوا خمسة أفراد شرطة معي وآني كنت ضابط شرطة مستجد. هاي حكاية عتيقة، قبل عشرين سنة يمكن. لا والله، خمسة عشر أو ستة عشر سنة. قلت لهم لكم تعالوا معي. كنا بالبادية والأكل صار أسبوع ما وصلنا من سامراء. طلعنا للصحراء واحنا مسلحين. بقيت أفكر مدة طويلة. شلون أدبّر لهم أكل؟ هذوله كل شي يعملون إذا أخذهم الجوع. من بعيد شفت فد غبرة. تربة كبيرة تتقدّم علينا. أمرتهم يأخذون موقع وقلت لهم لاعليكم، آني أتصرف. عرفت هذه الغبرة شنو تعني. وبالفعل كانت قطيع غنم. لما صار القطيع على مرمى البندقية صوبت بندقيتي ورميت على أول خروف. وقع حالاً. قام الراعي.. فد أعرابي.. يصيح ويأشّر بعباته.. صديق.. صديق. مال الكلب. قلت لهم.. لك فد كم طلقة بالهواء.. وفعلاً، كم طلقة خلته يلف عباءته وينهزم. شنسوّي أخي. أخذنا خروف خروفين وتركنا الباقي. يعني مقصودي يا جماعة..

... ولم يجدها حين أفاق من ذهوله أمام صورته في المرآة. ركض خلفها مضطرباً، فتعثر بباب المخزن الضيّق وانهار على الأرض. ولم يرها مرةً أخرى.

كلّمه مدحت:

- ساكت أشو حسين؟

انتبه إليه. كانوا واجمين في الغرفة الضيقة المليئة بالدخان. سأله مدحت:

- ما تشرب ربع عرق آخر؟

- لا عيني مدحت. أخذت حقّي اليوم. اشرب أنت. بيرة تريد؟

ثم نادى على أوانيس قبل أن يسمع جوابه. كان عدنان يشرب من كأسه بهدوء وأمامه قنينتا بيرة فارغتان. رأى أبا شاكر يراقبه. لم يهتم به. كان يعرف أن ليس باستطاعة أبي شاكر أن يؤذي أحداً، إلا أنه لم يستسغ إشارته إلى بنتيه.

هتف أبو شاكر قاطعاً الصمت:

- لقيت الدب، يكسر لب، قتلت الدب وأكلت اللب.

التفت إليه أبو ناظم:

- هاي شنو أبو شاكر؟

- حزورة أبو ناظم. تقدر تقول بسرعة..

كانت كلماته تتمطى قبل خروجها من فمه:

- لقيت.. الدب.. يكسر لب.. ها يابه.. كتلت الدب.. وأكلت اللب، شفتو شلون يا إخوان؟

كركر عدنان بضحكة عالية:

- هذا شلون دب اللي أنت تقتله!

- حزورة أخي هاي. مو قلنا حزورة. آني ما قتلت دب ولا شفت دب. المقصود.. تقدر تقراها بالعجل. لقيت الدب..

قاطعه عدنان وهو يقف أمامه، طويلاً مكشوف الصدر:

- آني..

توقف لحظة. كان يبدو عليه أنه يتمتع بلفظ هذه الكلمة. رفع شعره عن عينيه:

- أني سيِّد أقدر أدلك على مكان الدب. تريد تعرف وين هو؟

كان أبو شاكر وأبو ناظم يتطلعان إليه ببعض الحيرة والفضول ومدحت يخزره.

هتف عدنان:

- تدري وين الدب سيِّد..

وأشار بذراعه إشارة عريضة نحو جهة من الجهات:

- هناك.. في «باب المعظم»..

قال أبو ناظم:

- خلينا من السياسة سيِّد. ما عدنا شغل إحنا بهذا الدب.

سأل أبو شاكر بقلق:

- ديحكي على الزعيم؟

أجابه أبو ناظم:

- ما أدري. ما افتهمت؟ عقلك خربان؟

استمرَّ عدنان، واقفاً بجمود، مشيراً بذراعه ووجهه مغطى بالعرق وعلى فمه ابتسامةٌ غريبةٌ:

- هذا الدب.. سيِّد. هو اللي لازم.. نكتله.

همس أبو شاكر:

- من يكبر السبع تضحك عليه بنات آوى!

فصرخ عدنان:

- شنو؟ إحنا مو واوية سيد. أعرف أوادمك زين!

- العفو أخي. العفو. آني دا أحكي على نفسي. أنت شنو علاقتك؟

- شبيك أنت؟ مواطن شريف ندافع عنك إحنا. وأنت هم لازم تدافع

عن حقوقك. حقك وحقي. شبيك أنت؟

- ما بي شيء أخي. بس.. الحمار المتعب كل من يجي يريد منه قوة جديدة. هاي هيه.

- لاتحكي هالشكل سيِّد. أنت ما تمثل الشعب. إحنا..

قاطعه أبو ناظم على حين غرة:

- أنتو منو؟ أنتو منو أخونا؟

أنزل عدنان ذراعه إلى جانبه ببطء:

- إحنا؟ تسألني منو.. إحنا؟

ضاقت عيناه، وبدا عليه كأنه يهمُّ بالكلام؛ ثم مطَّ شفتيه واستدار:

- تسمعون من عدنا عن قريب.

ونظر نظرةً جانبيةً حادة إلى مدحت ثم توارى خلف الباب.

لبثوا ساكتين بعد ذهابه. سمعه يسدِّد حسابه إلى أوانيس ويخرج. لم يسبق له أن تكلم بمثل هذه اللهجة من قبل. كان يسخر، ببعض الغباء؛ ويبدو عليه كأنه يعرف سراً دون بقية الناس. أشعل مدحت سيكارة ثم جرع من كأسه جرعةً كبيرةً. سمع أبا ناظم يكلّمه:

- سيِّد حسين، تعرف هذا الولد؟

فهز رأسه بالإيجاب. كان الحرُّ يضغط على أعصابه ويثيره أكثر مما فعل عدنان. التفت أبو ناظم إلى أبي شاكر:

- شفت يابه أبو شاكر، هم الجماعة يعرفوه، إحنا شنو علاقتنا؟

- نعم. نعم. ما أدري ساعة كم الآن، أبو ناظم؟

- بالعشرة ونص وخمسة. هم يالله.

- نعم. نعم.

ثم رفعا بحركة واحدة كأسيهما وأفرغاها وقاما فسلّما ثم انصرفا. تمّ كلُّ ذلك بهدوءٍ وبسرعةٍ.

مسح العرق عن وجهه ورقبته. كان مدحت يدخن بسكونٍ، لا يظهر عليه أنه تأثر بما شرب. لم يرتح هو كثيراً لكل ما قيل وما جرى. جذبت حواسه هذه الأمور والحكايات التي حدثت فلم ينتشِ مثل كل ليلة. شرب قسطه المعتاد، لكن رأسه لم يدر أو يخف وزن نفسه كالمعتاد. سوءُ حظٍ ملعونٍ. تناول كأسه فوجدها فارغةً. فأعادها إلى مكانها بخفةٍ. ودّ أن يقول لمدحت شيئاً مخلصاً يحسُّ به على الدوام، شيئاً يتعلق بجوهر حياته وماضيه. كان الصمت ثقيلاً بينهما. قال بصوت أجشّ:

- آني متأسف مدحت. ظنيت نقدر نقعد شويّة بهدوء ونحكي.

- ما صار شي. جلسة أخرى، في وقت آخر.

- إنشالله.

- هذا عدنان...

ونفث الدخان من أنفه وفمه:

- أي نوع من الأشخاص هو؟ عنده اتصالات.. يعني.. أو عنده أشياء أخرى؟

- لاع. ما أتصوّر. لويش؟

- أقول. حكاياته مو اعتيادية.

- لغوة كلّها. حكي أطفال. إشاعات.

- إشاعات؟ يمكن. بس لازم لها أساس هالنوبة.

- شنو يعني؟

أطفأ مدحت سيجارته:

- ما أدري شنو بالضبط. أكو شيء معين بالجو، ويبين صاحبنا كريم قاسم ما راح يبقى للصيف القادم.

- تريد تفهمني.. يعني أكو علاقة بين حكايات عدنان هذا ومستقبل الزعيم؟ لا، هاي مبالغة.

أشار مدحت بيده إشارةً مبهمةً، ولم يجب. ثم شرب من كأسه. خطر له أن يطلب بيك عرق، لعلّه... كان الصمت بينهما مرةً أخرى ثقيلاً. قال:

- شوف مدحت، أريد أقول لك شيء. آني ما أعرف كيف وصلت إلى هذا الوضع. لاتقول هذا سكران. أبداً. بس ماكو شي واضح بذهني. آني مثل حجارة مرمية من رأس الجبل. يمكن لا أزال. شلون حصل هالشي؟ يعني... أكو شي.. أكو سر وراء كل هذا؟

كان ينظر إليه باهتمام:

- مرتاح أنت، حسين؟

- شنو مرتاح؟ ماكو مشاريع. ماكو باكر. مرتاح يمكن، لأن ما أريد أصنع بعد شي من حياتي. ما لي صبر عيوني مدحت؛ وهذوله اللي دخلوا حياتي أو.. أقصد.. خرجوا منها، لازم يحمدون ربهم. شنو الإنسان بهالدنيا إذا.. إذا كان ما له خلك.. ما عنده صبر؟

رأى مدحت يبتسم. استمرَّ:

- آني جربت. تمام. عشت تجارب مثل ما تقول. خربطت وجعت وتشردت وأهانوني هواية ناس وشفت ذل.. و.. وهواية أشياء.. بس، عيوني مدحت، تره ما أتذكر شي حين أقعد صباحاً. هاي شنو يعني؟

- مالك وهذا الحكي حسين؟

كان يسخر. أيّده:

- صحيح والله. هسّه وكت هالحكي؟ احكي أنت، سولف لي على وضعك مع الجماعة.

- يا جماعة؟

- شلونك مع منيرة؟ فتاة جيدة وممتازة.

- قصدك؟

- اي بالله، حلوة وعاقلة. ممتازة.

- اترك هذا حسين الله يخلّيك. ما أريد أدخل راسي بهالشغلة.

- ليش هي قضية أريد أو ما أريد؟ لو كل وكت الوضع هالشكل، كان كلنا عايشين بالجنة.

- على كلّ حال.

ثم نظر إلى ساعته:

- لازم أرجع. فات الوكت وباكر دوام.

هز رأسه موافقاً ونادى على أوانيس فجاء إليهما. دفع مدحت حسابهما ثم قاما وخرجا. كان الشارع خالياً والهواء يميل إلى البرودة. سارا خطوات قليلة باتجاه «الباب الشرقي». أحسّ فجأة ببعض الدوار والاضطراب في رأسه وأمعائه. توقف واستند إلى حائط قريب. سأله مدحت بقلقٍ:

- شبيك حسين؟ دخت؟ ما مرتاح؟

ثم أمسك بكتفه. أجابه بسرعة:

- لا. لا. عيني مدحت. ماكو شي. الهوا شويّة أثر عليٌ.

ضغط بيده على بطنه ثم رفعها إلى وجهه فمسح العرق البارد عن جبينه وخدّيه.

كان يحسُّ بارتجافٍ بسيطٍ في جسمه. إنها علاماتُ الانهيار. مثل التراب الناعم، يتساقط قبيل انهدام السقف. عاود السير ببطء. كان مدحت قريباً منه. كلّمه:

- تدري مدحت، يمكن في ليلة مثل هالليلة، أسقط على الرصيف آخر سقطة. شوكت، ما أدري. باكر أو بعد سنين. لكن ما أعتقد راح أموت بشكل آخر.

شعر به يمسك ذراعه ويضغط عليها بقوة. سمعه يتكلّم بصوتٍ خشنٍ جافٍ:

- هذه الميتة اللي تظنها بطولية، تره هي ميتة الكلاب الجربة.

شابت صوته قسوةٌ مفاجئةٌ:

- لويش دتريد تعيش عيشة غير طبيعية، حسين؟ ليش دتفكر بالموت بدل ما تفكر بالحياة، بدل ما تفكر تدخل مصح وتداوى؟ ليش لازم تموت على الرصيف وأنت سكران؟

ترك ذراعه، دفعها ببعض العنف:

- أريد أفهم شي واحد من عندك. آني ما مهتم بيك لأن أنت زوج أختي. لاع. يمكن لأنك صديقي. يمكن. أريد أعرف لويش هالتخاذل، هالخضوع، هالمذلة أمام الحياة. ما أحكي على قوة الإرادة أو على حب الحياة. ما لي شغل بهذه الثرثرة. لكن.. الإصرار، الإصرار حسين على حياتك. ماكو حاجة تعطيها معنى، لأن ما بقى عدنا معنى للحياة هالأيام، لاكت.. لاكت شنو هالانحناء المهين؟ لويش؟ لويش، حسين؟

لم يجبه، لم يلتفت إليه، بقي يمشي بتثاقلٍ إلى جواره. فهم كلامه

جيداً، فهمه دائماً. كان جائعاً دائخاً مهزوز القوى. رأى مدحت من طرف عينه يشعل سيجارةً وينفخ دخانها في الهواء. ثم سمعه:

- في أمان الله.

وطرق أذنيه وقع قدميه وهو يرجع سالكاً طريقاً آخر إلى دارهم. استدار إليه فميز شبحه وجمرة السيجارة. كان يسير مسرعاً، يحرك ذراعيه حركاتٍ قصيرة. لم يحقد عليه، إلا أنه لم يعرف كيف يجيبه. هذا هو كل شيءٍ. كانت سهرةً فاشلةً على كلِّ حالٍ. ومن أجل ألا يعدّه مدحت حقوداً أو ذا نيّة سيئةٍ قرّر أن يزوره غداً أو بعد غدٍ.

- ٥ -

رأى مدحت الفرّاش يطفئ المصابيح الكهربائية في غرفته قبل أن يغادرها بقليل. ثم سمعه يصفق الباب بشدة خلفه ويغلقه. سار خلال الممر المظلم الخالي. لا أحد. خرج إلى الساحة الواسعة المضيئة. الشمس خفيفة والجو دافئ. لم يرَ أباه. عاد قبله إلى البيت. بالتأكيد. هل خابره؟ لم يخابره. أم تراه خابر ولم يجده؟ لن يشتري اليوم جرائد. ولا كتباً. شارع المتنبي، طويل على الجائعين. الأسبوع كله، لن يشتري جرائد ولا كتباً. تقشف طارئ. باص الأمانة. منتظرون دون وجوه. لن يصل اليوم قبل الرابعة. سار مرة أخرى واستدار نحو شارع الأمين. الشمس لطيفة الحرارة على ظهره ورقبته. اجتاز ساحة التقاء شارع الجمهورية بشارع الأمين. استمرَّ في سيره. شارع غازي. شارع الكفاح. ازدحام في كلِّ مكانٍ. وجوه بلا ملامح. يتراكضون ويتدافعون بالأكتاف والأيدي. كالصبية. انحشر في المقعد الأمامي لتاكسي قديم. حرارة الماكنة ورائحة قدم السائق النتنة. اللعنة، أية نتانة هذه! سدَّ أنفه بأنملة إصبعه الكبير. لما تزل لاتطاق تلك الرائحة. قطع أنفاسه، عدة مرات. دقائق معدودة

ويصل. لن ينتهي أيٌّ أمرٍ لو ركزنا الفكر عليه. يا للرائحة المريعة! ثم رآه فجأة. بدت له العينان الساطعتان أولاً. كان ممدداً وسط الشارع المشمس، على القير الأسود الحائل؛ كلباً هرماً لا لون له، مطروحاً على الأرض ورأسه ملتوٍ نحو السيارات المتجهة إليه. كانت عيناه السوداوان تنبضان بإشعاعٍ غريب لا مثيل له. كتلتا سواد منقعتان؛ تصرخان، تستغيثان، تتوسلان، تتألمان. وكان الجسم مهشَّماً من الوسط ودماؤه لم تجف، وليس عليه أية مسحةٍ من الحياة. إلا أن العينين بقيتا تومضان وتدافعان عن أنفاسه الأخيرة، تشفقان عليه من الألم. لاحظه السائق في الوقت نفسه فانحرف بالسيارة نحو الرصيف متجنباً دعسه ثم استدار بعنفٍ شاتماً لاعناً وعاود سيره الأول. وصلوا إلى تقاطع شارع «الكيلاني» بشارع «الكفاح» فنزل قرب المقهى. لفَّه الهواء النقي. سار ببطء. تراءت له عينا الكلب مرة أو مرتين. كانتا الذبالة الأخيرة. وجد باب الدار موارباً. دخل واخترق المجاز الطويل. شارفت الساعة على الرابعة. كلمته أمه من المطبخ حالما طرقت قدماه أرض الحوش. صعد إلى غرفته وتمدَّد على الفراش. كلب عجوز يعبر الشارع فتدعسه سيارة وتلقيه أرضاً. كلب يسير ببطء فتضربه سيارة مسرعة. ظل الكلب يجتاز الشارع ثم يقصم ظهره فجأةً، ويترك ليعيش ألمه، ليرى نفسه يموت بلا كلامٍ، بلا صراخٍ، بلا استنجادٍ. سوى العينين المخضلَّتين وسط الطريق أمام كل الناس. سمع أمه تناديه. غروب الحياة، لا يمرّ دون أسى. يعبر كلب فيُسحق وتتناثر أشلاؤه ثم تأتي عربة الزبالة لترفع بقاياه مع ما ترفع من القاذورات. وكلب آخر، يمر ويدخل المجزرة؛ وآخر وآخر. تنطرح جميعاً على الأرصفة والشوارع. جوقة من العيون السوداء المتغنِّية

بالألم ووداعِ الحياة. كانت أمه تنادي بإلحاحٍ. قام. سألته عن أبيه وهي رافعة وجهها الأبيض إليه. أشار إليها. لايعلم عنه شيئاً. خابره؟ لم يخابر. تأكل بمفردك؟ ولِمَ لا؟ غسل اليدين والوجه يزيل الأوساخ والتراب. وتراب الصور والذكريات المنغمسة في القلب؟ الآلام في الشوارع العامة. آلام الكلاب. إلا أنه يجب ألا يخلط المواضيع. هنالك أسس لحياته الشخصية لا مجال للحياد عنها. الاستقامة في محبة النفس. الأنانية المنظّمة. ومنها، لا آلام قبل الأكل. وبالأحرى أثناء ويستحسن من بعده. أسقوني نقيع الزبيب لأن الحب أنهك فؤادي. الأخ المغرم لاينسى أن يقوّي قلبه. كيف بنا، نحن الذين نريد أن نعيش حياةً واسعةً، واسعةً! ننهب بحرصٍ ونأكل كلَّ شيء ليس لنا. ما الداعي لهذه الضجة عن الملكية الخاصة؟ من التراب وإلى التراب نعود. كلُّ شيءٍ لنا إذن. نحن منه وهو منا، وكلّ مَنْ يضع العراقيل دون ذلك يخطئ في التقدير والفهم. ويجب أن يقال له هذا. ولكن، ما أهمية الأقوال؟ العمل. العمل. ننهب ونسرق عن اعتقاد. هذا زمن اللصوص الشرفاء، ونحن نمثّلهم لأننا استوعبنا فكرهم واكتشفناه. نحن بالضرورة خلفاؤهم. دعونا إذن يغشّ بعضُنا بعضاً بأمانة. اتركوا الفوضى وركزوا اهتمامكم في الأنانية المنظّمة. لتكن المنطلق والأساس. سيروا في كل المنحنيات باستقامةٍ. اكفروا بكل شيء ولكن بتقوى وورعٍ. ما فائدة الغش والخداع والتلاعب، غير أن تحفظ القوانين؟

كانت أمه تجلس على جانبه إلى الخلف. أمامه الأسبانغ والبيض المقلي والتمن والزلاطة والخبز. وهي على جانبه الأيسر إلى الخلف قليلاً. يمكنه أن يرى كتلتها الغامقة لو عوج فمه وهو يمضغ الطعام. أو تراجع

بعض الشيء في جلسته. «منو جا يمّك؟ شكو ماكو؟ لويش ما خابرك أبوك»؟ هكذا القوانين والسلطات. لاتجلس وراءك تماماً، بل إلى جانب. خلفك ولكن إلى جانب. التفت إليها. كانت دورة وجهها الأبيض متكاملةً، والغضون تتكاثر تحت العينين وعلى الخدّين وحوالي الفم. تلفّ الفوطة السوداء حول وجهها وتتكلم بهمس وقلق متسائلة عن كل شيء. الأسبانغ والتمن والبيض المقلي والزلاطة. الزلاطة ثم التمن والأسبانغ وقطعة الخبز. وعيون الأحبّة والكلاب؟ إلى الجحيم بها. نحن نأكل، إذن نحن موجودون. الطعام. الطعام للجميع. دعونا نتخمُ. دعونا نموتُ تخمةً أيها الإخوان. اتركوا كلَّ شيءٍ آخر. الطعام للجميع. حذارِ من الأشياء الأخرى. الكتب وما شاكلها. أغلقوا المكتبات أيها السادة، ولنفتحْ المطاعم. مطاعم الكباب على الأخص إذا أردتم الصراحةَ. خطوات والده. ثم دخل مبتسماً رغم الجوع والإرهاق. أيةُ بطولةٍ! يقوم ويقعد ويذهب ويجيء. تفسيرات وإيضاحات، وتفسير الإيضاحات وتوضيح التفسيرات. مخابرات لم تحصل وأخرى حصلت في الخيال. ثم يهمس له وهو يلتفت ناحيةَ المطبخ:

- بالمقهى كنت مع حجي محمد. نتشت خوش مسبحة منه. لا تخبر أمك.

تقبل أمه بالطعام. مجموعة من التفسيرات الأخرى عن أسباب التأخر في العودة، يرافقها تراجعٌ منتظم مع تفسيرات متعمّقة تسندها آيات وأحاديث. حال الإنسان الصحيحة، ترك والديه وسار مخترقاً باحة الحوش، هي أنه في موقف أمام العالم... عالمه. يناور ويتراجع ويحاور ويتراجع ثم يتقدم قليلاً. نحو هدف بالطبع. صعد درجات السلم ببطء.

موقف أمام عالمه.. الآن. الآن. ليُفسر هذا بما يمكن أن يُفسر، لكنه، بإخلاص، يعني الزمن الحاضر. هذا هو كل ما في اليد، ما يمكن أن يُتصرف به. أن يُصنع. كان يجتاز الطارمة الكبيرة. الزمن الماضي انتهى. ليُفهم ذلك جيداً.. انتهى. وأما ما يسمى بالمستقبل فما هو إلا الحاضر المصنوع الآن. وحالما يدرك ذلك، تبدأ الحياة المصنوعة.. يبدأ التغيير المستطاع. تلك هي الحدود، وكلٌ علمٍ وفلسفةٍ تساعد على معرفة هذه الحدود وعلى اجتيازها إن أمكن، كانت شيئاً جديراً بالاهتمام. دخل غرفته وبدأ ينزع ثيابه. ثم وقف، في الفانيلة واللباس، أمام المرآة. شعر كثيف وصدر ضيق وعينان تلمعان. هذا هو العالم. بدءاً وانتهاء. فليساعده البشر، منذ وجدوا وفكّروا، على أن يحيا أجمل حياة. هو، مركز الدنيا، لايُطلب منه شيء. لا تخرج منه أية هبة. لا أحد يقترب من القلعة المحصّنة. ليترك لاهياً، غير مخلصٍ لأحدٍ ولا حامل أي همٌ. خالي الذهن، خالي الروح، قافزاً بأشد المرح على الصخور في الجزيرة الجرداء.
لبس بيجامته واضطجع على الفراش. الكلب المحتضَر، لايزال على أرضية الشارع السوداء. يرتمي على التراب قربه، ويتطلع معه إلى السيارات المندفعة لتهشيم بقايا الجسد المدمّى. الشعور بأنك تموت. أنت. أنت تموت. ثم يُقال لك: دَعْ المزاح ولنبدأ من جديد، مادام الموت حلماً. هذا هو كل شيء. ونبدأ من جديد. الإنسان في موقف. الآن. أعلم هذا. أنا في موقف إذن الآن. أربعمائة دينار في البنك ودفتر شيكات ووظيفة في الدولة وسبع وعشرون سنة وشحنة جنسية لايبدو أنها ستنضب. لا أسئلة كثيرة ولا تردّد غير مسوّغ أو اهتمام بما يجب أو لا يجب. الأسرة؟ إنها مرتكنة على أسسٍ واهية، لكنها لحسن الحظ

متماسكة، وهي متشبثة ببقائها هكذا. لا أحسن من هذا الظرف للانفلات من عبئها. دون ضجّة، دون مواجهاتٍ عاطفيةٍ. تحرّر على شكل اختفاءٍ من عالمهم. ينسلّ كالشعرة من العجين. إجازة دراسية؟ دراسة في إجازة؟ هذا لايهمّ. المهم أن تضعهم هم في الموقف الذي تريده. يساعدونك على البقاء هناك. نظر إلى مكتبته الصغيرة والكتب المصفوفة بإهمال والأثاث القليل والسجادة على أرض الغرفة والجدران البيضاء غير المصبوغة وستائر الشباك الحائلة غير المكوية. شعر بوخزة خفيّة في قلبه. استغرب لذلك. لم يسمع شيئاً خلال اللحظات التي سبقت استغراقه في النوم، وكان حزيناً. وأمام الطريق الطويل الذي بدا مألوفاً لديه، لاقى أحد الأشخاص. كانا متفقين على أنه طريق أوروبي خارج المدينة، ولقد ودَّ أن يظهر له أن باستطاعته أن يسميه أوتو روت أو أوتوستراد أو هاي وي. لكن الرفيق الرثُّ الملابس بقي يردّد على مسمعه بأن الكلاب كثيرة في هذه النواحي، وكان ينتظر منه أن ينتهي من كلامه كي يسأله بالإنكليزية: لِمَ نأتي إلى هنا إذا كانت الكلاب تموت على قارعة الطريق أيضاً؟ ثم رآه يفهم ما كان يريد أن يقوله ويشير بيده إشارةَ حيرةٍ ويجلس على دكة منخفضة فيجلس قربه. كان ضيّق الصدر تتماوج في نفسه رغبةٌ عارمةٌ في البكاء. التفت إلى صاحبه فوجده ينظر إليه. عينا الكلب المحتضَر تنفثان دموعاً تجري بسكون. الغرفة مظلمة، عدا الشباك الخافت النور. بقايا بكاءٍ في قلبه وماء يترجرج في إحدى عينيه. أنفاسه سريعة. يا للإنسان من هزأة! وضجة القوم في الأسفل. كأنها تقبل من عالم آخر. قعد في فراشه ومسح عينيه وأنفه. البكاء أثناء النوم على أمورٍ نجهلها، على رموزٍ مبهمةٍ. والبعض لا يذرف دمعة على أبويه!

قام وأشعل الضوء الكهربائي الساطع. شكله في المرآة. البيجامة مفتوحة الأزرار تكشف عن ثيابه الداخلية البيضاء. تكوين بشري مشوه في مرآة. عنوان صورة. خرج من الغرفة فلامس وجهه الهواء البارد بلطف. قصد المغسلة القريبة فغسل وجهه ونشفه ثم أخذ بعض الأنفاس العميقة. كانت غرفة عبد الكريم فارغةً. غيابٌ مستمرٌ. من أجل الحياة الواسعة، كما يقولون. شراب وثرثرة سياسية وقحاب. كانوا مشغولين بتهيئة العشاء، وعلى صفحة السماء لاتزال آثار نور. ضجيج في المطبخ ونداءات من أعلى إلى أسفل وبالعكس. أعياد الطعام. سمع خطوات خفيفة. سناء تقترب منه وتندس بجواره. «خالو، شفنا بابا هسّه. كان ديمشي ويشرب جكارة ويقحّ. آني وبيبيتي. هو ما شافنا». حسين، ذلك الأحمق المغامر أي سببٍ جنوني أرجعه إلى العراق؟

تركته سناء وركضت مسرعةً. خرج والده واتجه نازلاً نحو السلّم. كانت النداءات تزداد ارتفاعاً وإلحاحاً، تستعجل إرسال الطعام. ضجيج مفتعل وعيد مزيف وزواج فاشل وأولاد وسكر وضياع ولا مستقبل. اللامستقبل. اللازمن. أولئك الشجعان المهملون، السكارى والشحاذون، الذين اختاروا هذه الأهداف! أيمكن أن يتم ذلك دون جهدٍ، دون إرهاقٍ؟ حسين، سيزوره بالتأكيد...

***

كان يتمشّى في الطارمة الضيقة الطويلة، بعيداً عن غرفهم، في الظلام، تحت السماء السوداء. تعوّد بعد العشاء أن يأتي إلى هذه الجهة من البيت لينعزل بعض الوقت. أسرعوا إلى التلفزيون، مديحة وبنتاها

وعمته وجدته، بعد أن انتهوا من غسل الصحون وأغلقوا الباب عليهم. ثم رأى أمه تخرج من المطبخ وتصعد آخر الصاعدين. كانت منحنيةً قليلاً بطيئةَ الخطوات. جاوزت غرفة أبيه ومدت رأسها في غرفته المشتعلة الضوء. هتف يناديها من مكانه البعيد فاستدارت ناحيته. سألته بقلق: أهو هناك؟ ثم استمرت في سيرها. أين ستنتهي عذاباتك أيتها المرأة؟ فتحت باب غرفة مديحة فتعالت ضجتهم مختلطةً بأصوات التلفزيون. لم يكن البرد قارساً أو غيرَ محتمل، وكانت أرض الطارمة معكرةً والسماء والجدران حوله ساكنةً سوداء. ضوء غرفته يندفع من الباب الموارب فيشقّ الظلام ويندفن في أوراق شجرة الزيتون. لمح، من وراء زجاج النافذة الغامق، أباه جالساً في فراشه يقرأ ويسبّح. السجن الهادئ المستديم. إنه، ومن قبله أمه، من يجب أن يقطع كل وشيجة عاطفية معهم. إذ أن الانشغال بغيرك وعالمه وبالله والمصير يساوي ألا تكون كذلك. إنها مسائل مجانية في كل ما يحيطها. ويدخل ضمنها أن تتساءل كثيراً عن منشأ الكون وماضي الإنسان ومستقبله. إلا إذا جلبت لك هذه الثرثرة بعض الشهرة والمال. عندئذ لن تكون مضيعةً للوقت. سيكون بإمكانك؛ أن تخدع مَنْ تشاء، ما دمت تملك حقاً في هذا الخداع.

لسعه البرد خلف رقبته. فرك الموضع عدة مرات. إذا بقيت تتطلع إلى السماء البعيدة، تلامعت بعض النجوم الصغيرة فيها. قصيّة متفرّدة. لاتوجد، إذا لم تَرها. وهذه الصلة بينهما؛ هو في بطن الظلام على جانب الحوش الغربي من بيتهم في محلة باب الشيخ، وتلك النجيمة الخافقة على حافة الكون.. على حافة الهوّة السوداء، هي صلة التفرّد. الانفراد. التوحّد. ذلك هو أغلب الحقيقة. إنه ليس الغربة ولا

الانفصام. إنه أن تكونَ مركزَ الدنيا. قبل الجميع وبعدهم. لاشيء قبلك ولا شيء بعدك. أن تملك قوانينك التي لا تفترض أن أحداً سيطبقها مثلك. هم، شحاذو العالم المتبطلون، المفتِّشون عن لقمة الخبز في بيع المبادئ وشرائها أحياناً. ما لي وما لهم. إن نهاية العالم وبدايته عندي، ومن انفرادي وحدودي الزمنيّة والمكانيّة، يجب أن أبدأ. إنه ليس مرضاً، إنها الأنانية الصحيّة. العقليّة. المنظّمة. العالم لي بكل ثمن، والانفراد يعني دخوله بحذرٍ وامتصاصه. استهلاكه دون توقف. شرط ألا تكون منه، لئلا يصير هذا الأمر سبباً في منعك عن تنفيذ مأربك. هكذا هم الناس الأقوياء. الأقوياء بالمعنى الجديد. إنهم ليسوا حمقى ولا خبثاء، ولا يتملّكهم الفضول الزائد أو يخجلون. وهم يكذبون بصراحةٍ ولا تقيِّدهم الأخلاقُ أو يرتبطون بأواصرٍ عائلية أو عاطفية عميقة. لا عوائق في سبيل الاستفادة من رفاهية هذا العالم الذي خلقه الغير بعرق جبينه وكدحه. كل شيء لي.... بغير حياءٍ.

رأى عمّته وجدّته تخرجان من غرفة التلفزيون. لقد مرتا بالحياة. مرتا. لن تقولا إنهما عرفتاها. عاد يتمشّى. من الواضح أنه لن ينتهي مثلهما. سيبدأ حينما يصل إلى نتيجة مؤكدة في تفكيره. ولهذا ستكون رحلته في الصيف مقتصرةً على تحصيل المعلومات التي يحتاجها لإكمال مشروعه. مشروع حياته الأول. الانفراد في العالم الأكثر تقدماً لمعطيات الحياة المليئة. وهو يعني أن يترك وراءه هذه المجالي الفقيرة بكل شيء. تطلع إلى جدارهم العالي. كان مبنياً من الحجارة الصغيرة والطين، لايكاد ينماز عن الظلام رغم ضوء السماء. عالمه البالي، المضطرب، الرخيص، ذو التقاليد المتزمتة وأخلاق الغباوة. عالم اللذّة السريّة والجريمة

المقبولة. عالم كلُّ شيءٍ مباح تحت الستار. عالم الجبناء. خرجت أمه. رآها تتطلع نحو غرفته ثم تستدير بنظرها إلى مكان وقوفه. عالم العواطف الثرة العمياء. دخلت غرفة عمّته. إلا أن الانفراد يجانب الغيظ والانزعاج. ليس من الأنانية الصحية أن تمرض نفسياً. إن من الممكن أن تصدر أحكاماً بأعصاب هادئة ونفس رائقة. دون حقدٍ أو ضغينةٍ، تدينهم حتى الموت وتدمّر عالمهم. وقف قرب المحجر. شعر أنه قد وجد شيئاً يمكن أن يفيده. كان الحوش مظلماً والسماء فوقه شديدة السواد، تنبجس منها أضواء النجوم. بدت الأعمدة الخشبية التي تسند السطح في الطارمة الكبيرة، هزيلة متهاوية. هل سيكون بمقدوره يوماً مفارقة هذه الخرائب؟ إنها معجونة بدمه. خرائب الحجارة والبشر. ترددت طرقاتٌ غامضة على الباب الخارجي. ولكنها ستنقلب إلى سجن قاتل لو أراد الإقامة فيها مدى الحياة. بالإضافة إلى أن هذا التعلق بالأماكن وغيرها، عدا أنه لايجد سنداً عقلياً مقبولاً، فإنه يشكل عائقاً مخجلاً في طريق الانفراد بالعالم الواسع الغني. هنالك المرأة أيضاً، تلك اللعبة الفتاكة. إنها... طرقات ملحة. من يمكن أن يفكر بزيارتهم في هذا الوقت؟ نظر إلى ساعته. جاوزت الحادية عشرة والنصف. سار إلى غرفة عمّته. كانت أصوات نقاشهن متداخلةً غير مفهومة. نظرن إليه بدهشةٍ وخوفٍ حين فتح الباب. قامت أمه بسكونٍ ونزلت معه. داخله القلق وهو يستمع إلى الطرقات تزداد إصراراً وسرعة قبيل وصولهما إلى نهاية المجاز.

اندفع أخوه عبد الكريم داخلاً كمن أُلقي من الخارج. لم يكلمهما ومضى يبتعد متعجّلاً. تبعته أمه. أغلق الباب الكبير ومشى وراءهما. لم يبدُ أخوه بحالة طبيعية، لكن ذلك لم يبعد عنه الانزعاج الذي كان

يحسه. أطفال الليل التائهون. الحمقى بالطبع. كانا، هو وأمه، يتبعان طفلهما الليلي المدلل هذا دون أن يعترضا على استخفافه بهما وعدم اهتمامه. سمع أمه تكلمه كلاماً لم يميزه جيداً، فلم يجبها. لم يبارحه غيظه من عبد الكريم ففضّل رغم قلقه عليه أن يتركه وشأنه. دخل غرفته واستلقى على الفراش. سمع والدته تصرخ فجأة مناديةً عليه. بقي جامداً لحظات وقد غاض قلبه. ثم قفز راكضاً إلى الغرفة المجاورة. هناك رآهما، أمه وأخاه، متماسكين تحت الضوء الساطع يتبادلان الصراخ وفي عيني عبد الكريم نظرات جنونٍ. هتف يسألهما عما جرى لهما، ولمح عند ذلك سروال أخيه الملطخ بالدم. أفزعه ذلك هنيهةً. خشي أن يكون مصاباً إصابة خطرة. أسرع يسحب أمه إلى جانب ويركع قرب أخيه يتفحص جسمه. كانت أمه تنفث كلماتٍ متقطعة بين صرخاتها. «ما به شي. مو هو. مو هو. فؤاد. صديقه فؤاد. مو هو». وكان عبد الكريم يحرك ذراعيه بشكل عشوائي لا غاية منه وفي نظراته تساؤلٌ وضياعٌ. آلمه ذلك فجأةً. أمسك بذراعيه يهدئه ويحاول أن يعيد إليه تماسكه. كان يتحدث معه بكلماتٍ لطيفة، حينما اقتحم عليهم والده الغرفة كالعاصفة الهوجاء هاتفاً: «شبيه ابني كريم؟ ابني كريم شبيه؟» ثم ارتمى عليهم. أوشك أن يسقط عليه لولا أن تفاداه ونهض بسرعة. احتضن أبوه عبد الكريم وأخذ يهزه ويقبّله. دخلت مديحة الغرفة آنذاك مولولةً وفي عينيها آثارُ النوم. ابتعد قليلاً عن الجمع الضاج. طمأنه أن أخاه لم يكن جريحاً، وبقي يراقبهم بسكون. العائلة اللامقدسة تعيش هلوسةَ المشاركة الوجدانية الحزينة. لقد توارثت أعياد النواح. تلك هي سمة ديمومتها منذ الماضي السحيق في التفاهة والعقم. ومع أولادهم، أكبادهم تمشي على الأرض،

ستبقى عناصر البلاهة والحمق إلى الأبد. كان مضطجعاً على فراشه، هادئاً. نام الجميع قبل وقت قصير وبدا كأن كل شيء قد انتهى. إلا أنه لايزال يسمع أنينَ أخيه الخافت بين آنٍ وآخر. أخبرهم أن صديقه فؤاد قد مات بعد أن ضربته سيارة مسرعة. كان متقطع النبرات، شاحباً. خُيِّل إلى مدحت أن ما جرى لم يكن حادثاً عارضاً، وأن علاقة أخيه بالعالم قد ارتطمت بصخرة صلدة.

الخير. السلام. العدالة. الأفكار الإلهية... أشياء لاتوجد. كلها. ومن العبث قضاء الوقت في تعريفها وتحديد معناها، ما دامت - ابتداءً من الحياة المعيشة وانتهاءً بها - لا تعني أمراً جدياً. مَنْ أنا.. أو بالأصح.. ما أنا؟ ما العالم الواقعي وما الروح؟ ما المعرفة؟ ما الفكر؟ مشكلات وأسئلة يستعصي الجوابُ عليها أو حلّها، لأنها بتركيبها وبمحاولة وضعها في أجواء حياتية معيشة، أمورٌ من قبيل اللغو. مَنْ الذي يثير كلَّ هذه المشاكل إذن؟ لأنها لا تنشأ من تلقاء نفسها. إنهم المفكِّرون، أو مَنْ يسمُّون أنفسهم هكذا. وهم أولئك البشر الذين يستخدمون عقولهم من أجل غيرهم وبدلاً عنهم، وفي أغلب الأحيان دون دعوة مباشرة. إنهم فضوليون بشكل من الأشكال، وهم على الأكثر أناسٌ لاعمل لديهم يلهيهم عن التفكير.

في مكتبه، ذات ضحى، وقطرات المطر تطرق بتردّد زجاجَ النافذة، جلس حسين ينصت إليه. وجه كالح، نحاسي السمرة. فارغ. فارغ؛ وسيجارته تموت بين أصابعه ونظراته تحمل إليه الدهشة وبعض الإعجاب. وهو، هو لايدري لِمَ يتكلّم هكذا ولمن.

للإنسـان بداية، بدايتـه الوعـي. وهو يفـعل ذلك بمفـرده. ثم ينتـهي بميـتـة شخـصـيـة إلى أبعد الحـدود. وبين هذه البداية غيـر المؤكـدة وهذا الانتهاء المفاجئ، خلال فترة زمنية معينة جداً، يبدأ أمرٌ ما، شيءٌ مركبٌ غامضٌ، لايهمُّ ما نسميه ولكنه يبدأ. إنه يبدأ وسينتهي بالتأكيد. هناك حدود إذن، وكل ما يوضع داخل هذه الحدود يجب - منطقياً - أن يكون محدوداً بها. يبدأ بعدها وينتهي قبلها. وهذا هو مايسمى أيضاً، الحياة الشخصية. الشخصية. لم يجبه حسين وهو يكرر عليه هذه الكلمة عدّة مرات. رآه يطفئ سيجارته ثم يشعل أخرى ويبين عليه أنه غير مرتاحٍ، لايستطيع الاستقرار في مكانه. لم يدخل عليهما أحد. ولم يدرِ ما سبب الضيق الذي ينتابه هو أثناء ما كان يتكلم. جاء حسين منذ حوالي الساعة، كعادته خلال الأسابيع الأخيرة؛ وجلس في ركنه بهدوء بعد أن سأل عن عبد الكريم ومرضه. أخبره أن المطر يتساقط بين فترة وأخرى وأن الجو مبهج في الخارج. ثم أخذ يشرب الشاي بلذة وبحركات مطمئنة. ألهته بعض الأوراق زمناً قصيراً. كان يريد أن يسأل حسين عن هذا الاطمئنان، عن هذا الاستقرار الروحي الذي يبدو أنه يغمره، من أين يستمدّ ينبوعه؟ لكنّه نسي ذلك وبدأ كلامه عن أفكار كان يعدّها من أسراره الشخصية. أراد أولاً أن يحدّثه بإيجاز عن مشاريعه، مشاريع أيّاً كان من الناس وصفاتها، غير أن القلق الذي ظهر على وجه حسين والاهتمام المبالغ فيه، أثار حماسه وأزعجه في الوقت نفسه. إنه اهتمامٌ مفتعلٌ، مادام لن يغير منه شيئاً. لكنّ هذه الفكرة زادت من رغبته في الإفاضة بالحديث.

ومرّ الوقت مع السجائر المتعاقبة التي صارت رؤوسها تتوهج بشدة

ومع زخات المطر المتقطعة. تحرك حسين في الكرسي وكأنه يجلس على مسامير:

- انظر مدحت، تره هاي بداية خطرة. وين راح نوصل، عيني؟ هذه أنانية متطرّفة. يعني قصدي، إذا الناس كلهم يفكرون على هالشكل، تره هاي مشكلة. تمام لو لاع؟

بقيت ذراعه جامدةً في منتصف الطريق إلى فمه، لا توصل إليه السيجارة المشتعلة. أجابه بالنفي، فتحركت الذراع وامتصت الشفتان العقب ثم اندفع الدخان كالحسرة من فمه. هذه الأفكار ليست لكل البشر: ما سبب أن نفكّر من أجل الآخرين؟ إنها لمخلوق معين، محدّد الظروف والصفات والقابليات، ذي مزاجٍ وعواطف وميولٍ خاصة. وهي منفصلة عن العالم والتاريخ والتطور، لأن هذه كلها ظروف وديكورات من أجل اكتمال الصورة. تبدلت نظرات حسين واحمرّت عيناه وهو يقحّ ويطفئ سيجارته:

- شلون يصير؟ شلون يصير؟ إحنا نعيش بهالمجتمع. هذا المجتمع يقدّم لنا خدمات ضرورية وديشبع حاجاتنا. إحنا أيضاً لازم نعمل من أجل صيانته. يعني بس نفكّر بنفسنا؟ هاي خدعة.

قبل الدخول في موضوع الخداع، يجب أن نحدّد المجتمع الذي ننتمي إليه. لا فائدة من التعميم. إنه المجتمع العراقي سنة ١٩٦٢. ولأنه مجتمع اللا استقرار، اللا مستقبل، مجتمع الهاوية والتخمة والبلادة والارتعاد والحقد والنفاق، مجتمع أن تأكل وجبة طعام دسمة وألا تعلم ما يجري في العالم وأن تتعقد جنسياً بالضرورة وأن تحذر الفقر، فإنه مجتمع لا علاقة له بأفراده الحقيقيين. إنه المجتمع الذي لا يقدم لك شيئاً

مقابل شروطه الغبية، لأنه ليس مجتمعاً، بل فترة زمنية. ولذلك، فإن ذكر الخداع في تعاملك معه، يعني الكلام بلغة غير مفهومة. إنك لست في موضع الخديعة حين تريد أن تنقذ نفسك.

ثم وجد نفسه يهتف بغضب:

- شوف حسين، آني ما أريد هالمجتمع الوسخ. ما أريد أنتمي له. آني ملتصق به بالصدفة، وآني مو أوّل واحد ولا آخر واحد.

كان ينظر إليه ببعض الخوف والقلق. خطر له أن حسين قد يكون انتهى إلى نتائجه هذه نفسها حين ترك البيت والوظيفة، بشكلٍ ما، واتجه نحو هاويته. لعل في أعماق ذهنه فكرة غائمة مثل هذه تدفعه نحو ما يشبه الانتحار.

رآه يمسك سيجارته بأصابع قذرة مرتجفة ثم يشعلها. لعله حكم على العالم قبله وأدانه، وهو يسعى من أجل أن يجعل من حياته نغمةً مؤسية تنعى الإنسان. أليس هو إذن، بعد كلّ حساب، توأمه المجنون؟ التوأم الذي انحدر من هذه الأفكار ذاتها، ثم أعوزته الإرادة والتصميم والنظر الثاقب فتخلّى عن كل شيء وترك نفسه تُحمل مع التيار، جثةً منتفخةً طافية على سطح الماء؟

كانت على وجهه سمة من الإرهاق ومن الحياة المستنزفة. وجنتاه العظميتان وسحنته النحاسية المحترقة والدوائر السوداء تحت عينيه، وهذه النظرات التي تفرغ، بين وقت وآخر، من أي معنى، من أي صدى للعالم.

سمعه يطلب شاياً من الفرّاش الذي دخل عليهما حاملاً رزمة من الأضابير والأوراق. كلّمه بعد أن انفردا:

- هاي أفكارك مدحت.. هواية فرديّة. يعني هي بيها تمرّد وثورة. لاكت تره كلش فردية وما إلها مكان بالمستقبل. ما إلها مستقبل. يعني بمجتمعات المستقبل. تعرف.. الاشتراكية وهالأشياء. شتريد أنت عيني مدحت؟ شنو هالتخطيط؟ ماكو به تغيير للأحسن. تمام؟ تمام؟

لبث ينظر إليه صامتاً. لم يجبه لأنه كان يشك في أن سؤاله يحتاج إلى جواب. ثم قال إنه لا يريد أن يُعدّ متمرِّداً. ما جدوى ذلك؟ بالإضافة إلى أنه يعطّل مشاريعه. التمرّد يتضمن المواجهة والدخول في المعامع، وهو يستنكر كل هذا. إنه يودّ أن يصل إلى هدفه كالأفعى الزاحفة. بالتواءٍ وسكون وبأكبر قدرٍ ممكنٍ من السلامة والتأكُّد. كلا. ليس لديه أوهامٌ عن التمرّد. هذه الكلمة زائفة لا تحمل الخير لأحد وهو لا يطيقها منذ البداية. إنّ كل أخلاقيّات العصر لاتعارض صراحةً الأنانية والاستغلال والتمتّع على حساب الغير والاغتناء بكل الوسائل. وهو، في الحقيقة، لايريد كل هذا. ليس في مزاجه ما يحبب له ارتكاب الجرائم من أجل تملّك كل شيءٍ. غير أنّ حياتنا هذه هي الشيء الوحيد الذي يجب ألا يذهب سدى. ولهذا وجب أن نصنع منها شيئاً منظماً، أن نجعلها جهد المستطاع أمراً هيناً ممتعاً مليئاً واسعاً.

كان حسين يمتص الشاي ويدخن بشراهةٍ، وعلى وجهه تسقط حزمةٌ مِن ضوء الشمس الأبيض. لم يبدُ منصتاً إليه، ورأى فرحةً غامضةً تغمر ملامحه وهو يتطلّع خلسةً من النافذة ويتملّى من الجو المشرق في الخارج. ثم وضع القدح بحذر أمامه وأطفأ سيجارته. هكذا يتهيأ للذهاب:

- آني هم عندي معاك شوية حكي مدحت. بلكي فد يوم تجي نشرب.. نسهر سوا. أريد أسمع منك بعد. ما قولك؟

قحّ فجأة عدة مرات فاحمرّ وجهه واحتقن. أخرج كفيّة وأخذ يمسح عينيه وأنفه وفمه بها:

- أحياناً الحكي ما أدري لويش يفيد، مثل البلسم.

ابتسم له. عاد يتكلم:

-.. وطبعاً، أكثر الأحيان.. ثرثرة حتى الصباح. مع ذلك، حاول فد مرة تجي بالله مدحت. ما قولك؟

سأله:

- صحيح يفيدك الحكي، حسين؟

رآه يهمّ بالقيام فيحجم. أخذ ينظر إلى قدميه، إلى الأرض، نظرة غريبة. لحظات، ثم قام بخفة ووقف أمام كرسيه. قال وهو يزرر سترته:

- بلي. ليش لا؟ آني واحد من الناس اللي يفيدهم كلام الصدق.

- شلون أبو سها؟

كان يمشي خارجاً بتمهّل، فاستدار إليه. ظهرت الحيرةُ على وجهه، ورأى، خلال هنيهة، ضوءَ عينيه يتغير وتتقوّس شفتاه:

- يعني.. بدل ما أموت على الرصيف وأزعج الناس، أروح أموت على فراشي.

ثمّ انفرج فمه المعوج عن ابتسامة يختلط فيها الاعتزاز بالخجل، ورفع يده محيّياً ثم فتح الباب واختفى وراءه.

* * *

كان مدحت جالساً مع أبيه على التخت الخشبي في ركن من الحوش، يستمع إليه. ناما قليلاً بعد الظهر في السرداب الصغير، ثم

استيقظا عصراً وجلسا ينتظران أن يجلب لهما الشاي. كانت السماء باهتةَ الزرقة لاتزال مليئةً بفيضٍ من أشعة الشمس، وكان أبوه يتحدث عن حياته. بدأ بطفولته ولم ينته بعد من ذكرياتها:

- أبي، الله يرحمه، كان يحب ونسة. سهراته ما تخلص. أصدقاء وشرب ونسوان ولعب ورق. ما كانت آخرته تهمّه. إيه، الله يرحمه. هوايه جميل كان. طويل، هيبة، عيونه كبار وشواربه رفيعة.

توقّف وأخذ يسبّح بسرعة:

- أتذكر مرةً...

توقف ثانية متأمّلاً في الفراغ:

- كان عمري يمكن أربع عشر سنة أو أقلّ، وكان أبي صار له ليلتين ما رجع للبيت، واحنا ما عندنا غيره. كنت آني مع أمي الله يرحمها وعمتك وجدتي. أمي المسكينة صارت كالمخبولة من شدة القلق، لكنها كانت صابرة. جدتي أمسكت بي في اليوم الثالث وقالت لي: لازم تروح تشوف ما حصل لأبيك، هو في بستان النقيب، ذاك الوقت بستان النقيب، منو يوصلها! وآني لا أزال مراهق، ما معتاد الخروج بعد غروب الشمس. المهم، جدتي أجّرت لي عربة كانت تعرف صاحبها وأوصته أن يوصلني ويرجعني.

نادت أم مدحت من الطابق الأول:

- أبو مدحت.

رفع رأسه إليها:

- ها؟

- الشاي حاضر! اصعدوا للإيوان شربوه. ماكو أحد ينزله. آني

أخاف كرومي يريد شي مني.

هز رأسه ولم يجبها:

- وين وصلنا؟ أي. صاحب العربة طلع ابن حلال وصّلني ويقى ينتظرني. كثير كنت خائف حينما وصلت. كان الوقت عصر والشمس حمراء والدنيا ربيع والأغصان في البستان كثيفة ما تسمح تشوف دربك. بقيت أمشي ربع ساعة. ضايع مثل النعجة الثولة. أخيراً ما حسيت إلا عبد أسود يخرج لي من بين الآصال ويصيح: ولك شتعمل هنا... بهالديرة؟ لعنة الله عليه. ما خفت بعمري كله مثل خوفي من ذاك العبد. بلعت ريقي وقلت له: عمي، آني ابن سيد اسماعيل، أهلي بعثوني إليه. ظل واقف فوق رأسي وعيونه مثل الجمر. قال لي: أوقف بمكانك ولا تتحرك، ثم انصرف. بقيت واقف أرجف مثل العصفور المبلل، وأخاف أحرك حتى إصبعي. والله ما تأخروا عليّ. سمعت وقع أقدام ولمحت ثوب أبي بين الأغصان. طلع عليّ ووقف. آني بهتت. طويل كان، الله يرحمه، وثوبه مفتوح وخصلة من شعره نازلة على جبينه وعيونه حمرة لكن كأنها مكحّلة. صاح بي: ولك رزاق، شكو عندك هنا؟ واتكأ على جذع شجرة. بهرني شكله. قلت له: يابه، جدّيتي ظل بالها عندك وتقول كيف حالك. أخذ يضحك من كلامي هذا. كانت أشعة الشمس تضرب على شجرة البرتقال فوق رأسه وتصيّر وجهه كأنه نوراني. مدّ يده إلى جيبه، وقبل ما يتكلّم تراءى لي بين الآصال فستان أحمر يهفهف، وخرجت من وراء كتف أبي امراءة.

سمعا أم مدحت تنادي مرة أخرى. رفع هو رأسه فرأى وجهها وهي تطلّ عليهما من وراء المحجر الخشبي. أشارت إليه بيدها أن تعالا

اصعدا من دون أن تتكلم. أجابها أبو مدحت وهو يسبح:

- زين. زين. راح نصعد. صبي الشاي أنت واحنا جايين.

ثم خفض صوته:

- بيضاء كانت بياضاً قاطعاً وممتلئة وشعرها أسود طويل يلتف ويوصل لخصرها. تقول غانية من غواني هارون الرشيد. جمال مفرط. سبحان الخلاق العظيم. مالت على كتفه وقالت له: أريد أشوف ابنك سيد، هو حلو مثلك؟ أريد أشوفه. صوتها كان، أتذكره زين، فيه غنة، حلاوة. حضنها أبي الله يرحمه ومد ذراعه بساعته اليدوية وقال لي: ارجع الآن رزاق، أخذ هاي الساعة نيشان لأمك، قل لها آني زين، كلش زين.

صمت لحظات. كانت أصابعه تعبث بحبات المسبحة الطويلة وعلى وجهه المجعد عادت تنطبع مسحة من الذهول. همس:

- كانت الدنيا ربيع. تلك المرأة كان اسمها ريحانة. تغني كانت ويقولون إنها أحبت أبي وغنت كم أغنية عليه. كانت ذائعة الصيت ذاك الوقت. سبحان الخلاق العظيم. يا الله، قم نشرب الشاي قبل أن يبرد.

آنسته هذه الحادثة والطريقة التي رواها بها أبوه. همّ أن يسأله عن شعوره تجاه تلك المرأة وماذا جرى لها مع جده بعد ذلك حينما صرّ الباب الكبير المواجه لهما وتحرك منفتحاً ببطء. تبدّى له وجه منيرة يحيطه قماش عباءتها الأسود وهي تطل برأسها من وراء خشب الباب. كان ملوناً مشرقاً رغم علائم التعب. ابتسمت تحييهما وانتبه إلى أمها تدخل بعدها. توقف والده والتفت نحوهما ثم هلل مرحّباً بهما. نادت أمّ مدحت وهي تقف بحذاء المحجر تدعوهم جميعاً للصعود إلى الطابق الأعلى،

مبدية أشواقها لأختها ولمنيرة. كانتا تقفان وسط الحوش تكلمان والدته بحماس. رآها تنظر إليه مرة أو مرتين. شعر ببعض الحرج وهو في بيجامته، ينتظر أن يسبقوه في السير نحو السلم. لم تكن متزينة، ولمح على عباءتها وعباءة خالته بعض الأتربة. ثم اتجهتا أخيراً إلى مدخل السلم فتبعهما. لابدّ أن تكون منيرة قد عملت الكثير كي تنهي أشغالها المدرسية بسرعة. كان يسير وراءهم متباطئاً، وتركهم يتهيؤون للجلوس في الإيوان فقصد غرفته حيث أبدل ملابسه وخرج. واجهته أخته مديحة تمرّ مبتسمةً فسار خلفها. كانوا يشربون الشاي وأمه تحكي لهم عن مرض أخيه عبد الكريم. جلس قرب أبيه، أمامها، وتناول قدح الشاي. سمع أباه يكلمها:

- شلونها أختك مليحة؟

- زينة، عمو.

ناعماً كان صوتها. رفع نظره إليها. لم تزح العباءة عن كتفيها ولم يرَ في وجهها أثراً للزينة غير ذلك الخط الرفيع الأسود من الكحل حول عينيها. سألها أبوه مرة أخرى:

- ما أدري كم ولد صار عندها الآن؟ ستة لو سبعة؟

انفرج فمها عن ابتسامةٍ خفيفة:

- تلث ولد وتلث بنات، عمو.

- ما شاء الله. ماشاء الله. أي، نعم. صغيرة كانت حين تزوجت.

ثم التفت إلى أم مدحت:

- نورية، قولي لي كم كان عمرها مليحة حين تزوجت؟

- مليحة؟ صغيرة كلش كانت. خمسطعش سنة يمكن. لكنها، الله

يسلمها ضخمة كانت.

هزت أمّ منيرة رأسها مؤيدةً:

- يعني بالكاد أنهت الأربعة عشر ودخلت في الخمسة عشر.

سمع منيرة تستفسر من مديحة عن بنتيها وعن حسين بصوت خافت. كانت أمه تصب الشاي في الأقداح أمامها وهي تتهامس مع أم منيرة، وكانت زرقة السماء المتلألئة قد خفتت ولم يتبق على التيغة العالية غير انعكاسات بنفسجية من أضواء الشمس الغاربة. رأى منيرة تتناول قدح الشاي من والدته وتشكرها. انحدرت العباءة عن كتفيها بليونة فبدا ثوبها الأزرق وصفحة رقبتها وارتفاع صدرها. نظرت إليه. كان النور يرتمي على وجهها من اليمين وينصب في عينيها ثم ينعكس منهما أصفر عسلياً. وكانت خطوط أنفها وخدّيها وحنكها وشفتيها دقيقةً في انحناءاتها لا انكسار فيها. لم يتبادلا الحديث، وصارت الأصوات حوله وشوشات غير واضحة. ثم ران عليهم السكونُ لحظات قطعته أمه بحديثٍ جديد عن عبد الكريم ومرضه. رآها تصغي باهتمام إلى ذلك الحديث وقد اكتسى وجهها بالقلق. سألت عدة أسئلة عن طبيعة مرض عبد الكريم وأسبابه وما قاله عنه الطبيب، ثم أرادت أن تراه. قامت أمه بعجلة وجرتهم خلفها. كانت حنوناً مع عبد الكريم، لطيفة رقيقة الصوت. بدا على أخيه انتعاش مؤقت ثم رآه يمسك بجبهته عدة مرات ويمسح العرق عنها. سادهم شعور بأنهم يثقلون عليه فقاموا وخرجوا. أرادوا الذهاب إلى غرفة العمّة حينما تذكرت أمها حقيبتهما التي نسيتاها في مكان ما. ظهر بعض الذهول عليها ثم انفرجت ملامح وجهها وأسرعت تتجه نحو السلم. خاطبها:

- وين رايحة، منيرة؟

أجابته دون أن تتوقف:

- دقيقة واحدة. نسينا الجنطة بالمجاز.

تبعها. كانت على بعد مترين أو ثلاثة منه. نحيلة، طويلة في حذائها العالي. التفتت إليه:

- ماكو حاجة تجي.. مدحت. الجنطة خفيفة.

- لايهمّ. أريد أتنشط شوية.

نزلا الدرجات بحذر ثم واجها الحوش. رأى، على الضوء الشاحب، قسماً من خدها الأيسر وحاجبها وعينها وأنفها الدقيق. كانت تشد العباءة إلى جسمها فيبرز أعلى ظهرها وكتفاها. سبقها بخطوات سريعة فضغط على زر المصباح الكهربائي وفتح باب المجاز الخشبي. كانت الحقيبة مرتكزةً في زاوية مظلمة. ضحك حين حملها وشعر بثقلها:

- يا الله. هذه هي الشنطة الخفيفة التي أردت أن تحمليها لوحدك؟

كانت واقفة تمسك بطرف الباب. ضحكت ضحكة قصيرة ولم تجبه. رآها تطفئ الضوء. أسعده صمتها وسار بخطوات ثقيلة شاعراً بها تمشي جنبه إلى الخلف قليلاً. كان حذاؤها يطرق حجارة الحوش برقة. استدار إليها حين وصل إلى مدخل السلم المظلم فوجدها قد نزعت عنها عباءتها وأمسكتها بيدها. كانت خصلات شعرها الكث مرتمية على الكتفين النحيلين. توقفت قربه. لم يميز قسمات وجهها جيداً. سألته:

- تعبت؟

أجابها:

- لاع. اصعدي قدامي أحسن.

- ماكو ضوء بالدرج يمكن؟

- لا.

ثم مرت قربه، ترتقي الدرجات بخفة. تبعها متثاقلاً، يحاول أن يتغلّب على الإرهاق الذي بدأ ينتابه. كانت تنتظر في نهاية السلم، وعلى وجهها بعضُ القلق:

- خليها هنا مدحت. أرجوك. خلّيها هنا.

وضع الحقيبة قرب الحائط ثم سارا معاً. سألها:

- هذه هي كل حاجياتكم؟

- لا. فكرنا أن نستقر أول مرة.

- يعني راح تنقلين لبغداد، مو؟

كانت تسير ناظرة إلى الأرض:

- إن شاء الله. كتبت لأخي مصطفى. لعله يعمل ترتيب مع وزارة المعارف. عنده جماعة هناك.

وصلا إلى غرفته فتوقّف. استمرّت تسير:

- تسمح لي.

وتركته منصرفة إلى غرفة عمته حيث الضجة. كانت السماء، من وراء الحيطان الخربة السوداء، تبدو ملساء صافية. تطلع إليها تسير. كانت خصلات شعرها الغامقة تنتثر باضطراب على كتفيها وظهرها، وخصرها الناحل يميل مع خطواتها. لم تكن ساقاها مستقيمتين تماماً، وخيّل إليه أن تعباً خفياً، تعباً روحياً غير منظور يعتور مشيتها. دخل غرفته وجلس على حافة السرير. لم يرها منذ شهور، قبيل سفرهما إلى بعقوبة. كانت أكثر مرحاً آنذاك، أكثر انفتاحاً للحياة. لعل تلك المدينة

الحاملة أثرت على معنوياتها العالية! أحسّ ارتخاء في ذراعه اليمنى فأخذ يفرك عضلاتها. كانت الغرفة حارةً بعض الشيء، مظلمةً لولا الضوء المنسكب من السماء. سمع وقع خطوات سريعة ثم رأى أمه تمر أمام الباب نحو الجهة الشرقية حيث غرفة عمته وأخته. عاد يفرك زنده المتشنج. كان يحسّ سكوناً في نفسه مشوباً بالرضا. خطر له أن بقاء منيرة معهم يعني أن عليه أن يتخذ منها موقفاً. وقبل ذلك، يجب أن يعرف مداه منها وما هي منه. وقياساً على علاقته السابقة معها فلا شيء في الأفق. وذكرياته لا تعينه على تقديم أيّة صورة عنها يمكن أن يتخذها أساساً لتصرف ما في المستقبل. كأنها خلقت قبيل مغيب هذا النهار!

لمح شبحاً يقف بسكون في الطارمة أمام غرفته إلى اليسار، تعرف فيه على أخيه عبد الكريم. كان يتطلع نحو الجهة التي تنبعث منها ضوضاؤهم، منحني الظهر، يستند إلى المحجر. فاض قلبه بالشفقة عليه. كم يبدو مرهقاً مستنزف القوى! أين ستنتهي به طريق الحياة الموحشة هذه!

سمع إحدى الصغيرتين تكلم أخاه من بعيد:

- خالو. خالو. راح نصعد للسطح. بيبي قالت راح نصعد للسطح اليوم.

ثم رأى ابنة أخته سها تقترب من خالها:

- خالو. راح ننام بالسطح اليوم. كليتنا. أنت هم خالو، مو؟

مد عبد الكريم يده وأخذ يعبث بشعرها:

- زين خالو. وأنت وين راح تنامين؟

رفعت وجهها إليه:

- يم ماما وسناء، تحت الكلة. هواية حلو عيني خالو!

بقي يعبث بشعرها لحظات دون كلام. استدارت وعادت تركض إلى الجهة الأخرى. سار عبد الكريم ببطء إلى غرفته.

ساد البيت هدوء لا تقطعه غير زقزقة العصافير المنبعثة من أشجار الحديقة الصغيرة. كانت الشمس قد سحبت آخر أنوارها، ولم تتبق في الغرفة حوله غير الظلمات الشاحبة. لن يطول صمتهم، وسترتفع ضجة العشاء بعد قليل. لم يرد أن يقوم من مكانه؛ وكان يحسّ، وراء أفق نفسه، وجوداً سحرياً غامضاً لهذه القادمة الجديدة.

كانا، هو وأبوه، يتناولان طعام الغداء بصمت، وأمه تجلس قريبهما في السرداب الصغير الرطب. أراد أن يقول لها إنه شبّه إحدى الفتيات بمنيرة عند عودته ظهراً من الدائرة. كانت تعبر الشارع فخُيِّل إليه للوهلة الأولى أنها منيرة بخطوها الخفيف وقامتها اللدنة. وبعدما انتهيا من أكلهما وقاما يأخذان غفوة الظهيرة خطر له أنه، قبل أيام، ظن أن منيرة تكلمه في التلفون حينما أخطأ عامل البدالة برقمه.

بقي يتقلّب فترةً على الفراش تحت المروحة السقفية، ولم ينم إلا بعد أن بدأت الحركة في السرداب الكبير المجاور وشارفت الساعة على الرابعة والنصف. استيقظ ثقيل الرأس وجلس في الفراش. كان بمفرده والظلام يكاد يخيم حوله. فرك عينيه منزعجاً. كانوا جميعاً في الطابق الأعلى. سمع أمه تنادي وأخته تجيبها ثم تراكضت الصغيرتان إلى جهة ما. قام ببطء وذهب إلى المغسلة. أنعشه الماء البارد قليلاً فكرر غسل

وجهه وتدليكه. لم تكن الحرارة شديدة رغم انقضاء شهر تموز، ولعل الصيف ينقضي بأقل ما يمكن من الأيام الحارة.

توجّه نحو السلم وارتقى الدرجات بسرعة. لمحها تدخل غرفة عبد الكريم حالما صار في الطارمة العريضة. كانت تحمل قدحي شاي بيديها. هدأت خطواته. لم تزل الشمس تصبغ الحيطان الشمالية بحمرة أشعتها، وكان والده متربعاً بمفرده على قنفة في الإيوان يشرب الشاي بسكون. دخل غرفته وأغلق الباب خلفه. خلع بيجامته وارتدى ثوباً وبنطلوناً. سمعها تكلم أخاه في الغرفة المجاورة:

- ... ما أدري لويش، لكن، تره أكيد، الشاي يساعد على تحمل الحر.

أجابها فضحكت. خُيِّل إليه أن ضحكتها ذات طابع خاص وأن فيها مرحاً متخفّياً. سمعه يكرر الكلام ثم ساد بينهما صمت قطعته هي بكلمة واحدة:

- يعني؟

خرج من غرفته وأطلّ عليهما:

- مساء الخير.

كانت مشرقة الابتسامة، لامعة العينين، تجلس على كرسي منخفض قرب سرير عبد الكريم وتحمل قدح الشاي بين يديها وقد انحنت قليلاً إلى الأمام. التفتت إليه. بهرته صورتها في لحظة التطلّع هذه وقبل أن تتفوّه بكلمة. العينان الصفراوان الواسعتان وخصلة الشعر الأشقر الداكن والفم الضاحك:

- مساء النور.

وكانت فتحة الثوب الأرجواني ضيقة يحيطها ارتفاعا النهدين المتقاربين. سأل أخاه عن صحته. بدا له متفتح الأسارير هو الآخر. أراد أن ينصرف لولا شعوره بأن ذلك قد يعني اعترافاً بأنهما يملكان الحق بالانفراد. جلس على حافة السرير قبالتها. كانت ركبتاها ملتصقتين ورآها تعتدل في جلستها وتتراجع إلى الوراء. قالت له:

- أشكرك هواية على الكتب. ما أدري شلون...

والتفتت إلى عبد الكريم:

- بس تره آني دا آخذ منها دون أن أخبرك. يعني.. تسمح لي.

كانت تتكلم بهدوء، دون إشارات، وعيناها متوجهتان نحوه. قال:

- آني دا أشتريها وأنت في بالي.

أسرعت تقول:

- شكراً. شكراً.

- يعني دتفيديك بقتل الوقت؟

- كلش.

ثم نظرت إلى أخيه:

- بس تره كريم هم ديقرأ قسم منها. مو آني بوحدي.

وابتسمت ابتسامتها العريضة:

- آني الوقت عندي كثير. لكن أنت كريم وقتك مو كافي للدراسة. ما بقي شي للامتحان.

أجاب عبد الكريم:

- لا. ما إلك حق منيرة. آني أقرأ هالقصص بوقت الراحة بس. شعليكم مني. هاي هي راحتي.

قال له:

- لا. شوف كريم، القراءة المستمرة فيها إرهاق وأنت صحتك ما تتحمل.

- ماكو أي إرهاق. قصص خفيفة مسلية. بالعكس.

ثم وجه كلامه إليها:

- لكن هي منيرة تريد الكتب كلها لها. ما تريد منافسة من أحد.

ضحكوا. سأل أخاه:

- قول لي كريم، رحت للكلية؟

- أي. البارحة.

- أخذت جدول الدروس؟

- لاع. قالوا أسبوع الجاي يطلع.

ثم وضع قدح الشاي قربه:

- شفت وضع الكلية مخربط هالأيام. ما أدري السبب. أنواع الإشاعات.

- أي نوع من الإشاعات؟

- والله ما أدري. مرة يقولون ماكو امتحانات هالسنة دور الثاني. مرة يقولون أكو إضرابات طلابية راح تبدأ بعد أيام الامتحان أو أول السنة. ما أدري شنو القضية.

- شنو إضرابات؟ والنتيجة؟

- ما أدري. يقولون إنَّ الإضرابات مختلفة هذه المرة.

- منو يحكي هالحكي؟

- هواية جماعات. عدا ربَع الزعيم طبعاً.

- شوف، خليني أقول لك. في وضعنا الآن، لا شيء يزيح عبد الكريم قاسم غير القوة. هذا الرجل مغطّى بالدماء، ولا يفهم غير القوة. صحيح الوضع أفلت من يديه، لكن ماكو شي يصير إذا ماكو قوة. شنو إضرابات، شنو بطيخ!

تكلمت منيرة:

- بس شوف مدحت، إذا هذه الإضرابات توسعت وصار اتفاق.. يعني إذا صارت جبهة ضد عبد الكريم قاسم، كل شي ممكن يصير. تدري سلطة الحكومة خارج بغداد ضعيفة هواية؟ يعني، في بعقوبة، يشتمون عبد الكريم قاسم علناً.

سألها:

- صحيح منيرة، ما صار شي من أمر نقلك إلى بغداد؟

كانت الظلال قد تكاثرت في الغرفة الضيقة الحارة، لكن وجهها بقي مضيئاً بشكل ما. أجابت ببعض الكآبة:

- لا والله. ما ديقدر أخويه مصطفى ينزل إلى بغداد. بس ديتأمل ياخذ إجازة نهاية هالشهر. بعد أسبوعين.. عشرة أيام.

- وإذا ما صارت قضية نقلك؟

ازداد وجهها قتامةً وصمتت لحظات ثم قامت ترفع أقداح الشاي:

- ما أدري والله. الله كريم.

كانت تنورتها البيضاء ضيقة تلف جسداً مليئاً. تابعها هنيهة وهي تخرج حاملةً الصينية وأقداح الشاي. أحسّ كأن الغرفة تخلو من الضوء بعدها. قام فأشعل المصباح الكهربائي. لاحظ المروحة السقفية تدور. سأل أخاه:

- شلونك كريم بالدراسة؟ عندك دوخة من تقرأ هواية؟

- أي. مرات.

- ضعف عام هذا. أنت طعامك شوية مخربط. تمن ومرق يومياً. ما يكفي هذا بالنسبة لشخص مريض. لازم أحكي مع أمي بلكي تبدل من نوعية الأكل شوية.

- تبدّل منه؟ هذا هو كل ما تعرف. لا، يمكن لازم آخذ بعض المقويات ولو خلال فترة الامتحان على الأقل.

- أي. أنت جسمك صحيح ونشاطك لا بأس به. لكن أكو حوادث أثرت عليك نفسياً. أنت لازم تلاحظ هالشي وما تتركه يحدث لك.

- أي حوادث؟ وين أكو حوادث بحياتنا؟

- تقصد ماكو حوادث ضخمة. لا تستعجل، لا تستعجل. مو هذا قصدي. أكو حوادث تافهة أحياناً، لاكت تخلف أثر عنيف بالنفس، يعني تهزّ الإنسان.

بدا له أن وجه عبد الكريم يزداد اصفراراً، يزداد فراغاً؛ وكان يمسح العرق عن جبهته ورقبته المفتوحة. سمعه يردّد:

- ماكو بحياتنا حوادث تهزّ النفس. ماكو حوادث. حياتنا مثل التراب، بلا طعم، بلا لون.

أزعجه قول أخيه:

- شوف عبد الكريم...

وجد نفسه مندفعاً في الحديث:

- أنت صحتك انهارت ورا موت فؤاد. لازم تِعرف هالشي، لازم تفهمه، تفهم السبب.

لم يظهر على عبد الكريم أنه سمعه. بقي لحظات يمسح العرق بحركات بطيئة:

- أكو شيء ينفهم، خاطر أفهمه؟ أكو منطق في هذي الأمور؟ ثم..

تمهّل قليلاً:

- .. شنو الفائدة أن تعرف أن موت أعز الناس إلك، ما له علاقة بحياتك؟ شنو الفائدة؟ بس لكي نقتنع بأنّ الحياة سلسلة حركات آلية؟ ماكو فرق بين موت البشر وموت الحيوانات؟

كانت الكلمات تخرج لينةً، مستسلمةً من فمه المتقلّص الشفتين. لم يخطر له أن من الممكن أن يسمع عبد الكريم يفصح عن ذاته هكذا. وخلال هنيهة، وهو ينظر إليه، أحسّ بنفسه مصدوماً بكل شيء في أخيه.. مرضه ويأسه ومرارة أقواله. كان يتطلع إلى الخارج مراقباً شيئاً مجهولاً من بعيد. سأله بقلق:

- شنو يعني؟ تتصوّر يعني العالم لازم يتوقف لأن أحد الأشخاص.. مات؟

رآه يلتفت إليه بهدوء. كانت في عينيه نظرةٌ بريئةٌ:

- ليش لا؟

- لا تتشاطر معي كريم. ماكو واحد ينكر كم هي مرة هالأشياء. بس.. هاي هي الحياة. منو قال لك لازم الحياة تكون مريحة وسعيدة؟ ماكو أحد، وماكو شي يخلينا نعتقد هالاعتقاد. بس لازم تفتهم بالوقت المناسب وتنقذ نفسك. هاي هي. لازم تنقذ نفسك.

- حيوانات، يعني؟

- شنو؟ شنو؟ وأنت لويش تحتقر الحيوانات؟ تعال نتحاسب

ونشوف شنو الفائدة من تفوقنا عليها؟

عاد يجيبه بلهجته المستكينة:

- ما أقدر أحاسب. ما أريد أدافع عن الإنسان آني. ما عندي شي أقدر أدافع به. بس..

تداخلت في ملامحه أمارات ألم:

- .. آني دا أحس بعدم قابليتي على الحياة. يمكن دا أبالغ شوية. لكن ما اعتقد أقدر أتحمَّل موت شخص مثل فؤاد مرّةً أخرى.. لا. لا. ما أقدر أتحمّل.

لم تصاحب كلماته أي حركة من يديه، وكانت عيناه قلقتين، تلتمعان لحظة ثم تنطفئان. قال له:

- أكو فائدة من هالسوداوية؟ أنت دتصر على المعيشة بالماضي، لويش؟

سحب نفساً عميقاً ثم زفر:

- آني ما أريد أعيش بالماضي. آني ما أريد أتذكّر الماضي ولا أريد أفسره. ما أريد أفتهم شي ما ينفهم. أعرف كل هالشي. كل شي أعرف.

التفت إليه بغتةً:

- لكن.. شوف مدحت.. أحسّ كل وقت بشيء يسحبني إلى الوراء.. يجرني لأرجع.. أرجع مع فؤاد.. ولو خمس دقائق، أحكي معه كلمة واحدة فقط. صحيح، ماكو شيء معقول بالقضيّة. أدري. بس ما أقدر أتغلب على هذا الشيء في نفسي. آني.. لازم عملت عمل سيىء بحقه.. فد جريمة. لازم. لكن شنو؟ شنو؟

لم يكن يتساءل. بدا لمدحت أن أخاه على العكس ينطوي في

أعماقه على سرّ ما يريد أن يستره عن نفسه. رآه يخفي عينيه براحة يده اليسرى ويضغط على عظام خدّيه. كان شعره الأسود ممشطاً بعناية، يلمع تحت ضوء الغرفة. لم يجد ما يقوله؛ وأزعجه إحساس مبهم بأن هنالك تزييفاً في ناحية مهمة من الموضوع كله. ثم أراد أن يبدي له عطفه، أن يخبره أن كل ذلك سحابة صيف زائلة، وأن شبابه وحيويته كفيلان مع الوقت بتسوية كل شيء. قام إليه فوضع يده على كتفه:

- ليش دتعذب نفسك بهالشكل، كريم؟

لبث منحني الرأسي، ساكناً. ضغط على عظام كتفه. رآه ينزل يده عن وجهه ويرفعه متطلعاً أمامه ثم رأى عينيه تضيئان. كانت منيرة متكئة على الحافة الخشبية للباب، تتأملهما. أدهشته عودتها ووقفتها هكذا. كانت عيناها محاطتين بكحل أسود خفيف وشعرها مرفوعاً إلى أعلى وهي لاتزال في بلوزها الأرجواني. قالت:

- العفو. أقول.. تره خالتي طلعت قبل ساعة تتسوّق وما رجعت إلى هسّه. ما أدري.. ظل بالنا يّمها.

سألها:

- وين راحت؟

ثم ترك كتف أخيه. أجابته:

- ما أدري. يمكن.. تشتري خبز ومخضر.

وكانت تنظر إلى كريم باهتمام. همهم حانقاً:

- كم مرة أقول لها لا تطلعين هيك طلعات سخيفة.

وسار قاصداً الخروج. عبقت منها رائحة لطيفة حين مرّ قربها مسرعاً، ورآها، وهو يخترق الطارمة العريضة الكابية الضوء، تدخل

غرفة أخيه مرةً أخرى. تعثر خلال نزوله درجات السلم. كان الحوش خفيف الظلمة ووشوشة العصافير على أغصان الزيتونة تملؤه بالأشباح. سمع أصواتهما، أمه وسناء، حين صار في نهاية المجاز الطويل. كان يراهما بصعوبة وهما تغلقان الباب الخارجي. نادى عليهما فأجابته أمه وحيته الصغيرة. أضاء المصباح الكهربائي القريب ثم هتف بهما مستنكراً خروجهما هكذا وتأخرهما في العودة. لم تجيباه، واستمرتا في السير بهدوء حاملتين أشياءهما الملفوفة. رجع قبلهما شاعراً بصدره قبلهما يزداد انقباضاً. كانت لاتزال هناك. دخل غرفته دون ضجة وجلس على السرير. استراحت نفسه إلى الظلمة المحيطة به. بدأت النداءات تنبعث من عدة أماكن في البيت وبعض الأنوار تشعل. إنه عيد العشاء مرة أخرى. كانا يتحدثان، ولم يكن بمقدوره تمييز كلامهما. شعر بنفسه متعباً على حين غرة. لم يرد أن ينصت إليهما. بدا له ذلك أمراً يمسّ شخصه. وضع رأسه بين يديه. كان قلقاً، يحسّ بغموض أنه في وضعٍ غير مريح. كأنه أحيط، على غفلة منه، بشباك غير مرئية لمشكلة ما. قام يتمشى في الظلام. كانا يتحدثان. انسل من غرفته واتجه نحو غرفة التلفزيون. رأى مصباح المطبخ الكهربائي يرمي شعاعاً على أرض الحوش الحجرية. كانت السماء باهتة اللون، خالية من النجوم. مرَّ بغرفة عمته واستمر سائراً حتى وصل إلى السلم فارتقى الدرجات الترابية بخفة. انكشفت له فسحة الفضاء واتسعت السماء أمام ناظريه. لمح نجمة أو نجمتين في طرف الأفق. كان الهواء صافياً، وليس في السطح أحد غيره في هذه الساعة الكئيبة من نهاية النهار. جلس على أحد الأسرّة. أراحه أن يكون هنا، في هذه اللحظة؛ متروكاً لنفسه، يتأمل. لن تلفه المشاكل

دون علمه على الأقل. ذلك ما يجب أن يضمنه لنفسه. ثمّ، أن تتخذ منهجاً حياتياً يجب أن يعني حساباً للعوائق والمصاعب التي قد تقف دونه. المهم أولاً وأخيراً أن نستوعب حقيقة هذه العوائق وأن نلمّ بحدودها وأبعادها. قام يتمشّى ببطء. كانت الحمرة قد تلاشت في أقصى الغرب وخلّفت بعدها رماداً أرجوانياً قاتماً؛ والحيطان الترابية خبأت بؤسها تحت الظلام. وقف أمام سرير في طرف من السطح غير بعيد. فإذا أمكن أن نسمي المشكلة باسمها، منيرة، فلا موجب أن تتدخّل أمورٌ أخرى لتمنع هذه التسمية. ابتسم. إنها ترقد على هذا السرير، لكن وزنها كمشكلة.. أين يرقد؟ وما هي، خارج الانجذاب الجنسي والعاطفي، خارج عالم التوحّد والوحشة والملل؟ كانوا يتصارخون ويتنادون في أسفل، ورائحة الدهن المحروق تتصاعد إلى أنفه. إنها تجذبه إليها دون خفاء، وهو يشعر أنه لايقاوم هذا. لن تجد فتاةً جميلةً كل وقت تتجاذب معها شيئاً ما! نودي عليه من الحوش. أما حديثهما المستمر.. كانت النجوم قد تكاثرت في سماء لا لون لها، وأغطية الأسرّة البيضاء تبدو كخيم في صحراء. إنه على مبعدة، ولعل هذا هو المكان الذي يلائمه أكثر. أما هي.. لقد بدأت تتكوّن أمامه.. شخصاً جلياً لا غنى عنه. صارت شخصاً.. لأول مرة. تكررت النداءات عليه. لم يرد أن يجيب. أحب فجأة أن يبقى هكذا في الظلام، صامتاً بعيداً عن نداء العالم. لا بشر ولا خطط ولا مشاريع ولا رعب أبدياً مجهولاً.

* * *

سمع ساعة الجامع تدق دقاتها اللينة الرخيمة قبيل وصوله إلى

دارهم. كان الدرب خالياً موحشاً تكتنفه الظلمة. فتح الباب عندما عادت الساعة تردد دقاتها، وسار ببطء وحذر في المجاز الضيق. تعثر بعد المدخل بقليل. ثم نسي المنخفض الأخير فتعثر مرةً أخرى وارتطم بالباب الخشبي الكبير. توقف لصق الباب. كان الضياء المقبل من الحوش ينسل من الشقوق العريضة. قرّب عينيه منها، فلم يرَ شيئاً فدفعها بقوة ودخل. كان المصباح الكهربائي يشعّ وسط الطارمة الكبيرة في الطابق الأول، معلقاً فوق الكرسي الذي يجلس عليه أخوه عبد الكريم. نظر إلى الساعة في معصمه فلم يميز موقع العقربين. سار قليلاً ثم توقف. كانت ظلال الأعمدة الخشبية تترامى على الحيطان العالية، وأغصان الزيتونة منكمشة على نفسها. سحرته تلك الأضواء المنشطرة والظلال الطويلة التي أحاطته وهو وسط الحوش. استدار حول نفسه ثم استدار مرة أخرى. مثل الطواحين العمالقة. عمالقة دون كيشوت. عمالقة باب الشيخ.

سمع شخصاً يخاطبه:

- مدحت يابه، شْوكت جيت؟

كانت عمته تقف متكئةً على المحجر أمام غرفتها. هتف بها:

- هاي شنو عمة؟ أنت لويش قاعدة للآن؟ ها؟

بكلمات ممطوطة بعض الشيء؛ أجابته:

- يا عيني عليك يا مدحت. ليش آني شْوكت نايمة بهالليل الطويل.

- وشمطولك خايب يا هالليل؟

- شنو؟ شنو؟

- سلامتك عمّة. أمر؟ خدمة؟

- لا أمر عليك ظالم يابه. بس أريد قنينة ماي باردة من الثلاجة. قلبي مثل النار وآني ما أكلت أي شي.

- الله أكبر. لويش ما تعشيت عمّة؟

- علم الله ما حطيت لقمة بحلقي. شوف لي، رحمة الله على أجدادك، يمكن أكو فد شيف رقي آكله مع الكعك؟

- تأمرين.

شرب من فم القنينة ماء مثلجاً ثم حملها وقطعة الرقي وعاود سيره. سحرته مرة أخرى لوحة الأضواء والظلال. مثل أعمدة معبد روماني متهدّم. لمح عمته تراقبه وهو يدور حول نفسه، فرفع ذراعه عالياً بقنينة الماء.

حيا أخاه من رأس السلم ثم سلك طريق الطارمة الضيقة نحو غرفة عمته. وجدها تجلس على الفراش واضعة يديها في حجرها. كانت الشبابيك العريضة مفتوحةً كلها وضوء المصباح الكهربائي البعيد ينير جوانب الغرفة. سألها:

- وحدك، عمّة؟

ففتحت ذراعيها استسلاماً ولم تجب. سألها:

- وينها بيبتي؟

- صعدت للسطح. ما قدرت تتحمّل الحر عيني. وين الماي والرقي؟

دخل الغرفة فأحاطته هالة غير منظورة من الحر. وضع حمله أمامها على الأرض ووقف متردداً. تناولت قدحاً فملأته ماء ثم شربته.

قالت بسرعة:

- أقعد يابه مدحت. ليش واقف؟ ساعة بيش هسّه؟

- ما أدري عمّة. يمكن ورا نص الليل. شنو، كلهم صعدوا للسطح؟

- كلهم عيني، كلهم. بس هذا أخوك صار له أربع ساعات عيونه ما رفعها عن الكتاب. قلبي يتفطّر عليه وأخاف أحكي معاه.

أمسكت «شيف» الرقي بأناملها فانتزعت منه قطعة رفعتها إلى فمها وبدأت تلوكها. سرّه أن يراقبها ملتذّة هكذا بأكلها. تكلمت وهي تنبش في كيس ورقي عتيق:

- ليش واقف يابه مدحت؟ هسه تهب نسمة هواء ترجع إلنا روحنا.

أراد أن يداعبها بكلمة أو كلمتين ثم ينصرف، إلا أنها عادت تتكلم:

- بعد ما خرجت بدقيقة جاء خبر نقل منيرة لبغداد. يمكن ما كنت واصل لراس الشارع.

- شنو؟ شنو، عمّة؟

أجابته وهي تقرض قطعة الكعك:

- مو أقول لك أقعد. هسّة تهب نسمة الهواء البارد. منيرة أنقلت إلى بغداد. يقولون في مدرسة بمحلة الحيدرخانة.

- من يقول هذا؟ من جاء بالخبر؟

- عدنان. عدنان ابن مليحة. أنت خرجت وعدنان دقّ الباب. كان يريد أن يشوفها. سناء فتحت له الباب. هي حكت لي.

انتبه فجأة إلى بعض الانفعال يسيطر عليه. سحب كرسياً وجلس:

- عدنان؟ عدنان شنو علاقته بالقضية؟

رفعت نظرها إليه:

- ابني مدحت، أنت شعليك منهم؟ كلها كم يوم وكل واحد يروح

على جهة. يا هو مالتك ابني.

كانت عيناها حادتين رغم الغضون التي تحيطهما. أزعجه أنه لا يفهم الأمور المختلطة الغريبة التي تلمح إليها. كررت الكلام ببطء:

- الخبر جاء لبعقوبة؛ للمدرسة مالتها. وهو أخذه وجاء يطارد لبغداد.

كأنها تلهو بإطلاق كلماتها المتلاينة. سألها بصوت خشن:

- أي؟

لم تعره التفاتاً وباشرت بقطع الكعك وحشو فمها به. بدا عليها أنها انصرفت عنه انصرافاً كلياً. هتف بها:

- أي؟ وبعد؟

- هذا هو كل شيء. تقول أمها لازم نفتش عن بيت وننتقل إليه.

كان فكاها يتحركان باستمرار:

- أي. شكو بيها. بنتها معلمة وعندها راتب وما متزوجة. شكو بيها عيني. مو مثل حظي. الله يرحم كل من صار السبب. الله يرحمه. محتاج رحمة. خلوني قاعدة راسي ورواس الحيطان. كل ابن حلال يتقدم يطلعوه من بيت ناس عاديين. بس هم المكملين المستورين ولد العوايل. الله ينتقم منهم. الله لا يرحمهم.

ثم انقضّت بأصابعها على بقايا الرقي فأمسكت بقطعة كبيرة حمراء أبقتها في يدها لحظات. كان الضوء الشاحب يرتمي على وجهها دون بقية جسمها، وكانت ملامحها المنسجمة رغم الغضون، تخفي آثار جمال زائل. سمعها تتنهد:

- ماكو فايدة، الراح راح، وأنت يا ابني دير بالك.

- هاي شكو عندك اليوم عمة؟ أشو أنتِ مو على بعضك؟

- شْوكت كنت على بعضي آني يابه؟ عمرنا كله خربطة في خربطة.

شربت جرعةً من الماء:

- شوف ابني مدحت. أنت عاقل. ما أريد تقول لهم بأني نقلت لك الخبر. هاي سناء، قلبي عليها، جاءتني تختض مثل السعفة ووجهها أصفر كركم، شاورتني: عمة جر منيرة من إيدها وقام يصيح ورمى الورقة عليها.

شعر بالانفعال يعاوده وبدقات قلبه تتزايد:

- منو؟ شنو؟ على من تحكين، عمّة؟

- أحكي على عدنان، على عدنان يابه. قلت لك جاء بعد أن خرجت أنت. كان يجلب لها الخبر. ما أدري، قالوا أمر النقل. ما أدري شنو. وعلويش العراك، عيني؟ ما يروحون يتعاركون في بيوتهم! ما دخلنا إحنا؟ هاي الصغيرة المسكينة سناء، خافت. لويش؟ ما ذنبها؟

- لويش يتعاركون؟ علويش؟ شنو علاقته بها؟

- ابن أختها يابه.

قام من الكرسي:

- أدري، أدري. لكن، يريد منها شيء؟ شيريد منها؟

- آني أدري يا ابني؟ مو قلت لك أخذ الخبر وجاء يطارد بسيارة أبوه لبغداد. هينة لينة. سيارة تحته ولا شغل ولا عمل. هينة لينة. وأنت يا هو مالتك عيني؟ أنت ما تقول لي، شنو علاقتك؟

- أنت شبيك اليوم عمّة؟ منو قال لك آني لي علاقة؟

نظرت إليه مفتوحة الفم. لم تكن مندهشة بقدر ما كانت غير مصدّقة:

- شلون ما عندك شي يابه مدحت؟ منو عنده لعد؟

- هذا إنصاف منك؟ آني خاشش طالع؟ بيها عليها؟ آني شنو علاقتي؟

فاستنار وجهها:

- ألف رحمة على والد والديك وعلى أجدادك وعلى كل أموات أمة محمد. بردّت قلبي بليلة الخير هاذي. يابه الله ينطيك.

أراد أن يخرج. تردّد. كان مشدود الأعصاب، يحسّ باختناق غريب في أعماقه:

- ومنيرة؟ ما قالت شي؟

أشارت بذراعها إشارةً عريضةً:

- أبداً. أبداً. صاموط لاموط.

- وأبي؟ ما سمع شيء؟

- أبوك ما علاقته؟ أبوك، من يحكي معه؟

- يعني، يصير أن يأتي مثل هالأحمق ويعتدي على الناس وينصرف دون أن يؤدبه أحد؟

- لا تحكي هالحكي عيني مدحت. هسّه ترحمنا على الميتين والطيبين. لا أحد يدري بالقضية. سناء بس تعرف وجاءت سرتني بيها خطية. أستر علينا يابه، الله يستر عليك. سبحان الله، هسّه دا أقول..

- لا يظل بالك عمّة. سرك أمين. بس أنت بوجدانك تقبلين هالشي؟

- آني ما أقبل. شلون أقبل؟ منو يقبل بالتعدّي؟ لكن.. مو هسّه قلنا.. إحنا يا هو مالتنا يا ابني؟

لم يكن هادئ النفس، لكنه شعر أنه انتهى مع عمته إلى نقطة ميتة

وألا فائدة من الحديث بعد ذلك:

- صار. صار عمة. صحيح ما تحكين. كل من يتعدى، له الله.

- أي، لعد شلون يابه؟

سار خارجاً:

- له الله.

سمعها وهو يحسّ بالهواء البارد يلامس وجهه:

- ما لحقنا نترحم على الميتين والطيبين! الله ينطي العقل لأمة محمد.

لم يرَ كريم وسمعه يقلّب الكتب في غرفته. نزع ثيابه المبللة بالعرق ثم ارتدى بيجامة خفيفة. كان رأسه ومعدته ثقيلين بعض الشيء. أكثر من أكل الفستق واللبلبي هذا المساء. خرج من الغرفة وأطلّ على كريم فسأله عن دراسته فأجابه هذا مهمهماً بكلام لم يفهمه. غسل وجهه وفمه وقدميه. أنعشه الماء البارد. طرقت أذنيه، وهو يصعد درجات السلم إلى السطح، دقات ساعة الشيخ متأنيةً متراخيةً. لم يحصها، كان يستمع إليها فقط. وحين انتهى من ظلام السلم وضاعت عيناه في سماء تزدحم بنجوم خافقة النور، بدأت الساعة تعيد دقاتها المنغّمة الرقيقة. تنفّس بعمق. كان الهواء البليل سحراً غريباً ينفخ صدره بالحياة. لم تألف عيناه الظلمة أول الأمر، وتلامحت له الأسرّة البيضاء كطيور الليل الجائمة. مشى بهدوء نحو سريره ثم جلس على طرف منه. كانوا يشخرون بشكل غير منتظم في عدة جهات من السطح، إلا أن ذلك لم يخدش سكون الليل. تطلع إلى الجهة التي فيها سريرها، فلم يميزه. أحسّ بمشاعر متناقضة تختلط في نفسه. أثارته الحكاية التي روتها له عمته،

وأزعجته تلك الفكرة اللعينة عن انتقالهم إلى بيت آخر. اضطجع على فراشه وأغمض عينيه لحظات فدار رأسه. لا بأس. سيزول كل شيء مع البرودة والاسترخاء. هنالك بعض الغرابة فيما نقلته سناء إلى عمته؛ ناحية غير مألوفة. ما هي أسبابه، مثلاً، كي يأتي ليتنازع معها هنا؟ ماذا يوجد بينهما؟ أم أنه في حقيقة الأمر، لم يتنازع ولم يدخل معركة وإنما.. هكذا.. أهانها بصورة عرضية؟ لماذا؟ عاد إليه انفعاله وتوتره. فتح عينيه، فامتلأتا بتراقص النجوم. وفي بيتهم أيضاً. دون اهتمام بمن يسمع أو يرى. وماذا لو.. يثب هو نحوه من لا مكان ويلطمه. بكل قوة ووحشية ولكن بهدوء مميت. يلطمه بكبرياء؛ ذلك الجلف. ثم تنهدّ أعصابها وترتمي عليه. استراحت نفسه لهذه الصورة. ترتمي عليه، ترتمي عليه. إنما الأمور بدأت وانتهت بشكل آخر، لو صحّ كلام سناء. والغرابة في كل الحكاية هي أنها يجب ألا تحدث، لأنها ضد منطق الأشياء المعروفة. وما يجب أن يُعمل هو أن تُقطع من شريط الأحداث.. ثم تُحرق. ويُقال لمن يسأل إن الرقيب قام بقطعها. أما اللطمة فتتكرر عدة مرات. تراخت أجفانه وانطفأت أضواء السماء. تكرر اللطمة عدة مرات تلبيةً للطلبات الملحة. عدةً مرات.. عدةً مرات.

... قعد في فراشه يابس الفم محترق الجوف. تلفت يمنةً ويسرةً ثم قام نازلاً من السرير وسار بخطوات غير مستقيمة، نحو محل الجرّة قرب المحجر. مسح عينيه وعدل من وضع بيجامته. كان الجميع نياماً في هذه الساعة الغامضة من الزمان. وصل إلى مكان الماء فتناول «الحبانة». كان القمر في الجهة الشرقية مثلوماً يلتمع في سماء بلورية لا لون لها؛ وأنوار الفجر الأولى تتصاعد وتنفرش مثل غلالة خفيفة الحمرة، وكان

العالم الساكن من حوله قد توشح بلون فضي يميل إلى الزرقة. لبث جامداً يحمل كأس الماء الفخاري في يده. كان شعرها الأسود منتثراً على المخدة البيضاء وقسم من كتفها العارية يبين فوق اللحاف. لم يكن يبعد عن سريرها غير خطوتين، وكانت النسمات الباردة تتلاعب بقماش الفراش. شعر بفمه جافاً فانحنى وملأ «الحبانة» ماءً ثم كرع السائل السحري البارد بشراهة فتسايل على جانبي فمه. تنفس بعمق نَفَساً طويلاً. كان الصمت غريباً تلك الساعة؛ حتى النيام انقطعت أنفاسهم. أرابته حركة منها، ثم رآها، بغتة، تجلس في فراشها واضعة يديها فوق اللحاف، تتطلع إليه. كان شعرها يغطي الكتفين وقسماً من ذراعيها وثوب نومها الأزرق أو الأبيض أو الرمادي، يكشف عن عنقها وصدرها. لم يدهش، ولكن انبهاراً غير مفهوم تملكه. خُيِّل إليه وهو يحدّ بصره في وجهها أنها كانت مغمضة العينين، إلا أن بريقاً من ضوء القمر انعكس عنهما وكذب ظنه. بقيا يتبادلان النظر.. همس:

- ماي

فسمعها تتنهد حالاً. كأنها ظنته شبحاً. أخفت وجهها في راحتي يديها وانحنت قليلاً إلى الأمام فهدلت خصلاتُ شعرها. داخله بعض القلق والاضطراب. كانت لاتزال منحنيةً وقد بدت له غاية في النحول. انحنى فملأ «الحبانة» ماءً ثم تقدّم خطوةً منها. همس مرةً أخرى:

- تريدين ماي منيرة؟

رفعت رأسها بسرعة. كانت ملامح وجهها واضحةً على ضوء القمر الممزوج بأنوار الفجر. خيل إليه أنه يرى في عينيها نظرةً فارغة وأن شفتيها تراختا قليلاً. لعلها تكلمت، تلفّظت بكلمة أو بحرف. غير أن

كل شيء فيها كان يدل على أنها لم تكن تراه أو تسمعه. كانت بشرتها شاحبة بيضاء وشعرها الكث يحيط وجهها ويترامى على كتفيها وصدرها. لمح شق الثوب يكشف عن التقاء نهديها. داخله القلق وهو يقف قريباً منها واسترق نظرة أخرى سريعة إلى ارتفاع نهديها الجميل. كانت تجلس جامدة يكتنفها الذهول. مد يده بالكأس الخزفي وتمنى مخلصاً أن تتناوله وتنهي ذلك الموقف. كانت عيناها طويلتين تحت الظلال وقوس شفتها السفلى يبدو مستديراً. رآها تمدّ ذراعها ببطء وتتناول منه كأس الماء. تلامست أصابعهما هنيهةً برفق. لمسة سحرية لا نهاية لرقّتها. رفعت يدها بالكأس إلى فمها. لاحظ الفرق في شعرها، خطاً خفيفاً تخفيه بعض الخصلات المضطربة. ثم أعادت إليه الكأس دون كلام. توقف لحظة أمامها. لم تكن تنظر إليه. كأنها في عالم آخر. تراجع يضع «الحبانة» مكانها فوق الجرّة. التفت. رآها قد عادت إلى الاضطجاع ثانيةً وغطّت جسمها باللحاف. سار بخطوات ثقيلة نحو سريره. تطلّع ثانيةً إليها. كانت نائمةً، دون حراك. جلس على الفراش. كانت أرض السطح الترابية مصبوغةً بلون فضي، وفي الجهة الغربية من الأفق بعض النجوم البيضاء. ساوره ارتياحٌ مشوب بضيقٍ وانزعاجٍ. كم بدت مختلفةَ الطباع! انتبه إلى قلبه يدقّ بسرعة تتباطأ رويداً رويداً. لاقبل له بمثل هذه التجارب معها. ولاسيما أن هذه الساعة الضائعة بين الليل والنهار، بين الفجر والقمر، لا تدع للإنسان أن يفهم ما سيعمل بعد لحظة. ولعلّها ظنّت به الظنون. يوقظها عند الفجر ويندسّ معها في الفراش. هكذا دون دعوة. أحدهم يعتدي عليها عصراً ثم يكمل الآخر الإهانة قبيل مطلع النهار! لابأس، ما دامت فتاةً ضعيفةً ليس بمقدورها

الدفاع عن نفسها! يا للصور المؤلمة! انكمشت نفسه. وهي، آخر الأمر، قد تبتعد عنهم، وتغادر دارهم. مَنْ يدري، وتختفي من عالمهم البيتي تلك الخطوات الخفيفة والضحكات الناعمة والهمسات والابتسامات ولمحات العيون العسلية الكحليّة وذلك الوجود الأنثوي الحار. ازداد انكماشُ نفسه. إنها لم تعد غير داخلة في حياته؛ وهو يحسّ أنّها ، حتى في عزلتها، تترك له أنفاساً غير منظورة من روحها الفتية.

اضطجع في فراشه. كان المشرق يلتهب ويطفئ لمعة القمر والنجوم؛ والعصافير، في عمق الحوش، بدأت تغني أولى أغنيات النهار. سمع المؤذن يفتح سماعة مكبر الصوت ويخدشها بأصابعه وبأنفاسه الثقيلة. لم يكن قلقاً أكثر مما يجب؛ وشعر، مع التصاق أجفانه، أن باستطاعته أن يفعل شيئاً جميلاً في يوم من الأيام القريبة.

- ٦ -

كسرت سناء الماعون الأبيض ذا الورود الحمراء وهي تشترك مع أمها في غسل الصحون بعد الغداء. صرخت بها الأم وكفختها مرتين. بهتت سناء ووضعت يديها فوق رأسها تحتمي من ضربات أمها. صاحت هذه:

- يا ابنة الحرام، لا تخلّين ايديك فوق راسك وكلها دهن. بنت الحرام. الصحون مال اللي خلفك، تكسّريها كل وقت.

ثم ضربتها على كتفها بشدة ودفعتها صارخةً مرة أخرى. خنقتها العبرات ووقفت بعيداً وهي ترفع يديها أمامها كيلا يبتلّ ثوبها. كان ذلك هو الصحن الأول الذي تكسره. انزلق فجأة من بين يديها. رمت أمها البقايا في سلة القاذروات وعادت إلى الصراخ:

- ملعونة الأهل. مضروبة الكلوة. شكو عندك مستعجلة؟

والعرق يسيل من وجنتيها ورقبتها. كان هذا هو الصحن الأول الذي ينكسر بين يديها. قالت ذلك لأمها، فهمّت بضربها وهي تعيط:

- امشي من هنا يا كلبة يا ابنة الكلب. آني مسخرة لك ولأبيك.

أول ماعون تقول! خلصت صحون البيت. امشي من هنا. روحي ولي. اصعدي لفوق. ما تنامين بالسرداب. تموتين ولا تنامين بالسرداب اليوم.

لفحتها حرارة الشمس وهي تركض عبر الحوش نحو السلم. رأت جدّتها أم مدحت تقصد المطبخ من الجهة الأخرى. تردّدت قليلاً. كان بودّها أن تكلّمها، لكنها استمرت تركض والدموع تغرق وجهها. لم تكسر أي شيء قبل الآن. كان هذا أول صحن، وأمها تعرف ذلك جيداً. تعثرت بدرجات السلم الأخيرة فوقعت على الأرض مجهشةً بالبكاء. تمخطت ومسحت أنفها وعينيها بأطراف ثوبها ثم قامت تركض نحو غرفتهم. آلمتها ركبتها اليمنى. سمعت نداء باسمها من غرفة العمّة ورأت أم حسن تشير إليها من خلال الشباك المفتوح. هزت رأسها دون كلام ثم دخلت غرفتهم. كانت شبه مظلمة، لا أحد فيها. نزلوا جميعاً إلى السرداب، ينامون على الحصر الناعمة، تحت هواء المروحة البارد. تناولت دميتها من على الكرسي وارتمت على الفراش. احتضنتها وأخذت تمر بيدها على شعرها الأصفر الفاقع. كانت تنظر إليها بحنان ثم تعدل من شأن لباسها وتكرر إمرار يدها على الشعر المضطرب. لم تهدأ ضربات قلبها ولا ألم ركبتها، لكنها لم تشعر بالحرّ. قعدت في الفراش ومسحت أنفها. أجلست الدمية أمامها. أخذت تكلّمها:

- لا تبكين عيني فدوى. لا تبكين. لويش تبكين عيني؟ لويش؟

سحبت ثوب الدمية إلى الأسفل ومسحت أنفها:

- كم مرة أقول لك لا تكسرين شي؟

صمتت. بدا عليها كأنها تنتظر جواباً من دميتها:

- لاع. لاع. أنتِ. منو لعد؟ كلبة بنت الكلب. لاتبكين. لويش دتبكين عيني فدوى؟

ثم أمسكت بها واحتضنتها. ضمّتها إلى صدرها وأخذت تهزّها ببطء:

- نامي عاد. نامي عيني. يالله تعالي خلّ دنام. تعالي.

استلقت على الفراش ووضعت الدمية جنبها. كان الحر شديداً. سمعت أمها وجدتها تتكلمان في المطبخ. أنصتت إليهما. لم تفهم شيئاً. مسحت وجهها فشمت رائحة الدهن في يديها. همست تتكلّم:

- كم مرة أقولك غسلي إيديك؟ حارة الدنيا عيني فدوى. دنامي عد.

روّحت بيدها على وجهها وعلى وجه الدمية:

- نامي عيني نامي. ميخالف. آني هسّه أقول لخالتك سها تفتح المروحة. لكن، وين أجدها عيني؟ الآن، هي نايمة في السرداب، تأكل المثلجات والدوندرمة. شتريد بعد. ما تتذكّر أختها وتقول هاي سناء المسكينة، خطية نايمة بالغرفة بوحدها والدنيا حارّة مثل النار. لاع. أنتِ صيري مثلها. ناكل الدوندرمة بالخفية، بسكوت. ها، عيني؟

آلمتها تصوراتها فضغطت الدمية إلى صدرها ثم أخذت تعبث بشعرها وبثيابها الممزقة. أغمضت عينيها وكررت الهمس:

- باكر ناخذ من خالو لو من جدو عشر فلوس نشتري بيها دوندرمة أم المصاصة. شكو بيها عيني؟ إحنا ما عدنا أب، وأمنا كل وكت عصبية وتضربنا. شكو بيها عيني؟ نامي عد مقموعة. كم كاس وماعون كسرت هاي؟ شنسوّي عيني؟ طلعت أولى على الصف، لكن شوية وكيحةً. تكسر مواعين هواية وتخاف من الجرذان من يركضون بالسقف.

تطلعت بعينين مذعورتين إلى السقف الخشبي الداكن. كان البيت

ساكناً. طمأنتها قرقعة قبقاب على أرض الحوش. بقيت متعلقةً بنظرها في السقف دقائق. رطب العرق جبهتها ووجنتيها وما حول فمها. أحسّت عطشاً شديداً. بدأت تربت بأصابعها على الدمية:

- لا تخافين عيني. لا تخافين. ماكو جرذان هسّه. لا عيني، هسه وكت جرذان! الناس نايمين ودياكلون دوندرمة وهاي عقلها بالجرذان! لاتخافين. دنامي. نامي. لاتخافين. باكر تنفتح المدرسة ويجي بابا يشوفك، وتطلعين أولى على الصف. وناخذ عشر فلوس نشتري بيها دوندرمة وجكليت. ومن السما عيني هم. دنامي عد. دنامي عيني.

سمعت أمها تتحدث ولم تميز كلماتها. انغلقت أجفانها بسكون وتوقفت الضربات الرتيبة.

وقفت سناء أمام الحوض الصغير مترددةً، تتأمل قدميها والقبقاب ذا الجلد الأحمر. كانت تحت أغصان الزيتونة المنفوشة والعصافير في حمى أناشيدها قبيل الغروب. أرادت أن تضع أطراف أصابعها في ماء الحوض، تغمسها لحظة ثم تسحبها. كانت صفحة الماء الراكد تعكس ضوءَ السماء تقطعه خطوط الأغصان الملتوية. لم تسمع من أمها ولم تظهر لها منذ مدة. لابد أنها تحضّر العشاء في المطبخ. رفعت رأسها. رأت أختها سها واقفة في الطارمة الضيقة تحمل الدمية بين يديها. لمحت أمها تخرج من المطبخ. سمعت دقات على الباب الخارجي. قالت لها سها:

- راح أصعدها معي للسطح.

ورأت أمها تتقدم من الباب الوسط وتهتف:

- منو؟ منو؟

ثم تلتفت إليها:

- ليش واقفة مثل الحجارة؟ روحي شوفي منو بالباب.

فتحركت. أشارت إلى أختها إشارةَ رفضٍ:

- هاي لعابتي. خليها. ماكو. ماكو.

واندفعت تركض على أرض المجاز الطويل المظلم. قالت قبل أن تفتح الباب:

- منو؟

كان واقفاً على الجانب الأيسر وظهره للنور. خُيِّل إليها أنها تعرفه. سألته:

- نعم عمو؟ ألمن تريد؟

كان طويلاً ذا صوت أجشّ حادٍ:

- هنا... منيرة؟

يرتدي ثوباً أبيض شفافاً وبنطلوناً غامقاً. لم تميز ملامحه الغامضة. أرادت أن... صرخ بها:

- شبيك واقفة؟ روحي ناديها أقول لك. آني جلبت أمر نقلها.

وهز يده بورقة عدة مرات. هلعت وتراجعت قليلاً ثم عادت تركض خافقة القلب. لم تعرفه، وأخافها ذلك. واجهتها أمها عند مدخل المطبخ:

- علمن؟

- يوم فد رجل ديريد أبلة منيرة.

- منو هو؟

- ما أعرفه، يوم. يقول جايب النقل مالها.

- النقل مالها، شنو؟

بقيت ساكتة. سمعت أختها سها تنادي:

- أبلة منيرة. أبلة منيرة.

تقدمت أمها من مدخل المجاز وهتفت:

- منو، منو عيني أنت؟

بدت منيرة في الطارمة. التفتت أمها رافعة نظرها:

- منيرة عيني، ما أدري منو جاء عليك. هاي سناء تقول جايب النقل مالك.

- النقل؟ أمر النقل؟ الله يبشرك بالخير مديحة. هذا لازم فرّاش المدرسة حسين. المسكين جاء من بعقوبة. يوم.. يوم.

ثم عادت منيرة تدخل الغرفة. كلّمتها أمها:

- أمر النقل ولك، بومة. حكي ما تفتهمين هم.

وسارت ببطء إلى المطبخ.

بقيت متكئةً على الحائط، شاعرة باضطراب يداخلها. أخافها لغير سبب، ذلك الرجل المجهول. سمعت حركة في الطارمة ورأت منيرة تسير بخفة نحو السلم. كانت العصافير تتقافز فوق أغصان شجرة الزيتون والظلام يهبط. أمسكت صدرها في موضع القلب. خرجت جدتها أم مدحت من المطبخ وسألتها:

- ليش واقفة هنا عيني سناوي؟ تعالي شويّة عاوني أمك.

أنزلت ذراعها وأطرقت. سمعت أمها تجيب:

- لا يوم. الله يخلّيك. خليني أشتغل وعقلي برأسي.

انسحبت الجدّة وكرّرت أمها الكلام:

- روحي أنتِ سناء، اصعدي فوق قرب أختك.

كانت منيرة تسير وسط الحوش مبتسمةً في وجهها. مدّت لها يدها وهمست:

- تعاي ويايه سناء، تعاي.

بادلتها الابتسام وأمسكت بيدها:

- نعم، أبلة منيرة.

ثم بدأتا تخترقان ظلمة المجاز. كانت أصابع منيرة ناعمة باردة، فشعرت باضطرابها يخف قليلاً. وصلتا إلى الباب الخارجي فتوقفتا عنده. سحبته منيرة ببطء وأطلت برأسها متسائلةً:

- نعم؟ منو هنا؟

أرادت هي أن تشاركها النظر حينما طرق سمعها ذلك الصوت الخشن العالي:

- آني. آني. ما تعرفين؟ منو يجي عليك غيري؟

تراجعت منيرة بسرعة وبصورة مباغتة فارتطمت بها ودفعتها نحو الحائط. أحست بها ترتجف رغم أن جسميهما لم يتماسا وسمعتها تشهق شهقة صغيرة وتهمس:

- عدنا..؟

لم تلتقط أذناها الاسم جيداً، وبقيتا ساكنتين مستندتين إلى الباب. كرّر الكلام:

- وين رحت. منيرة؟ لويش دتنهزمين مني؟ ها؟ تريدين تخبّليني؟

ثم ارتفع صوته:

- ها؟ لويش؟ تخلصين مني تردين؟ يعني هاي هيه! تنقلين لبغداد

وروح يا عدنان ذب نفسك بالشط. هذا تفكيرك؟

ضرب الباب بشدة فارتج جسداهما وتلاصقا. وجدت سناء نفسها محصورةً بين الحائط والخشب. كانت أطرافها باردةً وساقاها ترتجفان. شعرت بمنيرة تندس بها في زاويتها المظلمة. تملكها فزع لم تجربه قبلاً، وتأكدت خلال الرفسات التي أخذت تنهال على الباب أنها ستموت لا محالة. كان صوته المبحوح المتقطّع يعلو على ضجة الضربات:

- ما تخلصين مني: ما تخلصين. هذا الأمر أمزق عشرة مثله. ما يخلصك هذا الأمر. ما يخلصك. ماكو واحد..

شعرت بمنيرة تتحفز أثناء ذلك ورأتها تستدير عنها وتدفع الباب فجأةً بقوةٍ وبسرعةٍ فينغلق محدثاً صوتاً عالياً كالانفجار. ثم رأتها تضع الرتاج وتتكئ بظهرها عليه والتراب يتصاعد حولهما. ران عليهما الصمت. رفعت نظرها إلى وجه منيرة. بدا لها أبيض شاحباً، كتمثالٍ من الشمع وهي تطلق أنفاساً كالحشرجات وصدرها يعلو ويهبط. سمعتاه يتكلم:

- افتحي الباب.

بصوت متهدّج. كانت منحشرةً في الحائط. تحسُّ بالعرق يسيل قرب عينها اليسرى وكان المجاز الطويل مظلماً أسود الحيطان. عاد صوته خافتاً متكسراً:

- افتحيها. الله.. يخليك خا.. فوكيها.. منيرة.. الله يخلّيك.

أخافتها تلك الكلمات المهموسة ورفعت يدها ببطء فمسحت عينيها وجبهتها. نظرت إلى منيرة. كانت مغمضة العينين صفراء الوجه، تبدو وكأنها في غيبوبة. استجمعت نفسها وأمسكت برسغها. لشد ما كان

بارداً، بارداً! شعرت بها ترتجف تحت لمس أصابعها وتسحب رسغها وتفتح عينيها متطلعةً إلى الأعلى. كانت السماء المشعة بالزرقة الخافتة تمتد فوق جدران المجاز العالية، دون نجوم. إنهم يفرشون الأسرّة هذه الساعة في السطح! بدأت، على الباب خلفهما، طرقات خفيفة لاتكاد تسمع. رأت ورقة تحت أقدامهما، بيضاء مطوية عدة طيات. كانت منيرة تنظر مثلها إلى الورقة. رأتاها في الوقت نفسه، ثم تبادلتا النظرات. كانت الطرقات الخفية على الباب تنقطع لحظة ثم تعود، ترافقها كلماته المهموسة ذات المعنى المبهم. أشارت إليها منيرة أن تناولها الورقة. انحنت بخفة والتقطتها. سلمتها إلى اليد الممتدة فانطوت عليها الأصابع. رأت في عيني منيرة إشارة لعمل آخر. أن تتقدم، أن تنصرف. انسلت من جانبها ببطء وهي منحنية الظهر قليلاً. شعرت بمنيرة تتحرك خلفها فالتفتت. أشارت إليها أن تسير دون أن تتكلم. كانت الدقات الغريبة لاتزال تتردد على الخشب. تسارعت خطواتهما عندما وصلتا إلى منتصف المجاز، وحين أرادت هي أن تركض لتفتح الباب الآخر، أمسكت بها منيرة. كانت صامتة يتدفق من عينيها الحنان. احتضنتها بسكون وقبّلتها في شعرها وعلى صدغها. لم تقل شيئاً وكانت رائحتها طيبة وملمس ثوبها وجسمها ليناً. هبت على وجهها نسمة طرية حين فتحتا الباب على الحوش. ارتكنت على الحائط القريب وأخذت تمسح العرق عن وجهها ورقبتها. تركتها منيرة وسارت بخطوات سريعة نحو السلم. شعرت بنفسها متعبة عطشى. كم أرعبها ذلك المجنون! مشت بتثاقل فدخلت المطبخ. رأت جدتها أم مدحت جالسةً تدخن بهدوء على تختة صغيرة. كلمتها:

- شبيك سناوي؟ وجهك أصفر.. ليش؟

لم تجبها. بقيت واقفة باضطراب أمامها. نفثت أم مدحت الدخان من أنفها وفمها. وعادت تسألها:

- منو كان بالباب؟

- ما أعرف بيبي.

- شنو ما تعرفين؟ منو كان عيني؟

كان فمها ويلعومها يابسين:

- عطشانة بيبي. خليني دا أشرب ماي.

- أعطيني كاس ماء أنا أيضاً.

أسرعت إلى الثلاجة القريبة. أنعشها الماء المثلج. حملت إلى جدّتها كأساً. كانت هذه واقفة أمام الموقد تقلب التمن وسيكارتها في فمها. شربت الماء بعد أن أمسكت سناء بسيكارتها. انسحبت عائدة بالكأس الفارغ. أفرغت القطرات المتبقية في راحة يديها وبللت بها وجهها. ركضت قاصدة السلم دون أن تكلم جدتها. سمعت ضجّة في السطح. لم تهتم بها، لم يعد بمقدورها الصعود إلى السطح. ارتقت السلم واخترقت الطارمة ركضاً إلى غرفتهم. وجدتها فارغة مظلمة والتلفزيون مطفأ. سمعت نداء باسمها من غرفة العمّة. كانوا هناك. ابتسمت لها منيرة وهلّلت في وجهها عمّة مدحت. سألتها أم حسن:

- عيني سناوي، شْوكت راح ناكل؟ شوفي أمك نزلت من السطح الله يخلّيك.

وقبل أن تجيب هتفت عمة مدحت:

- اتركيها ترتاح شوية يا أم حسن. تعالس سناوي عيني. خذي هذه

القنينة واملئيها بالماء البارد. يالله عيني. أنت عطشانة أم حسن؟

كانت أم منيرة تستمع باهتمام إلى همس منيرة في أذنها وسيكارتها في يدها. ناولتها عمّة مدحت قنينة فارغة فأخذتها وعادت تسير بتكاسل. سمعت منيرة:

-... ماكو ذهاب يعني لبعقوبة. هذا..

وخرجت من الغرفة.

* * *

سارت مسرعة، جنب منيرة، بمحاذاة الجدار الأسمنتي العالي لجامع الكيلاني. كانت أشعة الشمس الدافئة تملأ الرصيف الضيق، ولم تفهم السبب الذي كان يدعوها للإسراع هكذا. سمعت منيرة تحدّث أمها هذا الصباح قبيل الفطور: «مديحة، ما أدري أقدر آخذ سناء ويايه نروح نشوف المدرسة الجديدة؟ بالحيدرخانة يقولون صايرة. عندك شي وياها؟». ثم تعجلتا في ارتداء الثياب ومغادرة البيت. يالغبطتها! وستبقى سها مع أمها لتساعدها!

قالت لمنيرة حين عبرتا الشارع:

- أبلة منيرة، أتمنى أصير مثلك وأنا كبيرة!

رأتها رشيقة حلوة بعباءتها ووجهها المبتسم والنظارات السوداء على عينيها. لم تجبها منيرة. غذّت هي الخطى تلحق بها.

انعطفتا نحو موقف الباص عند التقاء شارع الكيلاني بشارع الكفاح. واجهتهما الشمس البيضاء الحارة فالتحقتا بجمع المنتظرين. كان شارع الكفاح تلك الساعة يهدر صاخباً بالسيارات المسرعة

وبالناس. لم تعرفه أول وهلة ولم تسمعه حين كلمهما، إلا أن منيرة ردّت تحيته فهتفت هي:

- هلو خالو.

ثم وقفتا معه خارج الجمع المنتظر. داعب مدحت شعرها وهو يبتسم في وجه منيرة:

- شكو عندكم من الصبح؟ للسوق رايحين؟

- لا يابه، يا سوق! دا أروح أشوف المدرسة. ما أدري وين صايرة!

بدت لها منيرة سعيدة بشكل ما. سمعتها:

- عبالي نروح ونرجع من وكت. لويش هذا الازدحام؟

- كل يوم هالشكل. ليش ما تدرين؟

كان يتكلم متمعناً في وجهها:

- صار لي ربع ساعة تقريباً واقف. ثلاث باصات فاتت مليانة.

التفت ناحية الشارع ثم أمسك بذراعها هي فجأة وهتف بمنيرة:

- تعالوا. هذا تاكسي نفرات فارغ. تعالوا.

وسار أمامهم إلى الطرف الآخر فأشار بيده إلى سيارة تاكسي كانت مقبلةً نحوهم. فتح الباب الخلفي فأسرعت سناء تدخل وتجلس قرب الشباك. رأت منيرة تتبعها ثم خالها مدحت. ركض شخصان قريبان فركبا في المقعدين الأماميين، وهب الهواء اللطيف فعبث بشعرها وأعاد إليها أنفاسها. أخذت تراقب بحبور مناظر الشارع المزدحم والسيارات والباصات الكبيرة. لم تقم بمثل هذه النزهة منذ مدة طويلة. آخر مرة كانت منذ أشهر، قبل العطلة الصيفية، حين ذهبت مع أمها وأختها لشراء أحذية للعيد.

أعطى مدحت السائق نقوداً. نظرت منيرة في عينيها فابتسمت هي لها. كلمتها:

- احذري من الباب سناء.

- نعم، أبلة.

ثم عادت إلى تطلعها المسرّ. ستخبر أمها بما رأت. كذلك عمّة مدحت وأختها سها. ستحكي لهن بالتفصيل كل ما شاهدت. مرّ بمحاذاتهم باص كبير دفع الهواء في وجهها بقوة فتراجعت خائفة. خُيِّل إليها أنّ مدحت كان يضع يده فوق يد منيرة. سمعته يتساءل:

- ما اسم المدرسة؟

استفهمت منيرة:

- نعم؟

- أقول المدرسة، شنو اسمها؟

- ها. البتراء. مدرسة البتراء.

ابتسم:

- وين أكو مدرسة بالحيدرخانة بهذا الاسم؟

- صحيح؟

اتسعت ابتسامته ومدّ يدّه فربت على يد منيرة المخفية تحت العباءة:

- لا. لا. كنت أداعبك. بس يعني..

لف ذراعيه حول ركبته:

- يعني لازم يومياً تطلعين من الصبح؟

- أي، طبعاً. المهم يبدأ الدوام والله كريم.

تكلمت هي:

- أبلة منيرة، يصير آني هم أروح معاك للمدرسة؟

- ليش ما يصير عيني سناء، بس أخاف أمك تزعل. يمكن تريد تروحين وياها للمدرسة.

سألها مدحت:

- أنت تحبين أبلة منيرة هواية، سناوي؟

نظرت إليه مندهشة، ثم هزّت رأسها مترددةً:

- نعم، خالو.

فالتفت نصف التفاتة إلى منيرة:

- كلش زين. إحنا يبين حزب واحد.

- نعم، خالو.

- يعني نسوي اتفاقية ونقدم طلباتنا؟

كان يكلمها وكأنها غير موجودة، وقد استدار أكثر بنظره نحو منيرة:

- شتقولين.. سناوي؟ اتفقنا؟

ضحكت منيرة وأخفت وجهها بيدها وعباءتها. أفرحها أن ترى الابتسامة العريضة تملأ وجه خالها وهو يتطلع بحرج إلى ركاب السيارة. ثم عادت السيارات والناس والدكاكين تمر سراعاً أمام ناظريها. لم تكن تدري متى سيصلون، وتمنت ألا يصلوا. سمعت، بعد دقائق، خالها يطلب من السائق التوقف. كان لايزال مبتسماً وهو يخبر منيرة عن وصوله إلى دائرته وعن موقع المدرسة بالتقريب وأين يجب أن ينزلوا. ثم سلم مودعاً بخفة وأغلق الباب خلفه. كانت منيرة تجلس بانتباه تراقب معالم الطريق وقد غابت عن وجهها كل دلائل الفرح. ولم تسر السيارة طويلاً حين

سمعتها تكلم السائق:

- نازل. نازل هنا من فضلك.

أسرعت سناء بالتحرك من مكانها بعد أن أشارت إليها منيرة برأسها. نزلتا من السيارة ووقفتا قرب الرصيف. كان عليهما أن تقطعا مسافة قصيرة قبل الوصول إلى منطقة المدرسة. عبرتا الشارع وغذتا السير دون كلام. وصلتا بعد قليل إلى شارع الجمهورية فبانت لهما بعض الدور المهدَّمة. سألت منيرة أحد المارة فأشار إلى الجهة الأخرى من الشارع. أمسكت منيرة بيدها:

- تعاي سناء. ديري بالك.

وقفتا بتردّد أمام درب ترابي ضيق. دخلتاه فصادفتهما استدارةٌ أعقبها مفترق طرق. رأت الحيرة على وجه منيرة لأول مرة. مرّ رجل عجوز فسألته هي بخجل عن المدرسة. أرشدهما إليها بسهولة فسارتا؛ وكانت مغتبطةَ القلب برؤية الابتسامة الجميلة على فم منيرة.

- ٧ -

عدتُ إلى غرفتي وأغلقتُ بابها خلفي ثم جلستُ على السرير. قمت وضغطت على الزر الكهربائي فاستضاء المكان. كنت قد أكلت جيداً، وبعد ذلك شربت شاياً وتحدثت مع والديّ. حكيت لهما عن امتحاني الأخير الذي لم يكن رديئاً. جاء سؤالان مهمّان عن مادة قرأتها خلال ركوبي الباص إلى الكلية. عدا ذلك رحمةٌ من السماء وتفاءلا خيراً به.

أما أنا فقد كنت أفكر بأني إن بقيت أفكر هكذا فلن أنتهي إلى نتيجة. لم ينتهِ أحد قبلي إلى نتيجة ما حين ملكه هوس التفكير بأن لا شيء يستحق العناء، لأن كلّ شيء مزيف. وأخذت نفسي على أن تتعود بأني شخص بين بلايين عديدة من البشر إن لم يفضلوني كلهم فلا محيص من أن يتقدمني في درجات الفكر والاتزان وقوة الإرادة عدة مئات من الملايين منهم. ورغم أني لم أكن في معرض مراجعة عامة لتقويم نفسي والآخرين، إلا أن الذات لا تنسى ذلك. ويُخيّل إلي أن الحديث عن أعماق مظلمة في الذهن أو في المستوى النفسي للإنسان، ليس حديثاً فارغاً.

جلستُ على سريري إذن في غرفتي ذات الإضاءة الجيدة، وأنا أريد أن أتذكر السبب الذي جعلني أحجم عن إخبار أبي - دعْ عنك أمي - عن كيفية إضاعتي لنصف ساعة من وقت الامتحان وأنا أحاول أن أدفع عني تلك الفكرة المؤسية عن بطلان كل شيء. الفكرة التي كانت تفترسني، وأنا أتأملها وهي تفعل ذلك، منذ شهر أو أكثر. أتأملها هكذا، مثلما يتأمل عصفور صغير ثعباناً يبتلعه رويداً رويداً. خطر لي آنذاك: لو أقوم وأترك القاعة، دون حقد أو بطولة، متظاهراً بأني أكملت امتحاني؛ ثم.. أتوقف مثل كل مرة أتساءل عن أي مشروع أبدأ كي أنهي به كل المشاريع! هذا إذا أردنا أن نبعد الانتحار مؤقتاً، لأني لست في حالة صحية تجعلني أقدم على الانتحار. هذا هو كلّ شيء.

ولقد كان ممكناً أن أدرك أموراً مهمة أو أصل إلى نتيجة مؤثرة خلال تلك الدقائق من التفكير، لولا أن سقط قلم التلميذ الجالس بجواري فأفزعني وقطع صلتي تلك الغريبة بنفسي.

قمتُ أفتح باب الغرفة، تاركاً لهواء الليل الرطب أن يدخلها، ثم عدت إلى مكاني على السرير. يمكنني هذا اليوم، هذه الليلة، أن آخذ قسطاً من الراحة لأن الامتحان المقبل سيكون بعد يومين. نظرت إلى رفوف مكتبتي، فشعرت بوهن يمنعني عن إيجاد كتاب يمتّعني خلال الساعات الآتية. كان جسدي مرهقاً من حرّ النهار، حرّ أيلول، ومن جهد الامتحان. لعل بمقدوري إذن أن أنام في ساعة مبكرة. وضعت رأسي بين يدي. لم أكن أفكر بأمر معين محدّد، وكنت في الحقيقة أريد ذلك عبثاً. كنتُ أشعر أن الدخول ضمن خطة إنسانية، أو بالأصح ضمن حياة إنسانية معلومة، قد يتيح لي أن أكون إنساناً سوياً عادياً رضي النفس.

ويخيل إليّ أن ما يبعدني عن الشعور بأني داخل إطار حياتي تقليدي، هو انفلاتي - فكراً وعاطفة - عند أول ثغرة في زماني الشخصي. لست مصبوباً بشكل قوي مضمون؛ وإنّ ما يفيدني حقاً هو أن أكون مهيأ على الدوام للاهتمام بالحياة؛ إذ لا مجال للفراغ المطلق، كما أنا عليه الآن. إن هنيهةً وجيزة تمرّ على الإنسان هكذا، بالمصادفة، كافية لتغلق حياته أو تخلخلها إلى الأبد. ولكني... ولكني أنتظر، ألستُ منتظراً؟ رفعتُ عيني أديرهما في نواحي الغرفة وفي الفضاء الخارجي الأسود. أنا إذن أمارس شيئاً بحياتي هو أشبه بالعمل... أنا أنتظر. لن تذهب أيامي سدى، لأني أحصيها وأنتظر، ولن يهم أن تُخلف المواعيد. ما علاقة الموعد بالانتظار؟ خرجت أقف في باب غرفتي. كان الجو لطيفاً والهواء تثقله بعض الرطوبة. نزلت من السطح مع أول النازلين.. والدي والعجائز والصغيرتين. بقيت منيرة يومين بعدي ولايزال مدحت ومديحة يقاومان. غريب الحرّ هذه السنة، كيف يجرجر أذياله ببطء. كانت غرفة عمتي مشرعة النوافذ مفتوحة الباب، والضوء الكهربائي فيها يميل إلى الاحمرار. بدت جدتي أم حسن متكوّمةً في الفراش على نفسها وعمتي تراقبها بصمت. لقد نالتا حصتهما من العشاء وهما الآن في فترة التراخي. وكانت الضجة تأتي من غرفة التلفزيون حيث يحتشدون. لم يبقَ للنهار أثر على صفحة السماء الداكنة. ولابدّ أن تكون الساعة قد جاوزت العاشرة. إنهم لم يعودوا بعد، ولعل هذا الضوء في الطابق الأسفل قد تُرك مشعلاً من أجلهم.

خطر لي قبل أن أدخل الامتحان صباح اليوم وأنا أقف تحت الشمس بجوار حائط الكلية الخارجي، أنه إذا كان من الممكن ألا يعرف الواعون

في هذا العالم أن الأرض في طريقها إلى أن تبرد ويفنى النوع البشري برمّته، تذهب كل حضاراته وإنجازاته وأحلامه وحروبه وسلامه.. مع الريح، فإنهم لابدَّ أن يدركوا تلك الظلمة التي تبتلع الإنسان وترسله إلى الأعماق.. إلى اللاشيء؛ كيف تسنى لهم إذن أن يستطيعوا المعيشة بحماس مَنْ لايعلم شيئاً؟ أولئك العارفون، أليسوا أدّعياء لايصدّقون أفكارهم؟

ولكني أعتقد أني أخلط في الترتيب الزمني لأفكاري، لأني أتذكّر جيداً أني كنت أداور هذه الفكرة عن الأرض التي ستبرد وعن الموت، أثناء رجوعي بعد الانتهاء من الامتحان لا قبله. لم تشغل مخيّلتي، في وقفتي تحت الشمس الحارة قرب الجدار، غير صورة أو ربما فكرة مصوّرة عن شخص يُنصت إلى حشرجته. يستمع إلى نفسه يحتضر. هكذا.. يحتضر؛ ولو للحظة، لثانية، لعُشْر من الثانية. تسمع أذناه صوت موته، فنائه. أو ذاك الذي يصطدم في داخله، في مكان ما من وعيه، يصطدم شيء بآخر... كلك.. ثم تغمره الظلمات. أو، ثالثاً، يسمع انفجاراً فيهمُّ بالالتفات نحوه معتقداً أنه بعيد عنه، لكنه ينغمر، أيضاً، بالظلام.

وكانت فكرتي عن مدى الرعب المحيط بالإنسان وكيف أنه، أي الرعب، قد وُجد من أجل الإنسان في الدرجة الأولى؛ وأنه حين يمكن أن يوجد الرعب هكذا في الحياة، فيجب أن يبتعد عنها العبث. يكفي الحياة غايةً ألا تمتلئ بالرعب حتى الجنون.

دخلوا يضحكون وأغلقوا الباب الوسط خلفهم. كانت منيرة، تحت الضوء الكهربائي البعيد، تبدو مبتهجة مشرقة الوجه وهي تستمع إلى مدحت يحدثها وسناء بما لا أدري. تراجعتُ قليلاً حين انفتح باب الغرفة

المجاورة وخرجت سها. تطلّعت إليهم ممسكة بالمحجر الخشبي ثم عادت بسرعة تهتف بأنهم قد أتوا. نادت عمتي تتساءل عمن أتى بلهجة مَنْ لا ينتظر جواباً. دخلت غرفتي وجلست على السرير. بدأت النداءات، من الأسفل والأعلى، تترادف. أسئلة وأجوبة وأسئلة أخرى، وكنت أسمع والدتي ومديحة والصغيرة سها يتكلمن في الوقت نفسه وسناء تتولى إجابتهنّ. كذلك فعلت منيرة مرة. بدا لي صوتها منغّماً طرياً. قالت إنها ليست جائعة. ثم ارتفعت ضوضاء المواعين والملاعق وصوت الثلاجة تفتح وتغلق، تتخلل ذلك ضحكات مرحة وحديث متبادل. قمتُ فأطفأت الضوء واضطجعت مسترخياً. رأيت بعض الأشباح تمر من بعيد مخترقةً الطارمة ثم تنزل إلى الأسفل. نادت عمتي مرةً أخرى تتساءل عمن أتى ومن يأكل في هذه الساعة من الليل.

كنت أحاولُ، في الحقيقة، أن أجمع أفكاري، أن أرى ما يمكن أن تعنيه حياتي وما هو الموت بالنسبة إلي. لكنني - في ظلمة غرفتي، مستلقياً أستمع إلى الصخب البعيد في المطبخ وأتأمل قطعة السماء السوداء البادية من بابي المفتوح - شعرتُ بأمرٍ فريدٍ واحدٍ: انخذالي.. مرةً أخرى. إن ممارسة الحياة بعيدة عني لأني لا أقوى على مغالبة مجتمعي وشروطه الخاصة. وهكذا لا أستطيع مقاومة إحساسي بأني أنتظر، في زاوية نائية، أن يُسمح لي بممارسة الحياة. أتذكر تلك الوقفة أمام الجسر ذات مساء قبل أشهر. كنت قد أبللت من مرضي وجئت عصراً إلى الكلية أستعلم عن الامتحان. أحزنتْ قلبي البناية الخالية ووجه الحارس الشاحب وأبعدني عن العالم جدول الامتحان الصعب. ووقفت في الشارع قرب المقهى الفارغ غير بعيد من الجسر أنظر إلى

الشمس الحمراء. كنت أقف في مقبرة لا تحدها حدود. ومرت سيارة فارهة بيضاء تسوقها فتاة. يا الله، كم بدت بعيدة، بعيدة كالنجم المتساقط في أقصى أطراف الأفق. أن تملك بيتاً وسيارة.. مع امرأة.. يا للطريق الطويل!

ولقد قلت لها كل هذا، حدثتُ به العينين الصفراوين الحزينتين؛ وكانت تنصت إليّ، جالسة على طرف السرير وهي لما تزل في ثوبها الأخضر القصير الأكمام. دخلتْ علي بعد أن انتهوا من الأكل وصعد مَنْ صعد إلى السطح وكنت قد أضأت مصباحي وجلست إلى المكتب محاولاً استغلال الوقت قبل النوم. دخلت عليّ عندئذ وجلست على طرف السرير. ثوبها الأخضر يكشف عن ركبتها أيضاً. كان شعرها الطويل الأشقر مسرحاً بعناية على كتفيها وآثار الزينة خفيفة في وجهها. بدت متعبة قليلاً. سألتها:

- وين كنتوا؟

كنت مثلها متعباً وقد ظهر ذلك في صوتي. أدارت عينيها في أرجاء الغرفة:

- بالسينما. شلونك بالامتحان اليوم؟

- يا سينما؟

افترقت شفتاها فيما يشبه الابتسامة وأغمضت عينيها هنيهةً ثم نظرت إلي:

- لا، صحيح، شلونك بالامتحان؟

حدثتها بما كان من أفكاري قبل وأثناء الامتحان، دون مبالاة. كنت أستمع معها إلى نفسي، شاعراً بلا جدية ما أصرح به هكذا إليها. لبثت

تتأملني بصمت بعض الوقت:

- لويش دتفكّر هالشكل؟ يعني.. أقول.. أنت جديات دتحكي كريم؟

- ليش لا؟

- لا. قصدي.. ما أدري شلون. بس أنت شعليك من هالأشياء؟ يعني أقول.. ولو هذا تدخل بحياتك.. خلّص الكلية والله كريم.

- وإذا خلّصت.. شنو يعني؟

بانت ظلال قلقٍ على وجهها:

- هذا شلون كلام. تاخذ الشهادة وتتوظف، وتالي يمكن.. يعني تبدى حياتك الخاصة بك؛ تستقر، تمام؟

- شهادة، وظيفة، استقرار..

- ليش ما تاخذ هالأشياء بنظر الاعتبار؟ مالك حق تحتقرها، إذا ماكو شي غيرها بحياتنا.

كانت مهتمة أكثر مما توقعت، تنظر إليّ مقطبة الحاجبين وهي تعبث بخصلة شعر تتدلى قرب أذنها اليسرى. تكلمت مرةً أخرى بليونة:

- شوف كريم، تره لازم تنجح. أرجوك. لويش دتضيع نفسك بهالحكي؟ أنت شاب والدنيا كلها أمامك، علويش هالأفكار؟

تذكرتُ، فحكيت لها:

- اسمعي منيرة، حكايتك ذكرتني بقصة قديمة. قبل أكثر من سنة، بعد ما طار «كاكارين» للفضاء. كنت أصبغ حذائي عند صبّاغ أحذية مقابل شارع الكيلاني. صبّاغ أحذية أرمني مشوّه الوجه. فكه معوّج وعيونه جاحظة.

كانت تصغي بجد، تلك المخلوقة الجميلة، وقد وضعت ساقاً على ساق أثناء ما كنت أتكلم:

- كنت بوحدي في الدكان. سألني أول ما قعدت.. «صحيح، صعدوا للسماء؟» قلت له أي، يقولون. صاح بوجهي: والمسيح؟ والمسيح؟ حقيقة، فوجئت. كان وضعه مضطرب بعض الشيء.. عيونه تقدح ورقبته مختنقة. يعني كان يبين عليه كأن القضية قضية حياة أو موت.

ثم ابتسمتُ:

- شاهدنا، أنت هسّه ذكرتيني بهالقصة. آني أيضاً أردت أسأله: لك يا ابن الخايبة أنت شنو وهالحسبة وعلويش دتفكر هالشكل؟

استنار وجهها وهي تتكلم بحدة:

- لا. لا. آني ما قلت هالشيء.

- هذا كان مختصر رأيك. آني أقرأ كتب هواية وأتفلسف على مزاجي، يعني غير مهتم بزماني..

رفعت محتجة إصبعاً رقيقاً:

- لا، كريم. أرجوك..

- اسمحي لي فد دقيقة منيرة، تره آني أولاً ما أقرأ هواية. بالحقيقة أقل من القليل. ثانياً شنو هالأفكار.. آني هم ما أدري. يمكن هي مسألة طبيعة؛ لأن مد أشعر أفكاري منظّمة أو عندي فد غاية أريد أوصلها. لا. يعني هكذا.. أفكار.. تأتي وتروح، شوية أتأثر بيها أكثر من اللازم.. ها هيه.

رأيتُ عينيها تغيمان قليلاً وبعض الغضون الصغيرة تظهر تحتهما.

رفعت إصبعها مرةً أخرى محتجةً عليّ:

- شوف كريم. تره أنت ما افتهمتني زين. آني هواية أحترم آراءك وأفكارك. بس أريدك تهتم بشؤونك الخاصة وتدبر أمور دراستك. يعني مستقبلك هم مهمّ. وهذا ما يتعارض مع.. مع الفلسفة. تمام؟ ولو الفلاسفة تره ما عندهم اهتمام بأحد. متطفلين يعني.

- متطفلين علمن؟ على من؟

كنت معنياً بأفكارها الجديدة هذه. ابتسمت:

- علينا، طبعاً. هم شنو سبب اهتمامهم بنا؟ ليش ما يتركونا نعيش؟ يعني مثل ما قال مدحت لا شغل عندهم ولا عمل غير الثرثرة. الناس تريد تعيش وهذولة الله رمى كل الثرثرة عليهم.

ابتسمتُ لها أنا أيضاً، للوجه المضيء المتورّد وللعينين اللامعتين، للحياة العذبة التي تمثّلها، وهززت رأسي:

- ما أدري على يا فلاسفة دتحكين؟ بس تره أكو ناس ما يلغون. أكو ناس فهموا الحياة، أو فهموا فد قسم منها وكتبوا عنه. هم مو متطفلين. يمكن إحنا المتطفلين عليهم. إحنا مرات ما نقدر نعيش بلا مساعدة. تسحقنا الحياة بلا ما نحس. آني أعرف زين. نحترق من الهواء. آني أعرف زين. يقتلنا الهوا الحار أحياناً.

لم يكن بودّي أن أتحدث هكذا، وأن يكون لكلماتي رنين عاطفي خاص. غير أن قلبي امتلأ، على حين غرة، بصورة فؤاد وبحياته وحبه ومحاولاته وموته؛ وكنت أحدّث نفسي أكثر مما كنت أحدثها. أجابتني:

- العفو كريم. بس آني ما كنت أقصد شي معين. كنت أسخر طبعاً. وأنت هم لازم تعبان وتريد تقرأ يمكن وما أدري هسّه ساعة..

ثم همّت، لذعري، بالقيام فقاطعتها:

- وين رايحة منيرة؟ بعد وكت.

- ساعة بيش؟

- مو مهم. احكي لي عن الفلم. أي سينما ذهبتوا؟

- أنت ما تريد تقرا. هذا ملخص القضية.

- القراءة ما مهزومة مني. ثم، هاليوم امتحنت. آني كان لازم أذهب للسينما، مو أنتم. خاصة وأنت يبين ما تعرفين حتى اسم الفلم.

نظرت إليّ باستغراب:

- لويش يابه ما أعرفه؟ لاكت منو تركني افتهم. سناء من جهة تريد تفتهم كل صغيرة وكبيرة بالفيلم مقدماً. ومدحت.. هم.. الله يسلّمه.. ما أدري شلون. يابه دجوز. ما خلوني أفتهم شي. لاكت السينما جديدة وحلوة. سينما النصر. أما الفيلم.. والله مثل ما تقول ما افتهمت راسه من نهايته.

ضحكنا.

كان البيت ساكناً. كأن الجميع أخلدوا إلى النوم؛ وكانت منيرة أمامي تضحك.. تشاركني الضحك.. وقد صعد بعض الأحمرار إلى وجنتيها. رأيت نهاية ذراعها قرب الكم الأخضر، ملساء ذات لون خمري، وأسنانها البيضاء وصوتها. نسيت الموت آنذاك، وكنت أحدس بأن لديها ما يهمني وما يجب أن أعرفه من فمها. سألتها:

- شلونك بالمدرسة؟

- زينة. زينة. بس شوية بعيدة عليّ. يعني إذا بقينا هنا..

- شنو إذا بقيتوا؟ وين تروحون يعني؟

عادت الغيوم إلى صفرة عينيها والتوت قليلاً شفتاها. صمتت هنيهةً:

- شوف كريم. كل شيء بحسابه. ما يصير نبقى هالشكل.. عالة عليكم. ثم رفعت يدها تطالبني بالسكوت:

- أدري. أدري ما تريد أن تقول. بس.. مع ذلك.. آني راح أكتب لأخي مصطفى وأنتظر جوابه. ما أقدر أقول لك إحنا يعجبنا نعيش وحدنا.. آني وأمي. وضعنا لا يساعد طبعاً. تعرف، الوضع المادي.. وأشياء أخرى. لكن..

خفضت رأسها ببطء شديد واستحالت إلى مخلوقة أخرى. مدّت ذراعها وغطت كل ركبة بيد ثم تراخى شعرها إلى الأمام قريباً من خديها وبدا أنها انتقلت إلى عالم مسحور خلال لحظات. لم أكن أرى غير الفرق في رأسها وحاجبيها وأهدابها وأعلى أنفها، كمن يتطلع إلى عبدة راكعة تحت قدميه. كانت منحنية على نفسها، منغلقة على شيء في أعماقها. ذكّرتني بصورتها، في ذلك الفجر قبل أشهر، حين وقفت تحت فيض النور الخفيف بملابس نومها الزرقاء، تناجي المجهول وتصغي بكيانها كله إلى الصمت. كانت آنذاك، مثلما هي الآن، قد فارقت زماننا، ديمومة الحياة حولها، وانتقلت إلى مجال شخصي يحوي العالم بين طيّاته.

انتشلتها بكلماتي البطيئة:

- تعرفين صديقي فؤاد، منيرة؟

كانت عيناها جامدتين، مثل وجهها. لم تجب، لم تفهم ما قلت. همستُ:

- فد صديق عزيز هواية عليّ، مات قبل كم شهر.

قطّبت حاجبيها:

- مات؟

ثم أردفت بسرعة:

- أي. أي. أي. أتذكّر. حكت لي أمك عليه. ذاك الوحيد لأهله. أنت كنت معه من..

قطعتُ عليها كلامها:

- مو مهم. مو مهم. بس أنتِ منيرة..

بدأ قلق غامض يغمر وجهها، تسرب إليه من العينين المبتلّتين قليلاً ووصل إلى فمها فتقبّضت شفتاها. استمررتُ:

- أنت لويش تذكريني بفؤاد؟

مكثت تنظر إليّ. استحال طابع القلق على ملامحها إلى بلادة يشوبها بعض الاستسلام. سألت ببرودة:

- آني أذكّرك بصديقك.. اللّي مات؟

ثم ابتلعت ريقها ورمشت أهدابها عدة مرات. هززت رأسي. فاستدارت ببصرها عني وقالت:

- شوف كريم، تره آني أعصابي مو قوية، يعني مثل صحتي. هاليوم بالسينما مفاجئة وأنت هسه..

- العفو منيرة. بس كنت دا أفكر، يعني الواحد من يحب أشخاص.. يعني ولو مختلفين، يشوف بينهم تشابه غريب ما أله تفسير. شتقولين؟

عادت عيناها إليّ، صافيتين نديتين:

- يعني أنت دتشوف الموت.. على وجهي؟

كانت تداعبني، لكنها أخافتني:

- لا. لا. ليش ما تحكين على الناحية الثانية من كلامي؟

قامت. بدا لي قيامها مباغتاً فوقفت أنا أيضاً أستوضحها:

- ها؟

كانت تمسِّد الثوب على جسمها؛ من أسفل الثدي، على جانب، إلى أعلى الفخذ. كررت العملية مرات وهي تتشاغل بالنظر إلى الأرض. ثم تكلمت:

- فات الوقت كريم والحكي ما ينتهي.. هالنوع من الحكي؛ وآني تعبانة اليوم شوية.

أسرعتُ أسألها:

- غير يوم.. يعني..

فابتسمت. ابتسمت بكل حنان وتفهّم. ملء تقاطيعها وروحها. كان فمها منفرجاً ووجهها البيضاوي محاطاً بظلال الشعر الملتوي، وكانت في عينيها الصفراوين الكحيلتين، التماعةُ حبٍ وفرحٍ.

ثم غادرتني بخفة متمنية لي أن أصبح على خير. وبقيت في الجو من ابتسامتها هزة أو صورة أثيرية أو قوس قزح غير مرئي. بقي شيء ما لا يوصف أسكرني ساعات. لم أنم ولم أقرأ. لبثت ممدّداً على فراشي في ظلام الغرفة أنصت إلى أصوات الليل. حركة عصفور نائم على غصن يابس. طقطقة غامضة في المطبخ. عواء الكلاب البعيدة. وقع خطوات خفيفة، تروح وتجيء مع النسائم.. ثم.. أنا وأصوات نفسي المكتومة والصباح الذي لايشرق.

* * *

أصرّت والدتي أن تجلب لي فنجان قهوة إلى الطابق الأعلى. وقفت في مدخل المطبخ وأخذت تكلّمني. كنت جالساً في الطارمة الكبيرة أمام الإيوان أحصر ذهني في الكتاب المفتوح. سمعتهما تتكلمان منذ فترة في المطبخ، أمّها وأمّي. لم أفهم من نبرة صوتها شيئاً. كانت السماء صافية، سماء الخريف، والبيت يخلو ممن يمكن أن يحدث ضجةً فيه، وكان حديثهما يبدو مثل وشوشة ماء يغلي. ثم أطلّت والدتي لتنقل إليّ رغبتها في جلب القهوة لي. قلت لها إن بمقدوري أن أنزل إليهما. لم أكن متحمّساً لشرب القهوة؛ نمت عدة ساعات، قبيل الفجر، منحتني راحة عميقة. لكنها أصرّت. كانت تبتسم ابتسامةً عريضةً ووجهها الممتلئ الأبيض يعلن سرورها بما تعمل. سألتني كيف نمت في الليلة الماضية وسألتني عن دراستي وصحتي. كأنها لم ترني عند الفطور!

ثم جلست قريباً مني. خُيّل إليّ أن وقتاً طويلاً مرٌّ قبل أن تتكلم. كانت الزيتونة هادئة، تغرقها أشعة الشمس الذهبية والسماء زرقاء جداً. لم تسبق كلامها نأمة أو حركة غير اعتيادية. كان البيت ساكناً، أشياؤه وناسه، وكذلك العالم والكون. حتى السماء. قالت:

- عيني كرومي، مدحت يريد منيرة. البارحة كلّمها بالسينما. هاي الشيطانة سناء سمعته وقالت لأمها ومديحة حكت لي. تره آني ما لي علاقة. عرفت من أختك الله يشهد.

كنت أرى بعض الشعيرات البيض في حواجبها والطيّات القليلة تحت عينيها. بقيت هادئاً لولا خفقات القلب السريعة. عادت تتكلّم:

- هي ما أعطت جواب، وهاي أمها مخربطة أفكارها وما تعرف تحكي.. ما أدري، هي ذكرت القضية معك البارحة بالليل؟

هززت رأسي بالنفي. لم يزل البيت ساكناً، مسترحاً لعدم اكتراث مطلق. هززت رأسي.. وعلى الأرض السلام.. وقلت لها إني لا أعلم شيئاً. لكنها تهجست أسئلة قلبي، رأتها في شيء مبهم لعله كان يحيطني، فأجابتني عليها:

– هذا أخوك الكبير عيوني كرومي. متخرج وموظف وعنده كم فلس. وأنت.. آني أقول، هي الدنيا ما راح تخلص. كلكم شباب عيني وانشالله تشوفون ولد ولدكم.

بدت كمذنبة تتحمل وزر غيرها؛ وشعرتُ، بشكلٍ ما، كأني ضحية يراد لها أن تعاود التضحية من جديد. أغلقت كتابي المفتوح وأغلقت معه كل أفكاري عن المستقبل. التفتُّ نحو والدتي. كانت انعكاسات الشمس على الحائط البعيد تأتيني من اليمين تقطعها الأعمدة طولياً. لمحت جدتي تظهر في إطار باب غرفتهم. قلت:

– تعرفين أنت يا أمي، منيرة عزيزة علي، ومدحت أيضاً. لكن ما عرض عليّ أحد منهم شيء. وما أدري أنت شلون تصدقين.. أو يعني تعتمدين على حكايات هاي الصغيرة سناء.

– عيني هي صغيرة لو شيطان. كل حركة بالبيت تسمع حسها عندها. بس كلامك أيضاً.. يعني ينراد واحد يسأل.

كانت تتطلّع بعيداً:

– بس على من نروح؟ مدحت حكاياته تنعد على الأصابع. ما أدري بلكي أنت عيني كرومي.. أقول.. يمكن هي تحكي وياك، لو أنت تسألها؟

وتوقفتْ:

- هاي بيبيتك جاءت. شكو عندها بهالساعة؟ الفطور وأكلته والغداء ما صار وقته.

ثم قامت تلتقيها.

كان الكتاب أمامي على المائدة مغلقاً، وقربه قلم الحبر. أمسكت بالقلم وفتحت الكتاب. انتبهت إلى أن قدح القهوة لم يمسّ. هل كانت تروم أمس أن تقول لي شيئاً؟ لم يبن عليها لحظة أنها مرت، قبيل ساعات بتجربة الفتاة التي عُرض عليها الزواج! ومستقبلي ونجاحي، أنا المقطوع عنها، لِمَ كلّ هذا التساؤل عنهما؟

أردتُ أن أكتب شيئاً، اسماً ما، على الورق. ثم عدلت عن ذلك. كنت أحسُّ بفراغٍ حولي وببعض القلق. كانت الأفكار تتوارد على ذهني دون أن أفهم حدودها بالضبط. لم أرها اليوم صباحاً، ولكن صورة بشرتها الوضاءة وانعكاس الثوب الأخضر في نهاية ذراعها، واختلاط اللون وطية اللحم الرقيقة، جاءت تلفني وأنا أمام الكتاب المفتوح أمسك بالقلم.

أغلقت كتابي مرةً أخرى ووضعت القلمَ جانباً.

- ٨ -

أيقظتها ابنتها سناء من نومة الفجر العميقة وهمست في أذنها:

- يوم.. يوم.. الجني بالمطبخ قاعد يغسل المواعين. يوم. دا أخاف. يوم، الله يخلّيك. يوم، الجني.

كانت تسمع صوتها آتياً من كهف لا قرار له. استجمعت حواسها الضائعة وسألتها:

- ها؟ شبيك ولك؟ يا جني؟ يا مواعين؟ لويش قعد..

- يوم الجني. الجني بالحوش ديغسل مواعين. سمعي. سمعي.

جلست في السرير مرهفة أذنيها. كان نور السماء الحليبي يدخل الغرفة من بابها المشرع، ومن قعر الحوش تناهت لسمعها طرقات مضطربة لا معنى لها، مثل أنبوب حديد فارغ تضرب به الأرض الصلدة. طرقة وطرقة ثم طرقة وسكون، ثم ثلاث طرقات متوالية. شعرت بيد ابنتها سناء تقبض على ذراعها:

- سمعتي يوم؟ سمعتي؟

- صنته. سكتي.

طرقتان مسرعتان ثم واحدة يعقبها الصمت. كانت مرتاعة، تحسّ بجذور شعرها تنكمش. طرقة خفيفة ثم أخرى أخفّ منها. ليس لهذا الشيء أي معنى. حتى حديث الجن لا يشبهه! أنزلت قدميها من السرير العريض ثم وقفت ولبست نعليها. سألت سناء، دون سببٍ، عن أختها سها فأجابتها الأخيرة بأنها تشخر قربها. سارت ببطء واجفة القلب نحو الباب. لاحت لها السماء الخفيفة الزرقة وشجرة الزيتون. لم تبدأ بعد عصافير الصباح غناءها. كانت الخبطات تأتي من الأسفل ثقيلةً متقطّعةً. وقفت على العتبة بتردّد وأطلّت برأسها. لامست وجهها نسمةٌ باردةٌ وأحست بأصابع ابنتها المرتجفة تتشبث بذراعها. كان الحوش داكن الضوء، لا يبين قاعه بسهولة. أرادت أن تعبر الطارمة الضيقة وتطلّ فوق المحجر، لكن الخوف منعها. خشيت أن يفزعها المنظر الذي قد تراه. لعلها ستطلع على شيء يجب ألا يعرفه إنسان مثلها، عالم الجن مثلاً؟ أو مخلوقات أخرى لا يرضيها أن يسترق النظر إليها إنسان تعس غير خالد؟

ازدادت خفقات قلبها شدّةً وهي واقفة في إطار الباب، يسيطر عليها تردّد تمازجه كل مخاوف الحكايات الخرافية وأقاصيص الجن التي سمعتها في طفولتها. كانت ابنتها سناء خلفها تلتصق بها بإصرار. أرادت، بعد هنيهات، أن تتراجع وتغلق الباب وتعود إلى سريرها وعالمها، حينما لمحت حركة في غرفة عمتها قربهم إلى اليمين. حوّلت بصرها. كانت عمتها واقفةً، منكوشة الشعر الأحمر، تتكئ على طرف الباب وتنظر بعيون فارغة نحو الحوش. ثم سمعتها تتكلّم:

– خلف الله عليك يا أم حسن. هو آني عندي عيون أشوف بها

الطنطل لو الجهجهون. الناس المتعافين، نايمين وبطونهم مليانة. آني هم جوعانة وقلبي سايح وهم غشاوة على عيوني نازلة، الله معاف. خلف الله عليك يا أم حسن والله ينطيك، قعدتيني والفجر بعده ما طلع.

كانت تتحدث مع نفسها بصوتٍ هامس لا تريد أن يسمعه أحدٌ. استراحت هي لرؤية عمتها فكلّمتها:

- عمة، شكو عندك واقفة هنا؟

التفتت إليها عمّتها رافعة راحة يدها اليسرى فوق عينيها:

- الله مصلي على محمد. مديحة؟ عيني الدنيا مقلوبة تحت بالحوش. طاك طيك من وذان العشا إلى الآن ما تقولين لهم..

ثم توقفت وأشارت بيدها إلى أسفل:

- احكي معاهم على مهلك. لويش ديغسلون راسهم كل هالوقت؟ الماء خلص من الأنابيب. احكي معاهم مديحة عيني على مهلك. بلا زعل.

عادت إليها أنفاسها وهي تستمع إلى هذر عمتها مختلطاً بتلك الطرقات الغريبة التي لم تنقطع لحظة. تقدمت بتردّد نحو المحجر. كان الفجر قد أغرق بنوره السماء والجدران العالية وقمة شجرة الزيتون. نظرت إلى أسفل. خبطة وأخرى ثم فترة صمت أعقبها أنين ضعيف مخنوق لم تسمعه من قبل. كانت أرض الحوش تبدو لها سراباً مظلماً، لا تبين للأشياء فيه حدود. أحدّت البصر وهي تشعر بقشعريرة خفيفة تخترق ظهرها. لاشي، لاشيء. ثم تناهت إليها همسة سناء:

- هناك يوم.. هناك جنب الحوض. هذا شنو؟

كان الشيء يتحرك مثل ظلٍ يختفي بين الظلال، لون أسود يضطرب

بين ألوان سوداء أخرى. لم تميز عيناها تكويناً معيناً، سوى كتلة رمادية مقطوعة النهاية تميل نحو اليمين فترتفع طرقة من تلك الطرقات المجهولة، ثم تميل الكتلة ببطء يصاحبه الأنين نحو اليسار.

أذهلها ما ترى بقدر ما أدخل الخوف إلى نفسها. سمعت صوت عمّتها خافتاً:

- صلي على النبي عيني مديحة. أقري «قل هو لل» وشعلي الضوا فوق راسك. ما ندري منيش راح نموت، من الجوع لو من الخوف! أقري عيني، أقري سورة «قل هو لل».

ثم أحست بحركة خلفها انبثق بعدها ضوء المصباح الكهربائي، فغمرت الحوش غلالة من النور الأحمر أبعدت الظلال إلى جانب. حاولت أن ترصد الحركة، قرب الحوض. لم تدرك جيداً ما يجري هناك. كان الذيل قصيراً وكذلك الأطراف الأربعة، لكن الرأس. أطلقت أبنتها سناء صرخة وهتفت:

- با.. هاي شنو؟ هذا الهر، راسه محصور بغلاية شاي. زمال. خوفني ماما.

كان الهر يتمايل برأسه الثقيل بخوذة التنك الغريبة، فتصدر عنه موسيقا الطرقات تلك، التي قطعت عليها نومة الفجر. لبثت تتطلع إلى المنظر ببعض الحنق والضجر. عاد إليها الهدوء واسترخت أعصابها المتوفزة. تساءلت العمّة:

- شنو هر، ولك سناوي؟! ليش ما قرأتم سورة «قل هو الله أحد» قبل ما تشعلون الضوا؟ شوفوا شلون قلب نفسه هر، وقام يضحك علينا؟

- عيني بيبي، هذا الهر الأبيض اللي أكل الكباب مالكم ذاك اليوم.

- اللعنة عليه. عساه بابو زايد. شوفي ربك شلون دينتقم منه. عساه بابو زايد.

تحركت مديحة بتثاقل تجتاز الطارمة الضيقة متجهةً نحو السلم. كانت تفكر فيما يجب أن تعمل، لأنها هي المسؤولة عن كل اختلال يقع في نظام البيت. مرت بغرفتي أخويها النائمين، وحين كادت تتوسط الطارمة الكبيرة فتحت أمها باب غرفتهم وأطلت عليها ووجهها الأبيض المدور لايزال يحمل آثار النوم. سألت:

- وين رايحة مديحة؟ مو بعد وكت على الشاي؟

حكت لها متذمرة ما رأوه قبل قليل وأضافت بأنها ستنزل لتخرج رأس الهر. كانت متعبةً، تقتصد في حركات قدميها وتمسك بجدران السلم المظلم. لم تقل لها أمها شيئاً، حتى ولا كلمة استغراب. أحزنها ذلك وأشعرها بموضعها، الذي لاتريده، في البيت. كان الحوش كئيب الضوء موحشاً. أعادت إليها خبطة من رأس الهر النحاسي على الأرض، حقيقة الموقف الذي تجابهه. سمعت أمها:

- ديري بالك عيني مديحة، لا يخرمشك الهرّ.

وهتفت سناء:

- ماما، أجي؟

هدأ الهر حينما أحسّ بوجودها قربه. لو استمرّ في هدوئه اللعين هذا دقائق أخرى لانتهى كل شيء بسلام. أمسكت بأعلى ظهره فارتجف وأنّ أنيناً خافتاً. سحبت الإبريق النحاسي باليد الثانية فلم ينتج عن ذلك

شيء، واشتركت مع الهر في إحداث خبطتين أخريين. كانت أطرافه منفتحةً إلى جهات أربع وذيله النحيل متدلياً على الأرض. قبضت على الإبريق بيديها الاثنتين ثم رفعته والهر عالياً. أخذ يرفس الهواء بأطرافه ويعاود الأنين. كانت مضطربةً مشدودةَ الأعصاب. هزت حملها مرةً ومرتين. ثم بدا لها فرمت بالهر والإبريق بعيداً قرب المطبخ. تدحرجا بين الظلال، خلف أسطوانة العمود الخشبي، ثم رأت الهر يقفز بخفة راكضاً وسمعت الإبريق الفارغ يواصل تدحرجه على الأرض قريباً من الباب الوسط. نادت سناء مصفقة:

- عفية، مام، عفية. عفية عليك ماما الشاطرة.

قاطعتها أم مدحت:

- على مهلك سناوي. لاتزعجين خوالك.

عثرت مديحة على الإبريق مقلوباً بجانب الحائط فحملته ودخلت المطبخ المظلم. لم تزل حواسها مخدرةً قليلاً. وضعت بعضاً من مسحوق «التايد» وبدأت تغسل الإبريق. كان مطعّجاً، تستقر في قاعه كمية من الترسبات البيضاء. ملأته بعد ذلك بالماء ثم أشعلت الموقد النفطي ووضعته فوقه. ارتفعت رائحة النفط الخانقة فأسرعت تخرج من المطبخ وتجلس في مدخله على تختة صغيرة. لم ترَ أحداً في الطارمة فنادت بصوت منخفض:

- سناء... ولك سناء.

أطلت ابنتها من الأعلى، فكلّمتها:

- قعّدي أختك وحضروا هدومكم وغسلوا وجهكم.

- بعد وقت ماما. نعسانة آني. هاذي سها ولا فتحت عيونها...

- قعّديها ولك. مو وكت نوم بعد. لا تسوويني عصبية من الصبح وآني أمامي تدريس ولغوة خمس ساعات.

سمعت أمها تكلّمها:

- على مهلك عيني مديحة. أشعلي الطبّاخ وحضّري الشاي وآني هسه أروح ألبّس البنات. أنت ما عليك.

ثم رأتها تمضي نحو غرفتهم.

تملّكتها قشعريرةٌ خفيفةٌ. فلمت أطراف البلوز الأسود على صدرها وسحبت ثوبها إلى أسفل. كان ضوء الصباح قد ملأ الحوش وأيقظ عصافير الزيتونة فارتفعت صرخات الفرح الأولى. لاحظت علبة سكاير وشخاطة موضوعتين على الأرض قرب التختة فتناولتهما وأشعلت لنفسها سيجارة. لم يرتفع صوت من الطابق الأعلى، ولم يزل بمقدورها أن تبقى مرتاحة هكذا بعض الوقت. قابعة كقطة صغيرة تنتظر أن يستيقظ أسيادها. سحبت نفساً طويلاً من سيجارتها فشعرت بمرارة الدخان في فمها. ابتلعته ثم عادت ونفثته من فمها وأنفها. أجالت نظرها في أنحاء الدار الفارغة. أين اختفى ذلك الهر اللعين؟

لقد مكثوا نائمين جميعاً، ولم يجد أحد غيرها من أهل الدار أنَّ من واجبه أن يتجشّم مشقة النزول لإنهاء المهزلة. هي، وحدها، المصابة بداء غامض يجعلها تخدم الجميع. كأن قبولها في هذه الدار، دار أبيها، كان بهذا الشرط. ورغم أنها لم تكن كسولةً في مراهقتها وشبابها قبل الزواج، فإن شعور القسر الداخلي الذي تحسه الآن لم يكن يساورها قط. كان باستطاعتها أن تتلبث في فراشها، أي صباح تشاء، حتى التاسعة أو العاشرة. ما كان الرعب يتملّكها مثلما يحدث لها هذه الأيام لو

فاتها أن تضع الماء على النار قبل شروق الشمس؛ ولم تتساءل عن سبب كل هذا، مادامت تعرف الجواب.

كن يتحركنَ ويتحدثنَ بهمسٍ في غرفتهم، أمها وبنتاها. إنهن صديقات العمر، لايفصل بينهن فرق السن؛ وعسى الزمان أن يسمح بأن تطول هذه الألفة بينهن. سمعت الماء يبدأ بالغليان. امتصت نفساً أخيراً من سيجارتها ثم رمتها. احتضنت ساقيها بذراعيها. حتى ابنة خالتها منيرة يعدّونها ضيفةً عليهم ولا يطلبون منها أن تقوم بعمل. ومَنْ يدري، فلعلها توافق على الزواج من مدحت؛ عند ذاك ستدخل الدار من بابها الواسع. ولن يكون بمقدور أحد أن يعدّها ضيفةَ شرفٍ.

لم تجب جواباً صريحاً حتى الآن، ولايبدو أنها مهمومة بهذا الأمر. كأنها تجهل أن الجميع يعلمون وينتظرون! جميلة هي، نعم. لكنها، هي نفسها، لم تكن تقلّ عنها جمالاً حين تقدم حسين لخطبتها. ومع ذلك، لم يتركوا لها مجالاً للتفكير أو لإبداء الرأي. كأنه كان الأغا خان الكبير!

رئيس شعبة في مصرف الرافدين، لايستطيع حتى أن يتكلم بشكل واضح دائماً. ورغم أنها لم تكن ضد فكرة الزواج منه، لكن إلحاح أهلها ومحاولتهم إنهاء الموضوع بسرعة، أشعراها بثقل العبء الذي تحسّ به العائلة تجاهها.

ازداد غليان الماء وارتفعت أنغامه المعهودة. قامت بتثاقل تحضّر الشاي والفطور. لم تكن سنواتهما الأولى رديئةً جداً. حياة معتادة لعائلة عراقية. عمل وأكل وجنس وزيارات. أصابها نزيف في قطار البصرة، وأفزعها بشكل خاص لون الدماء على الشراشف البيضاء؛ ولا تعلم كيف لم تمت حين اتصل بها المجنون ثانية قبيل وصولهما، فعاد النزيف

أشدّ عنفاً! لم تكن تعي تماماً ما يُعمل بها. كانت في الثانية والعشرين، ولم تكن قد رأت، حتى في الأحلام، أعضاء الرجل التناسلية. لذلك اعتقدت أن كل شيء يتم حسب الأصول وكما يجب، رغم الآلام والفزع والاشمئزاز والخجل! يا لها من بداية لحياة الزوجات هنا!

طرقت أذنيها، وهي تضع أنبيق الحليب على النار، خطوات سريعة خلفها. لم تلتفت. سمعت صوت منيرة:

- صباح الخير مديحة.

استدارت ببعض الدهشة. رأتها في ثياب النوم:

- صباح النور. اشقعدك عيني منيرة؟ لازم على صوت الهرجة.

فتحت منيرة الثلاجة وتناولت قنينة ماء شربت منها ثم أعادتها:

- لا والله مديحة، بس آني كل يوم أقول بكرة راح أقعد من الصبح وأنزل لأساعدك في تحضير الفطور. متأسفة، لكن..

كانت ترتدي بلوزاً أزرق فوق ثوب النوم الأبيض المزركش. ابتسمت في وجهها:

- لويش عيني منيرة؟

وكانت فتحة الصدر واسعة وقسم من نهدها الأيمن مكشوفاً:

- مستعجلة على الشغل والضنى؟ لو تريدين تدّربين من هسّه؟

- شنو؟ أتدرّب؟ علويش؟

لبثت ممسكةً بكأس الماء في يدها. حيّرها ألا تجد منيرة تفهم بسرعة. لم تكن تضع الكحل في عينيها، لكن صفاء لونهما واسوداد أهدابهما أبقيا لهما جمالاً خاصاً. عادت مديحة إلى عملها بفتور:

- على الشغل عيني منيرة، على الشغل.

- لا ، صحيح؟

- أي والله. لايظل فكرك. شكو عندنا غير الشغل إحنا؟

لم تلاحظ عليها ذكاء غير عادي، لكنها لمست فيها أنكماشاً عن عالمهم. إنها تحب مخالطة أولاد خالتها على مخالطتها هي. تمكث مع عبد الكريم ساعات طويلة، تحادثه وتضحك معه. أو تخرج مع مدحت والصغيرة سناء في نزهة إلى باب الشرقي أو لمشاهدة أحد الأفلام. لا لوم عليها على كل حال؛ إنها تحب أحاديث الشبان.

كلمتها وهي تراها من طرف عينيها، واقفة تتأمل شجرة الزيتون:

- منيرة، أقول، ما جاء جواب من أخوك مصطفى.. على ذيك القضية؟

رأتها تلقي بنظرة سريعة عليها وعلى المائدة، ثم تستدير مرة أخرى إلى الزيتونة:

- لا. لا.

وضعت مديحة الشاي قرب مواد الفطور الأخرى وسارت نحوها. لم تكن تقصد أن تقول لها شيئاً معيناً. أمسكت بيديها:

- شوفي منيرة، تره مدحت، ولو هو أخي، بس آني أعرفه زين وأعرف هو إنسان طيب. يعني ما أدري بأي شيء أحلف لك ترتاحين كثير معه.

رأت ابتسامةً خفيفةً على فم منيرة، ثم بدت لها عيناها، خلال لحظات، تمتلئان بالمرارة والقلق. أجابتها:

- أدري، مديحة، أدري.

كان صوتها خشناً، كمن لم يتكلم منذ أيام:

- لعد ليش ما تعطيه الجواب يا عيني منيرة؟ تاركته متعذّب هالشكل، لا للموت ولا للحياة؟

تقبّضت أصابع منيرة على يدها ثم استرخت. نظرت إليها مرةً أخرى نظرة سريعة طائرة عادت بعدها لتتأمل الزيتونة. استمرّت مديحة:

- يمكن تقولين بقلبك، آني ما أقدر أعطي نصايح للغير عن الزواج. لكن..

كان قلبها معتصراً بغمٍّ مفاجئ:

- تره منيرة، ماكو واحدة مثلي تعرف، خاصة هسّه، قيمة الزواج والاستقلال. تخلقين عالمك. أنتِ، ماكو أحد فوق رأسك. بس.. الله إذا ما يريد للواحد يرتاح.. لو ينسعد، صعبة.

التفتت إليها منيرة وأمسكت بكلتا ذراعيها وعصرتهما. كانت عيناها تفيضان بالحنان ورأت شفتيها ترتجفان قليلاً:

- لا تلومين نفسك عيني مديحة. أرجوك. أنت ضحية ظروف قاسية. آني أعرف كلش زين. لا تعذّبين نفسك. الله يخلّيك.

ثم أنزلت ذراعيها بسرعة واستدارت عنها. لمحت انعكاس ضوء في عينيها المبللتين وسمعتها تغمغم:

- أما آني... فخلّيني هسّه، أرجوك. خلّوني أرتاح شوية. أشعملت آني؟ خلوني أرتاح شوية الله يخليكم.

وتحركت تريد الابتعاد عنها، إلا أنها توقفت بعد خطوة أو خطوتين، والتفتت إليها مرة أخرى:

- عيني مديحة، أنت تعرفين، جواب أخويه مصطفى لازم يجي. بس، ساعديني أنت. خلّيهم يصبرون شوية.

وكانت تضع قناعاً على وجهها الباكي الجميل.

صُدمت مديحة ببردة الفعل هذه. ولم تدرِ كيف تعبّر عن نفسها وبماذا يمكن أن تشارك منيرة فيما بدا لها محنةً شاقةً. راقبتها بحزنٍ، تسير بجوار الحيطان الغربيّة، نحيلةً بطيئةَ الحركة وشعرها المسترسل يخفي وجهها الشاحب. خطر لها أن منيرة، هذا الصباح أيضاً، لم تساعدها في إعداد الفطور. ثم جذبت بصرها حركة بنتيها وأمها وهن يتهادين في الطارمة الكبيرة وتذكرت أنها لم ترتدِ ملابسها حتى الآن وأن الوقت ضيق بعض الشيء.

وقفت قرب الموقد المشتعل تنتظر أن تتكلّم أمها. كانت أم مدحت جالسة على «التختة» الصغيرة في مدخل المطبخ، تدخن سيجارتها بهدوء. غسلتا الصحون معاً منذ ساعةٍ أو أقل، وعندما أخبرت أمها بأن الفرّاشة جاسمية جاءت إليها صباح اليوم في المدرسة لتقول لها إن إحدى قريباتها نقلت إليها خبراً بأن حسين مريض منذ عشرة أيام وحالته خطرة، قعدت على التختة تدخن سيجارة تلو أخرى. ظهر عليها انشغال البال والانزعاج، ثم تكلّمت بصوتٍ خافت:

- شنو حالته خطرة؟ زكام، نشلة، وكل الناس ينشلون. يعني لأن اسمها صار... فلاونزة؟ لو شنو؟

ونظرت إلى مديحة مستفهمةً. لم تجبها. كانت متضايقةً أكثر منها. أردفت أمها:

- مثل ما تريدين عيني مديحة. تريدين تروحين، روحي، الله معاك. خذي البنات معك واذهبي. آني ما أقدر أروح. بس، أنت تعرفين

وين بيت خالته؟ يقولون إنه خلف مقهى «ياس» في الجهة الثانية من باب الشيخ.

ونفثت نَفَساً عميقاً:

- إذا جعلوه راح يموت من النشلة، بعد شنقدر نحكي!

كانت السماء مدلهمة، مثقلة بالغيوم، والهواء بارداً. أحسّت بكآبتها تزداد ساعةً بعد ساعةٍ منذ أخبرتها تلك المرأة عن مرض زوجها. لم يكن يهمّها أن تعلم أنه وقع في الشارع ميتاً، إلا أن الشعور بأنه لايزال حياً، على شفا الهاوية، أيقظ في أعماقها شيئاً. نبضاً في القلب تخالطه شفقة شديدة تحزّ في نفسها. كان حين يأتيها مريضاً، إثر ليال متواصلة من السهر والشراب، تعامله كأنه طفلٌ صغيرٌ فقد أبويه. ثم أدركت بعد ذلك أنها كانت تسعد بتمريضه. لم يداخلها قلقٌ حقيقيٌ عليه بسبب من علمها بقوة جسمه؛ ولذا كانت تتمتع ببقائه طريح الفراش مشدوداً إليها. ثم كانت فورته الجنسية تفاجئها في أيام نقاهته، فتمرّ بتجربة غير مؤذية تشبه عملية الاغتصاب. وبعد ذلك.. يفر الحيوان من قفصه مرة أخرى. تنهدت. لم تعد تريد أن تتذكر كل تفاصيل عمليات الجماع التي مارساها خلال حياتهما معاً. كانت بعضها تجارب فذة، إلا أنّ ما تبقى منها لم يعد يتجاوز نوعاً من الأحاسيس الغامضة والصور المتشابهة التي تخدر الجسم دون فائدة.

أيقظتها أمها:

- خذي معك شوية فواكه. روحوا من وكت خاطر ترجعون قبل ما تغيب الشمس. تريدين.. يعني.. أجي معكم؟

- لا، يوم. خليني أروح فد ساعة وأرجع، أشوف وضعه شنو. علويش الفواكه؟

- ميخالف عيني مديحة. مو حلو تخشين وأيديك فارغة. صدقة على راسك وراس بناتك.

لم تجبها ومضت تصعد إلى الطابق الأعلى.

طلبت من بنتيها أن تستعدا للذهاب معها. كانت مترددةً أول الأمر في أخذهما، لكنها افترضت أن وجودهما قد يخفف من وطأة موقف محرج لايطاق. غسلتا وجهيهما ومشطتا الشعر المضطرب. كانتا مندهشتين بعض الشيء يساورهما الانفعال. رأت وجهها في المرآة شاحباً تتقاطع فيه الغضون، فعاد إليها تردّدها مرةً أخرى. بأية صفة ستذهب إليه؟

جلست على السرير. لم يقل لها حتى أنه سيتركها. غاب عدة أيام وليال ثم رجع مستنزفاً مفلساً. وانتهت المعركة بينهما بأن بقي أسبوعاً كاملاً لا يكلم أحداً. يأكل ويدخن وينام ولا يخرج من البيت. لم تعرف ما جرى له بالضبط وهل فصل من وظيفته أم ماذا؛ ولم تطاوعها كبرياؤها على طلب النقود منه أو مصالحته. أرادت أن تتصل بأصدقائه في المصرف بعد أن خمنت أنه يلاقي مصاعب جدية لايريد أن يفصح لها عنها، لكنها لم تجد الوقت لذلك. لعله افتعل هذا الخصام كي يخفي عنها أمراً أشد ازعاجاً. وخرج ذات صباح ولم يعد. ثم وصلتها منه رسالة من الكويت يقول فيها إنه يشتغل هناك في شركة ما وإنه يسعى لتهيئة مسكنٍ لائقٍ لهم. لم يعطها عنواناً، وكتب لها بعد أشهر كتاباً مضطرباً بارداً حدست منه أشياءً كثيرة. عرفت أنها يجب أن تألف فكرة بعده عنها وأن تعدّ نفسها وبنتيها لحياة أخرى بدونه، فانتقلت إلى بيت أبيها.

رأت سناء تقف أمامها وتنظر إليها بصمت مستفهمةً. سألتها:

- وينها أختك سها؟

ثم شعرت بنفسها تتنهد. أجابتها سناء:

- خلصت لبسها وقاعد دتحكي مع خالو مدحت.

- ليش خالك ما نايم؟

- ما أدري. آني شفتها قاعدة دتحكي وياه. يمكن خشّت عليه بالغرفة وأيقظته. هاذي سها، يوم، غير بنيّة.

- روحي صيحي عليها.

قامت تعدل من شأن لباسها وهيئتها. رأت الكثير من الشعيرات البيضاء في شعرها فأخفت قسماً منها وقطعت بعضها. لم تعد تتساءل، تلك اللحظات عما تعمل ولمن. وأبدلت بلوزها وحذاءها ثم تناولت العباءة وخرجت. لم يعكر مزاجها كثيراً منظر السماء ولونها الرمادي الغامق. كان البيت فارغاً، فسرّها ذلك. تذكرت حقيبتها اليدوية فعادت إلى الغرفة مرةً أخرى وأخرجتها ووضعت فيها حاجاتها الصغيرة وبعض النقود. أنعشتها نسمة باردة حين خرجت ثانيةً من الغرفة. فوجئت برؤية بنتيها تقفان مع مدحت في نهاية الطارمة الضيقة وهم ينظرون باتجاهها. تردَّدت قليلاً. رأت ابنتها سها تبتسم في وجهها وهي تمسك بيد خالها.

هتف مدحت:

- تفضلي مديحة. آني أعرف بيت خالة حسين. رحت لهناك فد نوبة. عرفت هاي غيبته مو خالية. قلت لازم مريض. أسبوعين ما جاني للدائرة.

ثم مشى بهدوء أمامها، فسارت خلفهم.

داخلها بعض الاطمئنان بسبب رغبة أخيها في مرافقتهم. كانت تحسّ بغموضٍ أن زيارتها لا تستند إلى أساس مكين مقبول، ولقد فكرت فيها إشفاقاً. إلا أن هاجس ذهابها منفردةً أو حتى مع طفلتيها، كان يعذبها. تراجعت سناء قليلاً، قبل أن يقتربوا من الباب الخارجي، وأخذت تسير بجانبها فمسدت شعرها برفق فرفعت سناء إلى أمها عينين لامعتين باسمتين. اشتروا شيئاً من الفواكه وبعض اللوازم الأخرى قبل أن يدخلوا جامع الكيلاني ويخترقوه. لم تكن الشمس قد غربت بعد، وكانت أشعتها الحمراء تلون رأس المنارة وبرج الساعة العالي. وصلوا إلى قهوة «ياس» واتجهوا نحو الفوهة المظلمة لحي الأكراد. أزعجتهم رائحة التبغ المنبعثة من الأرض المرشوشة بمياه النارجيلات. سدت سناء أنفها بأصبعيها. لم يتكلموا كثيراً. أرادت أن تسأل مدحت عن منيرة، عن شيء ما يخصّها أو يتعلّق بها من بعيدٍ، لكن حبوره وخفّة أحاديثه مع بنتيها منعتاها. لم تكن لديها أسباب محددة، إلا أنها خشيت ألا يسرّه الأمر.

انتقلوا إلى عالم آخر حين اجتازوا الفوهة السوداء. كانت الأزقّة الضيقة عكرة الأرض مظلمة، تتقارب حيطانها وتكاد تغلق على ساكنيها وتمنع عنهم وجه السماء. وكان الأطفال منتشرين بكثرة وضجتهم ترتفع من كل زاوية، وكل شيء مغلفاً برائحة الطبخ والظلام والقاذورات.

أمسكت بطفلتيها واستدارت إلى مدحت، بعد خطوات، تسأله:

- راح نوصل؟

هزّ رأسه:

- بعد شوية.

وأشار إلى منعطف على اليسار. كان الضوء رمادياً والجدران كالحة قذرة تتراكم عليها الخطوط وبعض الشعارات الملوّنة. خُيِّل إليها أنها تسير في سراديب لا يسكنها بشر، تنساب عميقاً في باطن الأرض. ماذا يمكنها أن تجد في هذا العالم الكئيب؟

وقفوا أمام باب قديم أسود يغطيه التراب وتغوص نهايته تحت أرض الشارع. تردّد مدحت قليلاً ونظر إلى جهة أخرى من الزقاق ثم عاد يتفحص الباب. كان مستقراً في منخفض وأمامه عتبة عالية تمنع تسرب المياه إلى داخل الدار. رفع العتلة الحديدية وطرق الباب وهو يبتسم. لم يجبهم أحد. بدا لها ذلك أمراً طبيعياً وتمنت ألا يكون أخوها مخطئاً. أعاد مدحت الطرق بشدة. تحرك الباب بعد ثوان دون صوت وببطء، ووقف الشيخ في الفتحة الضيقة. أحسّت بوجيب قلبها يزداد سرعةً والتصقت بها إحدى بنتيها. تكلّم مدحت:

- الله يساعدك خالي. وينها الحجية؟ جينا نشوف حسين. شلونه؟

فانبعث صوت أجشّ:

- ها؟ يا حجية أخوية؟ المحلة مليانة حجاج. انتو منين؟

سأل مدحت بحدّة؟

- هذا مو بيت حجي رحمن؟

- ها؟ بلي. تمام أخوية.

- حسين، أبو سها، مو هنا؟ قالوا مريض.

لم تكن تميز وجه الرجل الذي كان يكلّمهم بلكنة غير اعتيادية. لبث ساكناً هنيهات، ثم كرر سؤاله باللهجة الآلية نفسها:

- انتو منين أخوية؟

همس مدحت:

- هذا الحجي مخرّف وماد يعرفني.

ثم صاح به فجأة:

- روح نادي الحجية بالعجل. يا لله. قل لها زوار. يالله بالعجل.

تراجع الشيخ باضطراب داخل ظلمة البيت. انتظروا، في سكون الزقاق الرمادي، والنسائم الباردة تهبّ عليهم من لا مكان وتحمل إليهم ضجةً مبهمةً لاتنقطع. سمعوا خطوات خفيفة مترددة ثم أطلت عليهم امرأة قصيرة متشحة بالسواد ولا يميزها عن الشيخ غير شيء مجهول في هيئتها يعلن عن جنسها. تكلمت حال ظهورها:

- نعم، يابه؟ من تردون يابه؟

- مساء الخير حجية؟ آني مدحت ابن أم مدحت، أخو مديحة زوجة حسين. شلونكم؟

- أي يابه، أي. هلا بيكم، هلا. تفضلوا يابه.

عاد مدحت يسألها:

- شلونكم حجية؟

كانت تتراجع بهدوء وتلف العباءة عليها:

- أهلاً بيكم يابه. تسأل عنا.. شلونا؟ مثل ما تشوف.. دنخيس. تفضلوا يابه. عذرونا، ماكو ضوء في المجاز.

- جينا نشوف حسين. هذولة بناته معانا. هاي مديحة إمرأته. شلونه هو؟

- أي يابه. هنا موجود، حسين الخير. عشرة تيام صار له نايم. لا

إيد، لا رجل. مثلنا صاير. تفضلوا يابه.

تقدمهم مدحت يجتاز ظلمة المجاز، فتبعته ممسكة بالصغيرتين بعد أن سلّمت على الحجية. وجدوا الحوش خالياً مناراً ببقايا أضواء الغروب. كان الشيخ الواقف على جهة، ينظر إليهم نظرات عدائية. كلّمته العجوز:

- الجماعة أقرباء حسين، جايين يشوفوه. عذرونا يابه، ما عرفكم.

همهم الشيخ من وراء لحيته البيضاء الطويلة:

- بيرم. بيرم، أفندم.

أشارت المرأة إلى السلّم القريب:

- تفضّلوا يابه. قدامكم الغرفة أول ما تصعدون. آني ما عندي قابلية أصعد، سلموا لي عليه.

كانت كئيبة الملامح، لا يبين من وجهها الضيق غير الغضون. أجابها مدحت:

- أشكرك حجية. آني أعرف الطريق.

ثم باشر يرتقي الدرجات العالية بخفة. همست:

- ديروا بالكم لكم.

قاطعتها سناء:

- دا أخاف ماما.

- سكتي ولك. بعد أن وصلنا هنا! اصعدي على مهلك.

أحدثن ضجةً خفيفةً بملابسهن وأحذيتهن وهن ينحشرن معاً فوق الدرجات المظلمة. همست سناء مرةً أخرى تكلّم أختها بعصبيةٍ:

- ديري بالك. شبيك قاعدة تدوسين على رجلي. ما شايفة ناس يصعدون درج!

أجابتها سها:

- زمالة.

هتفت سناء:

- أنتِ. إنتِ. سمعتِ ماما؟

كانت بمواجهتهم فسحة أقل ظلاماً من السلم بسبب النافذة العالية التي كانت ترى منها زرقة السماء البعيدة. وكان مدحت واقفاً أمام باب مغلق على اليمين ينظر إليهنّ ببعض التجهّم. بقي ساكناً حتى تراصفن قربه فدفع الباب بسكون ودخل. تمهلت قليلاً؛ ثم لما رأت بنتيها تتبعان خالهما، خطت هي الأخرى نحو الداخل.

لم تتبين شيئاً وهي تقف عند العتبة. كان الظلام قاتماً في الغرفة الجرداء، والنافذة الضيقة بمواجهتها لم تكن تبعث إلا بارقة نور خفيف. لاحظت على يمينها معالم سرير تنفصل ألوانه عن الظلام. مد مدحت ذراعه خلفها فاصطبغت الغرفة بشحوب المصباح الكهربائي الضعيف. رأت على فم أخيها ظلَّ ابتسامةٍ وهو يتقدم نحو «القريولة» الصغيرة السوداء. لم تر أحداً، أول الأمر، تحت البطانية التي رُمي عليها معطف مطر قذرٍ، لكن ارتفاع كومة الأغطية وشكلها، أعطاها انطباعاً بأن إنساناً يرقد تحتها. كانت، بعيداً عن العواطف، بأشد الفضول لرؤيته حياً، لرؤية وجهه وتقصّي ما يختفي وراء ذلك الوجه. إن موته لا معنى له عندها، وهي تفتش عن ملامح المستقبل في وجوده حياً أمامها.

- حسين. حسين.

سحب مدحت الغطاء بحذر، فبرز شعر كثيف لشخص مغمض العينين سرعان ما انتبه وتطلّع إليهم ببعض الذعر. كان وجه حسين

ملتحياً بلحية شعثاء مليئة بالشعر الأبيض، وعيناه منتفختين وسط دائرتين من السواد الحائل. لبث يحدق في مدحت، دون أن يرفع رأسه، كمن يرى شبحاً. كان شعره مضطرباً منكوشاً ووجهه كالنحاس.

سمعت صوته الخشن:

- ها! شكو؟ شنو؟

ثم استولت عليه نوبةُ سعالٍ قوي أجبرته على الاستواء قاعداً في فراشه وهو يمسك رأسه وفمه ويشهق عدة شهقات غريبة مع كل قحة يطلقها. مثل كلب يعوي متألماً. تناول مدحت كأس ماء من فوق مائدة صغيرة وقرّبه من حسين فدفعه هذا بعيداً. هدأ قليلاً فأخفى وجهه بين كفيه، تتلاحق أنفاسه وتهتز كتفاه هزات متقطّعة متشنّجة. كان شعره ناصل اللون، قذراً تتخلله القشرة بكثرة ويبدو جلد رأسه من تحته. أشار إليها مدحت لتجلس على «قنفة» طويلة مركونة بجوار الحائط قريباً من السرير. ترددت. كانت منفعلة بشكل لم تعهده من قبل. رأت كم تبقى من ذلك الزوج الشاب الذي عاشرها سنوات! كأنها تراه يودعها الوداع الأخير! شعرت أنه استمرّ يعيش، بشكلٍ ما، من أجل أن تراه، من أجل أن تلمس بنفسها عمق الهوّة التي انحدر إليها. شكّت، هنيهة، في أن هذه الملامح، هذه التقاطيع المعدنية المصوصة اليابسة، هي ملامحه. ثم ميّزت شيئاً ما، خطاً غائماً يحتوي الحاجبين والعينين وينزل بشكلٍ خاصٍ نحو الأنف المعوج إلى اليسار. ولكن العينين... لقد فقدتا لونهما وبريقهما وتقلّص الفم وانكمش على نفسه. كان في ثياب الخروج، والرباط الأسود ذو العقدة الصغيرة يتراخى عند الرقبة المغضّنة السمراء ليفسح له مجال التنفس. تكلم فجأةً:

- تعذرني أخويه مدحت. مدا أشوف زين. مريض كنت. آخ يابه. هواية مريض. مريض كنت عيني مدحت. تعذرني.

لم يكن ينظر إليها. كانت سترته الزرقاء الغامقة مغطاةً بطبقةٍ من التراب والأقذار، وياقة قميصه المدعوكة ملويّة إلى الخارج. أجابه مدحت:

- آني متأسف حسين. ما عرفت أنت بهذا الحال. كنت مشغول. شلونك هسّه؟

- هسّه؟ زين. زين. زين.

لمحت خيطاً من المخاط يسيل من أنفه. أدخل يده، وهو يتكلم، في جيب سترته وأخرج كفية مكورة مسح بها أنفه وعينيه ثم فمه. تطلع نحوهن لحظة، ثم عاد يمسح وجهه المليء بالشعر كأنه لم ير شيئاً يبعث على الاهتمام. قال مدحت:

- تره إحنا سمعنا صدفة بمرضك، جينا آني ومديحة والبنات نشوفك. يبين ما عرفتهم حسين؟

استدار حسين ثانية نحوهنّ بصورة آلية:

- ما عرفتهم؟ أي والله. أي. تعرف..

لم تكن في عينيه المنطفئتين أية حماسة أو انفعال، ولم يظهر عليه أنه يحاول أن يهتم بهن. تكلمت هي:

- فرَاشة عندنا بالمدرسة قالت عليك مريض ديموت..

اضطرب فجأة لسماع صوتها وسحب الغطاء قليلاً ثم قاطعها:

- دا أموت شنو؟ لا. لا. لا. زين هسّه. آني زين هسّه. كل شيء ما بي.

أراحتها علامات اضطرابه:

- أي، يبين. جينا دنشوف، أخاف تحتاج طبيب.. مستشفى..

قاطعها مرة أخرى وهو ينحني على نفسه:

- مستشفى؟ لا. لا. ماكو حاجة. علويش مستشفى؟ ما تستحق. ما تسووه.

ثم وضع رأسه بين كفّيه:

- القضية كلها تره ما تسووه. لا، ما تستحق.

نظرت إلى مدحت فرأته ينظر إليها هو الآخر. جالت بعينيها في الغرفة حولها. كانت خالية بشكل غريب، عارية، جرداء. رأت على الأرض المغطاة بالغبار، آثار قيء يابسة وأعقاب سجائر منتشرة في كل مكان. كانت آثار مياه المطر السائلة من النافذة التي لا ستارة عليها، تبدو كالخيوط البيانية. ارتفع صوته مرتعشاً على حين غرة:

- أرجوكم. مدحت. تعذروني. وضعي، شوية مو لائق.

وكان يتكلّم من تحت كفّيه:

- لكن.. هذا المرض.. المرض ما يرحم. وآني كنت أعرف. كلش زين.. ما كان لازم أتمرض. الوضع ما يساعد أتمرض. لاكت.. أرجوكم.

وحينما كشف عن وجهه لمحت سائلاً متجمعاً في مآقيه، إلا أن ملامحه لم تكن ملامح مَنْ يبكي. توجه نحو مدحت بنظراته الزائغة:

- استبردت في ليلة وما اهتميت. شيء فظيع. آخ يابه. حمى شديدة ودرجة حرارة فوق الأربعين ووجع راس فظيع.. فظيع.. وقشعريرة ورا قشعريرة. دون انقطاع. الليل كله سن تطق بسن. وما من مجيب. الله أكبر. أما بالنهار.. فأعوذ بالله.

مد يده فأخرج منديلاً ومسح به أنفه وعينيه ثم أعاده إلى جيبه. رفع يديه فمررهما خلال شعره. لاحظت ارتجاف أصابعه الطويلة الأظافر. سكن لحظة وتنفس بعمق معدّلاً من جلسته. كان يصحو على الآخرين ويستعيد حواسه. ثم استدار قليلاً نحوهن. تسارعت حركة أهدابه المبللة وبدا وكأن أساريره تنفرج:

- شلونكم مد.. مديحة؟

لم تجبه. أدهشها قبحُ تقاطيعه. أليس من المحزن ألاّ تملك هي وبنتاها علاقةً حقيقيةً في العالم إلا مع هذا الإنسان المهشّم؟

تطلّع إلى بنتيه:

- شلونك بابا سها بالمدرسة؟ وأنت سناء، شلونك بابا؟

أخرجتا أصواتاً ناعمة خافتة وهما تجيبانه. التفت إلى مدحت:

- شكو ماكو مدحت؟ أخبار الزعيم شنو؟

- كل شي ماكو. شتريد يصير بعشرة أيام؟

- عشرة تيام! أي. صحيح. بس آني كل طقة، أقول اشتعلت.

- ماكو هيك شي. منين جايب هالحكي؟

- أيهو.. حكاية طويلة هاي. هذا الزعيم كل ساعة محسوبة عليه. يمكن كل دقيقة. صحيح والله.

جذبت نظرها بغتة قنينة بيضاء فارغة، مرمية تحت السرير. لعلها القنينة الأخيرة التي شربها قبل مرضه!؟ أو أثناء مرضه. من يدري! ولكنه يتبادل الحديث مع مدحت وكأنه في مجلس عائلي مألوف. كأنه لم يقم بأي عمل مخجل تجاههن، أو كأنه ليس مديناً لهن أو مسؤولاً عنهن بشكلٍ من الأشكال! إنه يتكلم ويتناقش كشخصٍ محترم أوفى جميع

التزاماته على أحسن ما يرام وجلس هكذا يتفكه بالثرثرة السياسية التي لا تضرُّ أحداً.

أزعجتها هذه الفكرة. هتفت:

- شوف، حسين، أنت أحسن ما تحكي بالسياسة وتتبطر، ما تقول لي شراح تسوي بنفسك؟ وين راح توصل؟ آني ما تصوّرت أشوفك حي، لا والله. أبداً.

ابتعد بوجهه وكتفه اليسرى عنها، كمن يتلقى لطمةً يريد أن يتحملها بصبر فلا يستطيع. ثم تقلصت شفتاه المشدودتان وانحنى برأسه ونظره نحو الغطاء. استمرّت:

- إحنا ما نريد منك شي. خلي هالحكاية قدامك. مانريد منك أي قرش پارة. إحنا ما محتاجين فلوسك..

أرادت أن تصف نقوده بالقذارة، لكنها بدأت تحسّ، وهي تحدثُه، بشعورٍ من الأسى والأسف يمسّ قلبها:

- شوف الله ما يقطع بعبده. الله يخلي والدي وإخوتي ويعمر بيتهم. بابهم كانت مفتوحة إلي ولبناتي. وإحنا ما محتاجين لأحد. والله يرضى على اللي كان السبب؛ لاكت..

تردّدت:

- لكن الإنسان، يعني مو مثل الحيوان.. أقول أيضاً.. لا ذنب ولا سبب. ليش دتعمل هالشي بينا وبنفسك؟ هذولة بناتك على الأقل، آني.. اتركني على جانب. اعتبرني ما موجودة.. بس.. بناتك؟

لم ترد، اللعنة، أن تتكلم هكذا. أي شيء في هذا المخلوق يجعلها تسترضيه أو تحاول الاقتراب منه، حتى في الكلام؟

لكن تلك النسمات من الحزن والأسى والشفقة والأسف والندم والذكريات وصور الماضي المؤلم البعيد وأيامها السعيدة القليلة معه؛ وكل هذه التقاطيع والحركات القبيحة، الخرقاء، المريضة المتجمعة فيه؛ جعلتها تتفوه بأشياء لم تفكر فيها حين جاءت إليه. كان ساكناً مثل حجر أسود. رأته يحك ظهر كفه بحركات بطيئة وهو لايزال منحنياً على نفسه، منكوش الشعر. نظرت إلى مدحت فرأت على وجهه علائمَ حرجٍ. أشار بعينيه إلى الصغيرتين منبّهاً. كانت نفسها مليئة بعاطفة من الشفقة والاستسلام والقبول بكل شيء. لم يكن بمقدورها أن تصرّ على كل أقوالها أو أن تدافع عنها. لا حجج كثيرة لديها رغم كل الإساءات التي وجهها إليها. خطر لها أن تختم هذا المشهد المزعج. سمعته:

- ما أدري، حقيقة يعني، شلون اعتذر، يعني.. منك. لاكت.. يمكن تعرفين.. ومدحت يعرف كلش زين..

لم يكن ينظر إلى أحد.

- يعني.. آني ما كنت.. تعرفين يعني.. مسائل الشراب وغيرها والظروف. ما كنت أحسّ بنفسي آني وين. دوامة، يعني. باليوم يمكن أصحى على نفسي ساعة أو ساعتين، أو لاع. لكن هالأيام هذي، حينما تمرضت.. عرفت يعني آني وين صرت. وآني هسّه ما أدري شلون أعتذر. أريد هسّه.. يعني.. أعمل شيء.. شيء آخر. خاطر تعرفون.. يعني.. والله آني متأسف هواية.

- شتريد تسوّي؟ شنو نيّتك؟

جذب سؤالها عينيه المترجرجتين المهتزتين إليها:

- نيتي؟ ليش.. آني أكو أمل أشفى؟ أكو أمل أقوم مرة لاخ؟

قال مدحت:

- طبعاً. طبعاً. أنت حسين ليش متشائم هالشكل؟ أنت كلشي ما بيك. نشلة وفاتت سلاماة. زكام عادي.

- أشكرك أخي مدحت. تره آني محتاج تقول لي آني ما عندي شي. آني ما كنت بهذا العالم. هسّه آني ما أعرف آني زين.. لو لاع. أموت لو أعيش. بس أنتم من تقولون لي آني زين.. أصير زين. آني إنسان عاطل، أخي مدحت، لكن مدا أقدر أترك هالدنيا!

ثم استدار ببصره الزائغ إلى زاوية من الغرفة:

- علويش كل هالضجيج... خوف وحساب وكتاب، تاليها كومة عظام!

كان يتكلم بهمس ذاهلاً عنهم بعض الشيء:

- كومة عظام ما ينراد لها اسم، ولا عليها حساب ولا كتاب. لاكت الموت مو هين يا صاحبي. آخ يابه. شلون ليالي سود مرّت علي! أحسّ ملك الموت فوق راسي والروح تحت السرير، وآني ألوب وأتوسّل. يا أهل الرحم، ولكم آني مو حسين. آني مو حسين. بدلت اسمي. ماكو فايدة. ماكو فايدة. وليلة ورا ليلة ورا ليلة. لا للموت ولا للحياة. وهسه..

رفع نظره إليها وانحرف به لحظة نحو مدحت ثم عاد إليها:

- هسه، آني مثل ما تشوفين، شتريدون.. آني حاضر. بس...

فتح ذراعيه المرميتين على الغطاء باستسلام. كانت في هيئته إشارة ما، بأنهم كانوا السبب في مرضه وعذابه وإشرافه على الفناء؛ هم السبب لأنهم يريدون الدخول إلى حياته الخاوية، يفتشون عن فتات أمل.

سمعت مدحت يكلمه:

- حسين، ما تقول لي منين تجيب أفكارك السودة هاذي، خاطر الله؟ أنت بعدك شاب وأمامك حياة مليانة..

أليس هو إذن، ببؤسه وخرابه، على حق في أن يرفض نداءاتهم؟ لقد عبر إلى الجهة الأخرى..

- ... طبعاً أنت مو أول واحد دخل المصح واتعالج..

وفقد زورقه وطريقه. ومن العبث، آه.. أي عبث محزن، لا مجدٍ، أن تُوجَّه إليه كل هذه المطاليب والشروط والمقولات التي لا يفهمها.

- ... هذا فاضل، صاحبك فاضل بالطابو، نسيته؟ قاعد يكتب مقالات طويلة عريضة بالجرايد عن تجربته بالمصح. والله وداعتك المسألة أسهل منها ماكو.

لكنه كان يقول لهم، بعينيه وببشرته النحاسية، وبفمه المعوّج: إنه لا يعود لهم وأن ما تبقى منه لا يشهد على حياته، لأنه قد مضى عنهم وأنه، في آخر الأمر، ليس إلا ذكرى.

- ... شنو رأيك مديحة؟ ها، بالله؟

أحست بغيمة من الدوار تنتابها فأغمضت عينيها. كان حياً، ليثبت لهم أنه ليس كذلك.

- شبيك مديحة؟

- ما بي شي عيني مدحت. دخت شوية. تعبانة يمكن.

ثم شعرت بحركة قربها. كانت سناء. لمست يدها الناعمة الصغيرة. رأت انطباعاً بالخيبة على وجه أخيها وهو يتجه نحوهنّ. قالت:

- الله كريم عيني. بس الوقت فات علينا. مو؟

سمعت حسين يهمهم بكلمات لم تميزها. أجابها مدحت:

- زين. زين. نأتي في وقت آخر انشا الله.

قامت. استمرَّ مدحت:

- نجي غير وكت لعد. زين يابه حسين، عندك العافية. ما محتاج شي هسّه؟ إحنا نجي مرة لاخ طبعاً.

- أي والله مدحت أخويه. لازم تجي.. تجون كلكم.

لم تقل شيئاً وهي تتجه نحو الباب وتفتحه ثم تخرج إلى الظلام، لكنها سمعت زوجها:

- أقول عيوني مدحت، الله يخليك ما عندك فد دينار بجيبك؟ آني تره..

واختلطت همسات ابنتيها بكلامه. لم ترَ مدخل السلم جيداً وانتبهت إلى الدموع تغرق عينيها. أرادت أن تخفي ذلك، فرفعت يدها لتمسحها فشعرت بكيس الفواكه فيها. أعطته بسرعة إلى سناء:

- روحي خلي هذا قرب سرير أبوك.

جففت عينيها. لم ترد أن تبكي هناك، على باب غرفته. أمسكت بيد ابنتها سها وسارت مع أخيها. لحقت بهم سناء بعد لحظات. شعرت وهي تنزل الدرجات بحذرٍ وتغادر الدار المظلمة أنها تتركه في قبره.

كانت النسمات باردةً ذات رائحة كريهة في الأزقة الموحشة الشاحبة الضوء؛ وكانت تخفي دموعها تحت العباءة السوداء وتكتم النشيج في صدرها، ولم يكن الدرب إلى بيت أبيها طويلاً لحسن الحظ.

- ٩ -

جالسة كنتُ، على سريري في غرفة العجائز، نصف مضطجعة، أقرأ في قصة بدت لي شيقة أول الأمر ثم أخذت الحيرة مؤلفها، حينما كلمتني والدتي. يهمها ألا تجدني منصرفةً إلى شيءٍ لا تعرفه:

- شوفي بنتي منيرة، لازم تكتبين لأخوك مصطفى. أقول يحكي ويه صديقه بلكن تأتين لبغداد بالعجل.

كانت تدخن سيكارة طويلة وتلوك الكلمات في فمها كالعلك. عادة قبيحة ما استطعت أن أجعلها تقلع عنها. لم أجبها وقلبت صفحة من الكتاب. لكنها لن تدعني لنفسي. كنا بمفردنا في الغرفة، خرجت عمّة مدحت لقضاء حاجة وكذلك فعلت جدتي أم حسن. وكان الحرّ أكثر من مزعجٍ. إلا أنه لم يسبب لي الصداع الذي تعوّدت عليه سابقاً. لعلي مرتاحة نفسياً هنا، أو أن الله سبحانه وتعالى شفاني منه أخيراً.

- هذولة ألف شغلة براسهم يا بنتي، والواحد اللي يجوز من نفسه منو يدير باله عليه؟ وأخوك، أنت تعرفيه، زين.

- ليش ما تحكين زين، ماما؟ لسانك خليه في مكانه واحكي. مو

قلت لك آني ما أكتب مرة أخرى إلى مصطفى، لويش تلحين هالشكل؟ كتبت له مرة وهو افتهم. بعد ما أكتب، يعني.. ما أكتب.

- هذولة الدنيا ما يعرفون يا بنتي محنة غيرهم. آني بس أعرف..

وضعتُ كتابي جانباً ونظرت من فتحات الشبابيك الخشبية. لست ملولة ولا متعبة، ولكن موعد الشاي قد حان ونفسي انغلقت لهذا السبب. أما كلمات أمي ذات الوتيرة الواحدة، فلن تبعث فيَّ الكثير من المشاعر. إني أتسلى هنا، منذ مجيئنا، بأن أنسى سريعاً معاني الكلمات المبطّنة. يهمني ألا أشقى طوال الوقت، إذ يبدو أن من التعقُّل، ونحن في ملجأ أمين، ألا نأكلِ لحمنا. أن نلعق الجراح فقط؛ هذه هي المهمة المثلى. يكفي أحياناً أن ننجوا من بعض الأخطاء لا كلها؛ وأن نشعر أننا بعيدون عن ساحة العذاب. وليس هذا من قبيل التواضع. إنّ شهيق الحياة لا يمنع أن يعقبه بثوان زفير الموت. بل هذا هو المنطق الوحيد. فإذا سنحت الفرصة لشهيقٍ آخر، فهو نعمة زائدة.

كانوا يعدّون الشاي في مكانٍ ما من الدار، وكنت أحسُّ بعجز عن مكالمة والدتي المتربعة بسكون قرب السرير. إن الحقائق التي نعرفها لا تختلف كثيراً في العدد؛ ولكننا ما زلنا منذ بعض الوقت نخرج منها بمعان وتتمّات غير متفقة مطلقاً. وليس باستطاعتي أن أضرب الأمثال دائماً، ولكن لنأخذ مسألة النقل إلى بغداد أو العودة إلى مدرستي في بعقوبة. هي تجد أن الرجوع إلى بعقوبة شاق علينا؛ أو هو على بعض المستويات صعب التحقيق. وهي تتألم لهذه النتيجة التي توصلت إليها. أما أنا، فمنذ أن قررت ألا بعقوبة بعد الآن، أو في حياتنا على الأقل، تجمدت عناصر القلق عندي واختلفت تتماتي، على نحو من الأنحاء،

عن تتمات والدتي.

إنها تدخّن، ممسكة بجبينها الملفوف بعصابة سوداء لامعة، محيطة نفسها بكتلة من الدخان الأبيض الكريه الرائحة. وهي حين تتكلم لا تبدر منها أية حركة. هكذا، في جلستها على الأرض، ينبعث منها الصوت ذو الكلمات المشوّهة:

-. ... وأنتِ يا بنتي، لويش تظنين الناس تحمل همّنا؟ آني أحلف بالأئمة كلها، إحنا لو متنا أو عشنا، فلا أكو بشر على هالأرض يقول الله يرجم والديهم. بنتي اللي ما يلحق على نفسه، ماكو أحد يلحق عليه.

ثم تنقطع السلسلة اللفظية فجأة، كما لو أخذتها سنة من نوم أو أمسكت عليها لسانها فكرة قاتمة. وأريد أن أقول لها، وأنا مضطجعة بجانب الكتاب المغلق، بأني أؤيدها في المعنى العام لكلامها، في المسحة الحزينة اليائسة التي تصطبغ بها كلماتها؛ في الفكرة السوداء خلف أقوالها؛ لولا أني انتهيت قبل ذلك إلى أنها متفائلة بالحياة أكثر مني وأن يأسي لن يدخل نفسها قط وأنها ستزيد من ثرثرتها المتشبثة بالتوافه وستسبب لي صداعاً. ثم إني أسلّي النفس هنا كما قلت، في بيت خالتي هذا العتيق، مع أبنائها وبنات ابنتها، وأنا، في ذلك، على حذر، أمسك بيدي على موضع الإصابة وأخفيه فلا يعود له وجود ظاهر، ويصير بالإمكان معاودة العيش السوي، ثم تتساوى الأمور كلها.

هكذا أنتظر، هكذا أنتظر؛ أو لعلي أتظاهر بأني أنتظر هكذا.

- ... بكركوك، شلون سنة حلوة فاتت علينا، مثل الحلم يا أمة محمد. ومصطفى أخوك وأولاده أحمد وسامان وزوجته بلقيس.. الله

يرضى عليها. مثل الحلم فاتت علينا. أكل ونوم يا أهل القوم. أوف يا بنتي!

- أنت كنتِ تريدين بغداد. قاعدة تطرقين راسي وراس مصطفى على بغداد.

- أي، ماكو عيب بهذا الشي يا بنتي. إحنا من أهل بغداد ونريد نرجع لمدينتنا. شكو بيها؟ أهلنا كلهم في بغداد. لاكت، قولي عن بعقوبة الخيرهاذي.. لا والله بعقوبة الشر.. شلون دخلت في القضية؟ قولي هذا.

وتضرب بيدها على فمها ضربةً ثم أخرى.

كرهت منها هذه الحركة أول مرة رأيتها تقوم بها. لم تكن ذات معنى عامي سمج غليظ فقط، بل تعدته، مع تكرارها، فصارت تتلون بقبح العمل السري الشائن. ثم أخذت تبثّ في قلبي، بشكل ما، رعباً أسود غامضاً تصاحبه أتعس مشاعر الشؤم.

وهكذا، حتى معها، لم أعد أفتح نفسي هذه الأيام. إني أخفي كلَّ اندفاعٍ نحو الخارج وأحاول أن أتعلّم الانكماش عن الحياة. وهذا كله أحسّ به ضد طبعي، لكنه يساير عادتي الأخيرة. ولذلك، عدت إلى تناول كتابي بصمت، أفتّش في صفحاته عن الضياع المريح.. هوايتي التي لم أتقنها بعد. سمعت ضوضاء تأتي من الطابق الأعلى وكلاماً تتبادله سها مع أختها وأمها. لعله الشاي أخيراً. لم أكن أقرأ. نظرت خلسةً إلى السماء، سماء الصيف الرائقة عصراً. تعالت ضجة أخرى ونداء باسمي فوضعت الكتاب جانباً. قالت والدتي:

- ما أدري شكو عندهم يصيحون هكذا.

ظهرت سها في الباب وهتفت:

- أبلة منيرة، يريدوك تحت.

قمت. علّقت والدتي:

- خير انشالله. يا غافلين ذكروا ربكم.

كلمتني مديحة، وأنا أسير في الطارمة، عن شخص قالت إنه جلب لي أمر النقل من بعقوبة. أليس هذا غريباً؟ وواتتني خفقة في القلب ثم أسرعت نحو السلم أهبطه. رأيت سناء تقف باستكانة قرب الباب الأوسط فمددت لها يدي وأخذتها معي. كانت ظلمة المجاز الطويل تخيفني دائماً. سرنا نحو الباب الخارجي بسكون. خطر لي، ونحن بين الحيطان العالية وسط المجاز، أن أعود أدراجي، تاركة لمديحة أو لأمي أن ترى مَنْ هناك. لعل في الأمر خطأً، ولست قادرة في كل الأحوال على التعامل الصحيح في وضع كهذا. لكن، قد يكون هو فرّاش المدرسة حسين؛ ثم إني سمعت كلاماً عن أمر النقل أو ما يشبه ذلك؛ وهذه الصغيرة سناء تمسك بيدي قوياً وكأنها تخشى ظلمة المجاز أكثر مني! فتقدّمت، بعد أن صار العناء مسوّغاً.

كان الباب موارباً فوقفت وراءه؛ يالهواجس الخوف الغريب، وأطللتُ ممسكةً بالمزلاج. الضوء الباهت كان على الجدار المقابل، والشخص الطويل الواقف قرب العتبة، بدا مبهم الملامح لي. سألته سؤالاً ما، عمن يكون كما أظن. لم يكن ملتفتاً نحوي، فاستدار حين تكلّمت، ولو لم أتكلم ما استدار. كنت أسأله ببراءة عمن يكون. لم أدرك المدى العميق الذي حاذيته آنذاك. واجهني، معتم التقاطيع، فتعرفت على العينين والشارب الأسود الطويل والحنك المربع. ليس في الأشخاص ما يهمّ، غير

تاريخ العلاقات؛ ولذلك فهم يحملون معهم رعب الماضي ووحشيته. كان ذلك الوجه ذو التاريخ، سكيناً باردة حادة انغرزت في أحشائي. ولم أدفع الباب وأنحرف مختبئة خلفه إلا ردة فعل غير معقولة لألمي. لم أكن مروّعة بقدر ما كنت متألمةً؛ أرتجف بوهن ولا أسمع غير الأصداء. وكان يضرب على الباب ويهتف بأشياء لا أعيها تماماً. لم أجد، تلك اللحظات، أي قوة في جسدي تمكنني من الفرار؛ وبقيت أنظر بغباءٍ إلى الورقة البيضاء المدعوكة تحت أقدامنا. إلا أنني لم أكن من السوء آنذاك بحيث يغمي عليّ. لن يلبث أن يمضي. لن يجرؤ على الدخول عنوةً. لن يجرؤ إلا أن يمضي. انتبهت أن الباب لا يزال مفتوحاً فجمعت آخر قواي ودفعته دفعةً قويةً وأنزلت المزلاج ثم ارتكزت عليه بظهري خافقة القلب. كرر ضرباته المجنونة بعنف. كنت أمسك بيد سناء الحارة وأذني يطرقها صوته الأجش المخنوق. ثم اهتزّ الباب هزةً قويةً إثر ما بدا لي رفسة من رجله. بدأتُ عند ذاك أحسّ بثقلٍ مفاجئ في تنفّسي. كأن حجراً ثقيلاً رهيباً حطّ على صدري. أخذت ضربات قلبي تبطئ وتبطئ والصوت المخدوش يقطع أنفاسي. كنت أتهاوى بسرعة وأنا واقفة أستند إلى الباب المسدود وأنظر إلى السماء. أنظر إلى شق السماء، طريق السماء المضيء، يبين لي بعيداً بين الحيطان السامقة، وقلبي تتناقص ضرباته وأنا أضغط على يد سناء وأتهاوى وأتهاوى...

... كانت معه في السيارة المنطلقة بجنون على الطريق الملتوي المحاط من الطرفين بأشجار البرتقال، ورائحة القداح تملأ أنفها وروحها وهي تهزّ رأسها مع الأغنية العاطفية المنبعثة برقة من الراديو. حدثها

ضاحكاً ولم تسمعه، فأخذ يهتف ويهتف وهي لا تسمعه. فتحت نافذة السيارة فهاجمها الهواء الربيعي الدافئ وتطاير شعرها حول وجهها. كانت سكرى برائحة الحياة التي تحملها نسمات القداح المعطرة. نسيت ساعات الصباح المزعجة في بيت أختها مليحة وصراخ الأطفال وتصرفات الأب الخرقاء وشكاوى أمها، ولم تتصور الخلاص يأتي بمثل هذه السهولة. همست في أذن عدنان تشكو له ضجرها وطلبت منه أن يذهبا إلى بستان أبيه على نهر ديالى. كان اليوم جمعة، والشمس تغني في سماء زرقاء تهلهل، حينما انطلقا خارجين من البيت خلسة. وسار هكذا بجنون يقطع الشوارع الضيقة والناس يتقافزون حوله حتى صارا في أطراف بعقوبة. وفي الطريق الخلوي ذي الحواشي الخضراء بدأت الأغنية ورائحة القداح والهواء المعطر. أسكرتها كل هذه الأشياء مجتمعةً؛ فلم تعد تسمع كلماته وكانت إجاباتها ضحكات مرحة تتبعها ضحكات أخرى. هذا هو ربيعها الثاني في بعقوبة. جاءتها مرة قبل سنوات ولم تلبث فيها غير أيام معدودة بقيت متألقة في نفسها مشبعة برائحة القداح. وها هي تعود إليها ثانيةً لتمكث فيها بعد أن نقلت إليها. لم تتصوّر أيّ شيءٍ قبل مجيئها هي وأمها ذات مساء حزين من أيلول السابق إلى بيت أُختها. كانت تعلم بغموض أن المنغصات كثيرة هناك، لكنها لم تُتعب فكرها بتقصّي عناصرها ودرجاتها. اتفقت مع أمها وأخيها بأن هذا هو الحل الوحيد لهذه السنة الدراسية، وتمنوا أن يكون حلاً وقتياً. وعدها أخوها بأن يكلم شخصاً ذا نفوذ يعرفه في كركوك، كي يتوسط لنقلها إلى بغداد. أغلق هو الراديو فالتفتت إليه فعاد يفتحه مقهقهاً. كان شاباً مكتمل النضوج أنهى السابعة عشرة من عمره

قبل مدة قصيرة، طويلاً بشارب وشعر أسود كثيف وعينين سوداوين حادتين. ولأنه كان مرهوباً في البيت، يخشاه أبوه على نحو ما وأمه وإخوته، ولأنه كان ذا أفكار غير واضحة يريد أن يقلب بها كل شيء، مالت إليه وأعجبها أن تكون خالته وأن تستطيع أن تتذكر طفولته وصباه وأن تسترسل معه في أحاديث ودية صميمية. أمسك بها من شعرها المتطاير وعابثها فقرصت يده بلطف ضاحكة. كانت الأشجار تندفع على الجانبين كطابور من المجانين لا ينقطع له آخر، ولم تكن تخشى شيئاً. تعودت سياقته بعد كل تلك النزهات والرحلات الخاطفة إلى بغداد. يسمعان بخبر فيلم جديد في إحدى سينمات بغداد، فينفلتان من الطوق العائلي بخفة ويستقلان السيارة طائرين مع الريح. ثم يعودان بعد نزول الظلام، ولا تزعجهما كثيراً كلمة أو كلمتان من أختها أو من أبيه. كانا يخشيانه في أعماقهما، وطالما ساءلت نفسها عن السبب. أهي علاقاته الحزبية أو مستقبله أو عنفه اللامحدود؟ وكانا يكتفيان بنكتة منه، حينما يشكوان من مصرف البانزين المرتفع. لا داعي لطبق واحد من أطباق الطماطمة التي ترد إلى علوة أبيه! استدار بالسيارة استدارةً حادةً فترامت على جهة وصاحت مذعورة وكان يغني. دخلا، تحت أشعة الشمس البراقة، طريقاً ترابياً ضيقاً فثار وراءهما الغبار وتقافزت بهما المقاعد. انتبهت إلى شخصه المتمرّد القلق أول وصولها. كانت العائلة كلها في كفة، وهو بمفرده في الكفة الأخرى. أخبرتها أمه، أختها، بأنه ترك المدرسة قبل سنة أو سنتين حين كان في الصف الثاني المتوسط. لم يكن يبدو عاجزاً عن متابعة دراسته، إلا أنه توقف عدة أيام بعد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم فعاد إلى البيت ولم يفكر بمدرسته

بعد ذلك. اشتغل مع أبيه في محله لبيع المخضرات، وأخذ يقضي وقته متنقلاً في السيارة حيناً وجالساً في المقاهي أو حاضراً بعض الاجتماعات الغامضة، أحياناً أخرى. ثم أخبرها أن لديه مسدساً يخفيه في مكان ما وأن باستطاعته أن يجلب رشاشة إذا اقتضت الحال. ناقشته مرة في بعض الشؤون السياسية، فلم تقدر أن تحكم بأن أفكاره طفولية. أحنقها ذلك فجرّت شعره بشدة معابثة دون أن تدري الدافع لذلك. ابتسم لها بلطف مبالغ فيه، وتوثقت صداقتهما. بدا لها معجباً بجمالها، يفرحه أن يسير معها في طرقات بعقوبة، أو يذهب بها إلى المدرسة أو السوق أو السينما أو إلى المحطة حيث يشاهدان القطار متجهاً، عندْ الغروب، إلى بغداد. وكان، في بيتهم، شديداً شرساً مع إخوته وأخواته، يضربهم لغير سببٍ أحياناً ويحتقر أمه ولا يعترف لأبيه بأية سلطة عليه. ولم تره، بمرور الزمن، يهتم إلا بأمرها، فأسعدها ذلك كثيراً وأثار غرورها. شعرت بسطوتها على هذا المخلوق العنيف، وكانت تسر بمعاتبته وتقف في طريقه أحياناً حين يهمّ بضرب إحدى أخواته الصغيرات. استنجدت بها أمه مرةً فركضت نازلة من غرفتها، وأسرعت تمسك ذراعه بقوة. وقف محمرّ الوجه كالوحش المتوفز، ينظر إليها بعينين ملتهبتين. كانت أخته الصغيرة تبكي تحت قدميه. التفت إلى يدها الممسكة بذراعه، ثم انصرف دون أن يقول شيئاً. رجاها بعد ذلك ألا تأتي إليه وهو في تلك الحال. قال، وهو يعضّ شفته، إنه لا يعرف ماذا يمكن أن يفعل أحياناً، وأنها يكفيها أن تناديه من بعيد. عابثته بجذب شعره الذي يعنى به. ردّ عليها مداعباً هو الآخر، لأول مرة. لوى ذراعها. أحست بيده قوية خشنة حارة فصرخت متأوّهة. كانا يشتركان، في

المطبخ، في إعداد الشاي للعائلة، عصر أحد الأيام بعد شهرين أو ثلاثة من قدومهم. أوقف السيارة أمام باب كبير في نهاية الطريق وقفز منها فتبعته وساعدته في فتح الباب ثم اندفعا راكضين داخل البستان. كانت الشمس حارة والهواء رطباً منعشاً والساعة جاوزت الحادية عشرة بقليل. تراكضت قبله على الممر الترابي، شاعرة بجسمها خفيفاً على غير العادة؛ كأنها تهمّ بالطيران، تمسّ بخفةٍ رؤوس الأشجار المهتزة مع الريح وتملأ كيانها بالشمس والحياة.

لم تكن تجد، آنذاك، حرجاً منه أو ضيقاً. كان قريباً إلى قلبها وكانت في غفلة عن نفسها. لم تتساءل كثيراً ولم تحاكم وضعها. كانت تتصرف وكأنها بمنجى، ولذلك لم ترَ معنى خاصاً في تماس جسديهما المتكرر أو في ودهما المتبادل الزائد أو في إعجابه المفرط بها. هنالك من موانع القربى والتقاليد والعمر والاحترام، الكثير. كانت بمنجى، غير مكترثة بأمارات الشهوة المختبئة تحت اليدين والكلمات والنظرات. وتقافزت، دون حذر، نحو دغل غير كثيف. كانت ترتدي بلوزاً أزرق فاتحاً وتنورة رمادية تنطولتهما كيفما اتفق: ضيقة قصيرة، لا تتذكر جيداً، وتركت شعرها خصلات تترامى على الكتفين، أشقر يميل إلى الصفرة. كانت تركض وتقفز، ثم تعود إلى الركض وتقفز فوق بعض السواقي الضيقة وهي لا تروم شيئاً غير أن تملأ صدرها بالهواء النقي المعطّر وتضرب بلا غاية أوراق الشجر بيدها، وكان يتبعها صامتاً. وحين توقفت، تعبى، تحت شجرة برتقال مليئة بأزهار القداح البيضاء، رأته يقبل نحوها مسرعاً. كان محمرّ الوجه ينزل شعره الأسود على جبينه وهو يحمل سترته على ذراعه، ولم تلمح في هيئته ما ينمّ عن شيءٍ غير

مألوف فيه. ضحكت بين أنفاسها المتلاحقة، فداعبها برمي سترته عليها. أرادت أن تبعدها قبل أن تصلها، فلم تستطع، وغطّت السترة وجهها ثم أحست بذراعيه يطوقانها. أزاحت القماش بسرعة عنها فرأت وجهه قريباً من وجهها. أنفاسه الحارة كالشمس تلفح بشرتها. نظرت إليه، لاهثةً متسائلةً، ثم نفخت في وجهه تعابثه. كانت خالية الفؤاد حقاً. عصرها إلى جسمه. صرخت به ونفخت في وجهه مكررة عبثها مرة أخرى. ثم استطال الزمن واستطاله كانا متلاصقين. شعرت بصدرها مضغوطاً على صدره وأنفاسها المتلاحقة تدفع نهديها بشدة نحوه. طلبت منه، أخيراً، أن يتركها. كانت منهوكةً، مثارة الجسم والعواطف. رجته ألا يزيد من تعبها وأن يتركها. كان يشدّها إليه بقوةٍ ويحاول أن يحتوي جسدها بفخذيه العريضتين؛ وكانت في شكٍّ من كل شيءٍ، مترددة في تقدير حقيقة الموقف. وأراد أن يقبّلها فأبعدت فمها عنه؛ وأحسّت حالاً، في موضع آخر من جسمها، بحركة منه تشير إلى حالة غريزته وما يضمره لها. دهشت قليلاً ولم ترتعب. خطر لها أن كلمة أخرى منها ستعيده إلى صوابه. ثم أرادت أن تتخلص منه وأن تقطع ذلك التيار الرهيب الذي يسري بينهما فدفعته عنها. دفعته برخاوة، مشمئزة بعض الشيء من الفكرة التي خطرت لها. ازدادت مقاومتها من التصاقهما ومن احتكاكه بأسفل بطنها. كانت أطرافها متشنجة وقلبها المتعب يخفق بقوة لم تعهدها. دار رأسها لحظة وهي تحدق، عن قرب، إلى عينيه المتوهجتين وفي فتحتي أنفه الواسعتين وتشم رائحة العرق في جسمه الحار. أمسكت بكتفيه تريد أن تكرر محاولتها للخلاص من قبضته، فشعرت بجسدها يهصر بعنف شديد وبفمه يلتصق بفمها. ارتجفت،

ارتجفت؛ ثم زفرت وتلقفت نسمة هواء تمنع عنها الاختناق. كانت، لحظتئذٍ، في كامل وعيها بما يجري لها. تسلسلت الأحداث سريعاً في ذهنها، فباغتها هلع زاد من ارتجافها. صرخت بشيء لا تتذكره، ثم ترامت فجأة تحت ثقله. كان، في ارتكازه عليها، قد سحب إحدى رجليها وهو يضمها إليه باستمرار. لم تشعر بألم السقطة على الأرض، قدر شعورها بعري فخذيها وبمهانتها وضعتها. إنها تعامل كبهيمة ملوثة بالبراز. تملكتها تلك الرغبة الجارفة التي لن تنساها بالبكاء؛ أن تبكي قهراً وحنقاً وذلاً. كان يرفع ملابسها فضمت ساقيها ثم وجّهت إلى رأسه المدفون في رقبتها، ضربة من قبضة يدها. تراجع قليلاً. رأته، رأته. وجه مجنون يقتتل طلباً للفريسة. صفعها ثم لطمها في حنكها. تراخى جسمها، تراخت لحظات دائخة بتأثير ضربته. انفتحت ساقاها بسهولة وأنزل ما تبقى من ثيابها وتُركت لها ثانية واحدة من الشعور العميق، العميق جداً، بما يحدث لها. كانت، بلا أمل، على مشارف الهاوية، أمام الانتهاء. تركزت حياتها كلها في هنيهات اندمج فيها عريها وبكارتها والدوار الوحشي في داخلها، فاستسلمت. ثم واتاها الرعب متأخراً، الرعب من كل شيء؛ من الظلال البعيدة ومن التراب الحار تحت عجزها ومن الشمس ومن السكين تشق أحشاءها ومن الزفرات المتشنجة ومن الدماء التي تصبغ اللحم المرتعش. صرخت وصرخت وصرخت. كانت تصرخ كي تبقي على حياتها، كي لا تجن؛ وكان مذهولاً أمامها، يلهث منحنياً ويحاول أن يخفي عورته الملوثة. لكنها لم تره، لم تعد تراه. خرج من عالمها دفعة واحدة وإلى الأبد. وكانت على الأرض المشبعة بدمائها، تصرخ يابسة العينين، تحت شمس الربيع وبين أشجار البرتقال الخضراء...

... وأتهاوى وأتهاوى أيضاً حتى أصل إلى القاع، فتأتي خفقة القلب التي تفصل الحياة عن الموت. نبضة صغيرة تتبعها دفقة من الدماء تتسرب إلى الشرايين فأعود، مرة أخرى، إلى هذه الدنيا المظلمة. كان زقاق السماء المتلامع بحنان فوق رأسي هو الذي أرجع إلى نفسي ترتيب المكان والزمان. تنفست كيلا أختنق. انتبهت إلى لمسة الأنامل الرقيقة. كانت سناء، بعينيها السوداوين المدورتين وفمها المزموم، تستعطفني؛ وكان الهمس المجنون المتقطّع والطرقات الخافتة، يخيفها أكثر مني. رأيت الورقة المدعوكة، كالشراع، على أرض المجاز السوداء. أسرعت إليها سناء فجلبتها لي. كنا على اتفاق في العذاب والخوف والهرب. وحين رأيتها تسير على أطراف أصابعها منخفضة الرأس كأنها تتحاشى سهاماً مسمومة تُطلق عليها، أدركت أن ألمها المجاني، فاق ألمي. أمسكت بها، في ظلمة المجاز، وضممتها إلى قلبي.

وعلى السرير، بعد ذلك، جلستُ غير منصتة إلى الضجة حولي في الغرفة الحارة، وغير مجيبة على أسئلة أمي وعمّة مدحت، أستجمع شتات نفسي وأفكاري. لقد أفرزت اعتباطاً ووضعت في مكان ما بين فكي آلة الهرس. كنت أرتجف قليلاً، شاعرة بالعرق البارد يتجمع على جبيني وقحف رأسي وصدري. لم يعد من الغرور والجمال والقحة، أي جدوى. كانت الشمس قد غربت فاستلقيت على الفراش والورقة مطوية في يدي. لست ضحية كما تقتضي التقاليد، ولا أنا ذبيحة مجهولة على جانب الطريق، ولا ريشة، كما يقولون، في مهب الريح. إني أحسّ بأني أجمع طرفاً من كل معنى من هذه المعاني. أنا ضائعة بين تعاسات وقذارات يجب ألا تُعلن. ولست أشكو، لأني لا يجب أن أشكو. وأفضل

ما أقوله لنفسي: إن ما تبقّى مني كان يمكن أن يدمر أيضاً. وهكذا تعلمت خلال وقت قصير جداً، أن أفكر بما تبقى لي وأن أعنى به. ولذلك شطبت على بعض العناوين الكبيرة في حياتي وبدأت أجرجر أطرافي المهشّمة كي ألحق بذيل القافلة وأمكث هناك؛ بين مثلومي النفس ومطعوني القلب، يمكن أن تعيش دون كبرياء أو مجد. ليس بينهم أي معنى لطموح البشر وللمستقبل. هنالك، تجد السعادات الصغيرة الرائعة أحياناً.

كانوا مجتمعين حولي، مديحة وابنتاها وخالتي أم مدحت وأمي، يسألونني في غبش الغرفة، عن الورقة المطوية بين أصابعي وعن الزائر المجهول وعن الشاي الذي لم أشربه بعد. جلست أواجههم وأمسح العرق، ثم حاولت أن أبتسم.

قبل سفرتنا إلى بعقوبة، تعوّدت أن أحسّ أني بمعزل عن العالم، وذلك بمعنى أن ما يخصّ الناس ويحدّد مصائرهم وأسباب معيشتهم، لا يمكن أن يؤثر في المستقبل الذي ضمنته لنفسي. لعل الباعث على هذا الشعور مجهول الأساس أو لا يمكن معرفته بسهولة؛ ولكني، اعتماداً على شكلي وراتبي، كنت أجد من حقي أن أثق بحصولي على شاب موسر مثقف ذي مركز، كزوج. لقد قيل لنا، من أفواه غامضة أحياناً، إن الزواج هو كل شيء في حياة الفتاة هنا، كخطة حياتية وكغاية. إنه يحوي الجنس المشروع والأطفال، ثم الأشياء الجميلة الأخرى، وكذلك الرجل. ولقد أحسنوا صنعاً حين كتموا كل الأشياء القبيحة التي ترافق هذه المشاريع. وقبل هذا، تركوا لنا أن نتمتع بالأحلام التي تتطاير عادة

حول هذه المواضيع. وتركوا لنا أن نأمل دائماً، إذ لا حياة بلا أمل. كذب فاضح. ما أكثر الحيوات التي تخلو من الأمل! وقد يبدو الأمر غير ممكن.. أن تعيش بلا أمل؛ إلا أن العادة والزمن كفيلان بكل شيء. وأنا معتمدة - فيما يخصني - عليهما وعلى تنظيم أخذت به نفسي من أجل أن أصل يوماً ما إلى الحالة النفسية والفكرية التي لن تؤثر علي فيهما إلا الأمور النادرة الوقوع، الخارجة عن التبويب الذي كنت أنوي وضعه قبل ذلك.

ولقد بدأت، خلال ساعات عزلتي الطويلة التي سبقت عودتنا من بعقوبة، بتقدير الضرر الذي لحقني والضرر الذي كان من الممكن أن يلحقني؛ فانتبهت أولاً إلى أن بقائي على قيد الحياة كان بمحض صدفة. كذلك كان الكتمان الذي خنق الحادثة وأحالها إلى طارئ غامض وقع لي ولا يعرف أحد كنهه أو فحواه. ولولا الحدس الأنثوي الذي تملكه والدتي تجاهي، ولولا بعض الأمارات التي لم أستطع إخفاءها، لأمكن أن تجهل كل شيء ولا تلم حتى بالصورة المشوشة التي كانت في ذهنها عما جرى. إنها لاتعرف إلا أن ابنتها قد أصيبت بشيء ما. مرض أو عاهة أو خبل، لا تستطيع التأكيد.

ثم إني، ثانياً، أفلتُّ من مصير علاقة الذكر بالأنثى، وطرتُ فرحاً وبكيت طويلاً عند مجيء العادة الشهرية بموعدها ونزول قطرات الدم الأولى. يا للدم من مؤشر متطرِّف في شؤمه وتفاؤله!

وكان ذلك فاصلاً حقيقياً لما انتهى ولما يجب أن أبدأ به.

هيأت نفسي ووالدتي لعملية فرار غير متوقَّعة منه، فرجوت مديرة المدرسة أن تساعدني باستلام دفاتر الامتحان والدرجات مني قبل غيري

من المدّرسات، وأن تتركني أعود إلى بغداد بتاريخ مبكر. وهكذا، بعد ظهر أحد الأيام من أواخر مايس، تركنا بعقوبة خلفنا. كان الهواء بارداً رطباً يأتي من البساتين مثقلاً برائحتها، وكنت أريد أن أترك كل شيء في هذه المدينة المنحوسة.

لم أنظر ورائي ونحن نجتاز الجسر لنواجه الأفق والطريق الأسود الملتوي الممتد أمامنا. كان الموت هناك والذل والعار، ولم يخطر لي أني بحاجة إلى كل هذه الأشياء. ولكني مسحت دمعةً متحيرةً ونحن نبتعد وتختفي الخطوط الخضراء خلفنا. تذكّرت بعض الأغاني والملامح والأجواء، والقليل القليل الذي بقي لي من حياتي.

ووصلنا إلى بغداد عصراً؛ وصلنا إلى تلك المحلة القديمة «باب الشيخ» والبيوت العتيقة والأقرباء الودودين. لم نكن قد زرناهم منذ أشهر، إلا أن الحب لم يكن مفقوداً بيننا. وخلال جلسة الشاي في الإيوان، أحسست كأني مغمورة بمثل دفء الشمس بعد برد الشتاء. كنت بشكل ما، في مأمن. أخبروني عن مرض ابنهم عبد الكريم، فقمت معهم ألقاه وأحادثه وأتعاطف معه. وعلى المخدة، في الغرفة المفتوحة النوافذ، تركت عيناي، قبيل النوم، أثراً من دموع ذرفتها لأسباب أخرى. لن ألقى الموت، على الأقل، هنا. وخلال نزولي من السطح فجر أحد الأيام بعد ذلك، خطر لي أنني إذا وضعت في حسابي ألا حق لي في أي شيء، وأنه كان علي أن أموت قبل ذلك، فإن نسمة الهواء البليلة التي أشمّها وأنا أقف هكذا بمفردي وسط الدار الخالية، هي بحد ذاتها سعادة صغيرة من نوع خاص. سعادة المتخلّفين عن القافلة، المتروكين لأنفسهم. أولئك الذين يرون الشمس حقاً والأزهار والطيور والقلب الرحيم.

وكذا كان، من تلك السعادات الصغيرة، حديث هذه البنية الساحرة سناء معي، صباح كل يوم ونحن نتناول فطورنا الجميل.. جبن وخبز ونعناع، تحت شجرة الزيتون. وساعات الكتب التي أقرؤها في الغرفة الهادئة، دون رقيب علي. واجتماع العائلة عصراً في الإيوان لشرب الشاي، وأنا بينهم، ملحوظة أو غير ملحوظة، لا أدري؛ ولكن مفتوحة النفس سعيدتها. ثم التطلع المستديم اللامنقطع إلى السماء والنجوم فوق رأسي، في السطح الواسع المتلاعب الهواء، على الفراش البارد. والاستماع إلى أحاديث العجائز المبطنة، والتظاهر بعدم الاكتراث. حتى تلك المهاجمات الطفولية من قبل عمة مدحت، لم تكن لتضير في شيء.

في ضحى رائع، بعد ورود أمر النقل بأيام، كنا أمي وهي وأنا، في غرفتهم التي لم تصلها أشعة الشمس بعد. كانت قد أفطرت وأرسلت جدتي أمّ حسن في مهمة غامضة إلى المطبخ، وكنت أقرأ مضطجعةً على السرير، حينما سمعتها تكلّم أمي:

– أم مصطفى، أقول، بعقوبة غالية؟ يعني المخضر، البيوت، المعيشة؟ مثل بغداد عجبا؟

– لويش دتصير مثل بغداد؟ مصخمة وملطمة آخر. هي ولاية لو قبر. تريديها تصير غالية هم. هي أكو بيها شي مال أوادم؟

– الله أكبر. شلون قاعدة بيها بنتك أم عدنان لعد؟

– نصيب عيني. ليش أنتِ ما تعرفين؟

– لا والله ما أعرف. الله هو أعلم العالمين.

فترة سكون. انقطعت عن القراءة. عادت عمّة مدحت تتساءل:

– أقول، ما كان أحسن لكم لو باقين هناك؟ شكو عندكم في بغداد

المشؤومة هذي! يومياً طاك طيك. ما تعرفين في أي وقت تعيط العيطة. كان تبقون في بعقوبة مرتاحين، ماكو واحد يتعرض لكم أو يقول على عيونكم حاجب. تمام؟

صمت طويل. أنزلت كتابي. سمعت والدتي كأنها تحدّث نفسها:

- إيه. اليدري يدري، والما يدري قبضة عدس.

فحدجتها عمّة مدحت بنظرة حادة وهمهمت:

- أي يعني، أقول. لازم أكو شي.

- لويش لازم أكو شي؟ واحدة من البنات كان حظها أسود، إحنا شنو ذنبنا عيني؟ مكتوب علينا يعني نعيش عيشة الظلم هذي طول عمرنا؟ يعني فوق حقه.. تضربه؟ الله ما يقبل. واحد يخلّي أمامه.. أكو جنة وأكو نار.

- الله أكبر. الله أكبر. اللهم ادفع عنا... ما أدري شلون الآية. شنو القضية أم مصطفى؟ أكو شيء؟ شنو هو؟ احكي عيني؟

نال مني لحظة دوار في الرأس فاعتدلت قاعدة في الفراش. نظرتا إليّ ببعض الدهشة. لم يعد حديثهما ممتعاً. قلت:

- عمّة، أمر نقلي لبغداد صدر وانتهى كل شي. لويش بعد هالحكي والسؤال والجواب؟ قابل إحنا من أهل بعقوبة خاطر نسكن بيها؟ شكو عدنا هناك؟ إحنا من بغداد وكل أهلنا هنا ولازم نرجع لهنا.

- اي عيني منيرة. محصنة. شلون حلو تحكي دادة. بس هذا الرجل زوج خالتك أم مدحت، تره ما عنده شي، وأنتم تعرفون هذا. لا فلس لا بارة. وهذولة أولاد خالتك.. رجال! والناس، غضب الله عليهم، ما يسكتون عيني. وهاي محلة «باب الشيخ» تره مو مثل قبل. كل أهلها

وأشرافها تركوها عيني. بقوا فيها اللي ما يخافون من ربهم. يحكون بالصدق وبالكذب. وأنتم، يا عيني، شكو عندكم هنا؟ يعني ضيّعتوا شي في «باب الشيخ»؟

أردت، لغير سببٍ ربما أو لكثرة الأسباب، أن أداعبها:

- يعني، عمّة، إذا إحنا مضيعين شي، نقدر نلقيه أباب الشيخ؟

فرفعت ذراعها وأنزلتها وهي تهتف:

- يبوه، على حظ اللي يدوّر عيشة أباب الشيخ! يبوه عليه والله يساعده ألف مرة.

تصدّت لها أمي ببعض الشراسة المفاجئة:

- لويش هالحكي صفيّة؟ ما يصير نقعد كم يوم ابيت أختي؟ شنو هالحكي منك؟ أشو انتي هواية فايتة بيها؟ القاضي راضي، أنت شعليك يا عيني؟

قمت خارجة وعمّة مدحت لاتزال ساكنةً تنظر متفحصةً في وجه أمي وهي بين الشك واليقين في تقدير معنى كلماتها. انقلب الجدال إلى تحقيق للنفاذ إلى الماضي وهو ما أكرهه. لم تخفني شخصية عمة مدحت، بل غريزتها. إنها تنثر علينا الحقائق المرة مثل المطر الملوث. الرجال والأنثى الخالدة! أليس غريباً هذا المقدار من الصحة في أقوالها؟

ولكن من شروط حياتي الضيقة التي أخطط لها أن أعدّ كلمات هذه العجوز، التي لم أحببها، هراءً يجب أن تأخذه الريح.

شعرت أول ما رأيت ابني خالتي أنهما شابان ناضجان لا ينفع أن نتذكّر الماضي كي نحيلهما إلى صبيين أحمقين. لقد كبرنا وتغيرت بالضرورة مستويات العلاقة بيننا. وهذه الحقيقة أدركتها جيداً، ولم أرد

أن أفسر، بعد ذلك، أي شيء. لا النظرات ذات المعنى ولا الابتسامات ولا الكلمات الخاصة ولا الانعطاف الظاهر منه. كنت ناقهة من مرض مابرح يتخايل لي مرة أخرى، وكنت أستطيع أن أتحمل عدم التفسير هذا فترة من الزمن. إلا أن اقترابه مني وصل إلى حد التماس والالتصاق الجسدي، المتعمّد وغير المتعمّد، في ذهابنا معاً كل صباح إلى العمل وفي أثناء حياتنا اليومية الضيقة في البيت الكبير. وكان يجب أن أفعل أمرين متتالين: أن أصارح نفسي بحقيقة ما يجري وأن أصمم شيئاً بعد ذلك. ولم أفعل أياً منهما. وكان جذلي لمرافقته لي في ذهابي إلى المدرسة ينمسح سريعاً بقلق أسود يطفئ كل شيء. كنت مغلوبة بطريقة ما، ولم أكن أريد أن أتصرف. ألست فتاة هذا البلد، المعلقة دوماً بين الموت والعهر؟

ثم كشف لي عن وجهه ووجهي، ووضعني، على حين غرة، عارية أمام المرآة. كانت البداية في سيارة الأجرة التي اندسسنا فيها متعجلين قرب السائق. قال إنه قطع لسناء وعداً بأن يذهب بها عصر اليوم إلى السينما. كان يهمس بأذني، في ذلك الصباح الخريفي الجميل، لأول مرة. ولم أجبه إلا بابتسامة حرج، أو هكذا أردت، فوضع ذراعه حول المقعد خلفي، كأنه يريد أن يحميني من السقوط. كان يمسني بأنامله، في كتفي اليمنى، وبساقه في أعلى الركبة اليسرى. شممت رائحة دواء الأسنان المعتادة وشعرت بدغدغة بسيطة في أذني التي يهمس بها. لم يكن لدي مجال للالتفات إليه فاستوضحت منه عن علاقتي بهذا الأمر وأنا لا أزال محرجة أبتسم. قال إن سناء رفضت الدعوة بدوني، ولذلك فإن تحقيق المشروع متوقف عليَّ الآن. شعرت ألا بأس في هذه الدعوة المغلفة

للخروج معه، ولم يخطر لي أن أرفض حالاً. كنت أود الذهاب للترويح عن نفسي أولاً، ثم أني لم أجد، في الوقت المناسب، صيغةَ الرفض الملائمة لأقولها له، ثانياً. كذلك لم أدرك بشكلٍ خاصٍ تلك العلاقة الغامضة بين كتفينا المتلامسين وذهابنا إلى السينما، وبين ابتسامات خالتي ومديحة وأبي مدحت. وخنقت هاجساً بأني أكتم عن نفسي أموراً أفهمها أو يجب أن أفهمها، وتصورت أني أستعجل الخوف بعض الشيء وأقصده في الأمور التافهة اليسيرة. إلا أنه حين مال علي قليلاً في ظلمة السينما الخفيفة يسألني عن رأيي في قضية صديق يود أن يفاتح إحدى الفتيات برغبته في الزواج منها وهو حائر بين أن يكلّم أهلها أو يكلّمها شخصياً، علمت أني كان يجب أن أرفض دعوته. غاض دمي رعباً. يا إلهي، أي رعب تملكني من هذه الكلمات المهموسة بكل رقة! بقيت واجمةً، أتطلّع إلى الألوان تتحرك على الشاشة البعيدة. خُيِّل إليَّ أنه كان ملتفتاً نحوي. لعله ينتظر جواباً؛ ولكن، أي جواب؟ كلّمتُ سناء متشاغلةً عنه. كانت تجلس في المقعد الأمامي من المقصورة وقد اندمجت في حوادث الفيلم. أجابتني بسرعة ورجعت إلى اندماجها الأول. شعرت به يقرب كرسيه مني، ثم يعاود الإلحاح. لم يكن هناك مجال للتهرّب من أسئلته ذات المظهر البريء. أجبته لماذا يتصورّني قادرةً على إبداء رأي سديدٍ في مثل هذه الشؤون؟

عاقلة. متزنة. مثقفة. ذات نظرة مختلفة. قلت له، وأنا أبلل شفتي، إن من الأحسن لصديقه أن يتبع ما تفرضه التقاليد، ويتقدّم إلى أهلها بطلب يدها. ثم ندمت. لعلي أستطيع الفرار منه بمفردي، أما أن أجد معي والدتي أو أخي، فذلك ما لايطاق حتى التفكير فيه. أسرعت

أكلّمه. إلا إذا كانت الفتاة واسعة الأفق، حديثة الأفكار ومجربة، يمكنه عندئذ أن يتوجّه إليها شخصياً وأن ينتظر جوابها وأن يفهمها. كنت أتحدث هامسةً مثله، ومن زاوية فمي اليابس وأنا نصف ملتفتة إليه. ولم يهدأ قلبي ولا ضرباته المجنونة ولم يفارقني هاجس الرعب؛ وحمدت الله لأن كل ذلك يحدث في هذا المكان وعلى هذه الأضواء الخافتة المتراقصة. ثم رأيته بغموض يتحرك وأحسست بيده تمسك ذراعي الموضوعة على مسند الكرسي. سيطرت عليَّ الحيرة لحظات. كنت متحيرةً مرتبكةً أكثر من كوني مضطربةً محرجةً. ماذا يجب أن أفعل الآن؟ هل أتظاهر، ككل الفتيات، بأني لا أحسّ شيئاً؟ أم أستوضح منه أو ألتفت إليه أو أسحب نفسي أو... لكنه عاد يهمس متسائلاً: ألأنا، على العموم، ضد الزواج؟ التفتُّ ناحيته. كنت مندهشةً بعض الشيء. بدا لي وسيماً، ينعكس الضوء في عينيه وشعره، وعلى فمه ابتسامة تجذب النظر. أدهشني أن هذا الشاب الأنيق يتقرب إليَّ ويحاورني بمثل ذلك اللطف! كان وجهه ملوناً مضيئاً سعيداً. لم أرد أن أجيب، فاستدرت عنه. ضغط على ذراعي برفق. همست أن لا علاقة لي بالموضوع. لماذا؟

كنت قد هدأتُ قليلاً خلال لعبة الكلمات هذه فلم أسرع بالجواب. لبثت أتطلع إلى الشاشة وأنا أحسّ بضغط يده وبنظراته موجّهةً إلي. لماذا يعتقد أن لي، من دون الناس أجمعين، علاقةً بالزواج؟ ولكن القضية ليست أن تكون لك علاقة بالزواج أم لا؛ القضية هي أأنت ضده أم معه؟ هل يهمّك أن يتزاوج البشر وأن يتحابوا وأن ينجبوا؟

ولم يبقَ لي أن أجيب بالنفي، لاسيما أن الإيجاب لم يعنِ شيئاً بنظري. قال إنه معي في هذا الموقف وإنه يؤيدني من كل قلبه. ضحكت

فجأة. شعرت بأية طريقة ملتوية يسوق عروضه ويقدمها لي دون أن يبدو أنه يتقصّد شيئاً أو يتعمّده. تضاحك معي فالتفتت إلينا سناء تمطرنا بأسئلتها. سحبت ذراعي من قبضته وتراجع فعاد وضعنا طبيعياً.

أخذتُ عدة أنفاس عميقة. لعلي أخطأت حين ضحكت، أنا المدمّاة. إن الضحك يترك لهذا المتغزِّل الجاد أن يتصوَّر أن فريسته تفتش عن الشباك لترميها على نفسها؛ وهو، يا ربي، أول علامات الاستسلام والرضا.

انزويت صامتةً في كرسيي، بعيداً عنه قدر المستطاع. لم أكن حزينة؛ كنت، بطبعي، أقرب إلى تقبل المرح والبهجة المطلقين؛ إلا أن الصخرة، التي اخترتُ أن أستسلم لها، كانت تشدّني إلى القاع وتبعدني عن الدفء وعن الحياة وعن الجنون الطيب. ولم يكن بودي بعد، أن أترك كلَّ شيءٍ دون حسرةٍ.

تابعنا الفيلم حتى نهايته بغير أن نتبادل غير بضع كلمات، وخرجنا مع الجمع الكبير. كان يمسك بي خلال ذلك كلما سنحت له الفرصة. حاولت أن أتجنب ما أمكن هذا التماس معه؛ إنه يبعث فيَّ توجساً وانشداداً في الأعصاب غير مريح. ولم أتعوّده رغم تكراره منذ أكثر من شهرين. ضربت وجوهنا نسمات الليل الباردة حال خروجنا إلى الشارع المزدحم. أراد أن نعود بسيارة أجرة فاعترضت لكنه أصرّ، فركبنا إحدى السيارات الواقفة. لم تترك لنا سناء أن نتكلم في طريق العودة إلى البيت، وبدا لي راضياً عن ثرثرتها. كنت سعيدةً لانتهاء الفيلم والأحاديث ذات المزالق. وحين وصلنا إلى بداية طريق البيت المظلم ونزلنا، سمعت ساعة الجامع تدق عدة دقات بطيئة رخيمة. سبقتنا سناء

بخطواتها القصيرة السريعة. كان الدرب خافت الضوء تبدو جدرانه متمايلة. قال فجأة بصوت غير مضطرب:

- راح تعطيني جواب.. منيرة؟

وكان يسير بخطوات وئيدة وهو ملتفت إليَّ. تسارعت، في الحال، دقاتُ قلبي:

- أي جواب؟

- يعني ما فهمت علويش كنت دا أحكي.. بالسينما؟

عاد الرعب يختلط مع أنفاسي:

- لاع، العفو.

- ولا... الآن؟

- يعني شنو مدحت؟

- يعني ممكن.. تقبلين.. فكرة الزواج.. مني؟

تلعثم قليلاً وهو يطلق كلماته الأخيرة. كان قلبي يخفق في صدري وفي فمي وفي أطراف قدميَّ. شعرت بوخزةٍ في مكانٍ ما من رأسي، وسحبت العباءة التي أستر بها بعض وجهي. رأيت أننا على مبعدة أمتار من البيت وسناء تقف على عتبته تحت الضوء الشاحب تنتظرنا. كانت تبدو بعيدة عنا، في نهاية الأفق يا إلهي. لو لم أتركها تسبقنا لما أمكنه الكلام.

بقيت أسير صامتةً كالمومياء. تعثرت مرتين قبل أن نصل إلى قرب الباب. هتفت سناء تحدثنا عن المجاز الطويل وعن خوفها من العقارب ومن الدخول بمفردها. ثم أمسكت يدي بقوة.

دخلنا ثلاثتنا بسكون. كانوا ينتظروننا بشوقٍ في البيت كأننا غبنا

أعواماً. رأيت مدحت يبتسم وهو يسألني بحضور والدته عما إذا كنت جائعةً. أجبت بالنفي وكنت مرتجفة الجسم أود أن ألقي نفسي على الفراش. سألتني والدتي عن سبب تأخرنا فلم أجبها.

جلبوا لي طعاماً خفيفاً وأنا مضطجعة في غرفتنا. أخجلني هذا الاهتمام الزائد وشكرت مديحة عدة مرات. كنت مضعضعةَ الحواس لغير سببٍ واضح ولم أشعر برغبة في النوم أو بتبديل ثيابي رغم ما كنت أحسُّه من إرهاق. قيل لي إنَّ عبد الكريم يسأل عنا. كريم؟ كريم؟ هذا الإنسان المعذَّب بتصوراته، الذي تمرضه الحياة والذي يشبهني؛ أيمكن أن أجد عنده كلمة مريحة، إشارة، جواباً لسؤال غير مفهوم؟ قمت أقصد غرفته خاليةَ الذهن، وليس لدي غير أن أراه. كأن المعجزات تحدث حين ننتظرها!

تذكرت حال امرأة في فيلم رأيته مصادفةً قبل سنوات. مخلوقة مسكينة من إحدى القرى الإيطالية، حُرمت العطف والاهتمام طوال حياتها، فلما وجدتهما في شخص مهرج ظريف، قتله زوجها أمامها. لم أتذكر شيئاً كثيراً من الفيلم، لا اسمه ولا حتى سحنات أبطاله؛ حالتها هي فقط بعد مقتل المهرج. انكسر شيء ما في داخلها وبدا عليها أنها انطفأت فجأة، وأن ما يظهر منها هو نفحات الحياة الأخيرة. ثم تراجعت عن مشاركة زوجها في عمله وسقطت مريضةً؛ وكانت خلال ذلك كله تئنّ أنّات قصيرة ناعمة متباعدة ولكنها مستمرة. أنّات محتضَر، أنّات رفضٍ للحياة. تبدأ ساعة استيقاظها وتمتد على مدى النهار والليل. تذكرت حال تلك المرأة، حين وعيتُ تنهداتي المتكررة أنا الأخرى. إنها تأتي حين

أخلد إلى نفسي. لا يهمّ الزمان أو المكان. في الباص المزدحم وأنا عائدة من المدرسة؛ خلال اضطجاعي قبيل قيلولة الظهيرة؛ وحين أحرك الملعقة في قدح الشاي حركات لا نهائية. وفي الليل، في أوله ومنتصفه وعند الفجر، تأتيني التنهدات، تفرج عني بشكلٍ ما، هذا الصوت الأخرس، ما معناه؟ أهو حديثُ الروح؟

كنت شبحاً فاجأه ضوء النهار؛ لا أحب وحدتي ولكنها ملجئي الأخير. لأني كنت مطاردةً من الجميع، تضغط على نفسي رؤية أمارات ذات معنى في حركاتهم وكلماتهم ونظراتهم. كانوا يسألون سؤالاً واحداً تلبّسهم ولوّن هيئاتهم بلونه. لماذا لا أجيب بالإيجاب، لا أنخرط في سلك السبحة، لا أنزل إلى ساحتهم البشرية السوية، لا أوافق بسرعة وأحيا معهم؟

وكان هذا أشقّ علي من تلك الأيام المريرة في بعقوبة، حين كنت أنهزم من الظلال وأبحث عن الظلمة تحت الشمس وأناور وأحاور كي أبقى على قيد الحياة زمناً آخر. كنت موقنة آنذاك أن حادثة البستان لن تتركني أعيش فترةً طويلةً وأن شيئاً ما سيقضي علي بغتةً. تبدل جو المنزل الكبير المليء بالفوضى وتركز في دائرة صغيرة لا تتعدى تجميع الأسباب لزيادة الحقد الذي توجّه نحوي. لم يبن لي بوضوح كيف استطاع ابنهم ذاك أن يقنعهم بأني صرت عدوته اللدودة بين ليلة وضحاها؛ فلجأت إلى غرفتنا البائسة الحارة بعذر المرض. وكانت أمي تحمل إلي الطعام وتسجن نفسها معي ناسيةً كل شيء إلا حبّها لي. وكنت أحسّ أني على وشك أن أفقد عقلي، حين أعود من المدرسة لأجلس في عتمة الغرفة، متكومةً على جانب من السرير، أتفصد عرقاً وأتوجّس كل حركة

في الخارج. وهاجمني في اليوم الخامس أو السادس، عندما غادرتني أمي لقضاء حاجة ما. لم أعرف بالتحديد ماذا أراد مني. فتح الباب ووقف في العتبة ينظر إليَّ صامتاً. كنت أدفن رأسي بين ذراعي وأمسح بعض الدموع. لم أر ملامحه جيداً. اقترب مني مسرعاً، مثل مَنْ يريد أن يلقي بنفسه في هاوية أو مثل من يروم تقبيل قدميْ حبيبته الميتة. وأرعبني الظل الأسود والذكرى الدامية، وكنت على شفا الجنون فصرخت به، صرخت به، صرخت به. ولم يسنح له الوقتُ ليسترجع أنفاسه أو يرفَّ له جفنٌ. تراجع مفزوعاً يردّد كلمات لا معنى لها، وخرجَ وبقيتُ أنظر في الفراغ بين دموعي وأنفث من صدري عويلاً ولا عويل الذئاب الجائعة. وزاد كرههم لي وانقطعتُ عنهم وشعرت أن المخرج هو في أن أقاوم كي أبقى سليمةً العقل وعلى قيد الحياة. وساعدني على ذلك أني اتخذتهم لي أعداء أتربص بهم وأناكدهم كما يتربصون بي، وأبدي لهم الجفوة والاحتقار.

كنت حينذاك أتجه لإنقاذ نفسي بمرور الوقت؛ ولم أكن أتنهّد ليل نهار مثلما أفعل الآن وأنا أشعر أني أتوجه بمرور الوقت نحو مشكلتي، نحو الباب المغلق الذي يعلقون مفتاحه في فمي. لم يتجنبني من أهل البيت غير مدحت ووالدته خالتي؛ هما اللذان كانا يعتقدان أن جوابي يجب أن يكون لهما وأن مضيّ الأيام يضعهما في مأزقٍ غير مريح. لكنهما لم يقولا لي ذلك. أبعد مدحت نفسه عني قليلاً وخفف من تعقبه لي وكنت شاكرةً له ذلك. إلا أن خالتي أم مدحت لم تقطع شكواها المريرة المنبعثة من عينيها المتعبتين. كان سلامها وحديثها وصمتها وضحكها القليل وانشغالها، محاطين بنظرات تتحدث بلغةٍ واحدة: ابنتهم العزيزة

التي تسيء إليهم.. دون سبب.

ثم أدركت يوماً أني لا أسير بتفكيري على مستوى واحد وبخطٍ مستقيم. إن أفكاري، المختلطة دوماً بالعواطف، تلتفّ حول نفسها ولا تتحرك إلا لمسافة ما لا تقرّبني من الهدف. إني أعيش حالةً نفسيةً وذهنيةً ذات حدود وأوصاف معينة، دون أن أفيد من المعطيات الواقعية كي أقرّر شيئاً. أنا أدغدغ مواطن الكآبة فيّ كمن يكرّر، بلذة، لحس جراحه؛ كأني أملك كل وقتي وعالمي. وحديث أمي الهامس معي ذات ليلة هو الذي وضعني أمام صورتي هذه. كنت في فراشي حوالي منتصف ليلة من ليالي تشرين، لا أفكر بشيء كالعادة ونفسي غارقة فيما يشبه مياهاً غير منظورة من التعاسة والسوداوية، وكانت أمي ترقد ساكنةً على الأرض قربي في غرفتنا مع جدّتي وعمّة مدحت. حينما سألتني فجأةً:

- ليش هلقد دتتحسرين يا بنتي؟

توفزت وكتمت أنفاسي. عادت إلى حديثها بصوتٍ خافت:

- أنت عاقلة يا منيرة يا عيني، وآني تركتك على فكرك. بس أنت بقيت لي، وأنت تعرفين راحتك ومستقبلك. بس لا تؤذين نفسك هالشكل. المكتوب علينا لازم نشوفه، احنا الاثنين مقطوعين يا بنتي.

كان العالم، تلك الليلة، ساكناً من حولنا وهمساتها المتذبذبة النبرات تخمش قلبي. إنها لم تكلمني هكذا من قبل. كانت بجانبي، ألجأ إليها فتسندني وأشعر بدفء حنانها يبعث فيّ القوة. لكنها لم تكن معي في أزمتي. كانت تعرف أن أهميتها كمرشدة لي قد تضاءلت بحيث لم يعد أمامها أن تبدي أي رأي مسموع. وكنت أراها تمسك

نفسها لئلا تتكلم أو يزلّ لسانها، وكنت أراها تتألم لألمي.

تنهدت طويلاً. إنها تضع إشارات الطريق بحدسها. سألتُها كأني أسأل نفسي:

- ليش مقطوعين، ماما؟ ليش؟ شنو اللي صار بالدنيا؟ راتب عندي آني، وأنت راتب التقاعد. لويش مقطوعين؟ ما نقدر نعيش هالشكل.. آني معاك؟ لازم يعني.. لو زواج.. لو نموت؟

- لا عيني، لا. اسم الله عليك. لويش دنموت بنتي؟ لاكت أقول كل واحد مشغول بنفسه بهالدنيا، واحنا بوحدنا، إلنا الله. مقطوعين من شجرة.

وهكذا عندما تبدأ بإعادة كلماتها ومعانيها أدرك عبث مجادلتها أو فتح الحوار معها. ليس في ذهنها غير فكرة واحدة تتكرر وتتكرر، وهي رغم هذا لاتترك في نفسي أثراً. أشعر أني أصير بكل كياني ضدها. إلا أن المعنى الغامض الذي كانت تحتويه أقوالها، قوّته كلمات رقيقة لم أتوقع صدورها ممن صدرت عنه. كانوا، ذات مساء، بعد ذلك بأيام، مشغولين بضيوف من النساء الأقارب جلسن في إحدى الغرف. ساعدتُ مديحة في نقل الشاي والأكل لهم من المطبخ، ثم حملت قدح شاي وقطعة بقسماط إلى أبي مدحت في غرفته. كان جالساً أمام الباب المفتوح، يعبث بمسبحته. ابتسم ابتسامةً عريضة بانت معها أسنانه الصفراء تحت الشارب الأشيب. كانت طيبته اللامحدودة تسبغ عليه وعلى حركاته صبغةً من البراءة الطفولية غير المفهومة. شكرني بكلمات فخمة أخجلتني، ثم تابع حديثه بودٍ عميق وهو يراني أريد أن أنسحب:

- منيرة، بنتي، عندي فد كلمة صغيرة معك.

وقفت قرب الباب محرجةً وأنا أمسك الصينية خلفي. رأيت جفن عينه اليمنى يرتجف لحظةً وشفته السفلى تلتوي قبل أن يتكلم:

- حكاية زغيرة ما دا تسمح الظروف أقولها إلك.

وضع مسبحته وتناول قدح الشاي:

- أريد منك تعرفين.. وتتأكدين يعني..

وبدأ يحرك الملعقة بسرعة غريبة:

- هذا البيت بيتك وبابه مفتوح گدامك. لاتقولين صار ما صار، أرجوك تذكري حكايتي هاي. هذا البيت ما تنسد بابه گدامك.. أبداً.

ثم ابتسم، كأنه يعتذر، ابتسامة الأطفال البريئة. تركته وأنا أتمتم بكلمات شكر لم أتبينها جيداً، ووقفت في الإيوان الفارغ بمفردي. هنالك جلست على كرسي في زاوية مظلمة وأجهشت باكية كما لم أبك منذ زمن بعيد. كانت دموعي تتساقط بهدوء وأنا أنشج واضعةً يديّ على عينيّ. لم أكن بمثل تلك الدرجة من التعاسة واليأس والوحشة. إنه الانكشاف المؤلم لضعة النفس وتفاهتها. لا طريق مفتوحاً أمامي، ولكن لاسبيل للنكوص. كانت كلماته تتمة للمعنى الذي أرادت أن تنقله إليّ والدتي. نحن، المقطوعين عن العالم، الذين لايملكون من مصائرهم غير أن يشاهدوها تحدث لهم، لا مجال لنا أن نختار. يمكننا أن نتظاهر بغير ذلك، إلا أن الحقيقة تبقى: إننا نحن المنقطعون المكرَهون.

كانت سماء الغروب، في تلك الأمسية الحزينة، تلمع صافية نقية. بدا لي الحوش مظلماً مثل هاوية لا قرار لها. كنت فارغة القلب، خففت عني بضع دميعات سفكتها مصادفةً. رأيت سناء تقبل من جهة السلم فناديتها ورجوتها أن تجلب لي كأس ماء. كانت ضجة الضيوف عالية

مستمرة وكنت أحس وجعاً في رأسي. أجلست الصغيرة قربي وشربت قسماً من الماء الذي أحضرته ثم غسلت وجهي ومررت بيدي المبللة على شعري. كانت سناء تراقبني مسحورة بحركاتي فعابثتها برمي قطرات من الماء عليها. سألتها عن خاليها فقالت إنهما خرجا قبل قدوم الضيوف.

خطر لي أني لو كتبت كلمة إلى أخي مصطفى أخبره بإبهام عن وضعنا الحالي لأمكن.. ولكن ماذا؟ ليست لديّ قوةٌ للنفاق والمخاتلة رغم أن الجميع يتوقّعون مني ذلك، لأنها عادة الفتيات. ثم أن أخي لن يقول لي شيئاً جديداً مادام لايعرف كل الأشياء. لن يقول أحد، في العالم طراً، شيئاً لا أعرفه أنا.

ولكني لا أفتش عن كشف جديد، ويجب أن أعلم ذلك. لقد تهشّم منظاري للأمور وتناقضت عناصر الحياة أمامي. وما بي الآن، كما أعتقد، هو حاجة مميتة لرؤية مستقيمة تقبل معطياتي وتثق بها، تثق بها يا إلهي.

كنت أتوق، وقد غادرتني سناء، أن أصعد إلى السطح الخالي أتملى من منظر السماء وأتيه فيها. أرمي بنفسي في هذا الخضم الأزرق المتلألئ فأتلاشى وأنسى قليلاً.

كانوا يخرجون من غرفة الضيوف وهم مستمرون في ثرثرتهم التي لم تنقطع. كن خمس نساء بدينات، لم يسكتن منذ ساعتين. مررن بي، واقفة في زاويتي، فسلمن عليّ بين الكلام المتبادل المتقطع. عندئذ، وأنا أراقبهن وأراقب نفسي تجاههن، ومن خلفهن الحوش المظلم والسماء الرائقة، خطر لي، تصاعدت في نفسي فكرة هي أشبه بالإحساس: لا

علاقة لي، في الأعماق وبمستوى النفس الأصيلة، بهذا الجمع البشري، بهذه الكتل المتراصّة من اللحم التي أنتمي إليها. إني أقف على مبعدة، بين الموت والحياة، بين الوهم والعذاب، أضعف من قصبة وأنا مسؤولة عن شروق الشمس وغروبها. ولم يكن بمقدوري ألا ينتهي أي شيء؛ أن يستمر تعلّقي هكذا فترة أطول. لستُ إلا من هذا التراب الحيّ؛ وكان يكفيني، إحدى الليالي، وأنا أتظاهر بالنوم تحت اللحاف، أن أقف وسط الدار أستغيث صارخة في وجه الظلام، لعلي أستريح أو لعلي أجن. وكنت أريد أحياناً أن أصلي وأن أدعو ربي أن يرأف بي. ثم أتردّد. أإذا كنا حُكمنا أن نعيش كما كتب علينا.. فما فائدة الرجاء. أو كنا نملك بأيدينا.. فما فائدة الرجاء أيضاً. ثم بدا هو لي، هو الذي كان موجوداً - وكان مختفياً - على الدوام في عالمي. قيل لي إنه فشل في الامتحان وسيعيد سنته الدراسية مرةً أخرى. كنت أعلم جيداً ماذا يعني عنده هذا الفشل، عند هذا المخلوق المحكوم بذكرياته وأشباح موتاه؛ وكنت أجد أني، القريبة إليه كما أظن، يجب أن أواجه هذه المحنة معه بشكلٍ من الأشكال. ثم إنه على علم، وقد يفهم شيئاً لا أفهمه أو يرى شيئاً لا أراه؛ وقد يقوى على عمل، أو يمنحني قوة لانتظار أمل هو آخر الآمال، أو إشارة بالنجاة. وهكذا، عصر أحد أيام الخريف، كنت أرتقي درجات السلم الترابية المهدّمة إلى السطح. وقبل ذلك، رأيته يخرج من غرفته ويسير ببطء، يمسك بالمحجر الخشبي بين حين وآخر متجهاً نحو باب السلم. فتحه دون ضجة ثم اختفى صاعداً. كانت في الجو لسعة برد منعشة فاختطفت شالاً وخرجت أتبعه.

لم يرني أول ظهوري. أحاطتني السماء الزرقاء الصافية جداً،

المنثورة عليها حمرة الشمس الآيلة للمغيب. وقد استرجع أنفاسي مبهورة بتوزع الألوان. كان متكئاً على الحائط بظهره، مغموس الرأس ببقايا الأشعة المتوهجة؛ والتخوت الخشبية الفارغة، مصفوفة في أنحاء السطح كالتوابيت. التفت إليّ حالاً، فاقتربت منه. لاحظت تهجسه مني. كان يزرر سترته باضطراب وهو ينظر نحوي ويبلل شفتيه بطرف لسانه. لم أرتح لتلك المظاهر منه. سلمت عليه بهدوء وسألته لِمَ لم يخبرني عن فشله في الامتحان؟ راعتني مسحة الغباء التي انسدلت على وجهه والتي لم آلفها من قبل. استدار إلى جهة أخرى وقال:

- العفو، ما أدري. مو.. فد شي مهم.

بدا لي نحيلاً مقوس الظهر وهو يضع يديه في جيوب بنطلونه العريض ثم يسير، بشكل عشوائي، إلى الحائط القريب الآخر. كان منزعجاً. شعرت أني لم أحسن اختيار وقت الحديث معه. قلت:

- الأهمية نسبية بهالحالة. مع ذلك، تقدر تتفوق بالسنة الجاية.

لم يجب، اكتفى بصوت مبهم وبشبح ابتسامة ساخرة، وضرب بقدمه حجارة صغيرة دون أن يلتفت إلي. ثم رفع عينيه نحو المغرب، حيث تموت الشمس الضاحكة. ظهر أنفه ضخماً وسط وجه حزين باك. أردت أن أعيد كلاماً آخر عن قصة التفوق، إلا أنه قطع علي ذلك:

- لا تواسيني، أرجوك منيرة. خاصة أنت. هواية حكيت معي قبل الامتحان. هواية. كل كلامك... أتذكره. بس آني كنت أشوفه زائد، لأني ما كنت أفكر بالرسوب. هذا كان شيء خارج تفكيري.

ووقف على جانب يحفر تراب الأرض بطرف حذائه:

- لويش يريدون يخففون عني الصدمة؟ ماكو داعي. هاي هيه. لو

أعرف المسألة ما تهم، آني ما أدير بال. لاكت.. بعديش؟

- شنو بعديش؟ أنت بيش دتفكر هسه، كريم؟

- ما دا أفكر بشي. بيش تريديني أفكر؟ آني فشلت ولازم أتحمل نتائج الفشل. عندنا هنا، كل وكت متعودين نهرب من نتائج أعمالنا. لويش؟ آني أريد أتحملها.. وأنتهي.

- شنو تنتهي؟

استفزني بحكايته فتابعتُ:

- آني دأشوفك متناقض بأفكارك، كريم. قبل كم شهر كنت تعتبر الامتحان أمر بسيط، لا تفكر به ولا يهمك هواية. هسه دتعتبر الفشل كأنه حكم عليك بالسجن المؤبد. شنو هذا؟ ثم أنت إذا تريد تتحمل النتائج.. مو معناها تنتهي. لويش تنتهي؟ هذا مو تناقض؟ صحيح والله كريم. إذا الواحد يريد يتحمل النتائج السيئة، مو يعني خاطر يتجاوزها؟ ويستمر بطريقه؟ تمام؟

بقي يحفر الأرض بحذائه ثم يسوّي ترابها مرةً بعد أخرى، وبعض الشعيرات في رأسه تبدو حمراء لامعة. كنت أجهد من أجل نفسي، ضد ضعفه وتردده والتباس أموره. تكلّم بصوت خافتٍ متقطعٍ:

- ما أعرف. ما أعرف آني. بس.. هذا.. كل شي هم لازم ينتهي. ليش ما نعترف؟

- شنو يعني، كريم؟ مدا أفتهم زين هالحكي مالك؟

التفت إلي، رفع نظره فجأةً:

- العفو منيرة. ماكو شي معقد بكلامي. ومع ذلك..

كان صوته جافاً، حاداً، لا يتلاءم والمرارة التي كست وجهه:

- آني شخص فاشل، ماكو مني فائدة. شخص ضعيف ما عندي أي قابلية. وما أقدر أقول لك راح أتحسن. بالعكس. دا أتراجع يوم بعد يوم. أي ها هيه.. شخص منتهي، ماكو منه فائدة.

- لويش دتحكي هالشكل؟

كنتُ خافقة القلب، ولكن رابطة الجأش؛ وكنت أعلم بكياني كله، أنه يوجّه حديثه إلي.. أنا التي جئت إليه؛ وهو يعلم بالتأكيد معنى ما يقول. كان مستنداً إلى خشب سرير فارغ، ينظر إلي. أعدت كلماتي ببطء:

- لويش دتحكي هالشكل، كريم؟

تقبّضت أصابعه ثم انفتحت وترك مكانه متحولاً إلى الجهة البعيدة عني. كان منحني الظهر، وهو يقف محدّقاً إلى الجدران الغامقة. لم ينقطع خفقان قلبي. كنت خائفة بعض الشيء، كئيبة النفس، والسماء الفسيحة الملونة فوقنا تبدو على وشك الانغلاق إلى الأبد. خطر لي أني أفسر لهجته وأصغي إلى نغمة صوته، لا إلى كلماته. أليس هذا جنوناً؟

ثم رأيته يرجع إليّ. استدار بسكون واتجه نحوي ثم جلس على السرير أمامي. وضع يديه متشابكتين في حضنه فبدا كمن يصلي. كانت أضواء الغروب تحيط به. تكلم بصوت خشن عميق:

- العفو منيرة، ما أدري ليش تسأليني عن أي شي دا أحكي. أنت تعرفين زين عليش دا أحكي. أنت تعرفين زين. مع ذلك، لازم أقول لك.. تره آني مو شخص فاشل فقط.. ما عنده حظ بالحياة.. لكن آني إنسان يائس أيضاً. يعني آني دا أفشل، مو لأن قابلياتي ناقصة بس، لكن لأني.. لأني.. يعني آني ما عندي إيمان.. ما عندي اهتمام بالدنيا.

رفع يده كأنه يريد أن يمنعني من الكلام:

- لاع. لاع. أرجوك. أنت بس منيرة.. أنت الشي الوحيد الغريب بحياتي. أنت..

سكت، مبعداً عينيه عني وهمس:

- أنتِ شنو؟ وآني شأريد منك؟ وشنو يعني فد إنسان غبي فاشل يحبك؟ شنو يعني؟ وإذا..؟

كانت همساته غارقة في الظلام؛ وكنت، أمامه، أنصت مرتجفةً مثل وريقة تلعب بها الريح:

- لويش هلقد أحبك منيرة؟ ولويش أنتِ بعيدة عني هالشكل؟ بعيدة يا ربي، بعيدة عني.

وأخفى وجهه بين يديه. كان يتهامس مع طيف غير مرئي. أخافتني رنة الأحلام في صوته الأجوف. لست قادرةً، الآن، على ضياع أملي في تلافيف خيالاته. مددت يدي إليه. كنت، في ارتجافي، ميتة اللسان. أردت أولا أن ألمسه؛ أن أحس بحرارة حياته. ولعلي بعد ذلك، ألمس قلبه، ألمس صورتي في نفسه. ولم تطله أناملي، لم تصله. أفزعته حركتي وبدا كمن أوقظ من سبات عميق. تراجع في جلسته قليلاً وهو ينظر إلى يدي بذعر. ثم قطب جبينه وانقلبت سحنته. تدلى فكه وشفته السفلى، ثم خبا في عينيه شيء ما: نور أو سراب أو شمس؛ فزفر وقام بعجلة فاصطدمت رجله بطرف السرير. أنزلت يدي. كان يمشي باضطرابٍ بين الظلال والظلام مبتعداً عني؛ يسحب نفسه، يجر قدميه بمحاذاة الحائط الترابي الأجرد. وقف مستنداً بذراعه إليه، ناظراً إلى الأرض كمن فقد عليها شيئاً: الأمل أو معنى الحياة. بهتُّ. حسبته، للحظة، يحاول

أن يأخذ بيدي، هو الذي بان عليه كأنه فهم كل الأمور وأحاط بالألغاز. لكنه... قمت من مكاني. كانت لدي بقية ضئيلة من سعادة بعثرها اعترافه في نفسي؛ وكنت مرتبكةً مترددةً. أردت أن أعود نازلة إلى الأسفل، إلا أني تقدمت منه. كنت فارغة الذهن، لا أملك سوى خوفي من أن ينتهي كل شيء هكذا.

وجّه إلي الحديث قبل أن أصل إليه. لم يلتفت، تكلم وهو على وضعه البائس ذاك، متطلّعاً إلى التراب:

- آني متأسف منيرة. لا تصدقين حكاياتي هذي. آني ما أقصد شي تره، ما أقصد شي أبداً.

جمدت مكاني. أردت، كان عليَّ، أن أتفوه بشيء يصف له معنى كلماته، يضعه في عالمي المحترق:

- ليش تشعر بالأسف؟ تندّمت يعني كريم على..

- لا تخدعين نفسك منيرة. لا تخدعين نفسك. آني شخص منتهي، خلصان. ماكو مني فائدة.

- ليش؟ ليش كريم، عيني، ليش؟

همد جسده لحظات وسكن سكون الحجر. خلته فارق الحياة. ثم استدار ببطء وهو لايزال ملتصقاً بالجدار. كان وجهه مبللاً بالدموع:

- لا ، منيرة. لا. لا تحكين معي هالشكل الله يخلّيك. آني شخص منتهي. جبان. لو ما كنت يائس من كل شيء ما كنت أجسر وأحكي عن.. عن حبي.

رفع يده بسرعة ومسح وجهه:

- ما أقدر أدخل حياتك منيرة. ما أقدر. آني..

شعرت بغتةً وأنا أنصت إليه، بصدري ورقبتي تختنقان بما يشبه النحيب. هتفت بصوت عال أقاطعه:

- لويش؟ لويش ما تقدر؟ لويش ما نقدر...

صرخ بي:

- ما أقدر. ما أقدر، أقول لك أنتِ... أنتِ..

ثم مسح وجهه مرة أخرى وانكفأ إلى الحائط يضربه بكفّه:

- أنت مو إلي. إنت مو إلي. تعرفين زين أنت مو إلي. قاعدين ينتظرون جوابك. كلهم دينتظرون. يريدون ياخذوك مني. كلهم. كلهم يعرفون أنت مو إلي. يريدون ياخذوك. يزوجوك. يريدون تزوجين. أخذوها. أخذوها مني.

ولكنني كنت أبكي مثله رغم حذري. بكيت يأساً. أجهشت، هكذا، وأنا أنظر إليه، يحتضن الجدار الطيني ويكلّمه بكلماته الطفولية الخرقاء. ماذا قد أجد لدى هذا المخلوق الهش، البائس أكثر مني؟

أجهشتُ دون دموع؛ كنت أنشج بأصوات متقطعة لم آلفها قبلاً ومن صدري تتدافع لهثات تكاد تخنق أنفاسي. ثم انطلقت الكلمات من بين شفتيَّ المرتجفتين:

- آني مريضة كريم. مريضة آني وما أقدر أتزوّج. ما يصير أتزوّج. ما أقدر آني.. وهذوله أهلي..

توقفت. لم يعد باستطاعتي أن أملك نفسي فأخفيت وجهي بيدي ثم نكصت عائدة، بخطى عمياء، إلى السرير الفارغ. كان بكائي تكملة لكل تلك الشهور الحزينة المؤلمة؛ وكنت أبكي هذه الحياة التي ضُيِّعت عليَّ دون سببٍ مفهوم؛ وكنت أبكي لأني رأيت في وجهه الكابي المغطى

بالدموع آخر الأبواب وهي تنغلق. ورقعت على خشب السرير ولملمت نفسي عليه أفتش عن منديل في جيوبي. لم أرد أن أعود إلى الكلام أو أن أسمعه يتكلم. شعرت أن ما بقي لدي، وهو قليل القليل، لا علاقة للعالم وللآخرين به. إنه الاختيار الصرف، دون مداورة أو تزييف، بين الموت والحياة.

ولذلك، حين رجع وتوقف قربي بمسكنة يستوضح مني عما لا أدري؛ لم أجبه. كنت أغلق عالمي. لم أكن أحتقره، لأنه كان في الواقع على حق؛ ولكني كنت، بشكل ما، نائية عنه وعن كل ما حدث لي معه قبل دقائق. كان يسألني عن مرضي وما هو ولِمَ أنا مريضة وهل أنا مريضة حقاً وهل.. وهل..، وكنت لا أجيب، جالسة بانكماش على السرير، غارقة في نفسي وفيما حصل لي.

ثم قمت بتثاقل وأردت أن أنصرف فأمسك بذراعي. كانت أصابعه متشنجةً باردةً. نظرت إليه. لم أسلهَ عما يريد. بدا لي غير ذي حقيقة صلبة؛ وكنت، في قتامة المغيب، أتطلّع إليه يتحدث دون أن أدرك حدود كلماته.

قبل أن يصير الخوف عادةً، يمكننا اجتثاثه من النفس بأن نرفع جذوره المغروسة فيها. ولقد وجدت أن البدء بعملية الاجتثاث هذه، وبأية عملية أخرى، يجب أن ينبثق من افتراض عدم وجود الأسباب وتخيل ما يمكن أن نعمل بناء على هذا الافتراض.

وهكذا، محوت عدة ساعات من ماضيّ ووضعتها بين أقواسٍ ودوائر؛ ثم أخذت أفكر بحياتي بعد ذلك. لم أجد التغير كبيراً؛ فحلقة

اليـأس تجاور حلقـة التـحدّي. وفي كل الأحـوال، خـلال الزمـان الإنسـاني للفرد، لايليق أن ننسى المعـايشـة بين البشر. إنهـا الأخذ والعطاء، وليس في الأمر مواقف. إنها السيولة والاشتباك، وليس فيها جدران أو حدود. إنها جسور للعبور والعـودة، ثم للعودة وللعبور.. ومـا أنا، ما أنا من كلّ ذلك؟

كتبتُ رسالةً إلى أخي مصطفى في كركوك أسـأله مشورته بشـأن ما يعرض عليٌ. لا أعتقد أن جوابه، الذي أعرفه جيداً، سيتأخر.

- ١٠ -

كان ينصت إلى حديث يجري بين جليسين قبعا خلفه في مقهى «المربعة». جذبت سمعه غرابة الحوار ولهجة المتكلّمين. كانا يتحدثان بلهجة أهل الشمال؛ وقد خمن، حين رآهما يمران قربه، أنهما قد يكونان من عمال المطاعم أو سائقي السيارات. كان أحدهما محمر العينين، ضائع النظرات. بقيا ساكتين فترة يديران ملاعق الشاي بعنف، ثم بدأ أحدهما متسائلاً:

- وهايبي الورقة، أشعمل بيها ؟

بصوت تتخلله بعض الخدوش، افترض أنه يلائم صاحب العينين الضائعتين. استمرّ بعد وقت قصير:

- أنا افتكرها مزوّرة هايبي الورقة. أشتقول؟

- أشقول أنا ؟ ما تشوف إمضاء القاضي بأسفلها. أشقول أنا ؟

عاد الصوت الأول يرتفع في لهجة تتراوح بين البكاء والتضرّع:

- ما بيصير. أنا أقولك ما بيصير. وجدان ربك ما كان يرضى. بقى وين أروح بالأولاد ؟ ما معقولة. تهرب من البيت وتترك الأولاد

وترسل لي هايبي الورقة تقول كان صارت مسلمة وصارت حرام عليّ وكان صار الأولاد مثلها وصرت أنا خيك بطرس، بعيلتنا أربع قسان، أركض خلف القحبة من شان تستر على حالي؟ بحياة المسيح، هايبي الورقة مزوّرة. هاي قاعدة تلعب بدماغي.

لم يمر وقت طويل على مدفع الإفطار، ولكن شارع الرشيد كان مزدحماً بالمارة وبالسيارات، والأنوار في المخازن المقابلة قد أضيئت منذ زمن. شرب الشاي مرتين منذ مجيئه قبل ساعتين. لم يطب له الجلوس أمس في المقهى، إلا أنه عاد إليه اليوم مع ذلك. رفعوا الستائر والخرق المعلقة على الواجهة قبيل الغروب، فانكشفت له سماء بيضاء بين العمارات العالية.

- بقى أذهب للقاضي أشقوله؟ بدي أصير مثل القحبة ماتيلد؟

- أشلون حكي بطرس قتحكي؟ والله ليحطك بالسحن. أشلون هذا!

ثم رآه، بين الحديث، يدخل المقهى بخفة ويسير على غير هدي بين التخوت والطاولات متطلعاً بنظره هنا وهناك. قصيراً كان أحمر الشعر سقيم الوجه. صادقه فترة في أيام الدراسة منذ سنوات. اتجه نحوه. وسهر معه ليلة أو ليلتين، بصحبة حسين كما يتذكر. سلم عليه وصافحه بحرارة:

- مساء الخير أخي. شلون الصحة؟ شلونك؟ زين؟ زين؟.

أجابه على أسئلته المتكررة ثم أشار إليه بالجلوس فجلس قبالته. تذكر أنه يدعى سعيد لايعرف ماذا، وكان موظفاً في الكمارك. كانت عيناه ضيقتين صغيرتين يحيطهما شعر فاقع الحمرة. سأله عما يعمله هذه الأيام فأجاب سعيد:

- كنت مريض أخي. دخلت مستشفى. كلشي ما بي، لاكن فقدت ذاكرتي. مادا أشتغل هسّه. تقاعد. ما عندي شغل. فقدت ذاكرتي.

وفتح عينيه فجأة تأكيداً لكلامه.

- لويش فقدت ذاكرتك؟

- ما أدري أخ.. أخ.. تعذرني ما أقدر يعني أتذكّر أسمك. دا تشوف شلون؟. قعدت فد يوم من الصبح وإذا كلشي ما أعرف. ما أتذكر شي. منو آني؟ منين؟ وين رايح؟ هذوله منو؟ شكو ماكو؟ كلشي ما أعرف، فدخلوني مستشفى. هسه أحسن. نوبة أتذكّر ونوبة ما أتذكّر. هسه لو أصفن على اسمك..

ثم وضع يده فوق جبينه وأخذ يفرك صدغه. سمع صديق بطرس:

- .. وأنت أبويه تروح للقاضي وتفتهم منه أشراح يصير بيك وبأولادك. تفتهم منه، تتفتهم؟

- مكتوب بهايبي الورقة. نصير مثل ماتيلد.

- شوف شلون مادا أتذكر.

وأغمض عينيه:

- كلش زين آني أعرف اسمك. كلش زين. لاكن شوف أخ مدحت شلون مادا أتذكر؟

وصرخ فاتحاً عينيه على سعتهما:

- مدحت.. مدحت.. أخي، أنت مدحت.

امتلأ وجهه النحيل بضحكة بلهاء:

- مدحت.. مدحت.

... كان، في مراقبته لها ذات مساء خريفيٍّ، تسير على صفحات

قلبه مخترقة باحة الدار، في فستانها الأزرق الفاتح، مسدلة شعرها إلى الوراء، قد انشدّ إلى الانحناءة اللينة في جذعها وهي تميل بخطوها بارزة النهدين، وإلى نظراتها المختلسة إليه وهو يجلس على القنفة مع أبيه قرب السرداب، وإلى الابتسامة الرقيقة جداً التي أعلنت له بخفاء، أنها تعرف...

سمع صوت بطرس المتهدّج:

- بقى راح أتخبل أنا. أتخبل. لو كنت أعرف هي وين. قالوا قاتشتغل مربية. خابرتنا تسأل عن الأولاد. تحكي كلمة وتسكت وصارت تبكي بعدين وغلقت التلفون. أنا راح أتخبل.

- بلاكت أخ مدحت، مو كل وكت أتذكر هيكي زين.

سأله:

- بعدك بالكمرك؟

أخذ يشير إشارات عنيفة بيديه:

- لا. لا. لا. طلعوني تقاعد. لا. ما عندي وظيفة. تعبان ومريض كنت أخويه.. مدحت.

- أشتعمل هسه لعد؟

- ... أربع قسان وكاهن بعيلتنا. عائلة مسيحية عتيقة نحنا. أنا ابتليت على عمري. وين أروح؟ وين أرحل بالويلاد؟ الله ما كان أخذ روحها، لو روحي.

رأى سعيد ينحرف بنظره قليلاً وراءه ثم يعود إليه:

- ما عندي شي. أقعد من الصبح وأفطر، تالي أجي للمقهى أقعد هالشكل.

وعقد ذراعيه على صدره لحظات:

- ربع ساعة. نص ساعة. قاعد وصافن. ثم أقوم أرجع للبيت. زوجتي أم حازم إمرأة طيبة. مرتاح معها. أنام بمفردي. خاطر أرتاح. كلش مرتاح. ما عندي شي. أجي يومياً للقهوة. الصبح والعصر. ربع ساعة. نص ساعة أجلس.

مازال عاقداً ذراعيه، مستكيناً كخروف أحمر. سأله مرةً أخرى:

- ما تقرأ؟ ما تكتب؟ أنت مو كنت تكتب بالجرايد.. خواطر، ما أدري شنو؟

ارتفعت ذراعا سعيد تنفيان بحركات سريعة:

- لا. لا. لا أخي. لا. كلشي ما عندي. ما أتذكّر شي؛ عن أي شيء أكتب؟ شكو عندي أكتب؟ مخبل آني؟

ثم هدأ:

- زين أنت ماذا تعمل هالأيام أخ مدحت؟ ماتزال بديوان الوزارة؟

هزّ رأسه. التوى فم سعيد وبدا عليه أنه لم يفهم. آلمته حيرة رفيقه. قال:

- نعم. بعدني بالديوان، بس عندي إجازة هسّه.

... خلفت حركة صغيرة من أهدابها، حين عمل على انتظارها ذات ضحى من يوم جمعة مشرق قرب غرفته، ووقف أشبه بمن يعترض طريقها وسألها وكانت تضع العباءة لغير سبب ووجهها الملون منور بين السواد، فتحاشت سؤاله ومرّت، وأنزلت لحظة مرورها أهدابها جامدة الملامح، فخلفت له الأهداب السوداء الطويلة خدشاً في الأحشاء..

- ماكو مانع. شكو بيها. إجازة اعتيادية يرتاح الواحد بيها. ماكو مانع.

حضر خادم المقهى حاملاً صينية تحتشد عليها أقداح الشاي، فوضع واحداً أمام سعيد ونظر بتساؤل إلى مدحت. أشار إليه أن نعم فأبدى الخادم استحسانه بحركة خاصة من ذراعه وهو يتأنّى في وضع الاستكان أمام مدحت. وأتته من الخلف أصوات وكلمات مختلطة ثم ضجة مخاطٍ وبصاقٍ. لم يلتفت. سمع رفيق بطرس يتكلم بحنان:

- لا بابا أبو ميخائيل. لا بابا. عيب على الرجال يبكي، لا يابه عيب أبويه. كلشي كان ينقضي. عيب يابه.

كان سعيد ينظر إليهما مندهشاً مقطب الجبين وقد ظهر عليه أنه يجد وضعهما مستعصياً على الإدراك. ثم رفع قدح الشاي إلى فمه وجرع منه جرعة وخزته بحرارتها فتقلّص وجهه وارتجفت أهدابه. تطلّع إليه فحرك مدحت كتفيه حركةً خفيفةً فتراجع سعيد في جلسته قليلاً واستدار عنهما. إنهما يمثلان تأزّم العالم وتعقده بالنسبة لسعيد، العالم الذي فقد علاقته به.

سمعهما يقومان ويمران جنبه. كانا متماسكين بذراعيهما وأحدهما ينطي وجهه بالمنديل. وابتعدا متمايلين، في المقهى الدافئ المليء بالدخان. ذاق شايه. ما على بطرس المعذب إلا أن يفقد ذاكرته، فينسى خيانة الزوجة وينسى ما كان دينها أو دينه. كان سعيد جالساً بسكون متشابك الذراعين. أنهى شرب الشاي وأبعد القدح عنه،ثم رأى وجهه يستضيء فجأة وهو يتلفت من جهة لأخرى ويعود إلى سكونه. سأله:

- تنتظر أحد، أخ سعيد؟

فتح عينيه دون دهشة ثم أغلقهما. بدا وكأنه لايريد أن يجيب:

- لا. لا. آني ما أنتظر.

... جرحته ذات مساء حين كان يهمّ بمغادرة البيت فطرقت سمعه ضجة غير معتادة في غرفة أخته فسعى إليها خالي الذهن فرآها وأمها منفردتين تتناقشان وهي تبكي محترقة مع زفراتها وثوبها الأحمر مفتوح على مرمر صدرها الأبيض؛ فواجهته، عيناها المبللتان ازدادتا اصفراراً ولمعاناً وشفتاها قانيتا الحمرة؛ وأجهشت في وجهه، رمت بنارها عليه ثم اعتذرت له، اعتذرت له....

كان سعيد يلملم نفسه ويهمّ بالقيام:

- وين أخ سعيد؟

- أروح.

- شكو عندك؟ مو بعد وقت؟

- ميخالف. أريد أتعشّى.

- يعني أنت مو صايم؟

رفع حاجبيه مستغرباً:

- آني؟ لاع. لاع. آني ما أصوم. أعصابي ما تتحمّل.

ثم ابتسم بانكسار ونهض رافعاً يده:

- زين يابه. فيمالله أخ... شوف شلون نسيت الاسم.

كان ضعيف البنية قصيراً. مضى خافضاً رأسه ذا الشعر الأحمر، بين الموائد والتخوت، خالي الذهن والنفس. لاوجود لأحد في داخله، ولا يهمه أن يقابل أحداً يعرفه أو أن يندس بين البشر. شخص سعيد، مثل اسمه؛ ضد الذكريات. توقف قرب صاحب المقهى فدفع له شيئاً ثم التفت بغتة ناحيته. رفع ذراعه عالياً يحييه متفتح الوجه. هل تذكر الاسم أخيراً؟ ثم اختفى في الخارج.

أخرج سيجارة وضعها في فمه متمهلاً. نبهته تقلصات معدته المتكررة إلى أنه لم يأكل منذ ثماني ساعات أو أكثر. كان فمه مراً مرارة المرض. ستزداد هذه المرارة حدةً لو أشعل سيجارته. استعادها من بين شفتيه. مسّت أنامله صفحة حنكه فخدشتها لحيته الطويلة. ماذا تغدّى اليوم؟ كباب شامي؟ في مطعم الميناء؟ كلا. العش الذهبي؟ هبت من داخله موجة حرارة مؤذية صعدت إلى صدره. ماذا لو ارتاح قليلاً. هل يمكن لسعيد أن ينسى آلامه مع ذكرياته؟ أن تنسيه الذاكرة المفقودة آلام جسمه وجوعه؟ أن تنسيه..

... حين عادا ليلةً فأوقفها في ظلمة المجاز قرب الباب المضاءة أطرافه وضجة الأهل والأغاني وأمسك بكتفيها الناعمتين فوق العباءة وقرب وجهه من وجهها فلامس الشفتين المخمليتين الطريتين الحارتين الذهبيتين...

وجد نفسه يقف كمن خُزّ بنصل حاد، خافق الجسم مرتجفاً. تطلع حواليه بخجل. كان بعض الرواد ينظرون إليه. عاد يجلس ببطء. أخرج سيجارته وأشعلها ثم جذب منها نفساً طويلاً. تملكه دوار بسيطٌ فأمسك بجبينه وأغمض عينيه. أربعة أيام مرّت منذ أن جرى له كل شيء. أربعة أيام. إنما المهم الآن أن ينهي الأمر بشكلٍ واعٍ. لايكره شيئاً مثل هذه الحركات الخرقاء اللاإرادية التي تفضح جهله بحقيقة نفسه. ألا تعرف نفسك إلى هذا الحدّ؟ مع أن البدء منها وبالتأكيد ومهما حاولنا. لكنه، الآن، لا يريد أن ينتهي أو أن يبدأ؛ يريد أولاً أن يفهم. أن يفهم حدوده في هذه اللحظة، ولنترك كل شيء آخر. حدوده الآنية والمكانية. الآن في هذا المكان، دون حقدٍ، دون حبٍ.

... بين ثرثرات الأهل المرتفعة عن الخطبة والزواج والمستقبل، فاجأه حبه لها حين بزغت عيناها هنالك أمامه، أمام قلبه الذي توقف وارتجف فجأة؛ كانت بينهم تلك التي يحبها و... نهض من مكانه بسرعة وسار خارجاً. إن البقاء في مكان واحد لن يساعده على البقاء في الحاضر. والعكس، اللّعنة، هو الصحيح. كان هواء الشارع بارداً تثقله رائحة البانزين المحترق. أحسَّ بضعفٍ في ساقيه وهو يقف أمام المقهى حائراً إلى أين يتجه. أي جسم مخرَّب جسمه هذا! منذ ساعاتٍ وهو جالس لايتحرك، فإذا قام بعد ذلك عجزت ساقاه عن حمله! كانت واجهة سينما «الشعب» مغطاة بصورة لعبد الكريم قاسم ضخمة بشكل جنوني. عبر إلى الجهة الأخرى من الشارع وانحدر مع السائرين نحو الباب الشرقي. جاوزت الساعة الثامنة بقليل. ليس هنالك، لو تأملنا، زمان أو مكان؛ أو أنهما موجودان بحدود رخوة. فهو، مثلاً، حين يسير في شارع الرشيد بعيد الساعة الثامنة مساء، إنما يسير خلال الزمان والمكان. هو الذي تؤلمه تقلصات معدته الفارغة استطاع، بهذه السهولة، أن يخترق طرفي حياة الإنسان. الآن، مثل آخر. قرب مخازن بيع الكيك واللبن، وبالتحديد أمام محل «آرام» لصنع الكيك وبيع الباسطرمة، أمام «الفترينة» بالضبط، يقف جائعاً ضعيفاً طويل اللحية، تاركاً البيت منذ أيام، والناس وتلك الصور الملونة اللعينة والأغاني، والهمسات والوقت الجميل... خاف عليها حين ضمها إليه، الى قلبه؛ فزفرت بلطف وأحسَّ بضغط نهديها على صدره... أهذه هي الحقيقة؟ وشي آخر فوق كل هذا، العالم الذي يضيع حين تريد أن تنظمه بدقة فائقة. دخل الدكان وطلب من البائع العجوز كأس لبن وقطعة كيك. وهذه التهويمات المستمرة قد

تسدي إليه صنيعاً، مَنْ يدري، بأن تمنع عنه غير الحاضر المعيش.. الآني والمكاني. تغمسه في المكان والزمان. تمنع عنه الناس وتقطع علاقته بهم. ليس هذا الشخص المهوّم من البشر. لم يولد ولكنه قد يلد.. توقفت يده حاملة قطعة الكيك قريباً من فمه المفتوح. قد يلد، قد يلد. أعطى البائع ثمن أكله ثم خرج. كان الهواء بارداً. أين سينتهي؟ والشارع يضج بالسيارات المتراصة. أيمكن أن يكون قد غرس بذرة الحياة في أحشائها ثم فر هارباً؟ وكان الغناء ينبعث من راديو في أحد المخازن وهو في سيره المتعجّل يصطدم ببعض السابلة المتباطئين على الرصيف. وهل سيغيّر شيئاً أنه لم يفر؟

وقف، على حافة الرصيف، قبالة دائرة البرق والبريد كمن يهمّ بالعبور. لم يكن يرى أحداً، وكان متعباً مخذولاً. أحسّ بطعم اللبن مراً في فمه. بدأت الأمور تزداد صعوبةً عليه. لم تكن هكذا قبل يومين أو ثلاثة. أراحه النوم المستطيل في فندق «الرصافة» بعد أن ألف الكوابيس الكثيرة، لكن الأمور صارت تتغير في نفسه بعد ذلك. إنه يخشى الآن شيئاً رهيباً لا يلبث أن ينقضّ عليه، اختلالاً من نوع خاص في نفسه أو في العالم حوله، لن يبقي على عقله أو على حياته.

كانت السيارات تتراءى له، ظلالاً غير محدَّدة، تتحرك وتمرّ بسرعة هازة الأرض. قفزة صغيرة ترمي به تحت هذه العجلات السوداء اللينة... وينتهي كل شيء. تغيب معه الصور المتلألئة والبسمات والنجوم والدموع... احتضنته، لأول مرة، ودفنت وجهها بين رقبته وحنكه فأحسّ بأنفاسها الحارة وهي تهمس «لاتتركني مدحت. لا تتركني بوحدي، الله يخليك» لم ترفع المحيا الحبيب إليه حتى أمسك بشعرها وواجه العينين

المغمضتين والدمع يفيض منهما، فقبّلهما الواحدة تلو الأخرى... والآن، الآن لو قام بهذه القفزة الحاسمة فلن تكون هذه الصورة إلا دماً نازفاً وعظاماً ولحماً مثروماً. لن تعود هي، غير أثر من الآثار؛ كان موجوداً في ركنٍ ما غير معلوم من هذا التكوين اللحمي المفتت؛ ليست هي رائحته ولا ألوانه، ولكنها أو لعلها كانت نغمةٌ تنبعث منه بشكلٍ من الأشكال، نغمة لن يسمعها أحد بعد الآن. حتى هي، لن يكون باستطاعتها أن تعلم أن في أرجاء هذا الخليط الدموي القبيح كانت تتردد أصداء ضحكاتها والتماعات عينيها. كانت أرضية الشارع السوداء تعكس بقتامة لمحات أضوية بعيدة. ضاق صدره فاستدار وعاود المسير ببطء. كان يتحاشى تلك الغريزة المميتة للإشفاق على النفس. ماذا سيجد لو مكث أمام ساعة دائرة البريد المتوقّفة، يغرق العالم بدموعه الساخنة، يبكي بها نفسه منتحراً؟ بانَ له مدخل أوتيل «الرصافة» على الجهة الأخرى من الشارع. لم تمل نفسه للصعود إلى غرفته الجرداء الباردة. الغرفة الخاوية، الخاوية، الخاوية... رآها ترتب فراشه قبيل الزواج، منحنية قليلاً، والغرفة، وهي فيها، تبدو ضاحكة منورة متراقصة مليئة بالشمس، يا ويلتاه...

شعر بنفسه يُرمى وسط الشارع بغتةً، في محاولة خرقاء لعبوره، في محاولة خرقاء لعبور أفكاره ومجرى عواطفه. ضجّ في رأسه نفير سيارة قوي وأصوات عجلات مكبوحة. لم يلتفت. قفز راكضاً إلى الجهة الأخرى بسرعة. تناهت لأذنيه شتائم وسباب ارتفعت وراءه. كان خافق القلب مضطرباً بعض الشيء. رأى زقاقاً مظلماً فاندفع يختفي فيه. تعثر عدة مرات قبل أن يشعر بابتعاده عن ضجة الشارع. وسار، لاهثاً،

ببطء بين الجدران القذرة. راعه، خلال لحظات اندفاعه بين السيارات المسرعة، هاجس بالخوف، تملكه هنيهة ثم زايله. إنه يتخبط ضمن دائرة فناء مجهول السبب، انطفاء لا معنى له. كانت رائحة طعام ودهن محروق تضرب أنفه في الطريق الضيق. فُتح باب واندلقت مياه وسخة من سطل تحمله عجوز. وسيعود لنا في النهاية، لنا وحدنا، أن نمسك بحبل النجاة وأن نبدأ المحاولة. أن نفضّل البقاء أو لا نفضّله. لامست وجهه نسمة باردة هبت عليه حين انتهى الزقاق إلى شارع خال يمتد بمحاذاة عمارات تشيّد، وتبدو في أقصاه أضواء خافتة. وقف تحت جدار قديم أسود... قبّلها قرب الباب الخشبي الكبير في المجاز الرطب المظلم ثم احتوى جسمها فنزلت عباءتها على كتفيها وتهدّلت خصلات الشعر المعطّر... أخذت خفقات قلبه تزداد فجأة فاستند إلى الحائط خلفه. شعر بضعف شديد ينتابه، وسرت في ساقيه ووسطه رعشة خفيفة. كانت أحجار الحائط البارزة تنخر عظامه. ساورته رغبة في الجلوس على الأرض. كانت في بطنه عاصفة تمور وتدور. ضغط عليه وأخذ يمسح وجهه المبلل بالعرق. كان قلبه يرتجف خافقاً. ماذا يحدث له، هو المتشرّد المنتزع! ثم فاجأته تقلصات هائلة في أحشائه فأحسّ بجسده المرتخي يتهاوى. تثنّت ساقاه وأخذ ظهره يسحب تراب الحائط في نزوله. غشي بصره قليلاً فحاول أن يتمسك بشيء قربه. تزحلقت يداه مع حركة ظهره ثم سقطتا كالحجارة معه على الأرض الملوثة بالطين. عادت التقلّصات تطحن داخله وتتعالى موجتها نحو صدره. شهق ثم سحب نفساً عميقاً. كان مغمض العينين، تتردّد نبضاته بسرعة ويتسايل العرق البارد على وجهه. سمع سيارة تهدر قريباً منه وتمرّ. وحيداً يحتضر هكذا على حين

غرة. شهق مرة أخرى وزفر. أزعجته أصوات تنفسه وكان يحس ّبلعومه وفمه يابسين مغلقين. لم يعرف ماذا يحل به؛ ولكنه، متكوماً تحت جدار على مفترق طرق في محلّة «السنك» المظلمة، شعر أنه قد وصل إلى القاع أخيراً. بلع ريقه ثم مسح جبينه اللزج. لم يوغل في الزمن طويلاً بمفرده، قبل أن يدرك الأعماق السفلى. خفّت موجة التقلصات في داخله ففتح عينيه. لم يجد أحداً في الشارع قربه. أنعشته نفحة هواء عذبة رطيبة. لقي نفسه ممدّداً على الرصيف القذر في زاوية داكنة الضوء... كانت ترتجف وهي بين ذراعيه عارية بلورية خائفة العينين لا تني تبلل شفتيها ثم تخفي بأيد متشنجة نهديها النافرين الحارين... ارتكى برأسه على الحائط وراءه. واحتواها ولم تقل له، لم تقل له. ما كان إلا موضع سخرية منها، ولم ترد أن توقظه برفق من حلمه الزاهي. صفعته. ضرب رأسه بالحجارة خلفه. تركته ينهار، مع المرارة والروع والانخذال. دافئة الحنايا، لينة، ناعمة. أرادته أن يُمرغ بالتراب. لم تشفع له الذكريات ولا الشوق الطويل. دق الحائط برأسه. أحسّ بعظام جمجمته تعيد الصدى المؤلم. انتظم نبضه وتنفسه بعد أن زايلته ثورة أحشائه. اعتدل في جلسته ونفض يديه مما علق بهما من طين ثم ثنى ساقيه واستند إلى الأرض وقام. أخرج منديلاً مسح به رقبته ووجهه ويديه. كان رأسه يطنّ ويخفق. تلفت حواليه. مازال فمه مراً يابساً. اتجه راجعاً، يسير ببطء في الزقاق الذي أتى منه. كان ضعيفاً يساور جسمه وهنٌ غريب. تعثّر بحجارة وطمست قدماه في حفرة مليئة بالمياه القذرة. أتاه من الأفق صوت أجشّ متماوج يتلو آيات من القرآن. لم يميز المقاطع ولا الكلمات، إلا أن خشونة الصوت وارتجافه أحزناه. كان يسير بخطوات مهتزة على

جانب الطريق؛ متعباً، تؤلمه جهة رأسه الخلفية. سيحاول أن يغتسل في غرفته وأن يرتاح بعض الشيء، وقد يجد ما يأكله...

... دخل محل «أوانيس» للمشروبات الروحية وسأل عن حسين ثم مضى، دون اهتمام بالدهشة التي ارتسمت على وجه «أوانيس»، وأزاح الستارة القذرة التي تفصل الدكان عما خلفه. كانوا جالسين بمحاذاة الحائط على كراسيهم الخيزرانيّة المتآكلة وأمامهم براميل العنبة الفارغة تحمل لهم كؤوس الشراب مع المزّة، حسين وأبو شاكر وأعرابي ملتف بعباءته لا يعرفه. رآهم على الضوء الأحمر الخافت وهم يتجهون بأبصارهم إليه. هتف:

- السلام عليكم

أجابوا بصوت واحد:

- وعليكم السلام

ثم بدؤوا يتفرسون في وجهه ليميزوا شخصه. قفز حسين من مكانه واحتضنه فشمّ رائحةً نتنةً يمازجها مسك العرق وزفرة المزة. سمعه يهمهم:

- عيوني مدحت. هاي وين أنت، عيني؟

مسّت قلبه تلك الحركة العاطفية وأخذ يفتش عن محل يجلس فيه. ربت على كتف حسين بصمت وأبعده عنه. قام أبو شاكر وعلى وجهه بعض التساؤل وعدم الفهم وتحرك الأعرابي في مكانه ثم سكن. سحب حسين كرسياً من زاوية مظلمة وضعه جنبه ودعا مدحت للجلوس. هتفوا حالما جلس:

- الله بالخير. الله بالخير.

نادى حسين:

- أبو كمال. أبو كمال.

والتفت إلى مدحت متسائلاً نافثاً دخان السيجارة في وجهه. أجابه باقتضاب:

- ربع زحلاوي.

تأمله حسين بتردّد ثم رفع رأسه إلى أوانيس:

- ربع زحلاوي بالعجل أبو كمال الله يخليك.

ارتفع صوت خشن:

- مساكم الله بالخير والكرامة.

كان الأعرابي يشير بيده محيياً. أجاب:

- الله بالخير أخي.

- هذا طير جديد، أبو شاكر الورد صاده قبل أسبوعين ثلاثة.

كان حسين يهمس في أذنه وهو مشغول بإخراج علبة السجائر وتقديم واحدة منها إلى مدحت. رفضها. كان الجو ثقيلاً داخل الدكان، ذا رائحة عطنة لا يمكن معرفة مصدرها. سمع حسين يسأله:

- شتريد مزة؟ باقلا لو لبلبي؟ بس هذا الموجود اليوم. تريد أكل؟

- لاع. لاع. أكلت قبل ما أجي. فد ماعون باقلاء.

- صار. أبو كمال، ماعونين باقلا الله يخلّيك.

ثم التفت إليه:

- شلونك عيوني مدحت؟ مرتين رحت للدائرة عليك. قالوا مجاز. والبارحة، لا والله يمكن أول البارحة، جاء كرومي عليّ للبيت خطيّة.

- خليني دا أرتاح شوية حسين. رأسي ديوجعني.

- نعم. نعم.

وأطلق دفقة من الدخان ثم التفت ناحية أبي شاكر فتطلّع إليه هنيهةً عاد بعدها إلى مدحت ينظر إليه من طرف خفي. كان الجالسون والأشياء التي تحيط بهم، ظلالاً يختلط فيها الأسود بالحمرة الكابية. لم يهتم بالتمعّن فيهم وكان بوده أن يغلق حواسه عن دنياهم. أزيحت الستارة بعنف ودخل أبو كمال يحمل ربع العرق والكأس وصحن الباقلاء. وضع كل شيء بمساعدة حسين، على برميل العنبة الفارغ أمامه. تكلّم أبو شاكر:

- أبو كمال، ينراد فد كم طاولة بالمحل.

نظر إليه أوانيس ببرودة:

- أيهي محل أخوية؟

فأشار أبو شاكر بذراعه إشارة دائرية:

- ها.. هالمسئلة هنا.. أقول.. قضية الجلوس.

- أخوية، آني صاحب دكان، أبيع مشروبات. ما أتمكن آخذ إجازة أفتح بار. لو كان أفتح بار، كنت غلقته برمضان. ممنوع أخوية. رمضان هذا. بس أنا، هاي مساعدة من عندي لكم.

ظل أبو شاكر رافعاً وجهه الداكن ونظارتيه السوداوين العريضتين إلى أوانيس دون كلام. تكلّم حسين بعد انصراف أوانيس:

- مالك وهالحكاية يا أبو شاكر. تبين أنه يتفضّل علينا.

رفع أبو شاكر كأسه وأشار إلى الأعرابي فرفع هذا كأسه أيضاً وشربا:

- بعد ذلك، يقولون لويش راح تنقلب الدنيا!

كان مدحت ينظّم أمور شرابه. لم يعد يهمه الآن أن يمارس لعبتهم. أكل بضعة أسياخ من «الفشافيش» قرب باب الأوتيل مع قطعة خبز حارّة، ثم اغتسل وتمدّد بعض الوقت. أدار العرق في الكأس ثم وضع قطعة الثلج والماء وأخذ يراقب السائل الحليبي. سمع الأعرابي:

- الله أكبر.

همس حسين:

- هذا صاحبنا له فد قصة، تالي احكي لك عليها.

هتف أبو شاكر يكلّمه:

- أستاذ مدحت، صحتك أخي.

- الله أكبر.

ورفع الجميع كؤوسهم. التهب بلعومه وأحشاؤه لحظات ثم بدأت الحرارة تسري في نواحي جسمه الأخرى. لم يزل بحاجة إلى وقت قصير كي يتخلص، كي ينفلت ويرفع نفسه قليلاً. كان يحسّ ببداية ما يشبه التوازن داخله: أن يكون برفقة أحد، اختار هو أن يكون معه، لأنه يثق أنه سينصت إليه باهتمام.

كانوا يتبادلون الحديث والضحكات قربه، وكان يشعر، والخدر يزحف ببطء في حنايا جسده، بأنه لم يكن بمثل هذا الهدوء منذ زمن وبأنه محاط نفسياً بغلاف غير مرئي يعزله عن رفاقه المثرثرين. التفت حسين إليه وقرّب وجهه منه:

- لو تدري كم مشتاق لك عيوني مدحت. بس أريد أعتب عليك. ستقول هذا الحمار قام يخربط كالعادة. لكن والله يا عيوني يا مدحت، يعني أنت عزيز علي، وأريد منك تذكرني. آني أعرف آني شنو. لا

تخاف على أخوك. أعرف آني شنو هويتي، لكن.. طيط.. على هالدنيا. بأربع فلوس ما أشتري هالدنيا الجربة الواقفة على قرن ثور. أربع فلوس كثيرة عليها. وبالمقابل، أرجوك، آني أيضاً ماكو شخص يشترني بفلس واحد. مقابلة بالمثل أخي. لكن.. أنت مدحت.. لا.. لا، أنت.. لا. خلي حكايتي هذه بفكرك. آني أعتب عليك إذا تسمح لي. خلّيني أعتب عليك، أخي، لأجل أن أرتاح، لأجل أن أحترم نفسي، لأجل أن أقول عندي خيط مع الدنيا ما انقطع.

ورفع كأسه وشرب منها ثم التقط حبة باقلاء دسها في فمه بسرعة. اختلطت الظلال المحيطة برأس حسين مع تجاعيده السوداء فتباعدت عنه مظاهر الانهيار واكتست ملامحه، على نحوٍ ما، بمظهر الحدّة والتكامل. رآه لاوياً عنقه نحو أبي شاكر ورفيقه، يراقبهما يتهامسان. ثم مد يده مرة أخرى فتناول شيئاً من صحن الباقلاء وضعه في فمه. كان منشغلاً بما يدور بين رفيقيهما، ذاهلاً عن نفسه وعن إتمام الحديث الذي بدأه فجأة معه. ثم همس في أذنه:

- الآن، حكايتهم مقبولة، بس ما إن يسكر هذا أبو عبعوب حتى تتخربط علينا.

كان أبو شاكر يكلم الأعرابي بحدة وهذا ينصت إليه باستكانة ولكن باهتمام. هتف حسين:

- الله بالخير أبو شاكر، النتيجة، أخي؟

واجهتهما سحنة أبي شاكر الغامضة لحظات. كانت نظارتاه السوداوان تخفيان نصف وجهه، وشاربه المتهدّل الطويل يمحي الفم من الصورة. أجاب:

- أخوية أبو سها، أخي أستاذ مدحت، إحنا داخلين بقضية ما لها حل، آني والزميل المحترم أبو عبعوب، وإحنا نعرف كلش زين أن القضية ما تنحل.

- الله أكبر.

التفت أبو شاكر نصف التفاتة إلى الأعرابي وهو يستأنف الكلام:

- .. فأحنا نعرف والحمد لله، بس ما أدري منو قال، نريد نمسك الصفحة البيضاء من القضية، أو بالأصح، والمعذرة يا جماعة، ما نريد نترك هالفطيسة.

رفع حسين كأسه صارخاً:

- أحسنت أبو شاكر. چريو بالعجل.

وكرع ثلاثتهم محتويات الكؤوس. تمطّق حسين وهمس حالما وضع كأسه:

- لاتصدّق هالحكي. هذا أبو عبعوب، قصّته قصّة. آني هسّه أحكيها لك. فطيسة شنو، بطيخ شنو؟ سرسرية. أوغاد.

كان في نشوة وهو يستمع إلى كل هذا الهذر. بدأ العرق يعمل عمله في أعصابه منذ دقائق، فارتدت الأشياء والوجوه والحركات ألواناً غير مألوفة. كان راضياً عن تلك الغمامة التي تلتف حول عينيه، مسروراً بشكلٍ من الأشكال.

- ... أي والله مدحت، بنت السركال، يعني رئيس الفلاحين، نفسها أقول لك. حورية اسمها. ملعون الوالدين ما لقيت واحدة أخرى تحبها غير بنت السركال؟ وأنت.. من أنت.. منو أنت ياب؟ راعي غنم، ويمكن مساعد راعي غنم أخ القحبة.

ثم غرق في ضحكة اختلطت بسعال خضّ بدنه. كان أبو شاكر ورفيقه في خضم حديث لاينتهي:

- آخ يابه. بعدها القحّة إلى هسه بصدري. خرة بدين هالقنزة ونزة.

سأله مدحت بصوت أجشّ:

- شنو بنت السركال؟ منو هذا؟

أشار إليه حسين بيده أن يخفض صوته:

- خفض صوتك عيني مدحت. مو صار لي ساعة وأنا أحكي لك. هذا أبو عبعوب كان يحب بنت السركال الحاج علوان الجلعوط. لا والله.. المهطور. نسيت اسمه انعل والديه؛ وكان يتغنّى بيها. لكن هو مثل الخادم، تعرف. سكند راعي غنم. نصف راعي غنم حسب قول أبو شاكر. آني ما أعرف، هذا هو كلام أبو شاكر. أكو شيء من هالنوع أم ماكو.. آني ما أدري. لكن الأخ المغرم كان في هالمركز الرفيع. بس ربك من يريد، سبحان الله. وإذا بحورية، بين ليلة وضحاها، حامل بشهرها العاشر.. ما أدري الرابع عشر.. يعني مثقلة بحملها ابنة اليمني.

توقّف. رآه يتطلع إليهما خفية، وقد بدا عليه التوجّس والحزن لغير سبب. تساءل:

- هذوله شديحكون خاطر الله مدحت؟ قاعد تسمعهم؟

- لاع. ليش فكرك معهم؟

مطّ شفتيه:

- آني فكري يمّهم! لا، على بختك.

ثم رفع الكأس وكرع منه طويلاً. أغمض عينيه قبل أن يعيده إلى مكانه:

- هذوله نص جواسيس، نص حيوانات. ما تعرفهم على حقيقتهم. وآني هالأيام ما أدري شكو بي. مقهور شوية وأحس أكو شي بالجو.

رسم بذراعه عدة دوائر مضطربة:

- كل طقة، أفز. شكو؟ ما أدري. بس، شي بالهوا، بالسما، ما يخلّيني أرتاح. شنو هذا هالشي هالمذهب الحلو؟ ما أدري.

- وهذا أبو عبعوب.. صار به شي؟

استغرب سؤال مدحت:

- هياته، قدامك. ما يقتله أي مرض. نص قنينة عرق يومياً وأحياناً كاس زيادة.. رب الكركدن.. أنت لويش تسأل عنه، عيني مدحت؟

ثم نظر إليهما مرة أخرى:

- ما أسمع شديحكون هذوله القواويد.

- وبنت السركال حورية، وين وصلت حكايتها؟

- شلون عرفت بيها الله يخلّيك مدحت؟ خاطر الله، على كيفك لا يسمعك هذا الرب الحلو أبو عبعوب. تره هذا خنجره بحزامه الملعون الوالدين. أنت منين سمعت بيها؟

لم يجبه. شرب من كأسه:

- شنو أنت مخرف، حسين؟ لو دتنسى بالعجل؟ مو هسه قاعد تحكي لي عليها أنت؟

بدت الريبة على وجه حسين، ريبة غبية. لم يكن يفتعل شيئاً. مدّ يده بسكون والتقط بعض الباقلاء ثم دسّها في فمه. عاد يهمس:

- أي. أي صحيح. دا أنسى. ما أدري شكو بي هالأيام. على كل

حال، هذا قصته قصة. زوجوه لحورية. زوّجوا حورية لأبو عبعوب، لهذا الأجرب وهم الممنونين. تالي دزوهم يسكنون بغداد والمصرف عليهم. قواويد ما أدري منيش خايفين. هسه أشصار؟ بنية غلطت، أي شنو يعني؟ ترسية ألف سالفة مكسرة تحت رأس كل واحد منهم. لعنة الله على والد والديهم إلى سابع ظهر.

تناول مدحت كأسه ودلق محتوياتها كلها في جوفه بسرعة. تقلص فكاه قليلاً، لكن الطعم اللاذع لم يدم في فمه طويلاً. كان الدخان يتماوج في جو ذلك الكهف المظلم؛ أبيض، ليناً، وجمرات السجائر تلتمع بين هنيهة وأخرى. سمع أبا شاكر يتجشأ ثم يتنهد ويقح:

- البارحة أبو سها رجعت أشوف ذاك الحلم اللي حكيت لك عليه قبل شهرين. حلمت مرة لاخ دا أقود مظاهرة يا جماعة..

- الله أكبر.

- أي والله أبو عبعوب، مظاهرة حقيقية يعني، وأخوك على راسها، وإحنا نركض ونهتف «متأسف جداً للغاية» والدنيا يا إخوان...

... أرادت أن تقول له شيئاً حينما تركته يسحبها، ذات ليلة قبيل الزواج، إلى غرفته. كانت مبتسمةً أول الأمر، يتناثر شعرها على عينيها خلال تطلعها إلى نواحي الدار الساكنة قبل أن تدخل. ثم أمسك بها، احتضنها مشغوفاً وأطبق بفمه المحترق على شفتيها. أغمضت عينيها ومنحته الشفاه الطرية المبللة، ولم يسعها الكلام. وفي تلك الهنيهات الأثيرية، خارج حدود العالم والزمان، كانت الرائحة الأزلية المتأتية من تملّك الكون، تفعم فؤاده. كان يشدها بذراعيه، يطوقها ويضمها إليه، وهو خائف متردّد حذر من سعادته الفائضة. سحبت فمها وزفرت بشدة

وصدرها يدفع صدره، ثم همست شيئاً ما فرفع يده إلى وجهها وأمرّها على صفحة خدها الحارة وعلى رقبتها. كانت عيناها الصفراوان تعكسان أضواء غير مرئية. همست مرة أخرى بكلمات لم يفهمها. ثم غامت قليلاً رؤيته. كان متوتراً تحرقه الرغبة المجنونة. لعلها أرادت آنذاك أن تفهمه بأمر معين عبر كلماتها التي لم تصله. مد يدّه نحو صدرها يمسك بالنهد النافر. كانت ترتجف ورآها تبلل شفتيها فعاد يطبق عليهما. لم يكن في العالم غير ذلك المذاق الطيب المتأتي من فمها وغير تلك الملامسة الناعمة. وكانت أصابعه قد تجاوزت حدود القماش واندست برفق، أول الأمر، تلاحق طراوة اللحم اللين. شعر بها مستسلمة له، ولم يدخل في وعيه ارتجافها المستمر. كان ممسكاً بقسم من ثديها الأيسر العاري كطائر صغير حار الجسم. منعته فتحة الثوب الضيقة من تملكه، فدفع يده بشدة فسمع انقطاع الخيط وسقوط شيء على الأرض، واحتضنت أصابعه بغتة نعومة النهد المهتز بخفة وسمعها، تحت فمه، تشهق. أذهله عمله، ثم نزل بفمه نحو رقبتها وصدرها فغطى صفحة عنقها بالقبل وأراد أن يرفع الثوب ويصل بشفاهه إلى الأسفل لكنها سحبت نفسها قليلاً وجلست على طرف السرير خلفها. لا. لا. لا. لا. كانت هذه هي تنهُداتها ورآها تضع يداً رفيقة على يده المختبئة تحت الثوب. كان قلبها خافقاً، ترتجف نبضاته وتتسارع بشدة. شعر كأنه يمسك بقلبها أثناء ما كان يحتوي النهد الدافئ ويعصره. كانت تمنحه، بشكل غامض، حياتها، ولم يخطر له آنذاك أن يتساءل عن السر في ذلك....

- چريو. صحتكم يا جماعة. چريو بالعجل.

- الله أكبر. الله أكبر.

كانوا يصرخون لسببٍ لم يعرفه، ويضحكون رافعين كؤوسهم إلى أعلى. تناول قدحه هو الآخر وعبَّ منه. هتف أبو شاكر:

- شوف أبو سها، الحكاية مو آني دا أقود مظاهرة سلمية لو مو سلمية، الحكاية آني لويش دا أشوف هالحلم كل كم يوم؟ ها يابه، أستاذ مدحت؟ هو شنو الفرق بين الحياة والحلم؟ كلها أحلام وداعتك أبو عبعوب..

قاطعه حسين:

- صح أبو شاكر، صح. لاكت إحنا ملاحظتنا على الشعار.. متأسف جداً للغاية، شنو ياب، لويش متأسف أخي؟ ولويش طالع مظاهرة ومتعب قلبك وقلوب الناس إذا أنت متأسف للغاية؟

وقهقه. عاد أبو شاكر:

- شاهدنا والسلام، نريد نعرف الحقيقة من هالأحلام يا جماعة.

- منو يقول أكو حقيقة فيها؟

دهش أبو شاكر وأبقى الكأس في منتصف الطريق إلى فمه:

- ليش ماكو حقيقة أبو سها؟ تره البشر كلهم يموتون إذا ماكو حقيقة. آني أحذّرك.

همس حسين:

- شو وين راح يدخّلنا.

ثم هتف:

- عيوني أبو شاكر، آني مو ضد الحقيقة. آني ياهو مالتي. لاكت شوف أجدادنا يسموها أضغاث أحلام، مو آني؟ شنو علاقتها بالحقيقة؟

تمام يابه مدحت؟

التفت أبو شاكر إلى جواره:

- ليش ساكت أبو عبعوب؟

نفث أبو عبعوب دخان سيكارته بقوة ولم يتحرك. كرّر أبو شاكر سؤاله:

- أبو عبعوب الورد، لِمَ السكوت يا أخي؟

ارتفع صوت الأعرابي:

- صلي على النبي خالي، وقول الله أكبر.

ضحكوا.

أغمض عينيه فدارت به الدنيا. استراح لدورانه ذاك وود لو استطاع أن يغني أغنيةً حزينةً، أو أن يسترسل مع الشلال الخفي الذي يهدر داخل أعماقه وينتقل معه من عمق إلى أعمق وأعمق؛ عساه يكشف عن النفس المفعمة بالأسرار التي لم تزل مغلفة بألف غلاف. النفس، نفسه، التي يهرب منها. هروب هو أشبه بالهروب من الشمس أو من الموت. هروب تعيس محكوم بطبيعته أن يكون مؤقتاً، محدوداً بزمان. لعله هروب من أجل استرجاع الأنفاس.. ربما.

سمع حسين يكلّمه:

- .. باشا والله كرومي. رقيق. حساس ومرد بنفس الوقت.

فتذكّر أن أخاه عبد الكريم زاره:

- شكو عنده كريم وياك، حسين؟ لويش جاء إليك، ها؟

كان حسين يحشو فمه بالباقلاء فتوقف ثم استدار إليه ببعض الدهشة:

- ذكرتني رب الحلو مدحت.. العفو.. عيوني مدحت ذكّرتني. لساني هالأيام مجرور على غير مستوى. لاكت أنت هسّه ذكّرتني. كريم تره جا يسأل عليك. ليش أنت وين أخي؟

... كان وجهها المنور الهادئ هو نفسه حين جاء يسألها عن محتويات رسالة أخيها وحين طالبها بتحديد يوم الزواج وحين خرج ذلك الفجر من حياتها وأراد أن يغلق باب غرفتهم خلفه فوجدها نصف جالسة في فراشها، فراشهما، ووجهها المنور الهادئ يتركه أمام مصيره..

- .. قلت له عيوني كرومي، خليني أفتهم بعض الحقايق. كنت دايخ شوية. شربت هواية قبل ليلة. وربك كل ما أشرب شوية زايد، تجيني ثاني يوم كل مشاكل الدنيا. تعال حل مسائل عويصة وأنت رأسك مو بمكانه.

صاح أبو شاكر:

- صحتكم إخوان. وينك أبو عبعوب؟

- چريو أخي. چريو بالعجل.

وتعالت أصوات الكؤوس توضع مكانها على براميل العنبة. صفق أبو شاكر بشدة:

- أبو كمال. أبو كمال. ماي وثلج الله يخلّيك. أنت كم كاس العوازة مالتك هاليوم أبو عبعوب؟

- نص ربع، خالي.

- نص ربع مستكي أبو كمال مع المزة المشهورة الله يخلّيك. ناويها الليلة أبو عبعوب؟

- الله أكبر.

ثم ارتفع صوته مغنياً:

- چن الولف.. يمة حو.. جاوين... جاوين أهلنا.. جاوين أهلنا.

همس حسين:

- هاي بداية اللواص والفوضى.

ثم عاد يسأل:

- وين وصلنا؟ ها، فآني دايخ وكرومي، الله يسلمه، يحكي الحكاية من النصف. هواية تحيّرت وارتبكت. شنو مدحت ماكو؟ شنو خرج من البيت؟ شنو تزوّج؟ قلت له عزيزي كرومي.. قف. إذا ما تعطيني الحقائق قطرة قطرة فعلى الأقل حسب الحروف الأبجدية.

كان أبو عبعوب يتجشأ ويعتذر ثم يستأنف الغناء، وأبو شاكر يتناول أطباق المزة وقنينة العرق من يد أبي كمال ويضعها بعناية أمامه.

سأل حسين:

- لويش.. لعد.. جاء.. عليك كريم؟ أقو لك.. شكو.. عنده وياك؟

بدا له صوته خشناً، يتلاين في بعض المقاطع دون إرادته. أجابه حسين:

- مو داحكيلك عيني مدحت. هو جاء يسأل عليك. يقول مدحت عندك؟ مدحت شفته لو ما شفته؟ مدحت ما تعرف أشصار به؟

ثم رفع كأسه إلى فمه:

- آني... تعرف عيني مدحت.. قلت له كرومي أخي، ليش آني أعرف نفسي وين حتى أقول لك مدحت وين؟ ثم، عيوني أنت، مدحت لويش يطلع من بيته يابه؟

... انفردا أخيراً بعد منتصف الليل، وكانت في ثيابها البيضاء البسيطة والوردة الاصطناعية الحمراء الصغيرة على النهد الأيسر. مزوقة الوجة كحيلة العينين، ولم يكن قلقها خافياً. طلب بحزم من أهله أن يخلدوا إلى النوم وألا ينتظروا منهما شيئاً، وكان متعباً، ترهقه الأشواق وتفاهات المراسيم التي مرا بها. أحسّ بها، بشكل ما، بعيدةً عنه، وأرجع ذلك إلى قصر مدة تعارفهما قبل الزواج. قال لها...

- جا وين أهلنا. جا وين. جا وين أهلنا.

- ما يريد يقول لي صارت خطبة ومهر زواج وآني ما أدري ولا أعلم. حسبت ديستحي من عندي. تأثرت، لا والله حزنت هواية.

- أعد أبو عبعوب. ورد حقيقي أنت.

... كان الحوش ساكناً، وكانت تجلس على حافة السرير تنظر إليه. صفراء العينين وفمها ذو حمرة لامعة، وكانت تعصر المنديل بين أصابعها وتبدو ذات هموم أكبر مما يتحمله موقفهما. اقترب منها وقبّلها دون أن يمسّها وكانت تنظر إليه. لمح شيئاً ما خلف كل هذه الملامح الجميلة والألوان. احتضنها ولمس اللحم الطري البارد وشمّ تلك الرائحة العطرة النفاذة منها، ونسي، خلال لحظات، تعبه والأصداء المترددة داخل نفسه وصار يستجيب لمتطلبات جسده المتحفّز. كانت تلك الهنيهات فترة راحة لهما، لم تستمر طويلاً....

كرع محتويات كأسه، أفرغها من السائل المحرق ولم يهمّه الطعم المرير في فمه. كان مهتاجاً، تغلي مشاعره بهدوء دون أن يرتد جسمه بردود فعل مؤلمة، وكان حديث حسين وغناء أبي عبعوب الحزين يمسان نفسه مسّاً رقيقاً. سمع حسين يكلمه بصعوبة، داكن التقاطيع:

- .. سمفونيات تقوي عضلات روحهم. وإحنا.. أخينا بالله.. يتحسر على أهله وعلى الباعر مال روح موتاه. سكند خروف وقاعد يجوعر برأسنا. هاي شلون عيشة عيوني مدحت؟

أجابه بصوت أجش متراخ:

- أنت.. لو.. لويش حاقد على.. أبو بعب.. عبعوب؟

لم يقصد أن تتعثر كلماته هكذا، وخطر له أن من الأفضل أن يتحاشى الجمل الطويلة. تلفت حسين بسرعة ثم أشار إلى الأعرابي:

- أحقد على أبو عبعوب؟ لا والله مدحت، ما عندي قوة، مالي مزاج أحقد على أحد. لا. ما عندي حيل ولا قوة.

- آني.. هم مثلك. ما عندي حقد.

- لويش عيني مدحت؟ شاب وموظف ومتزوج والمستقبل قدامك، ليش ما بيك حيل تحقد؟

اختلطت الأمور قليلاً عليه. لم يعرف هل كان حسين هازلاً. مسح وجهه وعينيه براحة يده اليمنى. سمع أبا عبعوب:

- يمه حو.. يمه حو.. چاوين أهلنا.. چاوين.. چاوين أهلنا.

أيحنّ هذا المخلوق المتبلد إلى أهله، وطنه، رائحته الخاصة؟ ويرفض الحياة التي رتبوها له مع حبيبته الخاطئة؟

- على كيفك أخي من فضلك. الدنيا رمضان والشرطة رايحة جاية.

كان أبو كمال يتكلم بهدوء وهو يقف نافد الصبر أمامهم. وجموا، ثم أخذوا يشغلون أنفسهم بأمور الشراب كأن الحديث لا يعني أحداً منهم. خرج أبو كمال. تمطّى أبو شاكر وتجشأ أبو عبعوب. قال حسين يحدّث نفسه:

- أشهد ما بالله خوش موسيقى. سمفونية بشرية. بس شوية منحرفة عن الأصول الموسيقية. ينراد لهم مايسترو قوي وتمشي أمورهم.

ثم ضحك دون صوت ووجّه الكلام إلى مدحت:

- هاذي بداية القسم الثالث من سهرة المساء، فإذا لازمنا الحظ إلى نهاية الجولة، يمكن أن تشوف أخي مدحت بعض أعاجيب الطبيعة. تره أنت مدعو عندي اليوم ومشرويك على حسابي. تدري لو ما تدري؟

- شكو عنده كريم؟

تطلّع إليه بدهشة:

- أنت شبيك عيني مدحت؟ لويش بالك عند كرومي؟ ما عنده شي. والله ما أتذكر قال فد شي مهم. يمكن واحدة من العجايز وجعانة، بس ما أعرف منو هي.

- .. يمه حو.. چاوين أهلنا. چا.. وين.. چاوين أهلنا.

- لا، شكو.. عنده كريم؟بالبيت.. كلهم زينين؟

- كلهم زينين. هم شكو عليهم. أنت.. أنت.

ثم ضرب حافة الكرسي براحة يده:

- أنت عيني مدحت، شكو عندك قاعد معنا بهذا الاسطبل، وتارك الحلوة وحدها بالبيت؟ أنت تدري يا عيوني شنو اللي تضيّعه؟

رأى ذراعه تمتد نحو كأس العرق وترفعها ثم تقرّبها بطيئاً من فمه. أحس لذع السائل المر وحرارته في أحشائه:

- أشكرك.. أبو سها. آني مرتاح هسّه وياكم. هذا.. مو اسطبل.. بالمناسبة. ولا هو زريبة. آني.. دا أحس آني مرتاح وياكم. ماكو واحد، يعني من القاعدين، يريد يخدع أخوه. تمام يابه؟ ماكو هيك شي. أنت

قاعد تشرب وآني قاعد مثلك، والأخ أبو شاكر والأخ أبو بعبوع. العفو.. أقصد.. أبو عبعوب. كلنا قاعدين إخوان. ماكو واحد يخدع اللاخ. زين، أنت لويش تقول هذا اسطبل؟ الحيوانات، أبو سها، إذا تريد.. يعني تخلّيها على مستوى الغش والخداع، فهي ما تعرف تقشمر الواحد على اللاخ. ما عندها وقت أخي. ما عندي شغل أخي آني أحوك مؤامرات من أجل التسلية؟ شكو عندك.. هي كلمات متقاطعة؟ فآني ما مضيع شيء من الناحية الثانية، لأن بهالدنيا الجرية أنت ما تضيع غير حياتك. آني حياتي..

- تعذرني أستاذ مدحت.

- آني حياتي ويّاكم. مع القطيع النقي القلب، الغبي. آني سعيد مع الأوادم الجيدين. جيدين، شنو؟ ما ياكلون حق غيرهم. لويش ما ياكلون حق غيرهم؟ لأنهم زمايل، حمير.

سمع ضحكاً مكتوماً فالتفت. كان أبو عبعوب ساكتاً ينظر إليه برزانة وأبو شاكر يرسل ضحكاته الصغيرة. خُيِّل إليه أن أحداً يكلّمه. كان حسين محشو الفم بشيء يمضغه بصعوبة. رجع ينظر إلى أبي عبعوب:

- نعم؟

- تفضل، خال خالي.

- صحتك أبو بعب.. عبعوب. آني هواية متأسف لأن ما متعرف عليك من قبل. فآني، أبو سها أخي، ما مضيع شي. والناس.. اللي تحكي.. عليهم.. بالحقيقة.. آني كل شي.. ما عندي ويّاهم. آني ما أفتهم هالناس.. يعني شيريدون مني.. يعني شنو كانوا.. يريدون،

أرجوك؟

- خالي، أنت بعيد عن هلك؟

كان أبو عبعوب يعيد الكأس إلى مكانها وهو ينظر إليه بعينين سوداوين كعيني ذئب. لا غرو أنه راعي غنم:

- الأهل؟ منو هم الأهل أول نوبة، أبو بعب.. عبعوب؟

تدخّل حسين:

- أخ أبو عبعوب، الأستاذ مدحت موظّف بالوزارة وهو بغدادي أباً عن جد وقرايبي هماتين.

- العفو، خالي. أنا ما قصدي..

- لاكت آني ما عندي أهل أبو.. أبو عبعوب. والأخ حسين تره غلطان، أرجوك.

- هاي شنو مدحت، عيني!

رفع ذراعه اليسرى إلى أعلى:

- لا. لا. لا. شوف أبو سها، شوف، الأخ أبو بعب.. أبو عبعوب، نعم، سؤاله وارد. وأنت تعرف زين، أبو سها، منو الأهل؟ أنت.. أنت مثلاً.. أنت منو عندك؟ أنت منو بحياتك هسّه؟

- الكأس والخمرة وصحن اللبلبي.

أجاب أبو شاكر ضاجاً بضحكه وهو يرفع الكأس ويشير بكلتا يديه، يحث أبا عبعوب على الشراب. شاركه حسين الضحك دون أن يبدو عليه الانزعاج. كان بودّه الاستمرارُ في الحديث رغم هذه الاستجابات. لم تتملكه مثل هذه الرغبة من قبل في الانفتاح وفي إبداء الرأي. صاح وكأنه يتكلّم بشكل اعتيادي:

- كلامك نص صح أبو شاكر. هاي الأشياء ما تخونك، إذا تسمح. يعني الكاس فد يوم ما يصير جرة بين ايديك، ولا العرق دبس.

تعالت ضحكاتهم المختلطة وتسربت إلى أذنيه كلمات أبي عبعوب:

- ولا اللبلبي.. بعرور. لا، خالي، ما الداعية؟

كانوا، في ظلمة الجحر المثقلة بأنفاسهم، يشهقون بدخان سجائرهم وبشرابهم فتتعالى أصداء قحاتهم مع ما تنفثه رئاتهم المخربة. ضرب على سطح البرميل قبالته عدة ضربات فتقافزت الصحون والكؤوس وصرخ مكملاً حديثه:

- تشبيهك.. هم وارد أخ.. بعبوب.. أقول أبو عبعوب.

- ماني عاملها عمدة خالي.

أغضبته هذه المقاطعة:

- خلّيني أكمل سيد.. عبعوب، أخ أبو عبعوب.. خلّيني أكمل.

سكتوا قليلاً. نسي لحظة ما كان يريد أن يقوله. نسي فكرته:

- أريد أقول فد حكاية واحدة فيها معنى، اخوان. صار ساعة غاطسين بثرثرة ما إلها نهاية. خل دنفتهم حكاية واحدة على الأقل.

كان متقطّع الأنفاس، يلهث بهدوء وهو يتكلم. لم يرد أن يتوقف أو ينتهي حديثه هكذا. كانت في نفسه حاجة للاستمرار إلى الأبد. سمع أبا عبعوب:

- خالي، آنا أتشاغه. آنا ما أريد إلاّ خاطرك طيب.

أجابه أبو شاكر:

- ولو أبو عبعوب. إحنا دنتشاقه هماتين. لاتدير بالك ولا تهتم.

- إنت علويش هسه دتشاقه يا أبو عبعوب؟ مو الأستاذ مدحت ديتفاهم ويانا.

أكمل حسين. بدا على الأعرابي كأنه يحاول الاعتذار. سكن لحظات:

- آنا.. يا خوان.. من حلاة روحي.

- أنت شبيك هالنوبة يا أبو عبعوب؟

- شنهو؟ لا. ما شي إلا الخير. ماني مرتاح يا خالي. هاي هي المسعلة. روحي يم أهلي. أريدن أكون جريب عليهم، على الغنمات والعتابة وطرة الفجر والهوا الطيب والخبز الحار والحليب... والروايح...

ثم أخذ يهزّ رأسه من جهة لأخرى، كمن يغني أو كمن يداري ألمه:

- يا روايح، أبو عبعوب؟ ريحة الروث وضراط الزمايل والأباعر؟ ما تخلينا عايشين بين هالوجوه الحلوة وماي الورد. خلينا أخي.

ثم رفع أبو شاكر قدحه فتبعه أبو عبعوب بسكون. شربوا جميعاً. كان حسين يهمهم شيئاً ما، يلوك كلمات لاتصل إلى أذنه. خبت في نفسه تلك الرغبة في الكلام وأحسّ تعباً وخموداً ينتابانه. ثقلت أجفانه وانبعثت في رأسه بداية دوامة. أشعل سيجارة وخطر له أن من المستحسن أن يغسل وجهه بماء بارد. التفت إلى حسين. رآه يكلم أبا شاكر. أمسك بذراعه. كان رأسه يدور. قال لحسين:

- شوف.. حسين. شوف تره.. آني يمكن.. شوية دايخ.

قرّب حسين وجهه منه:

- شنو يعني؟

- أقولك، تره دايخ.. شوية دايخ.

- ليش عيوني مدحت، الليل بعده بأوله والفصل الختامي..

ثم سمعه ينادي:

- أبو كمال.. أبو كمال. الحساب بالله أبو كمال.

- أشو من وكت أبو سها؟

- خلّهم خالي يروحون لهاليهم.

- نعم، سيد حسين؟

- الحساب أبو كمال. أي، إحنا الاثنين. بالعجل بالله.

... كانت مضطجعة بسكون، لا تريد أن تبوح له بسرها؛ وكان محترقاً بنار تتأجج في داخله وتصل إلى قلبه وعقله. ولمست جبهته وانكشف نهداها المستديران فتركتهما لعينيه ولأنامله وشفتيه. لم تتكلم. امتصّ شفتيها؛ السفلى المتورّدة، وضعها في فمه وضغط عليها بأسنانه، وكان مغمض العينين، مستسلماً لدفئها ورائحتها ونعومتها، فأحسّ بها تحرك لسانها وتمسّ به شفته. رآها نصف مغمضة عينيها والصفرة الذهبية المشوبة بخضرة خفية تبدو له من وراء الأهداب السوداء. أحسّ فيها نبضة الشهوة الأولى وإيماءة الحب. إنها لاتكره كل هذا، ولعلّها لا تخشاه مثله. عصرها..

- خليني جاعد يا خالي. يا هي مالتي آنا.

- لا تتعيقل براسي أبو عبعوب. طلّع صرتك وادفع حسابنا.

- أنت شمالك يا أبو شاكر؟ جنك مهمود الصفحة أخو كاطع، تتكاون ويّا الهوا.

- يالله عيني مدحت.

قام مع حسين يسير بتخاذل لم يعهده قبلاً ونظره مضبّب.

-.. هاي عليٌ هالنوبة أبو عبعوب؟ دحك هنا، تره آني بايع فرارات وخبز يابس، تره آني..

منحه الهواء البارد لحظة ارتياح فاستنشقه ملء رئتيه.

- عربنجي. عربنجي. أوقف، أوقف.

ثم استدارت به الدنيا من هنا إلى هناك وتقلّبت المناظر أمامه فاتكأ مغمض العينين، على ذراع حسين.

- تعال أخي جاي. شو ربّ الحلو وين توقف. عيوني مدحت، أنت ترجع لبيتكم، مو تمام؟

- لا.. ع. لا.. ع. لا.

- أويلاخ. وين نازل لعـــد؟ وين تريد تروح؟ شنو؟ هاي شلون مشكلة. تعال ارجع شويّة لاخ. شنو ياب؟ شنو سكارى؟ ماكو عدنا واحد سكران. أنت دير بالك على خيلك. أخاف أنت سكران! هسة وين تريد تروح عيوني مدحت؟

لم يجبه. امتدت يدٌ تحت إبطه ورفعته فارتقى درجات العربة ثم تهاوى على المقعد.

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ودّينا ياب إلى حي الكراد في باب الشيخ. وراء مقهى «ياس». تعرف أنت زين المنطقة؟ شيخلي، جنابك؟ تشرّفنا. بعد علويش هالحكي كله يابه. دمشي، دمشي الله يخلّيك.

... كانت معتصرة بين ذراعيه، متلاينة تحته، تتلاحق أنفاسها ذات النكهة الغريبة. ابتعد عنها قليلاً، رفع صدره عن صدرها العاري. أخذ يتملى من رؤيتها هكذا. منيرته، زوجته، حبيبته. كانت رقيقة الجلد، ممتلئة النهدين والبطن. جذبت نظره لحظة عظمتا حوضها ورآها تغلق

ببطء فخذيها. كانت معتصرة، لاتتكلم، تحته. كانت تقول له بجسمها ذي السمرة الخمرية، شيئاً لم يكن يفهمه. وحين جذبته إليها كأنها لاتريد منه أن يطيل النظر في خفايا الجسد، أحسَّ بها تعيد فتح فخذيها لتحتويه...

كان الهواء بارداً، مشوباً بروائح طعام محروق، وأرجل الخيل تضرب الشارع برتابة وبعض الأغاني الخافتة تبلغ أذنيه من حيث لايدري. لم يشعر بحسين قربه ففتح عينيه. رآه مستلقياً، مثله، إلى جانبه واضعاً ساقيه على المقعد أمامهما. كان الحوذي يغمغم أغنية مع نفسه وشارع «الكفاح» الفارغ، مغلق المحلات إلا من مقهى أو اثنين. عاد يسدل أجفانه الثقيلة ويستسلم لأرجوحة العربة المهدهدة وللنسائم الخفيفة الباردة. دار رأسه وأمسكت به دوامة حالما أغمض عينيه. صارت ترفعه وتدور به وتدور، دوائر فوق دوائر داخل دوائر. سلسلة من الدورات المدوَّرة بلا معنى ولا هدف. لم يقاوم. أحسَّ بأحشائه تتخاذل أمام ضغط الدوار عليه، فتضطرب وتفور. سمع أحدهم:

- وين يا جماعة قلتوا تروحون؟ حي.. شنو؟

قحَّ حسين بعنفٍ وأشعل سيجارةً:

- لاتغشّم نفسك أخي الشيخلي. إحنا وين هسّه؟ هاي مو فضوة عرب؟ بعدنا وين! مو قلت لك وراء مقهى «ياس». إلى الأمام، أخي. من توصل مقبرة جامع الكيلاني، إلفت على اليمنة. وين القلغ، هو هذاك الشارع. شنو؟ شنو ياقلغ؟ مركز شرطة باب الشيخ أخي. تره أنت ثخنتها. يبين عربي هم ما تفتهم.

كان الإصغاء إلى حديث حسين يبعد عنه الغثيان بشكلٍ ما،

الغثيان الذي يحسّ ألا مندوحة عنه الآن أو بعد قليلٍ، أو بعد طويل زمن. لكنه، هذه المرة، يشعر أن بإمكانه أن يواجهه، أن يتغلّب عليه.

... حين انتهى كل شيء خرج من الغرفة يتمشّى في ناحية من الدار دامسة الظلام. كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحاً والليل جاثماً على الدنيا المرعبة، وكان موزّعاً مشتّتاً. أراد أن ينزل فلم يستطع ووقف في زاوية بعيدة من الطارمة مستنداً إلى المحجر الخشبي البارد. كان يرتجف، وأحشاؤه وصدره تفور. لم يرد أن يرى بشراً. دَهَمَه هذا الإحساس لحظتئذٍ ولم يفارقه. لم يرد أن يرى بشراً. كان مشمئزاً، مهاناً، يريد أن يخلد إلى صمت أبدي. آنذاك، وهو يتطلّع إلى ضوء غرفتهم الخافت، هاجمه غثيان مزيّف. اهتزّ بدنه المرتجف بموجة من التقلصات تبعتها أخرى فامتلأ فمه بسائل مرّ المذاق ودمعت عيناه. كان مطحوناً، لا ترتبط أفكاره بواقعه. تهوع مرة ثالثة واستند إلى المحجر لاهث الأنفاس. كان بمقدوره أن يموت بسكون هناك. إلا أنه لم يرد أن يرى أحداً. تلفّت بذعرٍ حين تخيّل أنه سمع حركةً ما. كانت السماء داكنةً لامعةً تبرق عليها النجوم والحيطان العالية السوداء تحيطه مثل حيطان البئر. لم يرد أن يرى أحداً. عاد بهدوء إلى الغرفة يرتدي ملابسه. كانت غافية، ينتشر شعرها على المخدة ويخفي بعض وجهها. لبس ملابسه كاللص يخشى أقل نأمة تصدر عنه. لكنها استيقظت حين كان يهمّ بالخروج من غرفتهما. جلست متكئةً على السرير، منوّرة الوجه رغم الإرهاق، وفي عينيها المضببتين تساؤلٌ مؤلمٌ. ولمح، قبل أن يفصله الباب عنها، الخط المدور لنهدها الأيمن والتجعّدات الرقيقة لما تحت إبطها...

- مدحت، عيني مدحت، تروح للبيت؟ تره وصلنا شارع الكيلاني

وبعد وكت هسّه. إذا تريد..

قاطع حسين بفزع:

- لا. لاع. لاع. لاع. أقول لك.

ثم تابع:

- وديني للأ.. وتيل. منو قالك لك.. أنت..

توقف:

- إحنا وين؟ وين إحنا، حسين، ها؟

- على كيفك مدحت، على كيفك. مادام هالشكل القضيّة، ما عليك أنت. لايظل بالك. آني أعرف وين أوصلك. ميخالف. تنقضي. أمشي أمامك أخي، على طريقنا القديم. على الدرب القديم نسير. امشي شويّة بعد، من توصل الشارع مال القلغ ألفت على اليمنة. افتهمت ياب؟ ديالله أخي.

ثم ربت على كتفه:

- ميخالف عيني مدحت. أنت اليوم ضيفي حتى مطلع الفجر. بس لو ناطيني خبر على بختك قبل فد مدة مناسبة، فد إشعار بسيط. ميهمّ. أخوك مستعد لكل طارئ. ميهمّ.

لم يفتح عينيه. بدا له الاستسلام لتلك الدوائر الدائرة لذيذاً غير ذي خطر؛ ولو انتهت ليلته هذه دون تعقيدات الغثيان وملحقاته، لأمكن أن يقول عنها إنها كانت سهرة ناجحة. إلا أن الفوران المستمر في أحشائه وصدره ورأسه، يجعل هذا الافتراض غير معقول. وعندئذ، يتوجب مواجهة الأمور على مستوى آخر، هو.. مدى افتراس الغثيان له؟ أو، إذا أمكن أن نضع السؤال بصيغة أخرى، ماذا سيبقى منه بعد تجربة

الغثيان المقبلة؟ بالطبع الجواب هو..

- إي. إي أخي. على اليمنة. شنو وين صار القلغ؟ دمشي شويّة أخي. إحنا راح نوصل، وهو يسألني وين صار القلغ. أنت يا هو مالتك؟ مدحت عيني، ما عندك صرف أو خردة؟ آني عندي نص دينار أعزل، أخاف أسلّمه لأخونا الشيخلي..

مدّ يده إلى جيبه فأخرج حفنة من القطع المعدنية اختطفها منه حسين بسرعة. كانت العربة تتمايل بشدة والحوذي يهتف بخيله شاتماً لاعناً.

- يّمك أخي. يّمك. هاي شنو؟ على كيفك. لويش دتشتم الخيل؟ صوج، ذنب؟ تفضّل أخي. هاي ميّة وخمسين فلس. يالله عيني مدحت، شنو، ياب؟

- ماكو شي عمّي. شويّة دا أكفر بس وألعن هالدنيا الزفرة.

- وإحنا شعلينا أخي؟ روح أكفر أبيتك، مو يم الجامع، يمّ بيت الله. تماما لو لاع؟ وإحنا بأول أيام رمضان، سيّد. هاي خوش حكاية حكايتك!

كانت المصابيح الكهربائية القوية لاتزال مضاءة في مقهى «ياس»، وبعض الجالسين يدخنون النارجيلات. نزل من العربة ببطء. كانت مفاصله متراخيةً ونظره زائغاً، لكنه توقف بثبات ينتظر من حسين أن يقرّر وجهتهما. شعر بأنفاسه ثقيلةً وفي أعماقه ما يشبه الصخر. أمرٌ براحته على صدغه فوجده ندياً بارداً. سمع حسين:

- ما أدري مدحت، يعجبك تكعّد رأسك بفنجان قهوة مرة لو استكان جاي؟ تره بعد وكت هسّه.

أشار رافضاً وبقي ينتظر. لم يكن يشعر بحرج ولا بانزعاج من

وجوده مع حسين. كان الأمر طبيعياً بغير اختلال. سمع حسين يحدثه وهو يتلفت كأنه يبحث عن شخصٍ ما في الجوار:

- يالله يابه. عبالي أشوف هذا القواد أبو الصميط. داسني الجوع شويّة. دير بالك تره الأرض مرشوشة ومليانة بالحفر.

كانا يسيران متلاصقين بين صفي القنفات. اخترقت أنفه رائحة كريهة من التبغ والتراب والماء وتزحلق مرةً أو مرتين. واجههما زقاقٌ بدا مظلماً كالكهف فدخلاه. تركه حسين يسير بمفرده، ثم سمعه يحدثه بصوت عالٍ:

- عيوني مدحت، أنت تعرف كم أنت غالي عندي وكيف أعزك، بس ما أريد أدّخل نفسي بحياتك. عندي حكاية صغيرة صار لها ساعتين تدقّ بدماغي. آني ما أريد أتطفّل عليك عيني مدحت. اعتبرني أخوك بس؛ لكن، يا عيوني، لاتؤذي نفسك مثلما عملت آني. لا. لا. ما عندي نصايح كثيرة. ثم، منو يسمع مني نصيحة؟ الناس مخابيل؟

قهقه مقاطعاً نفسه:

- لاكت وياك، عندي حكاية زغيرة بس. شوفني آني هسه، باوع عليّ عيني مدحت. آني شنو؟ آني ما أحل مشاكل. آني مو حلّ، آني تأجيل. آني هروب. زوغان. تفادي.

وكان يحرك ذراعيه بحركات أفعوانيةٍ:

- بس شوف ربك، شلون التأجيل صار مع الزمن حلّ واقعي. أمر واقع أخي تقدر تبني عليه مذهب فلسفي إذا تريد. آني أعطيك كل المقتضيات والمعطيات. وهكذا، عيوني مدحت، بقى أخوك يقاوم مثل الصقر، بس صقر معلّق من ذيله. لا للموت ولا للحياة. لاكت، مع ذلك،

أقدر أرقص مع الهوا. شوف..

ابتعد عنه قليلاً وصار يقفز ويرفع إحدى رجليه من جهة، والثانية من الجهة الأخرى؛ شبحاً أسود أخرق. ثم أطلق ضحكةً عاليةً. كانا في ملتقى أزقة مربع شاحب الضوء تتوسطه بركة من الماء الآسن. توقف حسين لاهثاً:

- مِنّا عيوني مدحت. أنت راح تنام بفراشي الليلة. أنت ضيف الشرف، ولحسن الحظ الليلة مو باردة كلش.

توجه إلى اليمين وهو لايزال يقفز قفزات متقطعة:

- ماكو مشكلة، عيوني مدحت، ما إلها حل. والحقيقة تره، أكو حلول ضايعة، لو ندور عليها نلقيها. لاكت كل هالحكي مو هو المقصود، خرة بأجدادك أبو عبعوب الله يذكرك بالخير.

وتعالت قهقهاته:

- ابن اليمني، يريد يرجع لأهله يأكل بعرور!

توقّف أمام باب عتيق حائل السواد، يختفي قسم منه تحت أرض الشارع:

- تعال عيني مدحت فتّش المفتاح ويايه. تعال، تعال. ما أدري وين وضعته، بس هو موجود. أنعل أبو الشيطان مقدماً.

اقترب ببطء من حسين. كان رأسه يدور بعض الشيء. لم يدرِ أين يمكنه أن يفتش عن مفتاح الباب.

- دقيقة مدحت.

وأحسّ به يمسكه من ذراعه. كان صوته صافياً خافتاً وأصابعه تضغط بقوةٍ. أراد أن يرى وجهه فلم يستطع. لبث ينتظر لحظات دون

اهتمامٍ، مستسلماً إلى دوران رأسه. سمعه يهمس:

- مدحت عيوني، أرجوك.. لاتفرّط بيها؛ أرجوك. أرجوك، مدحت.. لاتفرّط بيها.

كانت النبرات مخنوقةً، باكيةً، مهتزةً. بقيا ساكنين زمناً، مثل الحيطان السوداء المتقابلة حولهما. سمع، من بعيدٍ، قرع طبل يطفو لحظة فوق ضجيج الشارع والمقهى. أزعجته الأصابع المتشبثة بذراعه، فسحبها وتراجع متكئاً على الجدار خلفه:

- إحنا.. جايين ننام، سيّد، لو نسمع.. محاضرات.. تربويّة؟؟ ها؟

لبث حسين بجواره جامداً، تختلط ظلال هيئته مع أنوار الطريق المحتضرة. فارقته فورة الحياة بغتةً وبدا غير قادر على متابعة بحثه عن المفتاح. أرخى ذراعيه ونزل الدرجة نحو الباب فقعد على أرض الشارع. تنهّد عدة مرات ثم دفن رأسه بين ذراعيه المتشابكتين على ركبتيه. كان يراقب حسين منزعجاً. لم يشعر بالاطمئنان إليه منذ البداية. لا فائدة من طيبة قلبه حين يجب تدبير بعض الأمور الجدية. سمعه يكرر التنهّد؛ تنهدات طويلة تبعها صوت غامض لم يتبين كنهه أول الأمر. لم يكلّمه، مدركاً أنه لابدّ للموقف أن ينجلي أخيراً. كان متعباً مكدوداً، ثقيل الجسم والروح؛ عاجزاً عن تبادل الآراء أو استعادة صورة أو ذكرى. لم يرغب بشيء آنذاك سوى أن يغيب عن الدنيا بشكلٍ ما. كان يشعر، وهو يقف بتخاذلٍ وسط ظلمة الزقاق، على رأس هذا السكير المنفلت العواطف والمزاج، بأنه لايستطيع أن يستمرّ بعد الآن.

ثم سمع النشيج المكتوم يأتيه من لامكان. استدار حواليه. كان الظلام يخفي منعطف الطريق الضيق القريب، وشرخ من الضوء الأحمر

الآتي من الخلف، يسقط على الحائط المقابل. لا أحد هناك. عاد النشيج يعلو هذه المرة متقطعاً. كانت كتفا حسين تتقلصان ثم تنبسطان مع بكائه الغريب المفاجئ. لبث يراقب بإعياء تلك الكومة السوداء من الشعر المضطرب والقماش الداكن. لم يكن بكاءً عادياً. تنهدات طويلة تعقبها نشجة قصيرة ثم زفرة وتنهدة مستطيلة أخرى.

... شهقت حين دخلها أول مرة وتقبضت ذراعاها حول ظهره العاري، ثم صارت تلهث مثله بعد ذلك. أخذه انفتاحها على حين غرة، كمن يسقط في هاوية لاقرار لها. كان ملتاث الحواس وهو يتهيأ لدخولها. بعثت فيه رائحة جسدها وعرقها وعطرها ولمساتها الناعمة وعيونها وشفتاها وساقاها المنفتحان عن حب للقياه، جنوناً واضطراباً لم يعهده قبلاً. كان ينبوع حرارة مستديمة يمسك بخناقه، فَسُكِبَت عليه مياهٌ متثلجة. وفي ثوانٍ انقلبت به حياته. لحظة دخوله فيها وهي تحته: أنثاه الحبيبة التي تتحول إلى سراب. لحظة ثانية: ينسحب وشهوته لاتعطي مجالاً لعقله أو شكوكه، فيعاود الطعن ويفقد في اللحظة الثالثة توازنه وتفيض روحه مع ماء الحياة الذي انبثق منه كدم القلب، كدم القلب...

كان جالساً هو الآخر، في ظلام الحفرة أمام الباب الأسود المغلق، يتنصت إلى حسين مستمراً في نفث زفراته اللامجدية. لم يكلّمه. لطمته الذكرى فتقوست ساقاه وقعد على الأرض الرطبة بهدوء. لعل النهاية ليست بعيدةً عنه، النهاية التي يتمناها. نهاية حيرته وتعبه وآماله. كان فارغاً، عاجزاً عن البكاء. شعر بذلك وهو يحسّ بكتفه تلامس جسم حسين المهتزّ. ألن يستطيع أبداً أن يطفئ احتراقه بهذه الوسيلة الإنسانية السهلة؟ عبثاً. عبثاً.

صر الباب الثقيل وتحرك ببطء. يكشف عن خيال ضئيل يأتيه الضوء من الخلف. قطع حسين أصواته كلها في الحال ورفع رأسه. تكلمت العجوز القصيرة المتلفّعة بالسواد وهي تقف أمامهما في فتحة الباب:

– منو هذا؟ منو أنتو ولدي؟.

– ها؟ خالة عطية؟ مساك الله بالخير. صار لنا ساعة ندق الباب. شلون تيقظت؟ لازم دتتسحرون، مو بالله؟ عافيات، عافيات. تره آني ميت من الجوع الله يخلّيك خالة. شوية شوربة حارة وشيش كباب تكفي. تفضل عيني مدحت. خالة، هذا مدحت، ابن أم مدحت. تعرفيه أنتِ. عزمته على السحور عندنا. تفضّل. تفضّل. الحجي شلونه، خالة؟ ما شفته من الصبح.

قحّ عدة مرات وهو يقوم ويمخط ويمسح أنفه وعينيه وفمه. رآه لحظة واحدة على الضوء المرتمي من الدار. كان أنفه أحمر مبللاً وخصلة من شعره الباهت ملتصقة على جبينه، وكان كالطفل يوقظ من نومه.

تراجعت العجوز دون كلام وتركت الباب فدفعه حسين وتقدم ممسكاً بذراع مدحت. كان المدخل ضيقاً وباحة الدار تبدو مشعةً بالضوء مفعمةً برائحة الطعام. همس حسين وهو لايزال يمسح أنفه وعينيه:

– بس ليكون أخونا الحجي، المقصوف العمر، شرب الشوربة كلّها.

- ١١ -

سارتا إلى جوار الحائط المهدّم بحذرٍ، متجنبتين وسط الطريق المليء بالطين وبرك الماء. كانت أختها سها أمامها، تتكلم بصوت عالٍ:

- هاليوم ست سهيلة، ضربت عايدة بالمسطرة عشر ضربات. قامت تبكي فد بكاء! لچ عيني فد بكاء وعياط!

- هاي لويش كل يوم هالبسط؟ ليش هي عملت وكاحة؟

- أنتِ هواية زمالة سناء. ليش هو البسط بس على الوكاحة؟ ما تعرف تحل مسائل الحساب. هاي عايدة ماتعرف أي شيء من الحساب. فد زمالة.

- أنتِ زمالة.

- اسكتي. أنت شعليك منها؟

- اسكتي أنتِ.

- أنتَ.

- أنتِ.

- أنتِ

- والله لولا جدو وجعان كان قلت له سها بسطتني.

- كذابة. زمالة.

- أنت زمالة.

لم تجبها سها، بل قفزت قفزةً صغيرةً اجتازت بها الطريق واستأنفت سيرها على الجانب الآخر. كانت الشمس ساطعةً قويةَ الأشعة والسماء صافية زرقاء، إلا أن نسمات باردة بقيت تهبّ بين الفينة والفينة. سمعت سها تتكلم:

- سناء، تدرين؟ بقيت بجيبي حامض حلوة.. بنبونة.. مال عرس خالو مدحت. عيني.. عيني.. متت من الفرح. هواية طيبة! الله.

بقيت تنظر إليها:

- أكلتيها كلها؟

- لچ هي فد وحدة كانت. خاتلة بجيبي، شكد حلو.

كانت حزينة:

- فد حامض حلوة؟

- لچ أي. قلت لك فد وحدة وأكلتها.

كم رقصوا وعبثوا تلك الليلة! والأغاني المتواصلة والأكل الكثير والناس والأطفال. لم تصح من نومها إلا عند الظهر. أيقظتها أمها. كان اليوم جمعة، لكنهم كانوا جميعاً واجمين، يلفّهم الغموض ولا يجيبون على أسئلتها. لم ترَ خالها مدحت ولا استطاعت الاقتراب من منيرة، تلك العروس الجميلة. كم تحبها!

رأت أختها تسبقها بمسافة طويلة، فتحاملت على نفسها وأغذت

السير خلفها. كانت جائعة بعد دروس الصباح، إلا أنها تشعر بشكل غامض أنها لا تملك شهيتها المعتادة للأكل، وقد لاتستطيع الأكل. لعل من المستحسن أن تصوم مثلما تفعل أمها وجدتها. جدها وقع مريضاً بعد أسبوع من الصيام. قالت جدتها أم مدحت إنه يصوم، كل سنة، أسبوعاً واحداً لكي يمرض بعده. كم تكره أن ترى جدها طريح الفراش! يختبئ تحت اللحاف وينكمش على نفسه كالقطة الصغيرة. ويئن دائماً. آلمها كثيراً أن تسمعه يئن حين رافقت أمها لتقديم الأكل والدواء له. صاحت أختها:

- لچ أنت شبيك سناء؟ طمستِ بالطين زمالة. ديري بالك.

أفزعتها صرخة أختها. كانت حافة حذائها الأبيض ملوثة ببقع داكنة من الطين. سحبت قدمها إلى جهة ثم ضربت الأرض بشدة عدة مرات واستمرت بعد ذلك في سيرها دون أن ترفع نظرها. كانت تحسّ بغشاوة سوداء في نفسها، لم تفارقها منذ أيام. حتى دروسها، لم تعد تفهم أغلبها. ولحسن الحظ، انتهى امتحان نصف السنة بخير وليس لديهم هذه الأيام امتحانات أخرى.

وصلت إلى بداية طريق البيت فأخذت أختها تركض. لبثت تراقبها، يتراقص ثوبها وشعرها. كم أفزعتها حين صرخت! ستخبر أمها. كلا. ستسألها عندئذ عن حذائها. ستخبر جدتها وأم حسن وعمة خالها مدحت. ستخبر منيرة، صديقتها الجميلة. تذهب إليها وهي في غرفتها التي تغلقهاعليها وتطرق الباب برفق كما علمتها وتستأذن منها أن تخبرها كيف أفزعتها الحمارة سها بصرختها المفاجئة.

مرّت بين ضلفتي الباب الموارب وأغذّت الخطى خلال المجاز الطويل.

خطر لها أنها قد تكون مريضة. لا تشتهي أكلاً ولا تفهم دروسها ولا تقدر أن تسير بسرعة أو تركض، عليها أن تخبر أمها بذلك. فتحت الباب الأوسط ببطء فرأت جدتها أم مدحت أمام المطبخ:

- هلو بيبي.

- تعالي عيني سناوي. الله أرسلك. ركضي اشتري لنا عشرة أقراص خبز بالعجل. هاي أختك سها الملعونة ما تسمع كلام من أحد. تعالي عيني، هاك الفلوس. يالله بيبي. تره هذولة العجائز راح يفتحون حلوقهم بعد شوية. يالله عيني يالله. استري علينا.

- نعم بيبي.

وضعت كتبها على التختة الصغيرة قرب مدخل المطبخ وتناولت النقود من يد جدتها. ترددت قليلاً قبل أن تسلك طريق الخروج. هل تخبر جدتها كم هي متعبة ثقيلة الجسم لاتقوى على الركض؟ ولكن، من يجلب لهم الخبز إذن؟ ستحكي لها كل شيء بعد ما ترجع.

عادت تجتاز المجاز الرطب، لتخرج إلى الطريق قاصدةً الخباز في شارع الكيلاني. جدتها تحبها أكثر مما تحب أختها سها. تعطيها الكثير من الحلويات والأكل، ولكنها تتعبها بالشغل مثلما تفعل مع أمها. لا بأس، ولكنهم يجب أن يعلموا كيف تعاملها سها بقسوة وتصرخ بها وتفزعها بين فترة وأخرى. المجنونة. تصيح بأعلى صوتها كلما أرادت الكلام. لماذا لاتحدثها مثلما يفعل الآخرون، بكل لطف وهدوء وتسامح؟ لاسيما أبلة منيرة. كسرت قدح الشاي وصحنه الصغير حين دخلت عليها أول أمس. فزعت وقفزت من فراشها، لكنها عندما رأتها هي، هدأت واحتضنتها وقبّلتها ولم تقل لها شيئاً. ثم أخفيا القدح المكسوروالصحن

عن الأنظار. كم كانت رائحتها طيبة وملمس ذراعها ناعماً! ثم أخبرتها أبلة منيرة بأن عليها بعد الآن ألا تدخل الغرفة قبل أن تطرق الباب وتسمع الجواب. اعتذرت وقالت لها بأنها نسيت ذلك رغم أن معلمتها أوصتها به منذ زمن بعيد. كانت تريد أن تسرّ إلى زوجة خالها بشيء مهم فذهلت عنه بعد أن انكسر «الاستكان» اللعين. كان الدرب فارغاً ظليلاً والسيارات والعربات تمر بسرعة في شارع الكيلاني. رأت أمامها، على حين غرة، خالها عبد الكريم وهو يخرج سائراً ببطء من استدارة الطريق. تبادلا الابتسام:

- وين رايحة، سناوي؟

- أشتري خبز خالو. بيبيتي انطتني فلوس وقالت لي اشتري لنا خبز، عشر أقراص.

- زين خالو. يالله امشي.

أمسك يدها برفق وسارا نحو دكان الخباز. سرّت من تلك الرفقة الطيبة ورفعت بصرها إليه بامتنان وضغطت على راحته بأناملها. بدا لها حزيناً شاحب الوجه، يسير بتثاقل. لم يعطها أقراص الخبز رغم إلحاحها عليه كي تحملها. سألته قبل أن يصلا إلى البيت وهي تدور حوله:

- خالو، أنت صايم؟

- لا.

دفعت الباب وفتحته على مصراعيه:

- خالو، وينه خالو؟

تبعته بعد أن أغلقت الباب. كان يسير صامتاً أمامها:

- خالو، وينه خالو؟

أعطاها أقراص الخبز قبل أن يصلا بقليل إلى نهاية المجاز، ثم دفع الباب الأوسط وأشار إليها أن تدخل. نظرت إليه لحظات بانكسار، ثم مضت نحو المطبخ. وضعت أقراص الخبز مكانها. كان المطبخ خالياً دافئاً، تنتشر فيه رائحة الأكل. لم ترد أن تزعج خالها كريم، ولكنها اعتقدت أنه الوحيد الذي قد يجيبها أخيراً. آلمها صمته. عادت لتحمل كتبها. وجدتها مرميةً بإهمال على الأرض. انحنت تجمعها دون تذمّر. لماذا لم يقل لها شيئاً؟

سمعت أمها تنادي:

- سناء؟ سناء؟

- نعم، ماما.

- وين كنت ولچ؟

كانت تنظر إليها من الطارمة قرب غرفتهم:

- دا أشتري خبز، ماما.

سمعت جدتها أم مدحت تهتف من مكان ما في باحة الدار:

- آني أرسلتها عيني مديحة، آني أرسلتها.

ارتفع صوت عمّة مديحة:

- خبز حار؟ خاطر الله فد لقمة خبز. قلوبنا ساحت الله يخلّيكم. متنا من الجوع يا فاينين.

خرجت جدّتها من غرفة قريبة من السرداب تحمل صحوناً وقدراً وأشياء أخرى. رأتها تلمح خالها عبد الكريم وهو يهم بصعود السلم. نادت عليه فوقف. سعت إليه وأخذت تكلمه. لبثت هي، في مدخل

المطبخ الدافئ، واقفة ويداها متخاذلتان إلى جانبها، تتطلع إليهما يتهامسان باهتمام تحت الشمس. كانت تعلم أنهما يتحاوران عن أشياء خطيرة لايجب أن تسمعها هي. هي الصغيرة التي لا رأي لها ولا كلمة تُسمع. حتى الذين تحبهم، لايمكنها السؤال عنهم!

كانت تحسّ بضعفٍ في جسمها وببعض الارتخاء في ساقيها. أتعبها شراء الخبز هذه المرة. سمعت أمها:

- يوم، يوم الله يخلّيك، حضري الغداء. عدنا فوق راح تقوم القيامة.

كانت تقف أمام غرفتهم في الطارمة. رأتها تصمت حين رأت جدتها وخالها يتكلّمان، ثم تسرع نحو فتحة السلم. ستلحق بهما وتشترك معهما في الحديث. تحركت هي أيضاً نحو السلم. سارت ببطء بعد أن حملت كتبها تحت إبطها، منحنية برأسها تنظر إلى الأرض كأنها تحصي عدد الطابوق. لعلها تلتقط كلمة أو اثنتين مما يقولانه. كانت تسمع وقع أقدام أمها على درجات السلم، وكانت تتمنى أن تصل قبلها إليهما. رأت خيالها يقترب من محل وقوفهما وطرقت أذنها كلمة من خالها:

- ... لاع.

ثم علا صوت أمها:

- لچ سناء، غسلتي إيديك قبل ما تصعدين؟

كانت تنظر إليها بعينين تقدحان. تراجعت ببعض الخوف:

- لا، ماما، نسيت. هسّه راح أغسلها.

ثم ركضت راجعة، مرة أخرى، إلى المغسلة قرب المطبخ. وضعت

كتبها بعناية على الأرض لصق الجدار. كان قلبها يدق بسرعة، وفي صدرها يجيش شيء مثل العبرة. هي الوحيدة، أصغر من في البيت، التي تلاقي كل هذا العناء؛ ولا أحد يهتم بأن يستمع إليها. كان الماء بارداً، لكنها لم تشعر ببرودته وراحت تتأمل القطرات التي كانت تنزل من بين أصابعها وهي تفركها بعضها ببعض. كانت قذرة شبه سوداء. سمعت خطوات في المجاز. أعادت غسل يديها بالصابون وهي تحاول أن تزيد حجم الرغوة السمراء. وتلك الملعونة سها، هل غسلت يديها؟ لقد تركوها تمر دون أن يعترض طريقها أحد. تلك التي أكلت حامض حلو قبل الغداء. تركوها تمرّ بسلامٍ دون أن يسألها أحدٌ هل غسلت يديها القذرتين؟ بل لم... فُتح الباب الأوسط القريب من المطبخ فجأة وأطلت منيرة منه ثم دفعته ودخلت. أذهلتها المفاجأة. كانت عيناها صفراوين حزينتين. هتفت هي:

- هلو أبلة منيرة.

رأتها تنزع العباءة عن كتفيها وهي تنظر بحدة حيث وقف أهلها:

- هلو سناء. شد تسوّين؟

- دا أغسل أيدي أبلة منيرة. أمي قالت لي. هسّه رجعنا من المدرسة، آني وسها. رحت أشتري خبز ورجعت مع خالو كرومي.

كانت منيرة لاتزال تتطلع بقلق جهة السلم. أرادت هي أن تلتفت، لكن صوت جدتها منعها:

- أهلاً منيرة، عيني. أشو اليوم من وقت راجعة؟

- نعم، خالة. اليوم خميس. أقدر أساعدكم بالمطبخ؟

رأت أمها تدخل المطبخ بسكونٍ وتتجه إلى ناحية مظلمة فيه.

أجابت أم مدحت:

- لا، عيني، ماكو شي. نريد نسد حلوق العجايز بس.

- خالة، كريم رجع؟

- أي.

- عنده شي.. خبر؟

توقفت سناء عن مسح يديها. كانت حواسها متوفزةً، منتبهةً بشكل حاد. تمنّت لو كانت غير مرئية، لو كانت مختبئة في مكان قريب. أدارت أم مدحت رأسها:

- ماكو شي. الله كريم. راح اليوم...

ثم نظرت إليها:

- روحي عيني سناء، شوفي جدو يريد ياكل هسّه؟

التفتت إلى منيرة بنظرة توسلٍ خفي، فمدت هذه يدها وربتت على شعرها برفق. أجابت جدتها:

- نعم، بيبي.

ثم سارت متباطئةً قدر استطاعتها. سمعت جدتها:

- ... بالدائرة، ماكو أحد.. مجاز قالوا له. وما قدر..

أخذت ترتقي الدرجات المظلمة بحذر. لن يتركوها بسلام. بعد أن تقابل جدها ستنزل مرة أخرى لتخبرهم بما يريد. سيصمتون حين تقترب بهم، ثم يطلبون منها أن تقوم بعمل آخر. سيجعلونها تصعد مرةً ثانيةً وثالثةً. وأختها تلك، جالسة في غرفتهم تلعب بدميتها أو تمشّط شعرها. كان جدها متربّعاً في فراشه يسبّح بمسبحته الصفراء ذات الأحجار الكبيرة ويضع النظارات على عينيه. ابتسمت له:

- شلونك عيني، جدّو؟ لويش قاعد هالشكل؟

وكانت لحيته طويلة مليئة بالشعر الأبيض:

- أهلا بسناوي الحلوة. أنتِ شلونك جدّو؟

اقتربت منه ثم صعدت على السرير:

- آني دا أسألك شلونك، مو أنت تسألني.

أمسكت بيده وعصرتها مداعبةً:

- أنت ما تقول لي شلون وجعان أنت؟ آني ما شايفة هيك وجعان. قاعد بالفراش والمناظر على عينه. ليش ما تنام عيني جدو؟

ثم هزّت يده برفق وهي لاتزال تبتسم في وجهه. كانت أصابعه عظميّة متغضّنة الجلد. رفع يدها وقبّلها:

- هاي شلون يد نظيفة وريحتها طيبة!

- أشكرك عيني جدو؛ بس تره لحيتك دغدغتني. وبيبي تكول شنو يعجبك تاكل؟ أنت مو صايم، ليش آني ما أدري؛ بيبي تقول من أول أسبوع يقع وجعان.

وضربته ضربةً خفيفةً على يده:

- أنت لويش تقع وجعان من أول أسبوع برمضان جدّو، وتخلينا مقهورين عليك؟ ها؟ أشكو أحكي؟

- ما أحكي.

- لويش؟

- أقول لك ما أحكي.

- لويش عيني ما تحكي؟ ما يعجبك تحكي معي جدو، عيني؟ أنت هم مثلهم؟

- مثل من؟

- كلهم. بيبي وخالو وأمي.. حتين أبلة منيرة.

أحست بنفسها يفارقها المرح الذي تجده عادة بصحبة جدّها. رأته يتناول يدها ويسحبها مرة أخرى ليقبّلها. اقتربت منه بوجومٍ واندست به. سألها:

- شبيها أبله منيرة؟

- أحبها جدو، هواية أحبها. بس هي مقهورة. يمكن على خالو مدحت. وينه خالو، جدو؟ وينه؟ ما يقول لي أحد. كلهم.

عصر يدها فالتصقت به، شاعرة بالدفء يغمرها. كانت في صدرها رغبةٌ بالبكاء. أحاطها بذراعه:

- لاتقهرين نفسك سناوي. أنت بعدك صغيرة جدو، ومن تكبرين راح تفتهمين كل شي. هم لويش ما يحكون معاك.. تدرين؟ خاطر لاتنقهرين. يقولون هاي صغيرة بعدها خطيّة، لويش نخلّيها تنقهر وتحزن.

- آني ما انقهر جدو. هاذي سها بس قاعدة تقهرني. صايرة فد شيطانة وركيحة ومخبلة.. ما إلها تك ولا أكو أحد يشبهها.

ثم سحبت نفسها من ذراعه وواجهته:

- جدو، وينه خالو؟

رأت بعض الغضون في وجه جدها تتحرك وكذلك فمه. كان ينظر إليها فأبعد عينيه إلى جهةٍ أخرى. عادت إليها تلك الرغبةُ الخفية بالبكاء. تكلّم:

- سناوي، جدو. خالو مسافر. يوم، يومين ويرجع. ليش أنت ما تعرفين؟

كان هادئ الصوت رقيقه. لم تترك لها كلماته أي منفذ للشك.
لبثت صامتة تنظر في عينيه المحاطتين بإطار النظارات البيضاء:
- صدك، جدو؟ صدك؟ قول والله، قول والله جدو.
مد يده فعبث بشعرها وأنزله على وجهها:
- ليش جدو يكذب عليك سناوي؟
كانت تراه من خلال الشعر الأسود المنسدل على عينيها، ولم تره يبتسم وهو يداعبها. تنهدت بصوتٍ مسموعٍ:
- ما أقدر عليك عيني جدو. هسه أنت شتريد تتغدى؟ دقول أشو.
كانت شفتاه يابستين منكمشتين. لم يستطع إجابتها. انفتح الباب ببعض الشدة ودخلت جدتها أم مدحت تحمل بصعوبة صينية كبيرة بين يديها:
- هاي تاليها وياك سناء؟ مع خبصة الغداء أنت قاعدة تشغلين جدك بالحكي وما تخليه يرتاح؟ قومي ناوليني هذا الميز.
قفزت من مكانها وهرعت إلى طاولة صغيرة في طرف الغرفة فجلبتها وصفتها قرب سرير جدها. وضعت أم مدحت الصينية عليها:
- هلكت تره اليوم آني أبو مدحت. آني فد يوم ما تشوفوني إلا واقعة بالمطبخ الزفر هذا، ميتة فوك الأكل.
- اسم الله عليك بيبي.
- لاتوقفين هالشكل سناوي. ركضي على أمك بالمطبخ ساعديها شوية. هذولة أهل الفوق راح تنفتح علينا حلوقهم. روحي عيني بالعجل.
- نعم، بيبي.
ثم أسرعت تخرج من غرفة جدها دون أن تنظر إليه.

ملأت رائحة الطعام أنفها فأرادت أن تنزل إلى الطابق الأسفل، لكنها توقفت قرب شباك الغرفة. كانت تسمع بغموض جدّيها يتكلمان. خشيت أن تقترب من الشباك لئلا يراها أحدهما. كان النهار مشرقاً والتعب قد فارقها قليلاً. سمعت أقداماً ترتقي السلم فمشت إلى مدخله. برزت منيرة تحمل صينية ضخمة وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية وتهدل شعرها على بلوزها الغامق. كانت تبذل جهداً عظيماً لحمل الصينية بين يديها والسير بها. توجّهت نحوها:

- بأه!! أبلة منيرة عيني، ليش حاملة الصينية؟

أومأت منيرة لها برأسها أن تتنحّى جانباً:

- خلّيني سناء. أنت ما عليك. امشي قدامي بس سوّي لي مكان. أنت ما عليك مني.

كان وجهها الجميل محمراً والعرق يتجمع على صدغها وهي تزم شفتيها. ركضت أمام منيرة وهي تشعر بوخزة في قلبها لمنظرها. كم تحبها! تعثرت قرب باب غرفتهم. كانت تسير باضطراب، موزعة النظر بين موقع قدميها ووجه منيرة. لم يكن ذلك أمراً معهوداً من قبل. أمها، وحدها، كانت هي المسؤولة عن حمل الطعام وتقديمه للعجائز. رأت منيرة تتوقف في عطفة الطارمة الضيقة وتضع الصينية على حافة المحجر. كانت تتنفس بسرعة، وكان فمها مفتوحاً. أشارت إليها:

- افتحي الباب، سناء.

رمت بنفسها على باب غرفة العجائز فانفتح ضارباً الحائط وراءه بشدة. سمعت صرخة عمّة مدحت:

- الله أكبر.

دخلت هاتفةً:

- عمّة، الغداء حاضر.

كانت عمّة مدحت نصف جالسة في فراشها، مفتوحة العينين والفم، يرتسم الفزع على محياها:

- أكو واحد يعمل هالعمل، سناء؟ ليش دتفتحين الباب هالشكل؟ مو نزل حيلنا، الله يرضى عليك. هذا غداء لو زقنبوت.

رفعت أم منيرة رأسها ببطء. كانت مضطجعةً على القريولة مقابل الباب. كلمت سناء عمّة مدحت:

- العفو عمّة. شويّة مستعجلة كنت.

دخلت منيرة بصعوبة ووقفت بحملها وسط الغرفة. نظرت إليها عمّة مدحت ببعض الدهشة. سألتها سناء:

- أبلة منيرة، أجيب الميز تخلّين عليه الصينية؟

- لاع، ماكو حاجة.

ثم كلمت عمّة مدحت:

- عمّة مدحت، أخلّي الصينية أمامك على الأرض؟

أجابتها هذه بسرعة:

- أي عيني. الله يعطيك العافية منيرة. جيبيها هنا، قدامي يوم. هاذي أم حسن نايمة صار لها ساعة. تعاي، تعاي هنا عيني.

وضعت منيرة الصينية بهدوء قرب فراش عمة مدحت، وسناء تساعدها وتدور حولها. تكلمت أم منيرة:

- ساعة بيش منيرة؟ شوكت جئتِ من المدرسة؟

- قبل شوية. شلونك أنتِ اليوم؟

- شوية دايخة. ساعة بيش؟

- فاتت الواحدة.

ثم جلست بسكون على طرف السرير حيث ترقد أمها وهي تنظر إلى الأرض وقد بدا عليها التعب، وأخذت تمسح العرق عن وجهها ورقبتها. كانت عمّة مدحت تتفحص الأكل وتلملم نفسها وتتقدّم نحو طرف الفراش. سألتها سناء:

- عمة، أصحّي بيبي أم حسن؟

نظرت إليها عمة مدحت متفحصةً:

- كيفك عيني. هي نومها ثقيل، مثل نوم أهل الكهف. ما أدري تصحى عد لو لا. كيفك.

ثم تناولت قرص الخبز.

اقتربت سناء من جدتها أم حسن. كانت العجوز تتنفس بعمق وهدوء، غارقة في نومها. أمسكت بكتفها ونادت برفق:

- بيبي. بيبي. أقعدي، بيبي. أقعدي أكلي.

فتحت العجوز عينيها واستدارت ببطء إلى سناء. عادت الصغيرة تتكلم:

- قومي أكلي بيبي. الغدا حاضر.

- يا غدا! ليش آني مو صايمة؟

- لا عيني بيبي، أنت وين تقدرين تصومين. أقعدي أكلي غداك.

بذلت أم حسن جهدها فاستقامت جالسة في فراشها. قامت سناء. كانت منيرة وأمها لا تزالان على السرير دون حراك، وعمة مدحت، محشوة الفم، تنظر من طرف عينيها إلى أم حسن وهي تزحف لتقترب

من صينية الأكل. مدت سناء يدها لجدتها تساعدها على الجلوس براحة. غمغمت عمة مدحت:

- ماي، سناء. ماي عيني. كاس ماء الله ينطيك. تره اللقمة وقفت بزردومي. ما أدري منو عيونه على هذا الأكل مال المرضى!

- زين عمّة. هسّه أجيب لك ماي.

ثم توجهت إلى منيرة قبل أن تخرج:

- أبلة منيرة، راح أنزل أجيب كلاص ماي لعمّة، تريدين شي؟

كانت ساهمة العينين. ابتسمت لسناء بإعياء ثم هزت رأسها بالنفي ولم تقل شيئاً. خاب أملها. كان بودها أن تطلب منها قضاء أمرٍ ما، كي تفعله بكلّ حماسٍ. أما أن تسير كل هذه المسافة من أجل كأس ماء يدفع اللقمة ليمررها من بلعوم عمة مدحت، فإن ذلك سيزيد من تعبها وجوعها.

رأت سها تخرج من المطبخ فوقفت ونادتها:

- سها، سها. جيبي كلاص ماي لعمة مدحت بالعجل.

- أني شنو. آني قاعدة آكل.

- لچ مو راح تختنق زمالة.

- آني ما علي.

- لچ أنت شكد زمالة.

ثم أسرعت، متذمرة، خلال الطارمة الضيقة فنزلت السلم المظلم. قابلت أمها تخرج من المطبخ. كلّمتها:

- تعاي أكلي سناء.

- عمة مدحت تريد كلاص ماي. اللقمة وقفت بزردومها.

- زين. لعد روحي أكلي وياهم.

- ما يخلّوني ماما.

- تعال أخذي صحنك لعد وروحي أكلي فوق. وبعد ما تنتهين رجعي الصينية معاك. تعاي آني راح أصب لك. أريد غسل الصحون وأرتاح شوية قبل الفطور.

- نعم ماما. بس خلّ دا آخذ ماي لعمة مدحت. تره راح تختنق. هاي الزمالة سها ما قبلت تجيب لها ماي.

- زين. زين. أدري هالمكموعة شلون تصير مرات لئيمة.

- أي والله ماما. شكد لئيمة. زمالة.

- أخذي صحنك وصعدي عد. لا تطوليها.

حملت كأس الماء وصحن تمن مخلوط بالمرق وعادت مرة أخرى ترتقي السلم بأناة وتجتاز الطارمة وتدخل غرفة العجائز. وجدت مكان منيرة فارغاً وأمها مضطجعة تدير ظهرها للباب. تناولت عمة مدحت كأس الماء بلهفة وكرعت منه ثم هتفت:

- وين رحت يا عيني يا سناء؟ آني تره متت واحتييت. لا أقدر أوقف ما آكل..

ثم أشارت برأسها إلى أم حسن:

- يخلص الأكل واحنا بعدنا جوعانين. ولا أقدر آكل واللقمة واقفة، الله معاف، بنصف زردومي. يمّة، الله ينطيك سناوي. خلصتيني من نار جهنم.

رفعت أم حسن رأسها عن الصينية وهي محشوة الفم:

- شكو بجهنم؟ أكو واحد يحكي على جهنم والناس ديتزقنبون؟

شلون أصول يمة هاي.

- عيني أم حسن، أنت أنطيني طريق آكل واشبع بطني، خاطر ما يجي أبالي الناس اللي راح يخشون بجهنم بصاية ظلمهم.

- أنت ليش ما تخافين من ربك صفية؟

تربعت سناء على الزولية بين النافذتين ووضعت الماعون في حجرها ثم أخذت تأكل بيدها خليط التمن والمرق بلقيمات صغيرة. كانت تنصت إليهما تتنازعان وهي مستندة إلى الحائط خلفها، في الغرفة الدافئة المليئة بشمس الظهيرة الحارة، وأصوات الصحون التي تغسلها أمها تأتي خافتة غامضة. لم تجد الطعام لذيذاً ؛ بدا لها فاقداً طعمه الخاص الذي تحبه. أخرجت أم حسن من فمها صوتاً غريباً. توقفت عمة مدحت عن الأكل:

- هاي شنو أم حسن؟ أشو لا هي دريوعة ولا هي شهيكة. شكو عندك؟

ضحكت سناء بسكون. لم تجب أم حسن. التفتت إليها عمّة مدحت:

- سناوي عيني، خالك وينه؟

انبرت أم حسن:

- صار له أسبوع، ماكو. ليلة عرسه، يمة. عبالك جا عليه ملك من السما وأخذه. وين..

قاطعتها عمة مدحت بشدة:

- دا أسئل آني على خالها كرومي. مثل أسطوانة واندارت، أنتِ شنو؟ دا أسئل على كرومي، مو على مدحت.

أجابت سناء:

- ما أدري عمة. يمكن بالحجرة يقرأ.

ثم سألت:

- وخالو مدحت وينه لعد، عمة؟

أسرعت أم حسن:

- ها؟ مو كاعدة دتسأل عليه؟ ما دتسمعيها؟ دتسأل على خالها مدحت.

ثم استدارت نحو سناء، ووجهها المغضّن الصغير المحاط بسواد الفوطة لاينم عن أي إحساس خاص:

- أخذه الملك وطار عيني. جا عليه ليلة عرسه وأخذه. شكو بيها؟ هو مو أول واحد ياخذه الملك ويطير؟ تمام يمّة، صفية؟

بلعت عمة مدحت لقمتها متعجلة:

- شنو هالحكي نامربوط؟ أنتِ مخرّفة، افتهمنا؛ بس شنو هالحكي أمام الصغيرة؟ ملاك وسماء.. شنو هالحكي؟ قولي حظه جعله يقع فيها.. يمكن تمام. كم مرة قلت له. هاي الغرفة وحياطينها شهود. عيوني مدحت، أنت يا هو مالتك، كل واحد على خر إذنه.

- آني قلت له هم.

- أنتِ؟ طيط طيط، أحسن لك. نايمة ليلك ونهارك، ما شاعرة لو شرقت أو غربت.

[كانت كلماتهما تكرب نفسها بشكل خفي، تعمل في قلبها بقسوة، ولم تفهم ما كانتا تعنيانه].

سألت فجأة:

- شوكت يرجع لعد خالو مدحت، عمّة؟

وكانت في صوتها نغمة توسل واستجداء. تمنت أن تجيبها إحداهما. إنهما لا تضمران الحب لمنيرة، ولذلك فقد تصدقانها القول. لبثتا صامتتين. تلمظت عمة مدحت ثم شربت من كأس الماء. كانت أم حسن تمسح فمها بقطعة خبز. انتظرت لحظات بقلق. لم تنقطع ضجة غسل الصحون في المطبخ. قالت عمة مدحت بلا مبالاة:

- الله يدري. الله يدري، عيني.

ثم أعادت الكأس إلى مكانها.

تراجعت أم حسن إلى فراشها. خيبةُ أملٍ أخرى. فكرت وهي تنظر إليهما تستعدان لوجبة نوم قصيرة بأن عليها أن تعود بالصينية والصحون الفارغة إلى أمها في المطبخ. كانت متعبةً.

رأت أشعة الشمس الحمراء تصبغ «التيغة» العالية، حين كانت تروّح بمروحة يدوية لتؤجج جمرات الفحم تحت أسياخ الكباب. كانت مع أمها، تعملان بعجلة للانتهاء من شي أسياخ الكباب الأخيرة. سخنت جدتها أم مدحت شوربة العدس وصعدت بها قبل دقائق إلى الإيوان حيث سيتناولون الفطور. كذلك تراكضت أختها سها وهي تحمل الخبز والحشائش وصحن الطرشي متظاهرةً بأنها مثقلة بحملها. كانت الشمس تسحب أشعتها من أعالي أشجار الحديقة الصغيرة لترميها على الحيطان الترابية، وكانوا يسرعون وصوت قارئ القرآن يأتي من عدة جهات، خشناً متراجفاً يمسّ قلبها؛ وبعض حبات العرق تتجمع على صدغ أمها المنهمكة في تقليب أسياخ الكباب بحذر.

- عيني.

رفعت رأسها. كانت عمة مدحت واقفة قرب المحجر الخشبي تنظر إليهما من علٍ:

- عيني مدح. الله ينطيك العافية. الدخان موّتنا وريحة الكباب صار لها ساعة تروح وتجي بلا قبض. أشو العين تشوف..

قاطعتها أمها:

- صُبري عمة. الصبر طيب. قبل ساعتين أكلتِ. هسه كلشي راح يوصلكم. لاتستعجلي. مو أكو ناس صايمين.

ثم غمغمت:

- الله ما دياخذ أمانته عد. شكو باقية ثقل على الأرض. سبحانك اللهم ياربي تفعل ما تشاء.

- عيني مدح، على كيفك. بس آني قلبي شوية ساح، والصايمين أجرهم عند ربّهم. عشر دقايق إذا زادت، أجرهم هم يزيد عيني. ديالله عيوني مدح. ولو لفة زغيرة، كباب وخبز وشوية طرشي وخضورات والله ينطيك مرادك.

هزت أمها رأسها:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

جاء نداء جدتها أم مدحت من الإيوان:

- مديحة. مديحة. شوية بالعجل بنتي. تره ما بقى شي على الأوذان.

أجابت أمها بصوت مبحوح:

- زين. زين. لاتخبلوني عد. كل وحدة من جهة. صبروا شوية.

سألت هي أمها:

- يوم، شنو الصبر طيب؟

نظرت إليه بحقد:

- بلا لغوة، أنت. أنبش قبر اللّي يقول الصبر طيب. ليحترق بحياته ومماته. حركي المروحة زين ولچ واسكتي.

زادت من سرعة تحريك ذراعها، خافضة البصر. كانت الجمرات الحمراء تتوهج تحت الأسياخ، فتتساقط قطرات الدهن عليها فينبعث الدخان ذو الرائحة الطيبة ويرتفع إلى الأعلى أبيض ملتوياً. وكان الحوش قد امتلأ بالظلال حولهما وأصوات الأواني في الإيوان ترتفع مختلطةً بوشوشة الماء الموضوع على الفرن منذ مدة. لم يُصنع الشاي بعد، ستصنعه أمها بعد الانتهاء من شيّ الكباب ثم تضعه في المنقلة قرب هذه الجمرات كي يتخدّر. جدتها أم مدحت وجدها وأمها وأم منيرة وأبلة منيرة نفسها وخالها كريم، سيشربون الشاي بعد أن يأكلوا الكباب.

فاجأتها نفحة من الدخان فأرجعت رأسها إلى الوراء وشعرت بحرقة في عينيها فأخذت تفركهما بيدها اليسرى الطليقة.

- هفي زين ولچ. يالله راح نخلص. يالله بالعجل. عندي بعد ألف شغل.

- دخل الدخان بعيني، يوم.

رأت أمها تبدأ بجمع بعض أسياخ الكباب وتفرغها في صحن كبير ثم تغطيها بكمية من الحشيش وبقرص من الخبز الأبيض. ثم سمعتها:

- قومي. بس عاد. قومي أخذي هذا الماعون إلى فوق. آني راح أسوّي الشاي.

برزت منيرة من بين الظلال مسرعةً واقتربت منهما:

- العفو عيني مديحة. شويّة انشغلت فوق. صعدي أنت وسناء روحوا أكلوا. آني أكمل شغل المطبخ.

- لاع. ما بقى شي، والمدفع ما ضرب بعد. راح أسوّي الشاي وأصعد. تعبت هواية اليوم.

- أدري. أدري عيني مديحة. كل وقت وأنت تعبانة. خلّيني أساعدك شوية.

سمعن من فوق رؤوسهن عمة مدحت تنادي:

- لا تنسونا عيني مدح. إحنا بدخلكم. واقعين فد نوبة.

حملت منيرة صحن الكباب الكبير دون أن ترفع نظرها وطلبت من سناء أن تجلب أقراص الخبز وبعض الصحون الفارغة والماء، ثم مضت تسير نحو مدخل السلم المظلم. بقيت تراقبها فترة. أحسّت بقلبها يفيض بشعور حاد يتجه نحوها. إنها لاتملّ من البقاء معها والنظر إليها والاستماع إلى حديثها. عصر اليوم دخلت غرفتها، تلك الغرفة السحرية الزرقاء. كانت منيرة مضطجعةً على السرير الواسع الأزرق بكامل ثيابها وهي تائهة البصر. أرادت أن تخبرها بأنهم سيبدؤون بالتحضير لصنع الكباب. اعتدلت وبقيت، منحنية الظهر، تنصت إليها. تكلمت هي طويلاً دون أن يكون لذلك التطويل حاجة. كانت تريد البقاء معها، في غرفتها، تمسك بها وتنصت إليها.

سمعت أمها تقترب منها فقامت من مكانها أمام المنقلة:

- ليش واقفة ولج؟ أخذي الخبز والماي وصعدي قبلي. خلّيني أخلص شغلي. لاتنسي المواعين.

ركضت إلى المطبخ فتناولت أقراص الخبز ثم ملأت قنينة الماء ووضعتها على المائدة. دست أقراص الخبز تحت إبطها ثم أمسكت بعدة صحون فارغة بيد والقنينة باليد الأخرى وسارت ببطء متحاشيةً النظر إلى أمها.

ارتقت درجات السلم التي كانت تظهر لعينيها بصعوبة، دون حادث، ومضت بحملها إلى الإيوان. تلقوها بوجوه باشّة وأخذوا منها الصحون والخبز وإناء الماء. أراحها ذلك واتخذت لها مكاناً قريباً من أم منيرة على القنفة. كانت الصينية الكبيرة مليئة بشتى أنواع الصحون تتوسطها طاسة ضخمة مغطاة خمنت أنها لابد أن تكون طاسة الشوربة. بعد جلوسها بقليل جاءت سها مع خالها عبد الكريم. كلمت أم مدحت أختها سها:

- هاي وين كنت، سها؟ تركت أختك الصغيرة تشتغل بوحدها. ما يصير عيني. أنتِ الأخت الكبيرة.

أثلجت هذه الكلمات قلبها ولبثت منتبهة إلى جواب سها. لم تتكلم سها. جاءت لتجلس قربها. كلمتها هي بحدّة:

- وين كنتِ ولچ؟ ها، وين كنتِ؟

لم تجبها سها ولم تنظر إليها.

جاءت منيرة تسير ببطء ثم جلست قربهم على القنفة. سألتها أم مدحت:

- أعطيتيهم اللفات، عيني منيرة؟

- أي خالة.

كانت تجلس على القنفة معها، ومعهما أمها وسها. هي في طرف

وقربها أختها سها ثم أم منيرة ومنيرة. في الجهة المقابلة يجلس خالها عبد الكريم ملبد الوجه صامتاً، لاينظر إلى أي شيء. جدتها أم مدحت متربعة قرب الصينية على الأرض وتحتها حشية صغيرة. تقدمت إلى الأمام ونظرت إلى منيرة. كان وجهها ملوناً بشكل غير اعتيادي. إنها جميلة دائماً، ملونة الوجه بألوان مبهجة. رأتها تتطلع إلى جهة عبد الكريم. كان الضوء شاحباً في الإيوان والظلال تخفي أغلب الأشياء.

نادت أم مدحت:

- مديحة. يا مديحة. ياالله عيني، تعاي عد. خلي الشاي يتخدر على كيفه وتعاي عد. تره الطوب راح يضرب.

تردد صوت أمها من الأسفل:

- زين يوم. زين. راح أجي.

تساءل عبد الكريم فجأة:

- شلونه أبي اليوم؟ ما راح ياكل ويانا؟

أجابته أمه:

- لا. خلّي يرتاح هسه. شرب شاي وحليب العصر. ما عنده حرارة، لاكت تعبان بعده. يصير زين إنشالله.

صدرت من الراديو فرقعة عالية أفزعتها، تبعها صوت المؤذن.

همست سها:

- لچ والله فزيت سناء.

رفعت أم مدحت الغطاء عن صحن الشوربة فتعالت في الجو غمامة بيضاء ورائحة الدهن الفاغمة. قامت أم منيرة فجلست قرب الصينية. قفزت هي وسها مرة واحدة فجلستا على الأرض. نادت أم مدحت ثانيةً:

- مديحة. دتعالي الله يخليك. هذا فطور يطلع لو عشاء!

ثم التفتت إلى منيرة:

- ياالله عيني منيرة. أصب لك كريم شوية شوربة؟

قامت منيرة بتثاقل وتكلمت وهي واقفة:

- أنطيني الماعون، آني أصب له.

- شكراً. لا. آني آكل. شكو فيها؟

قام من مكانه وسحب الحشية من وراءه ثم وضعها على الأرض وجلس عليها قريباً منها ومن سها وأمه وبمواجهة منيرة وأمها. فكرت سناء بأن أمها حين تحضر ستجلس بين جدتها أم مدحت وبين أم منيرة. كانت جدتها تصب الشوربة بملعقة كبيرة في صحون توزعها على الجالسين. لم تكن هي ترى غير البخار المتصاعد من صحن الشوربة وأطراف الحشائش والخبز الموضوع على صحن الكباب. كانت الصينية مرتفعة أكثر مما يجب.

جلست بصمت تنتظر، واضعة يديها في حجرها. كانت جائعة، تتمنى أن يصلها الطعام بأسرع ما يمكن. سمعت بعضهم يتلمظ وارتفعت أصوات الملاعق تصطدم بالصحون ثم رأت منيرة تجلس بهدوء. كان وجهها مظلماً غير واضح المعالم. تكلمت جدتها:

- أخذي سها.

تناولت أختها الصحن وبدأت حالاً بشرب الشوربة. كان خالها عبد الكريم يأكل منذ فترة. بقيت هي ومنيرة تنتظران. أمضّها ذلك قليلاً. لم ترد أن تتكلم:

- بيبي، أبلة منيرة ما تاكل.

توقفوا جميعاً عن الأكل لحظات. أسرعت منيرة:

- ما عليك أنت سناء. هسّه آكل. أكلي أنتِ. آني..

قاطعها عبد الكريم:

- ليش ما فطرتِ؟ ما يصير تتأخرين عن الفطور. لازم تاكلين هسه، مو تمام، يوم؟

- أي عيني كرومي. ما يصلح واحد يتأخر عن الفطور ورا ما يضرب الطوب. آني هسه أصب لها. ألها ولسناء. نسيت عيني.

- شكراً خالة.

بصوت هامس تكلمت منيرة، وشعرت سناء أنها تطلعت إليها ببعض العتاب فَحَنَتْ رأسها. سمعت وهي تنتظر أن يصلها صحن الشوربة ولفة الكباب، أصوات قدمي أمها تخترق الحوش ببعض السرعة ثم تضاءل الصوت. مدت جدتها أم مدحت يدها بصحن الشوربة فتناولته ووضعته في حجرها ثم أمسكت الملعقة بحذر ورفعتها إلى فمها. سمعت مرة أخرى قدمي أمها تضربان أرض الطارمة ثم رأتها تظهر أمام الإيوان حاملة المنقلة وتضعها قريباً منهم إلى جوار المحجر. هتفت أم مدحت:

- هاي شنو مديحة عيني! ليش متعبة نفسك هالشكل. إحنا كان ننزل ونشرب الشاي. شكو بيها. تحملين الشاي والمنقلة وأنت هلكانة من الشغل. تعالي عيني. ما يصلح تبقين بلا أكل ورا ما يضرب الطوب. تعاي الله يخليك. راح تبرد الشوربة.

- جاية يوم. دا أغسل إيدي. هذولة البنات يمكم؟

- نعم ماما.

- نعم.

كانت الشوربة مستساغة الطعم لكنها لم تكن حارة. لعقت، دون أن يلحظها أحد، آخر قطرة منها، ثم وضعت الملعقة في الصحن وأعادته إلى الصينية أمامها. كانت منيرة تنظر إليها. تأكل بهدوء وتنظر إليها. هل رأتها وهي تلعق صحن الشوربة؟ لقد خبأت رأسها تحت الصينية. أقبلت أمها فجلست بين منيرة وكريم وسألتها:

- وين ماعونك، سناء؟

- خلصت يوم الشوربة. دا أنتظر الكباب.

- وأنت سها، خلصت؟ يوم الله يخليك أعملي لكل واحدة لفة لمن أشرب الشوربة.

- أي عيني أي. هسّه، هسّه.

- يمّة، يا أهل الرحم. يا فاينين. وينكم يا أهل البيت، وين صرتوا، عيني؟

كانت عمة مدحت واقفة في باب غرفتهم تطلق نداءاتها المتواصلة:

- .. قابل انشقت الأرض وبلعتكم كلكم! يمّة. مدح، عيني.. وين صرتِ حبّوبة؟ وأنت سناوي باباتي؟ شنو؟ أنت مخبّلة أم حسن؟ وين يخرجون للزيارة؟ هسه وكت زيارة وخطار! قاعدين ياكلون في الظلمة هناك، هاي هي الحكاية. المسعدين. وتاركيني آني معاك يا غراب البين، مكبوبين هنا، جايعين وراح يقتلنا الجوع. نستحق. عسانا بابو زايد.

ثم عادت تنادي:

- عيني، يا أهل البيت. يا أهل الرحم.

ضحكت هي وتبعتها أختها سها. سألت أم مدحت:

- أنت مو عملت لهم لفات كباب، مديحة؟

- كل لفة نص كرصة خبز وشيش كباب وطرشي وخضورات. لاكت هم هذوله يعرفون الشبع شنو.

- ... يا فاينين.. عيني.. أكول..

هتفت أم مدحت تقاطعها:

- على كيف صفية. إحنا هنا.

- وينكم عيني. صار لي ساعتين أعيط وأرجع للوراء.

- زين. زين. هسه يجيكم الأكل. صبروا شوية.

- ديالله عد، الله يخليك. هو الصبر واقع في اليد! إحنا واقفين على شعرة.

تناولت قطعة الخبز الملفوفة بإتقان من يد جدتها وأسرعت تقضمها. كان طعم الكباب مخلوطاً بالطرشي والمخضرات، لذيذاً جداً؛ وكانت تلوك اللقمة في فمها ببطء وتتطلع إلى الوجوه الغامضة حولها. خفت النور في الإيوان ولم يعد بوسعها أن تميز ملامح الجالسين. غير أن ذلك لم يهمها كثيراً. كان الأكل، بعد الجوع والتعب، يخدرها بشكل خاص ويمنحها شعوراً بالرضا الشديد عن العالم حولها. ستشرب الشاي معهم بعد ذلك. تضع فيه ملعقة سكر زائدة وتشربه. سيكون له مذاق خاص جداً بعد الكباب والطرشي، شرط أن تشربه قبل غسل الفم. سيجعله ذلك يزداد نكهةً.

دفعت قطعة اللفة الأخيرة إلى فمها المحشو ثم رفعت نظرها تتطلع إلى ما يحدث حولها وهي تمضغ اللقمة بتأن. كانوا جميعاً في أماكنهم يأكلون بسكونٍ والظلام يحيطهم. سمعت أمها:

- سناء، خلّصتِ؟

- لا ، ماما.

- أنتِ، سها ؟

- نعم خلصت، ماما .

- قومي أخذي هذا الماعون لجدّيتك أم حسن وعمة مدحت.

- آني شنو، خلي سناء.

- قـومي ولچ ملعـونة الأهل. قـومي أحـسن لك وإلا أقـوم أكسـر راسك. آني متحلّفة بيك. ياالله بالعجل.

قامت أختها بتثاقلٍ بعد أن دفعتها بساقها دفعة خفيفة لم تبال هي بها ، وتناولت الماعون ثم مضت نحو غرفة العجائز. كانت ممتلئة القلب سروراً وهي لاتزال تلوك اللقمة الأخيرة في فمها وتراقب أختها تسير بحزن من بعيد. ستشرب الشاي قبلها. لو كانت سها قرب أمها لضربتها على رأسها وأجبرتها على السير بسرعة. لعل هذه الحادثة تؤدبها قليلاً. سمعت خالها عبد الكريم يسأل جدتها :

- أكو فد كاس ماي، يوم؟

- أي يابه. عيني سناوي، جيبي كاس ماي لخالك من السّراحية.

- نعم، بيبي.

قامت متعجلة. لن تذهب بعيداً. ملأت الكأس ماء وجلبته لخالها . داعبها قبل أن يأخذ منها الكأس ويشكرها . جلست على القنفة وسألت أمها :

- ماما ، أشعل الضوا ؟

أجابت أم مدحت:

- أي. عيني. آني مدا أشوف دربي.

قفزت من مكانها وضغطت على الزر الكهربائي. كان خالها عبد الكريم يهمّ بالجلوس على التخت البعيد ومنيرة تقوم وتضع صحنها في الصينية. بقيت أمها وجدتها وأم منيرة جالسات في أماكنهن. قالت منيرة:

- أصب الشاي هسّه؟

- شوية لاخ. يمكن بعده ما تخدّر.

سارت منيرة إلى جهة المغسلة واختفت. سألت هي أمها:

- ماما، أروح أشوف جدّو؟

- لويش؟ فرجة هو جدّو؟

قالت أم مدحت:

- خليها تروح عيني مديحة. أخاف يريد شي ويتكاسل يصيح علينا.

- زين. زين. روحي.

كان جالساً في سريره يسبّح:

- ها، سناوي؟ فطرت؟

جلست على حافة السرير:

- ليش آني صايمة؟ لاكت شلون كباب جدو عيني! يخبّل. يخبّل.

- أكلت زين بالعافية؟

- أي. أشكرك عيني جدو. تريد أجيب لك شي؟

مد يده يتلمّس شعرها:

- شوية لاخ سناوي. أريد شوربة ونومي حامض عليها.

- شلون شوربة طيبة عدنا! تخبّل، عيني جدو، تخبّل. أجيب لك هسّه؟

- لاع. شوية لاخ. بيبي خليها تجيبها. تعصر نومي حامض فوقاها، افتهمت؟

- نعم، جدو. بَس مو هسه. شوية لاخ، مو؟

هز رأسه.

كانوا في الإيوان يتهيؤون لشرب الشاي. رأت أختها سها تجلس قرب خالها عبد الكريم. فتشت عن منيرة فلم تجدها. كذلك أمها. أخبرت جدتها بما أراده جدها فأومأت لها برأسها دون كلام. كانت مشغولةً بترتيب الاستكانات في صينية صغيرة على الأرض وقربها أم منيرة تدخن سيجارة بهدوء.

كان السكون مطبقاً، سكون غير متوقّع. شعرت بالحيرة فجأة. لم تدرِ أين يمكنها أن تستقر رغم خلو الإيوان. خطر لها أن تذهب الى غرفتهم لتفتح التلفزيون. رأت أمها تسير ببطء مقبلةً من الجهة الشرقية وثوبها الغامق يندمج مع الظلام ليترك وجهها الأبيض ظاهراً. لم تكن تسمع لقدميها وقعاً. همست أم منيرة كلاماً مبهماً لجدتها لم تميزه رغم قربها منهما. كان كل شيء، الجو والبيت والضوء والحيطان، ملفوفاً بغشاء من الصمت الهشّ غير المحسوس. استندت بجسمها إلى حافة التخت الخشبي ونظرت لحظة إلى السماء ثم عادت تراقب أمها تقبل نحوهم، حين تعالت تلك الطرقات الغريبة الغامضة على الباب الخارجي. بُهتت والتفتت إلى جدتها ثم إلى أمها وإلى خالها. وقفت أمها قرب المنقلة تتطلع بشكل غير محدّد إلى الحوش المظلم. قالت جدتها:

- اللهم أجعله خيراً.

قام خالها فجأةً:

- آني راح أشوف منو.

سار ماراً قربها. رأت وجهه هنيهة يملؤه القلق. قالت أمها وهي تتبعه:

- على كيفك كريم. آني راح أجي وياك.

لم يجبها. اختفيا عند مدخل السلم. ظهرت منيرة من غرفتها:

- الباب دتندق؟

أجابتها هي:

- نعم أبلة منيرة. خالوا وماما نزلوا يشوفون منو ديدق الباب.

- خير إنشالله.

عاد الطرق يتوالى، دقتين قويتين ثم دقة واحدة تتبعها أخرى ثم أخرى. استضاء الحوش. ركضت تقف قرب المحجر. كان خالها وأمها يسيران بعجلة متجهين إلى الباب الوسط. لمحت منيرة تمشي نحو السلم. كلمتها جدتها أم مدحت:

- وين رايحة أنت منيرة؟ ابقي عيني يمّنا.

- نعم، خالة. بس أريد أشوف منو.. هذا.

واستمرت تسير على مهل وهي تنظر إلى الحوش، إلى الباب الكبير البعيد الذي يفصل المجاز عن البيت. تبعتها هي بسكون. تحركت ببطء شديد بحيث لاينتبه إليها أحد، وأخذت تتبع منيرة في تقدمها نحو السلم. سمعت جدّها ينادي جدّتها، فهتفت:

- بيبي، بيبي. جدّو يصيح عليك، ما أدري شيريد.

كانت قلقةً لئلا تلاحظ جدتها أنها تتقدم لاحقة منيرة التي اختفت في مدخل السلم. قامت أم مدحت بتثاقل:

- خير إنشالله يا ربي. إي عيني، راح أشوف شيريد.

ثم أخذت تمشي وهي تتكئ على الحائط القريب بيدها دون أن تتطلّع إلى سناء. رأت سها تحت الضوء جالسة في مكانها تنظر إليها. كانت أم منيرة تدخن سيجارتها كأنها في عالمٍ آخر. هذه اللعينة سها تستطيع وحدها أن تفضحها. إنها تراقبها. دخلت جدّتها الغرفة. ولكن.. لم يبق أحد يمكن أن يمنعها من النزول. ركضت. صاحت سها:

- لچ هاي وين رايحة زمالة؟ والله..

لم تسمع بقيّة كلامها. تردّدت عند بداية السلم المظلم. أمسكت بجداره ثم أخذت تهبط في قفزات. رأت منيرة واقفةً قرب الباب الأوسط تفتحه قليلاً وتنظر إلى ما يجري في نهاية المجاز. التفتت إليها:

- سناء؟

ثم وضعت يدها برفق على كتفها. كانت أنفاسها سريعةً وأحست بملمس ذراع منيرة الناعم وهي تلتصق بها. قالت لها:

- راح أشوف منو بالباب وأرجع أبلة منيرة:

لم تجبها.

بدا لها المجاز أشدّ ظلاماً وأكثر طولاً وهي تحاول أن تجد موضع قدميها تحت ضوء السماء. كانوا واقفين في آخره قرب الباب. تعثرت عند الدرجة التي تلي المجاز العريض، ثم بدأت تسمع حواراً خُيّل إليها أنه يدور بين أشخاص تألف أصواتهم. كان الباب الكبير مشرعاً، تمسك به أمها وتستند إلى حافته، وكان خالها عبد الكريم وشخص آخر يقفان خارج إطاره، في الطريق. سمعت أمها تهتف بصوت مرتفع:

- أي ليش ما تخش وتحكي وياهم؟ شبيك، دتستحي؟

تكلّم الشخص الآخر:

- لا. لويش؟ يعني، ماكو مانع. بس، أكو حاجة؟ المسألة ما بيها شي.

كانت نغمة كلماته المطوطة المتراخية المترددة، غير غريبة عنها، عن نفسها، عن حياتها. سأل خالها:

- شوف حسين، عندك شغل ويانا؟ محتاج شي، يعني؟ أو إذا تريد نحكي آني وياك بس.

كان في ملابس سوداء أو زرقاء غامقة، لا يبين من وجهه غير الأنف المعوج إلى جانب:

- لا، ما عندي شغل. ما عندي شي مهم. شكو عندنا آني وياك؟

لا. لا. بس القضية.. يعني قضية مدحت، فإذا..

قاطعاه، خالها وأمها، صارخين:

- مدحت؟ شبيه مدحت؟

أدار أبوها رأسه بينهما لحظة:

- مدحت؟ شنو شبيه؟ ليش.. آني ما قلت لكم.. آني جئت على قضيته؟

صرخت أمها مرةً أخرى:

- ما تحكي لعد. عندك خبر عنه؟ شبيك؟ فمك مسدود؟ فات وقت الشرب عليك؟

تراجع قليلاً. قال خالها:

- على كيفك مديحة. على مهلك.

- يا شرب؟ أنت حقك عصبية. على كل حال، المهم.

بدا كأنه يعتدل في وقفته ويزداد طولاً:

- نعم، عندك خبر.. أقصد، عندي خبر طبعاً عن مدحت. ولعلمك.. بعد إلى هالساعة ما خليت شي بحلقي. هاي هي كل المسألة.

أمسك خالها بذراعه وسحبه معه داخلين. أفسحت أمها لهما الطريق وقفزت هي إلى جانب. قال خالها:

- تعال حسين، تعال خش. لازم تشوف أبويه وأمي.. ومنيرة. تعال، لازم انشوفك كلنا.

تعثر أبوها وانتبهت إليها أمها وهي تغلق الباب:

- ولچ هاي أشدتسوّين هنا؟ خشّي بالعجل.

أخذت تسير جنب أمها تتبعان خالها وأباها. سمعت أباها:

- ليش ما تخلون ضوا، كهرباء، شمعة، في هالمجاز الملعون.. العفو.

تعثر مرةً أخرى قبيل المجاز العريض. همهم بحنق وهو يتشبث بخالها. دفعوا الباب الوسط ودخلوا إلى الحوش. كان المصباح الكهربائي فوق المطبخ مضاءً، يرمي بنوره الأحمر على قسم من الحديقة. سأل أبوها:

- وين رايحين، عيني كريم؟ تره آني ما عندي غير حكاية زغيرة. ماكو حاجة نقعد.. يعني عالرجل.

- أبويه مريض حسين وأنت لازم تشوفه. ما تريد تسلّم عليه؟ أقعد أشرب جاي على الأقل.

كانوا، خالها وأبوها في المقدمة وهي وأمها خلفهما، يجتازون الحوش بخطوات مترددّة.

لمحت منيرة تقف في زاوية قرب الباب فأمسكت بيد أمها وضغطت عليها. تركتها أمها واتجهت إلى منيرة تتهامس معها. كان أبوها وخالها قد وصلا قريباً من السلم. وقفت هي تنتظر بقلق بجوار الحوض الصغير ومائه الأسود. لحقتا بها وأحست بيد تسحبها برفق من ذراعها. كن، ثلاثتهن، يتبعن خالها وأباها اللذين غابا في مدخل السلم. لم يتكلمن. صعدن الدرجات ببعض الارتباك.

رأت أمها ومنيرة تسرعان بالدخول إلى غرفة جدها فاندست بينهما ودخلت هي الأخرى. انسلت، في الغرفة شبه المظلمة، إلى طرف منها خلف سرير جدها حيث تتكوم عدة حشايا وفُرش بعضها فوق بعض، فانزوت أسفلها. أخفت نفسها بين الحائط والأغطية وأطلت برأسها. كانت أنفاسها متسارعةً وهي تتطلع من مكانها الخفي إليهم. رأت منيرة تغلق الباب خلفها وتجلس على كرسي جنب أمها، قرب المدخل.

لم يتكلم أحد لفترة من الزمن. كانت جدّتها تجلس على السريرقرب جدها، ويتخذ أبوها وخالها مجلسين لهما أمام السرير على كرسيين متباعدين قليلاً. إنهم لايتكلمون؛ والجو في الغرفة ذات الضوء الأحمر الخافت، يبدو ذا طابع سري غير معتاد. مثل الأحلام أو المناظر المخيفة في التلفزيون. سمعت حبات مسبحة جدها تتصادم. كان أبوها ببدلة سوداء ووجه بلا لون، يجلس ضامّاً رجليه الواحدة إلى الأخرى وواضعاً يديه في حضنه. قال جدها بصوت لين:

- أي سيد حسين، شلون صحتك؟ ما دنشوفك.

رفع أبوها يداً لمس بها أنفه وفمه ثم أعادها إلى مكانها:

- الحمد لله عمي. شكراً. أي والله. حقّكم.. عليٌّ. مشغول شويّة.

شلون صحتكم عمّي؟

- الحمد لله. الحمد لله. تنكضي، انشالله. تنكضي. خير انشالله سيد حسين.

- نعم. خير.. انشاء الله.

رفع ذراعه مرةً أخرى فعدّل من وضع شعره ثم مسح أنفه. كانت ترى وجه منيرة من الجانب الأيسر وهي تتطلع إلى أبيها باهتمام. عاد جدّها:

- شكو ماكو، سيد حسين؟ وين راح يوصلنا هالمخبّل؟

- يا مخبّل، عمي؟

- ها، أي حقّك. هواية مخابيل هالأيام مصيرنا بيدهم. منو أكو غير عبد الكريم قاسم؟

رفع يديه من حجره وشبكهما أمامه لحظةً ثم وضعهما إلى جانبه:

- والله.. ما أدري. يعني.. أقول..

ثم ضحك ضحكة قصيرة قطعها حالاً:

- ما أدري والله وين.. راح نوصل.. ما أدري.

ولوى رقبته ليةً كأنه يصلح عظماً فيها. تكلمت أمها فجأة:

- حسين، أنت ليش دتسوي نفسك ماتفتهم؟ عندك خبر عن مدحت؟ قول بالعجل، قلوبنا محروقة إحنا.

تراجع قليلاً كمن أخافه سيل كلماتها. رأت عينيه ترمشان بسرعة. نظر إلى منيرة كأنه يراها للمرة الأولى. لبث يتمعن فيها. لم تتكلم ولم تنزل بصرها. قال:

- الأخت.. منيرة، مو؟

ثم التفت إلى خالها متسائلاً فهزّ كريم رأسه بالإيجاب. بدا على أبيها كأنه يعود إلى الحياة:

- أهلاً.. وسهلاً.

هزّت منيرة رأسها هزةً خفيفةً. لم تقل شيئاً. بقيت تنظر إليه بحدة. هتف:

- آني ما عندي.. شي مهم تره، بس ردت أقول لكم، يعني مدحت مثل أخويه، ومشاكله هي مشاكلي.

تكلمت أمها مرةً أخرى بصوت عالٍ:

- أنت شنو علاقتك بمدحت، ما تقول لي؟ أنت وين.. وهو وين! شكو عندك معاه.. ما تقول خاطر الله؟

بهت لحظة وهو يتطلع إلى أمها ثم ينحرف بنظره إلى منيرة ويعود إلى التطلّع ببعض الحيرة إلى أمها:

- ماكو شي.. بالحقيقة. يعني أقول.. ما أعتقد أكو علاقة. بالواقع تره.. آني وين وهو وين! بس القضية هي.. صار له يمكن يومين لو ثلاثة.. ساكن بالغرفة ويايه. يعني إذا يهمّكم تعرفون..

هتف جدتها وأمها وخالها:

- وين؟ شنو؟ وين؟

واندفعت منيرة قليلاً إلى أمام وهي تحدّ بصرها نحو أبيها. سأله جدّها:

- كم صار له وهو وياك؟

- يومين عمي، ثلاثة يمكن.

قال خالها:

- آني رحت له قبل خمسة أيام يابه. لازم جاء بعدي.

- إي. فعلاً. بس آني أرجوكم.. أرجوكم.

كانوا منفعلين. مدت هي رجلها فاصطدمت بشيء قربها، فسحبت نفسها واختفت في زاويتها. فتح أبوها ذراعيه وهو يرفع صوته:

- أرجوكم. الله يخليكم. تره.. آني جيت بلا ما يدري هو. خلّيته وجيت. قلت له اليوم خميس وآني عندي شغل. حسباله رايح أشرب. أرجوكم، تره قسماً بالله ما حطيت شي بحلقي إلى حد الآن. بس هو ما يدري. آني ما قلت له.. وين رايح. يعني.. فأرجوكم.

سأله خالها:

- شلونه هو؟ شلون صحته؟ لازم آني أشوفه. راح أجي وياك.

هتفت أمها:

- آني هم آجي.

والتفتت إلى منيرة:

- إحنا هم نجي.

رفع أبوها ذراعيه إلى أعلى فوق رأسه، لحظات:

- لاع. لاع. لا، الله يخلّيكم. لاع، خاطر الله. أنتو ما داتفتهمون. على كيفكم شويّة، الله يخلّيكم.

ثم أنزل يديه يغطي بهما عينيه، كأنه يشكو ألماً. سمعت أمها تهمس لمنيرة:

- فات عليه وقت الشرب. آني أعرف.

مَدت منيرة يدها فلمست ذراع أمها لمسةً خفيفةً وهزّت رأسها. أعاد ذراعيه إلى حضنه:

- العفو، يا جماعة. انتو.. ما داتفتهمون، وآني شوية.. شوية تعبان. لاكت الموضوع يتعلق بحياة مدحت. لا.. أرجوكم. اسمحوا لي دقيقة. فد دقيقة بس، أركز فيها على هالموضوع وأخلص منه. اسمحوا لي دقيقة. القضية.. شلون بالله.. ألعن أبو الشيطان، القضية.. يعني.. هو ما دياكل ولا ديشرب صار له يومين. يمكن أكثر.. لا.. لا.. مو مريض. لا عيني كرومي، ليش ما أعرف المريض من الصحيح؟ بس.. هو الله يسلمه ما يعجبه الأكل ولا الشرب.

هتفت جدتها بحرقة:

- ليش؟ ليش يابه ليش؟ ماتت أمه. الله يدري شلون أكل هذا. ماتت أمه.

انبرى خالها:

- على كيفك يوم. على كيفك.

تدخل أبوها:

- والله خالة، تعرفين..

- دقيقة حسين.

- نعم. بس يعني.. هالموجود.

- اسمح لي حسين. آني أريد افتهم منك شي واحد أو اثنين. أولاً وهذا المهم، مدحت مريض أو يحتاج إلى مساعدة صحية؟

فتح أبوها ذراعيه بشكل عشوائي ووضع ساقاً على ساق بسرعة:

- لا أخي. مو مريض دا أقلك. مو مريض.

نظر حواليه. خُيّل إليها أنه توقف ثانية عند وجه منيرة:

- لاكت.. يعني فكره مشغول. أنت تعرف مدحت. بس هو بالمية

ميـة مـو.. مـو مريض. أكيـد. نعم، هو ما دياكل ولا ديشرب ونومه مو هلقد زين، على قولتهم، لاكت هو مو مريض.

- وين دينام، ماتت أمه؟

- عندي. بغرفتي خالة.

همست أمها:

- قصر يلدزلر!

التفت إليها. ضحك فجأة ضحكةً قصيرةً بترها وقعَ عدة مراتٍ:

- نعم. بس، بالمقابل، نومة القنفة يعني..

قاطعه خالها:

- خلينا من تعليـقـاتك بالله مـديحة. اسـمح لي حسين. عندي شي آخر أريد أسـألك عنه. شْوكت نقدر نشـوفه؟ أقدر آجي وياك هسـه، آني على الأقل؟

- لاع. لاع. انطيـني مـهلة أخويـه كرومي. انطوني مـهلة أرجوكم. يومين تلاثة. اسـمحـوا لي أتفـاهم ويّاه. تره المسـألة شـوية مـعـقـدة يا جماعة. بس إنشالله، ماكو شي. آني جئت، يعني، جيت أطمنكم بس.

- الله ينطيك يابه، هم الله ينطيك.

- شكراً خالة. واجب هذا.

ساد سكون مفاجئ قطعه جدها أبو مدحت:

- شوف سيِّد حسين.

كان صوته خشناً جداً، متهدّجاً:

- آني أعرفك زين. أنت نفسك طيبة وشهم وتخاف من ربك.

نظر إليه أبوها بحيرة. استمرّ:

- لاكت الظروف تدّخل أحياناً بحياة بعض الناس وتغيّرها بلا ما يردون. بس الله سبحانه وتعالى يخلّي بقلوبهم رغم تقلّبات الدهر، الشفقة والرحمة والمحبة. لأنهم من الأصل، أشراف ومنبتهم طيب. أنت يا حسين، الله سبحانه وتعالى، وضع ابني مدحت أمانة بعنقك. وإرادة الله ماكو أحد يقدر يردّها. لا إحنا ولا أنت ولا غيرنا. أمانة، الله خلاه بعنقك سيد حسين. دتفتهم؟ أمانة أنت مسؤول عنها.

تطلع أبوها حواليه ببعض الدهشة:

- نعم، نعم عمّي.

- فإحنا ما عندنا اعتراض على حكمه سبحانه وتعالى. وابني مدحت.. اللي ما جاء يراجعني وهو يعرف آني..

توقف:

- آني مؤمن وعندي عقيدة بالله وبرسوله. وهسّه آني على فراش المرض، وكل شي بيد ربنا، أريد منك يا سيد حسين تنقل له حكاية وحدة من عندي، من عند أبوه. قول كريم أريدك أن توصله إله وآني أستعيره من القرآن العزيز.

ثم خفض صوته وأخذ يهمهم:

- بسم الله الرحمن الرحيم. أفرأيت الذي تولى. وأعطى قليلا. أعنده علم الغيب فهو يرى. أم لم.. صحف موسى. وإبراهيم..

رفع صوته وسط الصمت الذي ران على الجميع:

- .. وإبراهيم الذي وفى. ألا تزر وازرة وزر أخرى. ألا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزيه الجزاء الأوفى. وإن إلى ربك المنتهى. وإنه هو الذي أضحك وأبكى.

سمعتْ نشيجاً مكتوماً:

- وأنه هو الذي أضحك وأبكى. وأنه هو الذي أمات وأحيا. صدق الله العظيم.

كانت جدتها تنشج نشيجاً خافتاً وهي تضع يدها على عينيها. انتبهت إلى حركة مباغتة من منيرة. رأتها تقوم بخفّة ثم تخرج بخطوات سريعة لاصوت لها من الغرفة. نظرت أمها إلى منيرة نظرةً متسائلة، إلا أن هذه الأخيرة لم ترها وهي تترك مكانها. رجعت أمها بوجه مندهش حزين تتطلع إلى أم مدحت. كان أبوها جامداً في مكانه. كذلك خالها. لم يلاحظوها تخرج، تلك العزيزة أبلة منيرة. أحست ثقلاً في قلبها وداخلها بعض الخوف. إنها لاتفهم شيئاً كثيراً مما يدور بينهم. تكلّم أبوها:

- صدق الله العظيم.

ثم قحَّ عدة مرات وعاد إلى جموده. وجّه جدُّها الكلام إلى جدُّتها:

- أنت لويش دتبكين أم مدحت؟ أكو سبب؟ يائسة من رحمة ربك؟

توقفت جدّتها عن النشيج حالاً ومسحت عينيها بيدها:

- آني ما دأبكي أبو مدحت. علويش أبكي؟ ياريت عندي دموع أبكي بيها. لكن آني كل ما أسمع القرآن أقوم أنتحب.

- سبحان الله.

- قومي مديحة عيني جيبي استكان شاي للرجل.

انتفض أبوها حال سماعه اسم الشاي وقام من مكانه:

- لا، خالة، أشكرك. شكراً، واصل. مو وكت شاي. تسمحوا لي عمّي لازم أروح هسّه.

ثم توقف:

- آني عند حسن ظنكم عمي إنشالله. لايظلّ بالكم. يومين ثلاثة وكل شي ينتهي بخير. صبروا علي شويّة.

- إنشالله ابني. لاتنس توصل لمدحت كلامي. قول له أبوك يريدك تسمع كلام الله وتفهمه وتسترشد بيه. قول له هو على فراش المرض ويوصيك. دتفتهم؟

- انشا.. نعم.. نعم. كل شي راح أقول له. تسمحوا لي. عندك العافية عمي. تصبحون على خير. فيمالله.

رفع يده محيّياً ثم خطا نحو الباب. قامت أمها وكذلك خالها. تنحت أمها إلى جانب فمر قربها دون أن ينظر إليها. تبعه خالها. خرجا من الغرفة. التفتت أمها إلى جدّتها:

- ولا سأل ولا نوبة على البنات.

ضربت جدتها يداً بيد. قالت أمها وهي تستعد لمغادرة الغرفة:

- الله يحفظ مدحت، إذا هالشكول راح يديرون بالهم عليه.

ثم خرجت.

قامت هي بسكون فأخذت تسير إلى جوار الحائط دون أن تنظر ناحية جدّيها. كانت تسمع حبات المسبحة تتساقط بعضها على بعض برتابةٍ. تنهّدت جدّتها. وصلت إلى الباب فمرقت منه.

كانت الطارمة والإيوان خاليين. أسرعت نحو المحجر. رأت خالها وأباها يختفيان وراء الباب الوسطي وأمها تمشي على مهل وسط الحوش المنار بضوء المصباح الكهربائي الشاحب. تلامعت المياه لحظةً في الحوض الصغير. أرادت أن تنادي أمها، لكنها أحجمت. كانت مفعمةَ النفس

بعواطف مختلطة غير مفهومة. أتعبها كل شيء هذا اليوم، وأهملها جميع أفراد العائلة. تثاءبت تثاؤبة قصيرة وهي تضع يديها على المحجر الخشبي. مرّت بجسمها رجفة مفاجئة. تثاءبت مرةً أخرى. وقفت أمها عند الباب الوسط. إنها تراقب أباها وخالها. سمعت نداءً خافتاً باسمها:

- سناء. سناوي.

أدارت رأسها. كان الصوت ناعماً رخيماً. رأت منيرة تشير إليها أن تأتي. كانت واقفةً أمام باب غرفتها. ركضت نحوها دون انتظار لإشارة أخرى. سحبتها من يدها ودخلت معها إلى الغرفة ثم أغلقت الباب خلفهما. تكلمت بسرعة:

- شوفي سناوي. أريد منك فد شي.

رفعت يدها:

- هاي الورقة.

كانت تمسك بورقة بيضاء مطوية بين أناملها:

- .. هاي الورقة أريد توديها لأبوك. تركضين هسّه وراه وتعطيهياه وتقولي له يعطيها.. لمدحت.. لخالو مدحت.

وكانت عيناها الصفراوان غائمتين غير صافيتين، وقد مسح الكحل من جوانبهما. بقيت سناء تنظر إليها. أمسكتها من ذراعها:

- سناء، افتهمتِ؟

ضغطت عليها بيدها. أجابتها:

- نعم، أبلة منيرة.

- أنت تحبيني سناء؟

بلعت ريقها وأرادت أن تجيب، لكن منيرة عادت تتكلّم بعجلة:

- هسّه أريدك تركضين. لاتخلين أحد يشوفك. تعطين الورقة لأبوك وتقولي له هاي من أبلة منيرة يوصّلها لخالو.. مدحت. ها؟ ياالله سناوي حبيبتي، ياالله ركضي.

ثم سلّمتها الورقة وفتحت لها الباب. ركضت خافقة القلب تجتاز الطارمة وتنزل السلم ثم تقف في نهايته. لاحظت أن أمها قد تركت الباب ودخلت إلى المطبخ. كان الضوء فيه مشعلاً وأصوات الصحون ترفع وتوضع. ركضت بمحاذاة الجدران البعيدة عن المطبخ، حتى وصلت إلى الباب الوسط الموارب. انسابت منه وواجهت المجاز الطويل. كانا واقفين هناك. أمام الباب الخارجي المفتوح على سعته، في الطريق، يتكلّمان. لبثت ساكنةً تلتقط أنفاسها في الظلام وتضغط على الورقة في راحة يدها. لن تتذكرها أمها لفترة. إنها مشغولة بغسل الصحون وتهيئة أسباب السحور. ستقول لها إنها كانت مع خالها إذا ما سألتها عندما تعود. تقدّمت بخطوات بطيئة خفيفة فارتقت الدرجة ثم توقفت مرة أخرى. لم تكن تفهم ما كان أحدهما يقوله للآخر بأصوات مبهمة. رأت في يد أبيها سيجارة حمراء النهاية، كان يرفعها إلى فمه بين الحين والآخر ثم يقحّ وينفث الدخان. وكان الظلام حولها دامساً وضوء الطريق لايكاد يجعلها تميز حركاتهما إلا بصعوبة. عادت تتقدم بحذر. رأتهما يتصافحان وسمعت أباها:

- نعم.. طبعاً.. طبعاً.. على خير. فيماالله.

أجابه خالها فاختفى أبوها. شعرت بالقلق ينتابها. مكث خالها واقفاً يتطلع إلى الناحية التي اتجه إليها أبوها. سارت، غير مصممة

على شيء معين، حتى وصلت قريباً من خالها فنادته:

- خالو. خالو.

استدار بسرعة. بدا كأنه فوجئ بندائها:

- منو؟ سناء؟ شكو عندك هنا بهالظلمة؟

لم تتردّد:

- خالو، عندي شغل ويه أبويه.

- شكو عندك وياه؟

- عندنا شغل. أريد أحكي وياه فد حكاية. دزوني أحكي وياه.

كان ينظر إليها، ولم تكن تميز وجهه جيداً في الظلام. هل سيسألها عمن أرسلها؟ وماذا ستقول له؟ لقد طلبت منها ألا يراها أحد. أما هو، خالها، فلعله سيرغمها على أن تريه الورقة. سيفتحها ويقرأ ما فيها.

كانت الهواجس تتصارع في نفسها، فلم تنتظر ما قد يقرّره خالها وارتقت الدرجة المؤدية إلى الطريق:

- هسّه أجي خالو.

ثم ركضت بالاتجاه الذي رأت أباها يسلكه. سمعت خالها:

- على كيفك. لاتركضين هيكي. تخبّلت ولك؟

كان الطريق، الذي تعرف أرضه جيداً، مضاء بنور شاحب من مصباح كهربائي بعيد. المهم أن تلحق بأبيها قبل أن يضيع في زحمة الشارع. رأته فجأة قرب دار سيد مصطفى النجار، الدار ذات شجرة النبق الضخمة، وهو يتهادى مترنّحاً أمامها. كان مرفوع الصدر، يهتز عند سيره بشكل غريب ذات اليمين وذات الشمال، ثم ينحرف نحو جهة أخرى من الطريق ليعتدل بعدها ويعود يترنّح بانتظام.

نادته:

- بابا. بابا.

لم يبدُ عليه أنه سمع النداء. نادت ثانيةً وهي على مبعدة مترين منه أو أقل:

- بابا. بابا.

ثم أمسكت بذيل سترته وسحبته برفق. لم يلتفت. بقي يسير غير شاعر بها تتشبث بطرف سترته وتتبعه. ابتسمت مستغربةً. اجتازا دار السيد مصطفى النجار بخطوات، حين أدركت أن الأمر تعدى الحدود وأن الوقت يضيع فسحبت القماش بقوة وهتفت:

- بابا.

قفز مذعوراً:

- ها؟ شكو؟

- العفو بابا. دا أصيح عليْك وأنت ما داتسمع.

كان يحدّق في وجهها:

- أنتِ منين؟ شتردين؟

- بابا، آني سناء.

- منو؟ ها؟ اي، اي. اي عيني سناء. شلونك؟ وين رايحة؟ شتردين بابا؟ تردين شي؟

- لا، بابا. لا. لاكت..

كانت تمسك بقصاصة الورق الصغيرة وتضغط عليها:

- أبلة منيرة تقول.. تقول..

ثم مدّت يدها:

- هاي الورقة تنطيها لخالو مدحت.

لبث جامداً كالحجر، ينظر إليها وذراعاه مسبلتان إلى جانبه. لم تدرِ ما العمل؟ هزّت يدها بالورقة:

- بابا، هاي الورقة، هاي. أخذها ووديها لخالو مدحت. قول له هاي من أبلة منيرة.

- أي. أي. جيبيها. ميخالف. بس..

تناول القصاصة بحذرٍ:

- أخاف ما أشوف مدحت هالليلة. ميخالف باكر؟ شكو بيها. باكر، مو؟

- ما أدري بابا. أبلة منيرة قالت ليْ وديها بالعجِل.

- صار. صار. ألف صار.

أخفاها في جيب سترته الداخلي ثم انحنى عليها بغتةً:

- لايظلّ بالها. قولي لها لا يظلّ بالها أبداً.

قبّلها في وجنتيها مرتين. كانت رائحته نتنةً لاتُطاق. تهدّج صوته وهو يعتدل:

- سلّمي عليها هواية، سناوي، بابا. قولي لها الرسالة وصلت ولا يتّم فكرها أبداً. يالله، بابا، رجعي عد للبيت.

- نعم، بابا.

ركضت مرة أخرى، عائدة، على الطريق المظلم المتعكّر، إلى البيت. رأت خالها ينتظرها في المكان نفسه الذي تركته فيه. رأته من بعيد، فسرّها ذلك. أنبها وهما يجتازان المجاز في طريقهما إلى الداخل وسألها عدة مرات عما أرادته من أبيها. لم تجبه بصراحة فأزعجه ذلك وعاد

يؤنّبها. أغلقا الباب بالمزلاج ثم تبعا أمها التي صعدت إلى الطابق الأعلى. لاحظت أن غرفة منيرة كانت مظلمةً. تركها خالها ليدخل على جدّيها. ركضت. كانت خفيفة القلب سعيدة، تشعر بأنها تخفي سراً عزيزاً يهون معه التأنيب والتعب والمخاطر الأخرى. لقيتهم جالسين أمام التلفزيون. أمها وأختها وأم منيرة وأم حسن. لم تكن منيرة معهم. جلست بهدوء إلى جانب. خشيت أن تراها أمها وتسألها أين كانت، وخشيت أكثر ألا يكون بمقدورها الكذب عليها. التفتت إليها أختها مرةً أو مرتين، لكنها لم تكلّمها. هدأ خفقانُ قلبها قليلاً. سمعت أمها تسأل أختها:

- لچ سها، أكو فلم اليوم؟
- أي، ماما. عربي.
- صخام يصخمك إذا صدك
- أي والله يوم. لو فلم، لو تمثيلية.
- نزول نزلچ إذا تعرفين تحكين الصدك فد يوم.
- والله ماما.
- انچبي، مقموعة.

كانت أم منيرة تدخن بسكون وهي مشدودة النظر إلى الشاشة الصغيرة. سمعت خطوات في الطارمة عرفت فيها خطوات منيرة. فتح الباب ودخلت. سألت:

- مديحة؟ أقدر أحكي فد حكاية وياك عيني؟

نظرت هي إلى منيرة وأرادت أن تشير إليها من بعيد. سألتها أمها:

- أكو شي؟

هزت منيرة رأسها هزات خفيفة. قامت أمها بتثاقل. لم تنظر إليها منيرة وهي تمسك بذراع أمها وتخرج بها. كان عليها أن تخبرها بأن لرسالة ستصل إلى خالها مدحت غداً كما قال أبوها، وأن عليها أن تطمئن. إلا أنهم لايتركون لها أن تختلي بمنيرة. ستحاول بعد فترة أن دخل عليها في غرفتها الجميلة تلك ذات الضوء الأزرق الخافت، وأن صف لها كيف سلمت الرسالة إلى أبيها. إلا أن أبلة منيرة تبدو مشغولة أكثر من المعتاد، كأنها نسيت أنها كلفتها بمهمة خاصة جداً هذتها بكل إخلاص وليس دون إرهاق. إنهم ينشغلون هكذا فجأة كلما حاءهم شخص ما بخبر من الأخبار. ثم خطر لها أن لزيارة أبيها وحديثه علاقة بانشغالهم الآن. وسرتها فكرة أخرى هي أن خالها مدحت موجود مع أبيها وأنه قد يعود إليهم بين يوم وآخر. لم يسافر بعيداً إذن ولم يحدث له مكروه كما كانت تحسّ بإبهام، ولعله يعود عما قريب إليهم. سمعت جدّتها أم حسن تتكلم:

- عيني نجية، بعدك هنا؟

أجابتها أم منيرة:

- أي، يوم. شكو؟

- هيكي. دا أسأل عليك عيني.

كانت سناء تجلس على كرسي عتيق مغطى ببطانية حمراء. أحست بأجفانها ثقيلةً وبرأسها يدور. أغلقت عينيها لحظة فشعرت بأنها تكاد تغرق في دوامة من الاسترخاء. لن يمكنها هذه الليلة أن تحدث أبلة منيرة على انفراد. قامت من مكانها واستلقت على فراشها. سرت في جسدها

نشوة ارتياح شديدة ولذّتها لمسة اللحاف البارد لذراعها. ستراها غداً وتخبرها بما جرى. غداً، ستراها بالتأكيد. ستخبرها بما جرى وستضحك طويلاً إذ تقصّ عليها كيف جرّت أباها من ذيله.. من سترته. ستضحك أبلة منيرة وستسعد هي كثيراً برؤيتها تستغرق في الضحك. ستسعد كثيراً.

- ١٢ -
(الزخم والبقاء)

(١)

أيقظته صرخته. فتح عينيه في الظلمة الرماديّة. كان فكاه يرتجفان وقلبه يخفق بشدة. قام من ضجعته فسالت من إحدى عينيه دمعة باردة. كان يلهث وينفث أنفاساً متسارعة. مسح وجهه ورقبته المبلّلين. علم منذ البداية أنه كان يحلم. رأى نفسه في الحلم وهو يعرف ذلك ويقول إنه يحلم وأنه سيستيقظ بعد قليل. ومع هذا، مع هذا رآها أمامه. رآها، وهو يحلم ويعرف أنه يحلم، وشهر عليها خنجراً. كانت مستكينةً مستسلمةً. تلقت طعناته المجنونة تمزّقها، ولمست برفق ذراعه الأخرى.. بغاية الرفق لمستها، فصرخ. غطى وجهه براحتيه. كان مهزوماً، خارجاً من الجحيم. ثم بكى. انفجر صدره ببكاء كموج البحر. كانت دموعه تتسايل من بين أصابعه والجهشات تتصاعد من أعماق نفسه. أراد أن يخفض يديه وأن يتوقف وأن يهدأ، ولكنه، في عتمة الغرفة الجرداء، بدا فاقداً كلّ عزمٍ وإرادةٍ واهتمامٍ. ولبثت الدموع تفيض منه. مزق صدرها والبطن والحاجبين، وتذكر أنه بدأ يبكي وهو يرتكب جريمته الوهمية. ولم

يرعبه، رعباً لا مثيل له، غير أن يراها تلمسه. لم تكن تمنعه عن إكمال عمله. كانت تلمسه بتفهّمٍ وحنانٍ. وصرخ متألماً؛ وكان مخنوقاً بلوعةٍ كبرى تمسك عنقه وتجثم على صدره. ولعله لم يصرخ، لكنه كان على وشك الانفجار أو الموت خنقاً.

أنزل يديه. فتّش في جيبه عن منديل. مسح وجهه ورقبته وعينيه. انتبه إلى شخير وهمهمات متقطّعة إلى جانبه. كانت الغرفة ذات ظلمة شفافة، يرتمي على جهة الحائط قرب النافذة شعاع فضي من القمر. لابد أن حسين قد عاد دون أن يشعر به. كان يراه، هو والأريكة التي ينام عليها، كومة أشدّ سواداً مما يحيطها. شعر بفمه وبلعومه يابسين. دفع عنه اللحاف المهترئ وأنزل ساقيه من السرير. تحسّس الأرض الباردة بقدميه مفتشاً عن الحذاء. لم يجده. كرر المحاولة ثانيةً. لم يجده. قام. آلمته عضلات فخذيه. كانت الأرض باردة. سار بحذرٍ على رؤوس أصابعه نحو الباب. مسح أنفه. اقترب من الأريكة. سمع حسين يتنفس بضجة ويهمهم بحروف وكلمات لا علاقة لها بلغات البشر. فتح الباب فصرّ صريراً كمواء القط. أشعل المصباح الكهربائي ثم نظر إلى ساعته. جاوزت الرابعة بدقائق. وقف أمام المغسلة. عكست المرآة الملبدة وجهه الملتحي وعينيه الحمراوين. غسل يديه ووجهه بالماء البارد. أمرّ أصابعه في شعره المضطرب. شعر بقذارته. أعاد غسل يديه. تناول المنشفة. نشف يديه ثم أراد أن يمسح وجهه المبلل فهاجمته رائحة المنشفة العطنة. أعادها إلى مكانها. شعر ببرودة الأرض تخز أسفل قدميه. أخرج منديله فنشف به وجهه. نظر إلى المرآة ثانيةً. جامد الملامح، لايمكن أن يظهر للمتمعن في وجهه أنه من بين الذين يُضطهدون لغير سبب، أو لسببٍ لا

يفهمونه. ثم خُيِّل إليه أن في عينيه شيئاً يشبه النداء، سبق له أن رآه، أن واجهه يوماً، في مكانٍ ما غير بعيد. كلا. لا يبدو على وجهه مطلقاً أن بمقدوره أن يكون قاتلاً. في الحلم أو في الحقيقة. وهذان الخطان اللذان يحيطان بأنفه وفمه، وتلك الاعوجاجة الخفيفة في شفتيه، هي بالأحرى، مع الانطباع السري لما تبعثه عيناه، أمارات شخصٍ يُورَد مورد الهلاك. اخترقت ظهره قشعريرة سريعة. سيماهم في وجوههم. ثم أضاءت ذهنه، لحظة، صورة خاطفة لعيني الكلب المدهوس. العينان، الجمرتان. إشارتا الاستغاثة الأخيرة. الاستغاثة التي لا مجيب لها. شعر بالانزعاج. فتح الحنفية مرة أخرى. شرب من الماء البارد. غسل عينيه. عاد ينشفهما بمنديله. قصد المرحاض. تملكه دوار خفيف. رجع فأطفأ المصباح الكهربائي وفتح الباب. توقف قليلاً. كانت الغرفة دافئةً، ثقيلةَ الهواء، تختلط في جوها روائح الأحذية والجوارب القذرة والأنفاس المشبعة بالعرق والبصل. تردَّد في الدخول. ثم استنشق طويلاً الهواء النقي نسبياً خارج الغرفة. دخل وأغلق الباب. تلاشت الروائح بعد خطوات. كان فراشه على مبعدة. أخذ يتلمس طريقه إليه. بدا له حسين خامدَ الأنفاس. وصل إلى السرير فتوقف قربه. كان شعاع القمر الفضي قد انزوى في حفرة النافذة الصغيرة. شخر حسين فجأة وتنهد عدة مراتٍ. أراد أن يصعد إلى الفراش. رفع ساقاً. هاجمته من الداخل موجةٌ عارمة من العواطف المبهمة. فيضان لا إرادي ولا معقول، كتَّف قلبه وهزَّه بشدةٍ. عادت إليه يدها الناعمة الرقيقة، تستجيب له وللهول الذي ينزله بها. أمسكته، في الظلمة الخفيفة، عبرة رهيبة مفاجئة رجعت به إلى حلمه، إلى حالته الجنونيّة التي كان عليها وهو يمارس اغتيالها. ارتجف جسمه

كله وسمع جهشة قصيرة تندفع من صدره. أغلق فمه بقوة. ثم أراد أن يعتدل فلم تطاوعه ساقه المرفوعة، فوقع، كالخشبة، على أرض الغرفة الصلدة قرب السرير.

ارتطمت كتفاه وقسم من ظهره بالطابوق الصلب ثم تبعها رأسه. لم يشعر بألم كبير وأرخى ذراعيه إلى جانبه مستسلماً لهذا الانهيار غير المتوقّع لجسده. لسعت برودة الأرض ظهره. اعتدل جالساً وأخذ يفرك جبهته وكتفيه. تشنجت عضلة في أعلى ذراعه فتوقف عن فرك كتفه. كان رأسه يرنّ وكان يعلم أي خور في قوى جسمه ينتابه الآن. لم يرد ذلك عن تصميم؛ لكنه أهمل، أو نسي، كل ما من شأنه أن يحتفظ له بنشاطه. كان الإهمال والنسيان، حيث يعيش، سهلين. ولقد تمنى، قبل هذه الليلة، أن يفقد كل قواه، لعل ذلك يريحه. إلا أنه الآن يشكّ في ذلك. سيبقى له عقله بكل درجاته الواعية وغير الواعية، المتزنة والمجنونة. الحلم الذي رآه الليلة، كان سيراه ولو كان على فراش الموت، على الحافة الدنيا للحياة. إنه، هذا الحلم وما يخفي وراءه، العِرق الذي يصله بكلّ قذارات أجداده وتفاهاتهم وعقدهم وجنون حبهم للشرف وللقتل. وهو، بعد كل شيء، التحقيق الوهمي لإرادتهم. إنه العمل الذي يريدونه منه. ولقد عمله؛ وماذا يهم إن كان ما نعمل في الحلم أم في الحياة المعيشة، مادام كل شيء سيمضي وسيجرفنا معه؟

كان متربّعاً على الأرض، أسفل السرير، في الظلام؛ لايرى شيئاً ولا يريد أن يتطلع إلى أي شيء. ماذا يريدون من المرأة؟ ماذا كانوا يريدون.. على طول الزمان، على مدى القرون الموغلة في القِدَم، منذ أن تكون ذلك الحيوان الذكر.. الرجل، ثم رآها؟ لو أخبرته.. لو أخبرته.

ضرب الأرض براحة يده اليمنى. المرأة العزيزة. الأنثى الحبيبة. زوجة القلب. لو أخبرته.. لو أخبرته. رفع يده بتحفّزٍ وأراد أن يضرب الأرض. توقف لحظة ثم أخرى، وإذا بالعبرة تتماوج أسفل صدره وتفيض، تبدأ بالفيضان. أرعبه ذلك. وضع يده على فمه وأغلقه بقوة. كأنه يريد أن يخنق صراخه! كان خافق القلب، يحسّ بشيء يضغط على عظام جمجمته ويدفع بكرتي عينيه إلى الخارج. ثوان، وهو قابض على فمه وأنفاسه تعتدل وتتوافق رويداً رويداً مع هدوء نفسه. لو... كانت... أخبرته. كان جسمه يرتجف، من نهاية قدميه حتى شعر رأسه مثل ورقةٍ تضربها الريح في أعلى الشجرة. ولكنه مع ارتجافه، شعر أنه يملك أدنى حد من التوازن، يحتفظ بأقل كمية كافية من الإرادة كي لايجنّ مرةً أخرى. أنزل يده. كان ذلك شيئاً جديداً. لن يموت أو يَقتُلَ أحداً دون أن يعلم. هذا شيء جديد حقاً. ماذا لو أخبرته؟ الآن، لن تخيفه هذه الكلمات أو الفكرة التي تحتويها. سيعيدها ثانيةً وثالثةً. بالصياغة نفسها أو بصياغة أخرى، لايهمّ. ماذا لو قالت له كل شيء؟ لماذا لم تنبئه بالسر؟ لماذا؟ لماذا؟ كان يطلق همهمات هي أقرب إلى الأنفاس المكبوتة. سمعها، كان يسمعها وكان ارتجافه يشتد وكذلك خفقان قلبه. لكن ذلك لم يحدث، وهي لم تقل شيئاً. ذلك لم يكن. لم يوجد. ما كان ليوجد. ما كان ليحصل. ولو كان قد وُجد وحصل.. لكان تلافاه. كان سيتركها.. كان سيتركها. سيتركها. ساوره بعض الهدوء. كان سينجو بجلده. هذا ما كان سيحدث، ولعلها عرفته. ولذلك اختارت له... ماذا؟ الهلاك البطيء؟ الموت على أربعة أقسام أو خمسة؟

أول صباح في هذا الجحر مع حسين، استيقظ ضحىً ونفسه مليئة

بصورتها وهو معها في حلم جنسي طويلٍ لا رقيب عليه. أذهله، أول الأمر، وجوده في تلك الغرفة. ثم عاد إلى رشده ودخل في تسلسل الأشياء. تقيّأ وتهوّع ثم تقيأ وتقيأ، حتى كاد يرمي بأحشائه إلى الخارج. ولم يدرِ ماذا كان يروم من إلقاء ما في جوفه على الأرض والمغسلة والمرحاض. أكان يحاول إزالة الحلم عنه؟

كان ذلك موتاً من الدرجة الثامنة؛ وهي لم ترده له. بأية لغة كانت تتحدث إذن، فلم يفهمها؟ حتى أنه يشك الآن أنه سمعها! أهي الخديعة؟ أم أنها ثقة من نوع خاص؟ أم أنه التحدّي الجنوني؟ اقتلوني واغسلوا نفوسكم بدمي. قام من جلسته؛ تحامل على أطرافه واتكأ على السرير ثم رمى بنفسه عليه. تغطى جيداً. كان الضوء في النافذة قاتماً شاحباً وأنفاس حسين منتظمة على غير العادة. اقتلوني، دون أن تقارفوا جريمة القتل. هذا هو الوضع الصحيح الواضح لمعادلتها. وهو مقبول لغوياً، إلا أنه لا يتحقق في الطبيعة الخرقاء هذه. لا يقبلون للإنسان أن يموت ثم يعود فيحيا، ولا يشفع لهذا الإنسان أن يكون امرأةً جميلةً عزيزةً على القلب مثلها. وحتى لو سُمح لها باستثناء البعث، أكانت.. أكانت تعود نقيةً بيضاء مثل ندى الفجر؟

كان جالساً في سريره ينظر إلى النافذة الصغيرة. انقضى زمن قصير عليه وهو هنا. إنه لايفكر بنفسه. لم يعد يستطيع ذلك. حتى طعامه وشرابه، صارا أموراً يحددها له حسين أو هذان المخبرلان اللذان يملكان البيت. كان يظنهما عجوزين رقيقي الإحساس، عطوفين. أرادا أن يطرداه في اليوم الثاني، منتهزين فرصة غياب حسين الذي يخدعهما ويسيطر عليهما بما لايدري من أمور. أرادا أن يجراه من أذنه كالكلب

المبلول ويرميا به في الزقاق. كان ساكتاً منكمشاً، يفكر في نوبة التقيؤ التي لازمته طوال النهار الفائت، ولم يجدهما خطرين عليه. وكانت هي معه أيضاً؛ نابضة في قلبه كجرح لا يندمل؛ وكان مشغولاً بها، مشغولاً باستكمال أسباب هروبه، لا يريد أن يرى الدنيا. وعندما أمسك به الشيخ من طرف سترته المجعدة، نظر إليه فلمح، وراء العينين الصغيرتين القذرتين دون أهداب والفم المطوي إلى الداخل والشارب واللحية الملطختين ببقايا الحناء واللغة المشوهة، ضعفاً مقنعاً بقناع قسوة طفولية. تذكر أنه يحمل نقوداً، لا يدري إن كانت لاتزال معه. مد يده إلى محفظته. كان الشيخ والمرأة العجوز خلفه يتكلمان بحدة عن الفوضى والقذارة والسكر والطعام حينما عثر على نقوده. لم يجبهما بشيء. أخرج ورقة نقدية ذات خمسة دنانير وقدمها لهما.

تقلب حسين على الأريكة العتيقة التي ينام عليها. وضع مخدةً وبعض البطانيات عليها وهو يتبجح بأنه لايعلم متى ينام ومتى يستيقظ. إلا أنه لم يستسغ نومته تلك. يشتم العجوزين حين يصحو ضحىً ويشكو عظامه التي تتكسّر. ولم يُبدِ له هو استعداده لاستبدال السرير بتلك الأريكة مادام يحمل بعض المال معه. أما ماذا يعمل بعد أن تنضب نقوده، فذلك سؤال لا جواب عليه الآن. إنها المعضلة التي تتصل بصلب حياته والتي لا يريد أن يواجهها.. ولكن.. هل بمقدوره ذلك؟ هل بوسعه الاختيار؟ إنه - منذ حين - ينقّب في أعماقه السفلى مثل حيوان الخلد، وليس ذلك من أجل متعته الشخصية. ليس من المعقول أن تكون كلّ عذاباته تلك وارتجافات نفسه واصطدامه مع الذات والواقع هي من أجل المتعة الصرف! من أجل أن يمارس لذة سرية بضرب

رأسه بالجدار! الجدار؟ الجدار؟

كانت تقف قرب جدار من طين. كلا. أخذت أنفاسه تتسارع. جرّها، أمسك بها وهو ينظر في وجهها.. فمها المقوس الشفتين مع مسحة من التصميم عليه؛ ولم يظهر عليه ما كان ينوي القيام به. وطافا زمناً، لايعلم أين ولا كيف؛ حتى وصلا إلى جدار الطين فشهر عليها عند ذاك خنجره. لم يعد يرى وجهها بعد ذلك. حتى الحاجبان الدقيقان اللذان مزقهما، لم يرهما فوق عينيها. كانت عيناها أحبّ إليه من كلّ شيءٍ في الدنيا، حتى في طيات عقله اللاواعي المختلّ. وكم ابتسمت حين كان يقبلها في عينها، في طرف عينها اليسرى الكحيلة. وراح بعدئذٍ يمزق الصدر والبطن، تحت جدار الطين القذر ذاك. ولم يصفّق له أحد، لم يصفّق له أحد؛ ولو لم تلمس ذراعه بكل ذلك الحنان لمضى كل شيء بسلام. لما كان صرخ ولا كان بكى. مثلما يبكي الآن. تنزل دموعه، كالجداول، بهدوء؛ كما يجب أن يكون الأمر. بهدوء تام. جالس على السرير في الغرفة الجرداء التي يطل عليها فجر جديد، وهو بملابسه منذ أكثر من أسبوع، يتباكى، مثل طفل، على صور وأحلام تروح وتجيء. وماذا يعني هذا على كل حال؟ ماذا يعني كل شيء، على انفراد أو مجتمعاً؟ الدموع، مثلاً؟ هذا الماء المالح المخزون في محل ما وراء الصدغ والذي يُضغط عليه لسبب أو لآخر فيمر سائلاً من قناة إلى قناة حتى ينتهي الأمر به أن ينبجس قطراتٍ من داخل العينين؛ كيف يمكن أن نستنبط من هذه القطرات المالحة المنبثقة من مكان غير ملائم، أنها تمثل الضعف والانخذال والتراخي وفقدان الإرادة والاستسلام والميوعة والإحباط؟ بماذا يرتبط ملح هذه القطرات اللعينة؟ بالجنة والنار؟ بآدم

وحواء؟ بالخليقة؟ بكل أجدادنا وآبائنا، وما قالوه أو لمحوا إليه وما أرادوا أن يقولوه فلم يسنح لهم الوقت؟ أم أن كل عمل يبدر من الإنسان له تفسير ودلالة؟ وله ارتباطات أيضاً؟ وله نتائج؟ ولهذا توارث البشر خوفهم من الأعمال والدلالات؟ وهل للإنسان دلالة؟ وماذا يمكن أن تكون، عدا أن الإنسان هو الإنسان؟ بدلالة أم بغير دلالة؟ وبعد ذلك، ما هي دلالته، هو؟ بأي شيء يوصم، يحتمل أن يوصم؟ بلاشيء، لأنه لايعمل شيئاً. هكذا يقولون. وهي إذن، من الجهة الأخرى؟ هي التي تربطه إلى العجز والخذلان، ما دلالتها؟ الآن، يمكن أن نجد دلالة على هذه الدلالة. إنها تفتقد شيئاً، يسبغ عليها، بفقدانه، دلالة. إنه المعنى الذي ينقص منها. ذلك الغشاء الممزق، أهو دلالتها؟ أهو معناها؟ أهو الذي يمنحها، أو لا يمنحها، الحياة؟ غطى وجهه المبلل بيديه. إن دلالتها هي في نفسه. هو الذي أسبغ عليها كل هذه العلامات السوداء التي كانت مترسِّبة في أعماقه حين كان يضم ذلك الطائر الدافئ إلى قلبه. لم يراعِ تلك الرقة والشفافية، ولطخ كل شيء بأسرع ما يستطيع ثم انصرف نافضاً يديه، ناجياً بنفسه وخارجاً من المعركة نقياً شريفاً. ولكنها هي، كيف سمحت.. آه.. وأين سيقوده تقصّي العذابات هذا ومصادرها؟ وهو، أهو حقاً الإنسان الذي بمقدوره أن يستقصي عنها.. بنزاهة وحب؟

لم يقل لها كلمة وهو يغلق الباب على حياتها ويتركها بمفردها. استطاع أن يهرب بذاته؛ ألم يستطع؟ والتزم الصمت وتسلّل كاللص خارجاً. لم يتدهور، مع كل ترسباته القذرة، ولم يصرخ بها أو يعربد. فوجئ، فقط. فوجئ لأنها أرادت له ذلك. فوجئ، وضُرب على رأسه. لم يرَ في عينيها الغائمتين الصفراوين، أي نداء استغاثة، أي نداء حب

لإنقاذها. أكانت يائسةً منه؟ يائسة، وهي تضمّه إلى صدرها ويشعر بالذراعين الرقيقتين تحيطان به وتضغطان على ظهره؟ يائسة، وهي تغطي النهد المتوثب بخجل؟ وهي تهمس في أذنه، في قلبه؟ وهي تشرق عليه مبتسمةً له بكل روحها كالشمس، كالحياة؟

أكانا إذن، أنزل يديه عن وجهه، مخلوقين هالكين، لا رجاء لهما، لا أفق أمامهما؟

كان الضوء في الكوة قد ازداد سطوعاً، وامتلأ جو الغرفة بغبش مبهم. أمسكته، بكل حنان الأنثى، وقادته معها نحو الهوّة. هي التي اختارت ذلك. كانت تعلم ما بها ولم تخبره، لأنها لم ترد أن تُترك وحيدةً.. لأنها لاتقوى على مواجهتهم بمفردها. أم أنها.. لعلها وثقت به وأحبّته.. وأحبّته، فأرادت له أن يفهم ما هي فيه. ثمّ.. قد. كان هو إذن الأصل والأساس والبدء. أتكون أحبّته حقاً؟ يا للفكرة الجنونية. ولم تقل له؛ ولعلها توسّمت فيه ملامح بطلٍ؛ إذ، أن نحب هكذا، يعني أن نوصم معاً.. أن نرتبط بوثاق سري مدى الحياة. أكانت تعبث هي الأخرى بأمورٍ مثل هذه؟ وتزوجته بعد حساب، لكنهما كانا، منذ البداية، من الهالكين. هالكان لأنهما غير مقطوعي الجذور. لو قطعا جذورهما لملكا طوق نجاة مضموناً. إلاّ أنها لاتعلم كل هذا؛ والشخص الوحيد الذي راهنت عليه هو الذي شهر خنجراً عليها. وماذا يهم أو يغير من الأمر أنه حصل في الأحلام؟ لقد وُجد وضعٌ، في الخيال أو في السماء أو في زاوية قصية من الكون، أمكنه فيه هو بذاته أن يطعنها.. هي بنفسها.. وأن يستمر في الطعن إلى أن تلمسه وتقول له كفى.. كفى موتاً، كفى غسلاً للعار. كفى؛ لأنك تريد أن تغسل الهواء بدمك، تريد أن تمسح على

النجوم بأناملك.

كان ممسكاً بيديه الاثنتين، تحت الغطاء، يشد إحداهما إلى الأخرى بقوة. استنارت الغرفة وبدا الحائط أمامه يأتيه الضوء من النافذة الصغيرة في الزاوية اليمنى. كان الشرخ الأسود الذي يخرقه من الأعلى إلى الأسفل يظهر أشد عمقاً الآن، تحيطه خطوط متقاطعة ومنحنية ومتشابكة، وبقع الرطوبة الداكنة. مثل سهوب ضربها زلزال، فشقَّ أرضها دون رحمةٍ وأفنى الحياة عليها. عملاق مجنون يحمل منجله ويتراكض ليقطع رقاب الأطفال. يفني كل أثر للحياة. وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت؛ يدفنونها وهي لم تذق بعد حليب أمها. الفناء. هذا هو الفناء حقاً. وهل سيوقفه أحدٌ؟

شخر حسين وتقلّب، فصدرت منه ومن الأريكة التي ينام عليها أصوات مختلطة. كان أصفر الوجه صفرةً نحاسيةً، وتحت عينيه المغمضتين هالتان سوداوان، وقد تغطى بما لايدري، معطفاً أو بطانية عسكرية ثقيلة. وكان منضماً على نفسه كدودة في شرنقة، لا يبين منه غير وجهه وشعره المنكوش. متى عاد ليلة أمسٍ؟ لم يكن يملك ثمن المشروب وكان قلقاً لأن مساء الخميس مهيأ بالضرورة لجلسة شراب. ولم يغير من هذه الحقيقة أنه يجلس إلى مائدة الشراب كل مساء. كانت لليلة الجمعة صفة خاصة تفرض نفسها عليه. إلا أنه لم يطلب نقوداً. غادره بعيد الفطور. تلبث أمامه أطول مما يجب وبدا مشغولاً بشيءٍ غامضٍ. لم يحب أن يعطيه نقوداً قد يحتاجها هو بعد حين. لذلك لم يرفع رأسه وتظاهر بانهماكه في التفكير رغم انزعاجه من موقفه هذا. كان بوده أن يساعد حسين بشكلٍ من الأشكال، لاسيما بعد أن فتح له

نفسه خلال هذه الأيام. أخبره بأشياء غريبة عن حياته. الغسيل والثياب والطعام والعلاقات مع الناس. لم يخدعه، هذه المرة، بأقاويل الأدب والفلسفة والذات والآخرين. قال له إنه يفهم أقل ما يمكن من الأمور. وجده أطيب قلباً مما تصور، وبدت له حياته الحاضرة النموذج الوحيد الذي يلائمه. لم يكن متمرّداً على الحياة الإنسانية بشكلها العام، لكنه كان يتلافى ضرورات المجتمع وقيوده؛ وكان يدفع ثمناً جيداً مقابل ذلك من كرامته وقذارته وجوعه. كان راضياً مطمئناً بشكل يُحسد عليه؛ وكان يعلم، بعمقٍ وبإيمان، أنه إنسان محكوم عليه بالفناء خلال وقت قصير. كان الخوف يهاجمه أحياناً على حين غرة، خوف أعمى لا يستند إلى منطق، فيسرع إلى الكأس يفتّش فيها عن الاطمئنان، وغالباً ما كان يجده.

شخر مرةً ثانيةً، كمن يحتضر. إنه يقف، بوعي خاص به، على حافة النهاية. يترنّح على الفوهة، ولكنه يبذل قصارى جهده كي يطيل ترنّحه.

كانت تقاسيم وجهه ذي الوجنتين العظميتين، تعكس انطباعاً بالانطفاء، بالانقضاء. آلمه التطلّع إلى حسين وهو نائم. لم يكن شخصاً، بل صورة للموت؛ حلماً، وهماً، شيئاً أثيرياً. لو رأى نفسه الآن، على هذه الشاكلة، لارتعب؛ لما أمكنه أن يقبل حقيقة الهلاك القريب التي يؤمن بها. لأنه، في إيمانه هذا، يتلافى المستقبل، يتلافى أية غاية. لقد اختار أن يؤمن بأسوأ ما يمكن تصوّره... ثم استراح. أية خدعةٍ هذه!

ابتعد بنظره عنه إلى الحائط المشروخ، المضاء. كانت على صفحته رسوم بقلم رصاص. قلب مطعون بسهم وحروف، وآثار مسامير صدئة ولطخة حبر أسود ضخمة. كمن رمى محبرة وكسرها عليه. أغمض

عينيه. وخزته معدته وقلبه. ضغط على بطنه بيده اليمنى ثم فرك صدره واستنشق الهواء بعمق. هذه الأعمال الصغيرة قد تفيد آخر الأمر. كان مُستَهلَكاً فارغاً، مرتخي الجسد. هدأ كلّ شيءٍ فيه تقريباً إلا جيشان الجنس. الشهوة اللعينة، لاتزال هناك، تشعلها أفكاره. عصر ساقيه. لاتنطفئ ناره. حركتها وهي تفتح ساقيها الخمريتين. الإحساس السماوي بأنك في أعماق تلك الأنثى الجميلة، الأنثى الحبيبة. تخفي النهد المرتجف بأصابعها الملونة، وحين تلتصق عليه شفتاه، تمسك برأسه وتداعبه برفق. كان في كامل يقظته، واسع العينين، يحدق إلى الفراغ الأغبش أمامه. خامره شعور ببهجة خفية، تتماوج في وسطه بغموض وتتسامى إلى أعلى صدره. بهجة سرية بالحياة؛ لا سبب لها، لا مسوّغ لها غير نفسها. إنها هي البهجة بذاتها، لأنها هي الحياة.

كان يحسُّ بلذةٍ شبه جسدية تنبثق من موضع مجهول في حشاياه، لذة خجولة مبرقعة. لذة مخدِّرة أنسته، لحظات، كل آلامه وما يحيط به. أغمض عينيه. كم يبدو كل شيء مضحكاً أحياناً، يمكن العبث معه حتى الموت. نداوره ونحاوره ونسخر منه ونتلافاه ببراعة ونرفضه عن يقين. نرفضه عن تصميم وليس بداهة. سمع من بعيد زقزقة عصفور. فتح عينيه مستغرباً. كان الصباح قد انبلج أو كاد، وحسين يغطُّ في نوم عميق. أراح رأسه على الجهة اليسرى. لم يرَ حذاء حسين أسفل الأريكة. لعله لم يجد الوقت لنزعه. ما الفرق؟ ابتسم. كان متعباً. أغلق جفنيه...

... فتح عينيه. كان حسين جالساً على الأريكة يتطلّع إليه. تلاقت نظراتهما في سكون الغرفة التي تملؤها الشمس. مرت عليهما فترة من الوقت ولم يتكلما. بقيا يتبادلان النظر. كان الجو غريباً مبهماً لغير

سبب. سمع فجأةً انفجاراً بعيداً مخنوقاً. قعد في سريره. قال حسين بصوت أجش:

- سمعت؟ هذا رابع واحد.

- شنو يعني؟

حكَّ حسين رأسه:

- لو الحجّي أكل بصل هواية بالسحور، لو، أخي مدحت، هاي هي الثورة اللي ننتظرها كليتنا. وأعتقد صاحبنا كريم قاسم راح يواجه يوماً عصيباً، مثل ما يقولون.

ثم تمطى وتثاءب فاتحاً فمه على سعته.

خالجه شعور بالقلق وهو يستمع إلى كلمات حسين. كان الصباح جميلاً، مهيأً لنزهة خلوية مع شخص يميل إليه القلب، لا لثورة جديدة أخرى. ولكن.. إذا كان اعتقاد السلطة مثل اعتقاده، فإن الثوار قد اختاروا يومهم بدقة وتوفيق. قطع سلسلة أفكاره انفجار آخر أعقبته زخة من الطلقات النارية. قال حسين وهو ينزل رجليه من الأريكة:

- لا. هذا مو الحجي. أكيد.

وضحك ثم قام يتمطى ثانيةً.

كان بملابسه الزرقاء المجعّدة، وكان ثوبه الحائل اللون مفتوح الياقة والرباط الأسود مشدوداً إليها. عاوده القلق وهو جالس على السرير وساقاه متدليتان يستمع إلى حسين يكلمه ويتثاءب:

- تسمح لي مدحت أروح قبلك للخلاء؟ لازم نستعجل شوية.

- تفضّل. طبعاً.

حكَّ حسين ساقه اليمنى وسار وهو يعرج نحو الباب.

عثر على حذائه تحت السرير محشواً بالجوارب. وضعه في رجليه باشمئزاز ثم قام يتمشى. كان قلقاً مكتئباً بعض الشيء، يدرك أنه لم ينته إلى شيءٍ ملموس في تفكيره. لقد انكفأ عن العالم، عنهم جميعاً، لأنه شعر أنه كان مكشوف العورة خجلاً من كل شيء. ولم يقم بعمل ما؛ وعدّ ذلك، قبل ساعات، إنجازاً بطولياً. والآن، والانفجارات تتعالى في الأفق، يترا ءى له أنه لايملك كل وقته ولا دنياه؛ وكان خائفاً أيضاً، لأن البشر وأعمالهم ودلالاتهم يفلتون من أفكاره ومن منطقه وتوقّعاته.

فُتح الباب بعنفٍ ودخل حسين يمسح شعره ويسوّيه:

- العفو. تأخرت شوية. ما سمعت شي؟

- لا. شأسمع؟

ثم أسرع يخرج هو الآخر.

كان الجو دافئاً في الباحة الخارجية. توقف أمام المغسلة. كانت عيناه حمراوين متورمتين قليلاً وشعره مضطرباً. غسل وجهه بالما ء البارد والصابون. آلمته عيناه. خيل إليه أنه سمع انفجاراً أو اثنين. كان الشعور بالقلق يخزه بين لحظة ولحظة مثل دبوس خفي في جنبه. أخذ يمسح وجهه حينما رأى حسين يغادر الغرفة:

- آني رايح عيني مدحت، أشوف شكو ماكو. تيجي ويايه؟

تردد قليلاً:

- آني؟ لا. لا. روح انت حسين. إذا أكو شي.. ترجع طبعاً؟

- طبعاً. طبعاً أرجع. وين أروح؟

ومضى يعرج نحو السلم.

أرجع المنشفة إلى مكانها ونظر إلى المرآة وصورته المشوّهة فيها.

لمس لحيته السوداء الطويلة. كانت الانفجارات تتردّد من بعيد. قصد الغرفة ثم توقف أمام بابها المفتوح. كانت جحراً كريه الرائحة، لا تزيدها حزمة الأشعة في وسطها، إلا بؤساً. تراجع ونزل ليفتش عما يأكله. لم يجد أحداً في المطبخ المظلم. أشعل ناراً ووضع عليها ابريق الماء. نادى على العجوز عطية وعلى الحجّي، فلم يجبه أحد. كان دائخ الرأس، ناضباً. فارقته كل أفكاره، ولم يتبقَّ لديه ما يتذكره. غلى الماء فصنع لنفسه شاياً سكبه في كأس وعاد به إلى الغرفة مع كسرة من الخبز اليابس عثر عليها مصادفةً. جلس على السرير. ثم قام ففتح النافذة. دخلت نفحة من الهواء الربيعي الدافئ وبعض الانفجارات والضوضاء. غمس الخبز في الشاي ذي الحمرة القانية ثم قضم قطعةً منه. وجدها ذات طعمٍ مستساغٍ. نظر إلى ساعته. جاوزت العاشرة والنصف بقليل. ماذا حدث له ليلة أمس؟ عاد يجلس على سريره. كان التراب على أرض الغرفة يشكّل طبقةً تنطبع عليها أقدامهم. لاحظ محل سقوطه مطبوعاً قرب قدميه. شرب رشفةً من الشاي. ماذا حدث له ليلة أمس؟ ذلك الحلم الفظيع. يالله! يقتلها ويصرخ ثم يبكي معها. يالله! تتصارع في نفسه كل تلك القوى المجهولة ولا يستطيع التدخل. أيستطيع؟ ولكن.. مَنْ هو؟

كانت يداه ترتجفان قليلاً. قضم قطعة أخرى من الخبز. أحسَّ ببعض المرارة في حلقه. كانت أصداء طلقات نارية تتوالى على أذنيه تعقبها أحياناً انفجارات بعيدةٌ جداً. ماذا حدث له ليلة أمس، حقيقة؟ أكان طرفاً في الموضوع، أم ساحة فقط لنزعات وحشية خفية تتقاتل فيما بينها؟ وهو؟ مَنْ هو إذن؟

مدحت عبد الرزاق الحاج إسماعيل. عراقي بغدادي من محلة باب الشيخ أباً عن جد. حقوقيّ، موظف منذ خمس سنوات. لايملك نقوداً ولا بيتاً ولا مستقبلاً معيناً. له إخوة وهو متزوج.. منذ أسبوع. هكذا يمكن أن يكتبوا على قبره، وقد يضيفون إليها أشياءً أخرى. وكل هذا ليس هو بالتأكيد، هذا الجالس في غرفة جرداء في حيّ الأكراد، يشرب شاياً أسود بملابسه التي لم ينزعها منذ خمسة أيام ويقضم خبزة عفنة ولا يهمه أن تقوم ثورة أو يسقط طاغية. ما الأمر الجوهري، الحيوي؛ الأمر الذي يكونه هو، الذي لايعيش - كما هو - بدونه؟ كان السائل الأرجواني في كأس الزجاج، يترجرج بهدوء ويعكس التماع الشمس في النافذة. رأى عدة بقع دهنية داكنة على سرواله. يدخل دارهم كأنه لم يغب عنها. لايستقبله أحد. يسرع إلى الحمام ليغتسل ثم يجلس ليأكل جيداً. يرتاح قليلاً. يصعد إلى غرفتهم. يراها. تراه. يتبادلان النظرات. يطعنها طعنة واحدة في القلب. يعود ليخبرهم بما عمل. تراه. يراها. لامعة العينين، يتهدّل شعرها الأشقر على كتفيها. امرأته. يضمّها. يضمها.. يضمها إليه.

تلاعبت الأشعة في كأس الشاي. يده المرتجفة. أمس، مزّقته أخيلة، حراب من هواء. واليوم، صاحياً وفي وضح النهار، ترجّه ذكراها. أهي إذن، تلك الفتاة المعيبة، هي إذن حبله السري؛ وحبه لها هو الذي يعمل به كل هذه الأمور العجيبة؟ هو الذي يدور به كالثور حول مصيره؟ ولكن، أيّ مجنون يمكن أن يصدق هذا؟

لو كان الأمر صحيحاً، أما كان قد عاد قبل هذا الوقت ليجثو تحت قدميها ويريح نفسه. أو.. أكان، منذ البدء، قد استطاع أن ينهزم منها؟

وهل انهزم منها حقيقة.. منها هي؟

قام بتثاقل يضع كأس الشاي وبقايا الخبز على حافة النافذة. كانت السماء برأقة الزرقة وشمس الضحْى المتوهجة ترسل دفئاً لذيذاً شعر به على وجهه. سمع هديراً يأتي من الأفق وأزيز طائرة وصوت إطلاقة مكبوتة. إنهم يتقاتلون بحميّة. هنالك، يتقاتلون بكل ما لديهم من أسلحة مادية وروحية؛ وهو، ها هنا بين الحيطان القذرة الجرداء، يباحث نفسه عمّا جرى له.

ذلك أنه في غير عالمهم، هذا هو السبب. لقد رمتْ به خارج مدار هذا العالم. هي التي استطاعت، بعطبها وبحبِّه لها، أن تخرجه عن القاعدة، أن تجعله استثناءً. لم تعد سلسلة الكهوف المظلمة من رغبات الأجداد وأمزجتهم تحيط به. ما عاد يسبح مع القطيع في تيار النهر النجس لترسبات أولئك الذين نحتوا، خفية، أعماقه. لا. إنه ليس منغرساً في طينهم الأسود. لقد ارتمى على الشاطئ المنور، وباستطاعته أن يحيا وأن يموت إذا أراد. ولكن.. ماذا بمقدور الإنسان الوحيد أن يعمل؟ أن يكون أمثولةً، فحسب؟ أم أن الطريق الذي يبدأ برفض الفناء يجب أن ينتهي بسعادة الإنسان بشكلٍ من الأشكال، لأنها هي الغاية الأخيرة المشروعة، الغاية المقبولة؟

رجع يتمشى ببطء ثم جلس على السرير. كان متعب الجسم، وقد فارقته فورة الجنس التي باغتته ليلاً. انطوى في جلسته على نفسه وهو يحسُّ باضطرابٍ في خفقات قلبه. لم يزل القلق المستور ينخر فيه. قلق غير ذي موضوع. كالسراب، لايُنال ولا يختفي. لم يعد الأفق منفسحاً لا نهائياً، أمامه. إن الأحداث الضخمة التي لم يتوقعها تحاصره من كل

جانب. هل يخشى أن يصاب بمكروه أم أن قلقه هذا ينصبُّ على مصير أهله؟ أم إنه آخر الأمر، يريد أن يكون معهم فقط مهما تكن الظروف.. معهم فقط؟

كان الهدير بعيداً، مخيفاً مستمراً، ينصبُّ في أذنيه من فم النافذة المفتوح. مخلوق خرافي مجنون يهمهم بلغةٍ لاتُفهم، بل تُرعب. انفجار آخر ذو صدى أجوف. خطوات خفيفة في الباحة الخارجية. رشة من الطلقات المتتابعة؛ والهدير، الهدير. هناك مَنْ يدفع الباب. أطلت العجوز عطية:

- صباح الخير أستاذ مدحت.

بُهت لرؤية طلعتها المنكمشة الصفراء بين سواد الفوطة:

- صباح الخير خالة.

- العفو أستاذ مدحت، ما أريد أتعبك.

كان وجهها نحيلاً مجعداً لا تبين فيه الملامح بشكل متميز:

- ... بلاكت الحجي الله يرضى عليه، خلكسز شوية هالمصباح، وخالتك ما عندها خبز للتشريب وأنت عزيز علينا. أخاف تريد تتغدى وخبز ما يلتكي، والدنيا خبصات اليوم. ما أدري، آني دا أسمع شي، لو شويّة مخرّفة؟

- تريدين أشتري خبز خالة؟

- بلي، أستاذ مدحت.

- والخباز، وين صاير دكانه؟

- بالفضوة أستاذ، وراء القهوة.

في الساحة وراء المقهى، كان الناس يتحلقون جماعات؛ يتحدثون

بحماس ويتطلعون إلى السماء ثم يهرع أحدهم إلى المقهى أو يلتحق بجماعة أخرى، وينصرف آخرون. كان المذياع يرسل خليطاً من البيانات والموسيقا والأناشيد الوطنية، وكان صوته يهزّ زجاج الشبابيك في المقهى. انتبه بعد خروجه بقليل من البيت إلى أشخاص ثلاثة يمرون قربه راكضين. رأى أمام باب الشيخ السامق المزوّق، جماعة يسيطر عليها الانفعال وبعض أفرادها يشيرون بالأيدي نحو الأفق. كانت الانفجارات تصكّ الآذان، عالية في ذلك المكان المفتوح؛ وكان الجو الجميل والسماء الصافية الزرقاء يوحيان بفرحٍ طفولي لا وجود له على الأرض. تطلّع إلى الأفق، حيث يشيرون، فلم يرَ شيئاً، إلا أن قلقه ازداد مع ذلك. سأل عن المخبز فدله عليه طفل في الثامنة. سمع حوله مَنْ يتحدث عن مظاهرات مؤيِّدة للسلطة وعن فشل المؤامرة وعن تدمير وزارة الدفاع. وفي وسط «الفضوة»، وضجة البيانات والأحاديث والانفجارات تسد عليه حواسه، أدرك في أيِّ عالمٍ هادئ كان يعيش. دقت الساعة عدة دقات. حوالي الظهر. قصد المخبز. لم يجد إلا قرصين من الخبز. أزعجته نظرة العامل الطويلة إليه. عاد يسير بتمهّل. كان جسمه رخواً ضعيفاً، وخطواته بطيئة قصيرة. دخل الزقاق فارتاحت عيناه إلى الفيء الداكن. لاحظ عدة مرات، جماعات تمرُّ به ركضاً خلال الأزقة المتشعبة. أربعة شبان أو خمسة، لاهثين وعيونهم تكاد تقطر دماً. كانوا مسلحين، ولم يجد ذلك أمراً مفهوماً.

لقي العجوز تنتظره في المطبخ، جالسةً على كرسي خشبي. سألها عن حسين فلم تجبه، فعرف أنه لم يعد بعد. أخذ يراقبها تشعل النار وتهيئ مرق التشريب. سألها مرة أخرى:

- شنو هاي منطقتكم، خالة عطية؟ هواية متحركين، رايحين جايين. شكو عندهم، هنا؟

كانت تضع المرق على الموقد:

- هنا؟ كل شي يلتقي هنا يا ابني، وكل شي يضيع. الله وحده بس سبحانه وتعالى يعرف راس الشليلة وين.

ثم نظرت إليه نظرةً خاطفةً أحسَّ فيها روحَ اتهامٍ له بشيء لا يعرفه ولا يسرّه. خطر له أنها قد تجده ضيفاً ثقيلاً لا يستحب وجوده في مثل هذه الظروف، أو أنها تريد منه مزيداً من المال. سألها عن الحاج فأخبرته بأنه لايزال نائماً. أضجره، بغتة، أن يكون مع هذه العجوز التي لاتود مبادلته الحديث. استأذنها وصعد إلى الطابق الأعلى. لم يسعده زمن الاقتراب من هؤلاء البشر. اضطجع على فراشه واضعاً ذراعيه تحت رأسه، ينظر إلى السقف ولا يرى منه غير بياض مختلط. لم يكن جائعاً ولا متعباً. كان فريسة لشعور، لهاجس، لانطباع عام بفكرة توشك أن تولد في نفسه، وبأن أمراً عظيماً يمكن أن يحدث له. لم يشابه شعوره هذا، ذلك الإحساس الجنسي الذي واتاه أمس. كان في طور مخاض، تموج أعماقه بتوقّع، بانتظار. كانت تنظر إليه بعينين نصف مغمضتين، غائمتين، يلتمع اصفرارهما الذهبي بين الجفنين الأسودين، وخصلة من الشعر على جبينها المغطى بالعرق. تسارعت أنفاسه قليلاً. منيرة، زوجته. بدت له هذه الكلمات ذات جرس غريب. تلك الفتاة التي أحبها وعاشرها وكشفت له عن نفسها وقسمت دنياه إلى قسمين. إنها، وهو كذلك، ضمن إطار رهيب المتانة من العلاقات والعلامات والدلالات. كلها، إذا أردنا، كلمات لا معنى لها. وكل واحد منها، إذا أردنا،

بمقدورها أن تقتل الإنسان وتسحقه كما تسحق البعوضة. وعبثاً تسأل وأنت تعلم ألا مجيب. عبثاً تتساءل في هذا الوضع عن الموؤودة وبأي ذنبٍ قُتلت وذُريت مع الريح. عبثاً تسأل عنه.. عن الفناء وأسبابه.

سمع نداء العجوز عليه من الطابق الأسفل. كانت الشمس قد مالت قليلاً، والانفجارات البعيدة لاتزال تتردد. جلس في سريره. ما معنى هذه الحال التي يجد فيها نفسه كأن أمراً عظيماً سيحدث له؟ هل يمكن أن يحصل له ذلك؟ أن ينفذ إلى موضع ما، أن ينتقل إلى زمان ما، بحيث يستطيع أن يرى بوضوح وأن يقرر. قام بتثاقل. لاتوجد في إطار هذا العالم حدود واضحة. عليك أنت أن تفرز الأشياء وتضعها بين أقواس كي يمكنك أن تعمل بعد ذلك. الرجال الأقوياء بدؤوا هكذا. لم يستسلموا للهواجس والخيالات، بل شطبوا الأمور التافهة من الحياة وأرادوا شيئاً معيناً ثم خططوا لنواله.

كانت قد وضعت صحن التشريب على المائدة الصغيرة في مدخل المطبخ. سمع صوتيهما يتبادلان الحديث في الغرفة هي والحاج. أخرج ملعقة ووقف قرب المائدة. كان البخار يتصاعد من خليط المرق والخبز. مدّ يده بالملعقة وأراد أن يغرف من الصحن المليء. دوى انفجار عال هزّ المنزل وما فيه. ارتجف فتساقطت محتويات الملعقة. خرجت العجوز مسرعةً وأطلّ الحاج من باب الغرفة. كلّمته:

- الله أكبر، أستاذ مدحت.

نظر إليهما كأنه يعتذر. خاطبه الحاج:

- صبحك الله بالخير أفندم.

هزّ له رأسه. سمعوا فرقعات قريبة لايمكن تحديدُ مصدرها، تبعها

انفجار ضعيف. رأى ساعته مصادفةً، الثانية والنصف تقريباً. كان كل منهم ينظر في وجه الآخر ويتوقعون شيئاً ما. سأله الحاج:

- أفندم، راديون ما يلتكي عند جنابك؟

أجابه بالنفي. أزعجه أنه كان خائفاً، تتقلص معدته وأمعاؤه. اختفى الحاج في الغرفة ثانية وهمّت العجوز أن تتبعه حين طُرق الباب الخارجي. تطلعت إليه بقلقٍ. قال لها:

- آني راح أشوف منو.

عاد الحاج يطلُّ برأسه. فتح الباب الكبير فدخل حسين كالعاصفة:

- الله يساعدك مدحت. شلونك خالة عطية؟ سويت الغداء، الله يخلّيك؟ تره آني إذا مو ميت من الجوع، فنصف ميت. خاطر الله.

رأى صحن التشريب:

- أهلاً، أهلاً بالخدود الحمر. إلى من صابّين هالتشريب؟ مع الطماطة هماتين! يهلهل أنعل مذهبه.

مدّ يده فتناول لقمةً كبيرةً بأصابعه حشا بها فمه وبدأ يلوكها حالاً ويتكلم:

- الأخبار رهيبة مدحت. رهيبة. مظاهرات هائلة، لاكت فاشوشية على بختك. عرض عضلات، يعني. آخر وكت يقولون صاحبنا كريم قاسم دخل بوزارة الدفاع وانحصر هناك.

وقف ينصت إليه ثم أمسك بالملعقة ثانيةً وصار يشاركه الأكل. كان يسمعه يلهث وهو يقضم ويلوك طعامه ويمصّ أصابعه أحياناً:

- لكن راح يروّحون ضحايا هواية، على بختك. عامي شامي.

كان المرق الأحمر يلوث فمه وشاربه وقسماً من خده. سأله:

- لويش؟

أبقى اللقمة بين أصابعه قرب فمه، لا يأكلها:

- شنو لويش؟ بركان أخي. غليان عظيم. آني تقريباً تجولت في كل بغداد. شفت أبو جلال صدفة. كانت عنده سيارة. عملنا جولة طويلة، شويّة خطرة كانت. المسألة عيني مدحت مو مسألة انقلاب وبس. لا. الأرض تفور. كل العراقيين داخلين بالمعركة. هواية راح يروحون ضحايا على بختك. هيكي دا أشوف.

ثم فتح فمه وابتلع اللقمة. كانت وجنتاه أرجوانيتين تميلان إلى صفرة داكنة، وتحت عينيه، اللتين فقدتا لونهما، اسودادٌ حائل. هتف حسين بالعجوز:

- خالة عطية الله يخلّيك، كاس ماي.

قامت من مكانها وسارت ببطء إلى المطبخ. عاد يتكلم:

- شوية تشريب إذا أكو، هماتين. تعبت هواية. الشمس حارة اليوم.

ثم نظر إليه:

- عندي حكاية معك عيني مدحت. نسيتها الصبح. خلّيني استراح شويّة. البارحة ما نمت زين. بلكي آخذ غفّة وراء الأكل.

تناول كأس الماء:

- لا تطلع هسه مدحت. ما تستحقّ. انتظر الجو يصفى شوية والله كريم.

هزّ رأسه.

كان مستمراً في تناول الطعام الذي وجده لذيذاً، وكان يشعر

بارتياحٍ في داخله. لعل حسين، هذا السكير النقي الحدس، يقصد بكلماته هذه مسألة عودته هو إلى البيت، عودته إليها. إلا أن ذلك أمر غير وارد الآن. لا يمكن أن يرجع إليهم كالطفل المذعور. لن يجدي ذلك في شيء. سمع حسين يجيب على سؤال للحاج:

- شلون؟ شلون؟ حجي، أنت شكو عليك الله يخليك. لا بيها ولا عليها. لا من هنا ولا من هناك.

قالت العجوز:

- إي عيني أبو سها، الله يعطيك يابه.

تكلّم الحاج:

- نعم أفندم. بلاكت لاتنس حكاية الحصيني أفندم.

شهق حسين بلقمته، وأخذ يقح متراجعاً إلى الوراء وداخلاً إلى المطبخ يبصق ويتمخط أمام المغسلة. هتف:

- آه. الله. الله أكبر. هاي منين لك هالحكايات؟

وأطلق ضحكةً رنانةً قطعتها سعلةٌ عنيفة. عاد وهو يمسح وجهه بالمنشفة:

- لايظلّ بالكم أبداً. كل شي ماكو. وإنشاء الله كل شيء ينتهي بخير.

رمى المنشفة على المائدة:

- آني راح آخذ لي غفوة فوق.

دوى انفجار كبير بعيد، تبعه آخر أضعف منه. رفع حسين رأسه:

- إذا خلُّونا الجماعة.

ثم سار بخطوات واسعة نحو السلم.

رفع هو اللقمة الأخيرة إلى فمه وابتلعها دون مضغٍ ثم حمل الصحن الفارغ معه إلى المطبخ.

سمع العجوز:

- لايصير زحمة عليك أستاذ مدحت. آني أغسل المواعين.

- شكراً خالة عطية.

ثم مضى هو الآخر إلى السلم فأخذ يرتقي الدرجات ببطء. غسل يديه وفمه ووجهه عدة مرات. كانت رائحة الزفرة في الشعر النابت حول فمه تزعجه كثيراً. قصد الغرفة بعد ذلك. رأى حسين مضطجعاً بملابسه على الأريكة دون غطاء، والشمس منزوية في ركن قرب النافذة. كلّمه حسين:

- مدحت عيني تره عندي حكاية مهمّة وياك، ما أتذكرها هسه. خليني أنام فد نصف ساعة وشوف شلون أنطيك كل التفاصيل.

لم يجبه. قعد على الفراش لحظة ثمَّ تراجع متمدداً على السرير، واضعاً المخدة وراء ظهره. سرى في جسمه ارتخاء لذيذ بعد تناول الغداء. لم يعد يعير اهتماماً خاصاً لأصوات القذائف المتعاقبة. لعله يستطيع أن يغفو قليلاً مثل حسين. لم ينم أمس إلا ساعات معدودة، نوماً مزعجاً أروح منه الأرق. سيسترجع، لو نام، نشاطه.

نزع حذاءيه وسحب الغطاء إلى صدره ثم أغمض عينيه. ماذا في جعبة حسين؟ أينسى حقاً أم يتناسى؟ كلّمه:

- حسين، أنت رحت شفت الجماعة؟

لا جواب. فتح عينيه واستدار بنظره إليه. كان واضعاً ذراعيه في حضنه، كالمستسلم إلى أمرٍ مجهولٍ، وهو ينفث أنفاساً عميقة من فمه

المفتوح. وكان وجهه ممتقعاً شاحباً ناحلاً. رجع بنظره عنه وأغمض عينيه ثانيةً. لابد أنه قابل أحداً من العائلة. إلا أن من السخف أن يعدّ ذلك أمراً مهماً. إنه أمر لا دلالة له، وبالتالي فلا أهمية له. هذا عالم الدلالات. حتى لو كان قد قابلها هي، لما كان الأمر مهماً. ذلك أنه لايعرف دلالتها. هو أيضاً، زوجها، مثل غيره لا يعرف عنها شيئاً جوهرياً. وهو لهذا إذن، وبعد كل شيء، يتخبّط في الظلام؛ يسير كأعمى، يفتش عن شيءٍ لم يره ولا يعلم ما هو. شعر بأعصابه تتوتر وتملكه ذلك الهاجس بأنه يوشك أن يعثر على شيء فذّ. كان قلبه يخفق بشدة. إنه يخفق هكذا بعد الأكل عادةً، إلا أنه يخفق الآن لسبب آخر.

هي، مثلاً. كانت عذراء بالتأكيد، مثل كل فتاة أخرى. ألا يكنَّ جميعهن، عذراوات لمرة واحدة؟ ثم.. ويلبث قلب الحبيب يريد لها ألا تمسّ، أن تتجدد عذريتها بعد كل وصال. ولكن، هيهات. لو أبقت إذن، تلك المتهورة العزيزة عليه.. لو لم.. وعصرت نفسه رغبته فيها. دافئة لينة ناعمة. يتوسدها وتحتضنه. تحتضنه وتضمّه إليها. تريده وتلصقه إلى جسمها. مسح جبينه النابض عدة مرات. كانت أنفاسه، مرة أخرى، متسارعة؛ لكنه أحس أن باستطاعته أن يبعد تلك الصور عن نفسه. ثم... وهو في عالمه الأثيري ذاك أمسكت به قبضة حديدية لا ترحم ورمته بكل وحشية خارج مداره. خارج عالمه، خارج عالمها؟ لايعلم، وليس لذلك أهمية. كان ضحية لإرادة همجية نفذت فيه دون سابق إنذار. ما هي هذه الإرادة؟ ما كنه هذه القوة المبهمة التي تبلغ هذا الحد من القسوة والعنف وعدم الرحمة؟ ما هي؟ ما هي؟ ما هي؟

كانت قبضتا يديه متشنجتين الواحدة على الأخرى وجسده كله

متوتراً متحفزاً كمن يهم بمهاجمة وحش يقف أمامه، كي ينقذ نفسه. فتح عينيه ثم اعتدل وجلس في الفراش. كانت الغرفة، في غسق العصر، تبدو بلا جدران، والهدير يأتيه من النافذة المفتوحة دون انقطاع. لعله، في حقيقة أمره، بمواجهة وحش ذي تكوين مجهول وبلا هوية. وحش تكمن قوته في أنه مجهول، مظلم الأصول ومبهم الغايات؛ فإذا ألقيت عليه الأضواء، بشكلٍ من الأشكال، أو وجد مَنْ ينظر بإصرار في عينيه، في باطنه، بدا مضحكاً مهلهلاً كسيفٍ من ورق.

كان حسين مسبل الذراعين، داكن الألوان، كشخص غائب عن العالم. شعر، بغتة، بأنه وحيد، متعب غاية التعب. عاد يسند ظهره إلى المخدة ويغلق أجفانه. متعب، وحيد، متخاذل، خائف. أن تكشف عن وجه الوحش الذي يتخافى عنك، أن تواجهه؛ هذه الفكرة هي النداء الأخير له كي يعيد النظر، بأعصاب هادئة، في حياته وفي أسباب ما يجري له. إنها دعوة لقلب الأسس. ولكن... كيف نقلب الأسس إذا كانت الحقائق ثابتةً ثباتَ الليل والنهار؟ كيف يمكن أن يغير من أساس نظرته إلى الحقيقة القائلة إن زوجته منيرة لم تكن عذراء حينما تزوجا؟ لم تكن عذراء. منيرة كانت على اتصال بشخص قبله، اتصلت به ولعلها أحبته. اتصلت به ولعلّها... كانت العبرة في صدره ضعيفة لاتقاوم خنقه لها. وحين قبلت الزواج به كانت تعلم أنها ليست عذراء وكانت تعلم أن ذلك سيؤلمه، سيجرحه، وقد يودي به. ولم يعد هذا مهماً الآن، ولكن ماذا ينبني على حقيقتها هذه؟

إنها ليست عذراء، فهي فاقدة الشرف ويجب أن تُعاقب على يده أو على يد أيّ متبرّعٍ آخر من العائلة. هذه المعادلة معروفة. إنها تضع

الشرف في عضو الأنثى العذراء، وهي توكل لها أن تحافظ عليه إلى حين من الزمن مقرّر. لماذا؟ هذا بحث آخر، لا أحد يبحثه، ولكنه في صميم الموضوع. أهو السعي لنظافة النسل والعائلة والعشيرة والأمة ومن ثمَّ البشرية كلها؟ أيُّ عبثٍ هذا! ولكن، لماذا ترد كلمة النظافة إلى ذهنه؟

كانت كالضوء شفافيةً ونعومةً وبهجةً، وكانت أبعد المخلوقات طراً عن القبح والقذارة. ومع هذا، كانت قد أُفتضّت ودُنّست وكانت تعلم ذلك. كانت تعلم ذلك حين تزوجته، ولم تقل له شيئاً. ها هو يعود إلى ذلك الهاجس القديم. لم تقل له شيئاً. لم تقل له شيئاً. ولعلها قالته؛ أكان تبدُّل جوهر المسألة في شيء؟ إنها، من خلال منظور متوطّد في نفسه وفي جذوره، تعدّ قد فقدت دلالتها كامرأة في هذا المجتمع وكزوجة وكأم. فقدت دلالتها، فقدت معناها الذي يجب أن تحتفظ به، أن تتلبسه وأن تسبغه على وجودها الأنثوي. فقدت دلالتها بشكل غير مشروع. هذا هو الوضع الصحيح. فقدتها، تلك القطعة الحسّاسة اللعينة من اللحم البشري، بشكل غير مشروع، غير مسموح به. ذلك أنها، من الجهة الثانية، تستطيع أن تفقدها ولكن بشكل آخر.. شكل مشروع. هنا مسألة جوهرية أخرى. إذن، الفقدان ليس أساساً ثابتاً مهماً، لأنه سيتم إن عاجلاً أو آجلاً. إذ لايسمح، في هذا العالم المدنس، للمرأة أن تكون عذراء مرتين. إنما... كيف تفقد عذريتها وبأية طريقة؛ هنا، وضمن مخارج البشر ومداخلهم وعواطفهم ونفاقهم وضعفهم وضعتهم وخبثهم وتهورهم ومخاوفهم، يمكننا أن نسكب نهراً من الدموع، ولن يكفي.

بدأت أجفانه تثقل. دوى انفجار قصيٍّ ذو صدى غريب. كان متعباً لغير سبب، يتمنى من أعماقه أن يجد وقتاً، مهما قصر، للراحة

والنسيان. إن تشابك أمور الحياة هكذا ومحاولاته لتفسير ما لا يُفسر، تبعث في القلب هماً وتشعر بالسويداء.

لم تكن أفكاره مبهجةً. انتبه إلى أنه يفكر بدلاً عنها. يسلسل الحقائق بحيث يصير في صف المدافع عنها، عن تلك الفتاة التي يحبها رغم كل شيء. الوجه الملون الضاحك والعينان المبتسمتان، وإشاراتها وحركاتها وإيماءاتها وجسدها ورقتها وتلك الهالة من الضوء التي تحيط بها!

ألأنه يحبها، ينكر الحقائق ويزوّرها ويحاول إخفاءها؟

وأين سينتهي به كل هذا؟

لن يصل إلى قرار إذن، إلى الحقيقة. كلا. ليس هذا صحيحاً. إنها لم تمنحه نفسها فقط. كان يعرف ذلك. لقد سلّمته عارها أيضاً. وضعته، هو، بجانبها. خلطت عيبها وحبه وحياتهما وذكرياته وأحلامه، ونامت في أحضانه مستسلمةً إلى حكمه.. أيّ حكمٍ

تنام في أحضانه مستسلمةً له!

أية أحلام عجيبة يحلم. كان وجهها المتورد، المحمرّ، المتعرّق قليلاً، وجهها الجميل المنوّر، منطبعاً بطابع استسلامها له.

كانت تعطيه نفسها برضا، بحبٍّ الأنثى. لم تكن متزلفةً ولا مخادعةً. وعادت إليه لحظة رأى بطنها الخمري تحته تتردد فيه أنفاسها السريعة ويتصاعد اللحم اللين كأنه يسعى إليه ثم ينخفض؛ وكيف خطر في ذهنه آنذاك أنها بكل كيانها تريد منه أن يمتلكها.

تقلّب في فراشه بقلقٍ. شعر بنشاطٍ في دمائه وعدّل من وضع رقبته ورأسه على المخدة. لم تكن الانفجارات كثيرةً، إلا أن الضوضاء بقيت

كالعاصفة في الأفق.

هل كان من حقها أن تدع له الحكم عليها.. عليهما؟

ولكن.. هل من حقّ أحدٍ أن يسألها لماذا تمنحين حياتك لشخص ما؟ حياتها وما فيها وما عليها؟ هل من حقها..؟

كان يهوّم، تجيئه الفكرة ثم تبتعد، ورأسه يدور وهو يحس بنفسه يتلاشى مع لجّة النوم التي كانت تقترب منه وتقترب ثم تغرقه ببطء.

- ١٢ -

- الزخم والبقاء -

(٢)

أدركوا بشكل مبهم، هو والعجوز عطية والحاج، أن شيئاً ما قد انتهى. كان المطر يتساقط بحزنٍ والساعة تشير إلى ما بعد الثالثة والنصف، والانفجارات المختلفة الأصداء تتردد دون انقطاع. أكلوا قبل ذلك خبزاً يابساً غمسوه في مرق حائل اللون ثم اختبأوا في الغرفة الصغيرة المطلّة على الحوش، يتحدّثون حديثاً متقطعاً لا معنى له. جمع بينهم الخوفُ وهاجسُ الوصول إلى النهاية. لم يرد مدحت أن يقول لهما ما كان يدور في ذهنه وما يحاول أن يقرّره. ترك لهما أن يشعرا أنه منتمٍ إليهما في محنتهما هذه، وكانوا يشربون الشاي المرّ المذاق في الغرفة الرطبة، من بعد ظهيرة السبت المظلم ذاك، حينما ران عليهم صمتٌ غريبٌ. انسحبت من عالم الأصوات الذي يغمرهم، جوقة معينة ذات وقع خاص وتركت الساحة لحوار الحرب المخبول. صار هدير آلات القتل أكثر صفاءً وشدةً. كان الحاج قد لفّ نفسه ببطانيةٍ خضراء سميكةٍ وجلس على السرير، آخذاً على نفسه أن يحكي لغير أحد قصة حياته الطويلة. بدأ بها ليلة أمس فجأةً ولم ينتهِ منها. وأمس أيضاً بُعيد العصر حينما استيقظ، لم يجد حسين في مكانه. غادر البيت أثناء نومه ولم يعد.

جلس في فراشه. كان يسمع الرشاشات تلعلع باستمرار. ثم قام فغسل وجهه ونزل قربهما. رآهما مثل جرذين في مصيدة. لم يتكلموا، اكتفوا بتبادل النظرات صامتين. شعر، بعد وقت وجيز، بنفسه تضيق. كانت الغرفة الصغيرة داكنةً، قاتمةً. واتته فكرة الخروج للطواف في الحي آنذاك. ثم صارت رغبةً ملحةً للتخلُّص من كربه وقلقه. قال لهما إنه سيعود بعد نصف ساعة. كان خالي الذهن وهو يجوب الطرقات والأزقة على غير هدى، ثم غمره تدريجياً الوضعُ الذي وجد فيه نفسه. كانوا في حالةِ حربٍ، مشغولين بإعداد أنفسهم لحصارٍ طويلٍ، وكان هاجسه الوحيد وهو يستجيب لمنعهم له من الاقتراب من فتحات الطرق، هو أن يعرف إمكاناته. وجد كلَّ المنافذ مغلقةً. كانت الطلقات تقشط الجدران وتنثر حجارتها وتترك فيها ثقوباً عميقة؛ وكانوا يحتمون وراء منحنيات الأزقة والطرق. لاحظ بعض البيوت الخالية، ولم يخطر له وهو يجول بين أولئك البشر الذين كانوا يتحركون بشكلٍ بدا له منظماً، أنه واحد منهم رغم أنه، لسببٍ غامضٍ، يشاركهم مصيرهم المجهول. كان خائفاً، لايريد أن يدفعه خوفه هذا فقط لمحاولة النجاة.

ثم عاد بعد أقلَّ من ساعة، يمشي بتثاقل تحت المسنايات ذات الشبابيك الخشبية. كان الجو ربيعياً والهواء مشبعاً برائحة رطبة ذات نكهة خضراء. كأنه يدفن وجهه في حشيش أخضر مبتلٍّ تتوهج فوقه الشمس. رآها بين المسرعين المتراكضين في الأزقة حواليه، تلتف بعباءتها كاشفة صفحة وجهها اليمنى وخصلة من الشعر تغطي جبينها. ارتعب لحظة وخفق قلبه. كانت مضطربةً في سيرها لا تستطيع، كما يبدو، أن تقرِّر وجهتَها. أراد أن يتراجع أو يخفي نفسه عنها. لكنها استدارت إليه بغتة فانمحى الخيال الجميل الذي انبثق من أعماقه في

خضّم تشويهات وجه الفتاة. الأنف والعينان والحنك، كلها إشارات أخرى. أخرى. كيف أمكنه أن يُخدع هكذا؟

وبقي منفعلاً وهو يدخل الدار عليهما. استقبلاه كأنه يحمل لهما كل مفاجآت العالم. كانا جالسين في حجرتهما المضبّبة بدخان السجاير، متكوّمين على منقلة ذات جمرات خابية، يكرعان الشاي الأسود استكاناً بعد استكان. حدثهما عما رأى وهو يشرب شايه وكان يحس بقتامة في نفسه تحلّ محل الانفعال الذي ساوره وهو يشبه إحدى الفتيات بها. سألته العجوز عن حسين وهل سيتأخر في العودة هذا المساء أيضاً. كانت الإطلاقات الناريّة تملأ عليهم الجو وتكاد تمنعهم من سماع كلماتهم أحياناً. لم يجبها. سمع الحاج:

- محية أصلي، جانم.

أضحكته بمرارة، تلك الكلمات العرجاء. لايزال يتذكرها الآن وهو يراقب المطرَ الحزين. كانت بداية البداية لحديث الحاج الذي استرسل فيه مساء أمس ساعات طويلة:

- بالكوت جانم. بحصار الكوت، داعيك موجود. وصلنا من «قصر شيرين» إلى «السبيليّات». جنرال انكليزي «طاوزند». ملعون والدين. محصور مع خمط.. خمصطعش ألف نفر. خمصطعش لُك، جانم.

كانت قسمات وجهه تتحرك بعنفٍ مع كلماته وعيناه الصغيرتان تشعّان بين لحظةٍ وأخرى وسط كثافة الشعر الأبيض:

- نبديد. هلكان وصلنا. راسي خليت على إيدي ونمت جانم مثل زمال على الكاع، بطريق العام. جا الخيل راد يسحكني. لاكت، الحمد لله. اشتغلت المدفعية ساعتين. إحنا بالخندق. ساعتين مدفعية تشتغل.

هجوم. سلاح أبيض. نصرخ «الله أكبر. الله أكبر» نضرب. نشك بطون الانكليز. واحد بيزونك هندي يشلح علينا يگول آني مسلم، آني مطهر، بيزونك، إحنا قشمر مال أبوه. نشك بطنه. هو وأبوه.

وكان يشير بذراعيه شارحاً كيفية الطعن بالحراب وقد اصطبغت تقاطيعه بقسوةٍ حيوانيةٍ شاذة.

أراد هو أن يصعد إلى غرفته، غير أنه فضّل أن يبقى معهما، مثلما يفعل الآن. يتطلّع إلى المطر الحزين يتساقط مع غروب شمس السبت المظلم. لبث الحاج يثرثر دون انقطاع ساعات طويلة بين رعد الرصاص المتواصل. أدهشه، وهو يستمع إليه، ذلك الانطباعُ البدهي الذي واتاه بتأثير أحاديث الحاج: انطباع بأن قوةً ما، قوةً غامضة لا تسمى.. الحياة أو الإله أو أي اسم آخر، كانت تعبث بهذه الجموع الغفيرة من البشر بشكل عشوائي وحسب إرادتها العمياء. تدفع بهم آلاف الأميال من كلِّ الجهات وتجمعهم لتضرب أحدهم بالآخر فتميت بعضهم وتترك البعضَ الآخر يتعذّب ويجوع ويسوح في الأرض هائماً على وجهه. وخلال هذه الحركات الجماعية العنيفة المتقلّبة، لا يعي الفرد منهم شيئاً. إنه يطفو كالقشّة على سطح نهرٍ يفيض. ينجو من كلّ الأخطار ولكن دون إدراكٍ للسبب، دون إدراكٍ كيف اختير ليكون موضوعاً في لعبة لا تسرُّ أحداً.

- ... نره يه كيد يورسك ترك أوغلي كارمان شاهمي؟ نره يه كيد يورسك ترك أوغلي كارمان شاهمي؟

كان الحاج ينشد ووجهه مستضاء بفرح طفولتي:

- نمشي جانم، نمشي. إي نعم. سربول وكرنت وملهداشت. إي نعم. وكرمنشاه. نره يه كيد يورسك أوغلي كارمان شاهمي؟ مدينة كبير،

كبير. ناس راكبين زمايل ويكول.. دستور.. دستور. يعني.. طريق.. طريق.. والخبز، ذراع ونص طوله، جانم. ذراع ونص. وهناك جانم فقر شديد. مكادي يبوس ايديك. هاك صناري، يعني مية ألف دينار، يعني جانم.. فلس واحد.

ثم أطلق ضحكةً مفاجئةً خرجت من فمه كالفرقعة.

ازداد سقوط المطر. خُيِّل إليه أنه يسمع طرقاً على الباب، طرقاً شديداً لا تخفيه الانفجارات. تبادل النظر معهما. توقف الحاج عن تمسيد لحيته بيده ووضع استكان الشاي الفارغ جنبه.

- اللهمَّ يا أرحم الراحمين.

تكررت الطرقات. قام من مكانه شاعراً ببعض الاضطراب. صرَّ الباب الثقيل. كانا شابين مسلّحين ملتحيين. سألاه بصرامةٍ وبإيجاز عما إذا كان لديهم جهاز تلفزيون أو راديو. أجابهما بالنفي. كانا ينصتان وهما يحدِّقان في وجهه. أكد جوابه ذلك الصمت الذي كان يملأ الحوش خلفه.

- شكراً رفيق.

ومضيا.

أسرع عائداً تحت المطر الذي خفَّت حدّته. أخبرهما بما أراد الشابان. كانا صورة للقلق والفزع. أخذا يتحدثان باللغة التركية. شعر بضيقه يزداد بعد قليل. سأل العجوز:

- خالة عطية، إذا عندكم شي تريدون تحكون فيه على كيفكم فآني..

لبثت تنظر إليه نظراتٍ فارغة. بدا عليها أنها لم تفهم ما كان يعنيه:

- راح أصعد فوك خاطر تحكون على كيفكم.

- مـا عندنا شي نحكي، ابني. هذا المخـرّف يقـول كل شي خلص وراح يقتلونا.

- لويش؟

- ما أدري، يا ابني. هذا أحياناً الملائكة تحكي معاه. ما أعرف عد مخرِّف لو شنو. الله هو أرحم الراحمين.

لم يكن الحاج ينظر إليهما:

- السلام عليكم قصاب باشي. بربارجه ابيت ايسترم، نه اركك او لوب نه ديشي نه يازي كوروب نه قيشي. اي خانم صاجو يلاندر صالبو ينمه دولاندر سنك ايستديك داغده كي طو مبلاندر.

صار يتدفّق كالسيل، دون أن تتحرك عضلة في وجهه. تذكّر أنه أصيب بمثل هذه النوبة مساء أمس ولكن بشكلٍ مغاير. كان قد تركهما بعد أن جاوزت الساعة الحادية عشرة وصعد يواجه وحدته. ظنّهما يريدان أن يناما وظنَّ أن بمقدوره أن يستريح قليلاً هو الآخر. كانت الغرفة باردةً عطنةَ الرائحة، يملؤها ما يشبه الضوء. لم يرَ شيئاً أول دخوله، ثم بدأت الأشياء تتمايز وتنفصل عن الظلام. لاح له سريره فمشى ببطء نحوه. كانت النافذة هي مصدر النور الفضي الخافت الذي منح الغرفة هذا الغبش المريح. جلس بعد أن دفع اللحاف جانباً. وخزه ظهره فتمطى وحرّك عضلاته. كانت الانفجارات مستمرةً، متواليةً. لا عجب أن يتذكر الحاج ماضيه الحربي. كانوا مقودين كالأغنام بشكل يبعث على الفزع. نعم، ولكنهم، خلال الدقائق التي كانت تسبق لعبة الحرب، حين تضرب المدفعية كما يقولون، ألم يكن الوقت يتهيأ لبعضهم كي يدركوا أنهم يدخلون ضمن لعبة مميتة وأنهم على وشك أن يمارسوا عملية تقتيل

جماعية حيوانية ليسوا هم آخر ضحاياها؟ لابد أن أفراداً منهم استشعروا هذه الحقيقة؛ إلا أن الأوان يكون قد فات، وعبثاً. حينئذ، تختار السلام، مثل ذلك الهندي المسلم. يريهم عورته ليثبت لهم أنه منهم وأنه اختار ألا يحارب إخوانه في الدين. ولكن، أية إشارة غير مقنعة! خُيِّل إليه، وهو جالس على سريره في خضّم اللامرئيات واللأضوء، أن الصمت الذي ينحشر بين كل تلك الانفجارات يبدو أعمق من الصمت الذي اعتاده. يدك الرأس والحواس هدير الطلقات، ثم ينقطع فجأة فيسود هذا الصمت العجيب البالغ العمق.. كالبئر الأسود.. كالموت. ثم يتبعه رعدٌ وقصفٌ؛ ورعودٌ وقصوف أخرى. ذلك لأننا في زمن الفناء المقنّع. الفناء الذي يخاتل ويداور وينصب الشباك. أم أنه مخطئ في هذه التسمية أيضاً، فالفناء اليوم غير مقنّع. إنه يقترب، غير مخفٍ بشاعته. ولكننا لا نصدق أن بمقدوره أن يصيبنا، إلا حين نكون منه وجهاً لوجه. آنذاك...

لم تكن للغرفة جدران ولا حدود، ووسط تلك الأصداء المرعبة للموت المحيط به، نبع في نفسه خوف ذو مضمون خاص. خوف ذو طعمٍ حاد. كأنه يرى جثته، يتمعّن فيها.. في بقاياه. أغمض عينيه فترة. كان كيانه يخفق بشدةٍ مثل قلبه. لا يمكن أن نفنى. كيف يمكن أن نفنى؟ لا يمكننا أن نعيش فناءنا. إنه ضد المعقول، ولهذا فلا يمكن أن يوجد. ارتخى فكه الأسفل قليلاً. أيُّ لعبٍ بالألفاظ، لن ينجّي أحداً! قالت له مرةً: «كلشي يخلص. كلشي». كانت مبتسمة متفتحة الأسارير. سألها ما هي الأشياء التي ستنتهي فأجابته وقد ازداد احمرار خدودها: «كلشي.. كلشي» والحيرة تمازج كلماتها. أخبرها أن ذلك لعب بالألفاظ لا جدوى منه.

لماذا تعود إليه تلك الكلمات البسيطة التي قالتها له والتي لايمكن

أن نمسك بمعناها لأنها قد تكون بغير معنى؟ لعلها أرادت أن تقول شيئاً معيناً لم تواتها أعصابها على قوله. بدهته هذه الفكرة. كانت.. هي.. معه.. تقول.. له.. شيئاً معيناً. كانت هي معه، وكان معها. كانا معاً. في المكان والزمان نفسيهما؛ وكانت تحدثه وهو يستمع إليها؛ فإذا أراد، لو واتته الرغبة، للمسها، لاستشعر حرارة يدها الناعمة. أما الآن.. ثم.. أفزعته عدة انفجارات قريبة متلاحقة. كأنها تطلق من البيت المجاور. هب من مكانه ومشى نحو النافذة. خطر له أن يصعد إلى السطح. كانت السماء رائقة مضيئة. انبعث من الأفق هدير طلقات بعيدة أجابه بعد لحظات هدير آخر. يا للمحاورة المدمِّرة! انكفأ عن النافذة المنورة ومكث واقفاً دون حراك. كانت الأشياء في الغرفة أمامه، تخطيطات مبهمة ولطخاً سوداء. أحس بغتة بأعصابه تتوفز وبجلد رأسه يرتجف بشكل غريب. إنها بجانبه، يشعر بوجودها قربه، متكئة على كتفه اليسرى. لاتقول شيئاً ولكنها تهمُّ بالكلام وهي تلمسه برفق. يحسُّ بثقل ذراعها اللامرئية عليه. لو استدار قليلاً لداعبت وجنته خصلات شعرها. التفت. كانت النجوم تزهو ببريقها في سماء صافية داكنة الزرقة. امتزجت لهفته الطفولية بشعور من الذل والانكسار، واسترجع كل أفكاره وذكرياته الذاهبة والمستعادة وما تركته فيه وما جرى له معها وما يمكن أن يجري؛ ثم استرجع، في لمحة، تمزُّقات نفسه وضياعه وإصراره على الضياع وهروبه وإصراره على الهروب، وكبرياءه الجوفاء ونزفه وارتماءه تحت الأقدام وحبه المقهور الملوّث. ارتكى على جدار النافذة؛ كان مضطرباً بشكل لا مثيل له، مهدوداً؛ ومن جهد عواطفه كي ينفي لنفسه أنها معه، ولد ذلك السؤال الفريد المتأخر: ما العمل إذن؟ ما العمل؟

لم يبق له الشيء الكثير، ولقد ضاقت أمامه السبل حقاً. سار

ببطء. شعر بهزال يسري في ساقيه وفخذيه. خشي أن يكون على وشك الإغماء أو التقيّؤ. خرج من غرفته ونزل السلم. رأى عقربي الساعة اللامعين يشيران إلى الواحدة بعد منتصف الليل. وقف في الحوش متردّداً. لعلهما لم يناما بعد. سمع ما يشبه الحديث الخافت. اقترب من الباب ودفعه برفق. رأى الحاج، تحت ضوء القنديل النفطي الصغير، جالساً في فراشه يلفّ رأسه بخرقةٍ سوداء وهو يسبّح ويخاطب العجوز عطية الراقدة في فراشها. توقف عن إلقائه عندما رآه ونهضت العجوز. قال لهما:

- الله يساعدكم. مدا أقدر أنام. أشدتسون؟

- .... خريبط مخريط دشر. ريكان بوري حريب. رشم خويم. ايه. جانم. نعم. ايه.

كان الحاج يهزّ رأسه بتمهّل من جهةٍ لأخرى مع الكلمات التي بدت كالنشيد. تطلع إليه ثم إلى العجوز. كان القنديل يلقي أمواجاً من الضوء الأحمر على وجهها المغضّن. قالت:

- تفضّل أستاذ مدحت. مادنسوّي شي، بعد بيتي. بس هذا خالك ديتذكر جماعته الجنود. ماتوا الله يرحمهم قبل خمسين سنة، لاكت شوف ربك من يريد. يعرفهم واحد واحد.

- مريوش عبد الحسن جافل. عجة چرك. بچاي كريص كاوي. نعم. جانم. زوير خلف شندي. جوعان جعبول شخير. اي خانم سنك صاجويلاتدر.

دخل وجلس على كرسي قبالة سرير العجوز. تضاءلت الانفجارات بعد أن أغلق الباب، وقلّل من شأنها هذا الإلقاء العجيب لأسماء الرفاق.

- أسوّي لك شاي أستاذ مدحت؟

كان الحاج، مغلق العينين، يتمايل مع كلماته كأنه يغني، وملامح وجهه الأشيب جامدة لا تتحرك. هزّ هو رأسه رافضاً وشاكراً.

- ... سلام عليكم قصاب باشي. برباجه أبيت أيسترم، نه أركك أولوب نه ديش نه يازى كوروب نه قيشي.

ضحكت العجوز دون اهتمام.

- گلاص بطوش. منشن كاكولة. حلواص دخينة طاهر. عباله صعيصع. مهوس مايع عنب. معيدي ندوان واري. دردوج رشكة. خنيار خريس مشجل.

بدهه منظر الحاج. ماذا يعمل هذا الشيخ الفاني؟ لماذا يستحضر، في هذا الوقت بالذات، إشارات الموت هذه؟ أبسبب أنه يجد ألا مناص منه، وأن من الحكمة أن يروض النفس على قبوله؟ ولم يجب أن نقبل الموت.. الفناء؟

- .. بطي ماجود. مرعيد كطيف دليهم. يا الله. يا الله. يا الله.

ألم يكن جواب الإنسان للفناء واضحاً، على الدوام، كالشمس: الرفض البّات، الرفض الباتّ؟ حتى حين تدلهم الأمور وتسوء، حين يسقط الإنسان، حين يختار السقوط ويرفض الحياة، أكان راضياً بالفناء؟ وكيف يمكن أن يحصل ذلك؟ إنه مناف للطبيعة ولتكوين البشر الأساسي. إنه، إذن، يقع للإنسان ولا يفعله هو بمحض إرادته. يقع له، ولا يريده. يهاجمه، هذا الشيء المريع، على حين غرة، وينتصر، بقتل الإنسان، غفلة. فإذا أمعن الفكر وعرف طبيعة العدو المهاجم..

- أسوّي لك شاي أستاذ مدحت؟

- فراگه چثير عراك. صحن مايع. شبوط سماري. جحف.. جحف.. شنو؟

كانت العجوز تنظر إليه، جالسة في فراشها متشحة بالسواد، تتلاعب أضواء القنديل على وجهها المنكمش المصفرّ. أحسَّ في لهجتها وفي تطلّعها نحوه أنها تشكو إليه خوفها الذي تريد أن تخفيه، تخجل أن تبديه له.

- أشكرك خالة، أشكرك. ماكو حاجة للشاي هسّه.

سمعوا انفجاراً عالياً مكتوماً، كأن الأرض تهتز تحتهم وتغمغم.

- اللهمّ يا أرحم الراحمين.

ولكنّ المبدأ المطلق هو البقاء، وليس هو الالتماع الموقّت ثم الفناء. لابد للإنسان أن يبقى، مهما غلا الثمن. إذ لا بديل للحياة. إنها هي الأولى.. الأولى.

- شناوة عيال مناتي. حميد حنون دالبوري. جحف.. جحف.. شنو؟

- ما تعرف أستاذ مدحت، شلون تاليها؟ يعني الله سبحانه وتعالى راح يفرجها علينا؟

أبطأ الحاج في إنشاده وتوقفت حركة رأسه، كأنه ينتظر جوابه. تطلّع إليها. أراد أن ينقل إليها فكرته التي استنارت في ذهنه عن الحياة وعن البقاء. الفكرة التي أحسَّ أنها قد تمنحه قوةً جديدةً يفتقدها منذ زمنٍ. قال:

- لا تخافين خالة عطية. لا تخافين. ماكو شي..

- مكوطرد مدهوش. راهي سنيد راهي. تعبان مرعيد جوعان. ويكان دخينة شذر. جحف.. جحف.

- مو بيدنا يا ابني. إحنا ما بقي لنا شي من هالدنيا. لاكت.. لاكت سبحان الله.. شكد الدنيا حلوة!

ثم رأى فمها يتقلّص قليلاً:

- اللهمّ أقضيها علينا بالتي هي أحسن إنك أرحم الراحمين.

لم يدرِ كيف يكلّمها وبأية لغة يجعلها تطمئن نفساً:

- إنشالله خاله. إنشالله.

ثمّ سكت. بقيا يتبادلان النظر. شعر أنهما متفاهمان على بعض الأمور الأساسية دون أن يدرك لماذا. كانت الإطلاقات تملأ الدنيا المظلمة من حولهم، تزعق وتهدر وترعد وتعوي. إنها تفهم أنهم في موقفٍ مجنونٍ، لا تقدير ممكناً لنهايته، وأن الحياة أعزّ من أن تضيع في أمور لا نفهمها أحياناً. أراد أن يقول لها شيئاً، أن يسألها عن رأيها في فكرته، حينما ارتفع شخير الحاج، يعلو على صوت الرصاص. كان غافياً في جلسته على السرير، يطوي رأسه على صدره ويطلق شخيره العالي. قامت العجوز بهدوء، فسوّت فراشه ثم أرقدته وغطته بلحافه بعد أن تناولت مسبحته ووضعتها تحت المخدّة.

نهض من مكانه وهمس:

- تسمحي لي خالة. نامي أنت هم وارتاحي. كلشي ينقضي بخير إنشالله. آني صاعد أنام. إذا ردت شي صيحي عليّ بس. تصبحين على خير.

كانت ملامحها تفيض بتعاسةٍ مستسلمةٍ، تعاسة قبول لا مناص منه. فتحت ذراعيها:

- إنشالله ابني. إنشالله. نام إذا تقدر. وإذا ردت شي تاكل لو تشرب، انزل ابني لهنا. آني قاعدة. لايظل بالك علينا. تصبح على خير.

أحزنته لهجتها وطريقة كلامها. كان الهواء بارداً في الحوش والطلقات تلعلع باستمرار. إنه يخشى الأناس الحزانى اليائسين، لأنهم لا

يمنحونه القوة التي يريدها لفكرته، الفكرة التي يجب أن يعيش بها، لامفرَّ منها كي يعيش.

صعد السلم ببطء. يجري منطق الأمور أحياناً بحيث لا يدع لك أن تتأمل في شيءٍ مهمٍ تظنه لُباب حياتك. يجري كل شيء سهلاً هيّناً بغير تعقيد. مثلما حدث له هو حتى.. كانت الغرفة لاتزال كريهةَ الرائحة، يختلط فيها الضوء والظلام ويتلاشيان. لم يشعل مرةً أخرى المصباح الكهربائي. سار إلى النافذة، منبع النور، ووقف بمواجهتها... مثلما حدث له هو حتى دخلت منيرة حياته... كانت السماء مستويةً تتلألأ، تتلألأ. اضطرب قليلاً وتسارعت بعض الشيء دقاتُ قلبه. أيمرُّ بمثل تلك الأزمة، قبل يوم أو يومين، حين تراءى له أنه يقف في مفترق طرق؟ وحين أضاعه أنه لم يملك آنذاك أية إشارة تهديه؟

شعر بأعماق نفسه السفلى تبدأ بالجيشان، كأنها تغلي. نشر ذراعيه وأمسك بحافة النافذة. لماذا يجعل من منيرة قاطعاً لحياته؟ لماذا وضعته هكذا أمام مصيره، أمام اختيار حاسم لم يكن مهيأ له؟ أهي حقاً، مخلوق هش لا قدرة له ولا قيمة أو دلالة؟

أسند جبهته النابضة على الجدار البارد وأغمض عينيه. أراحه ذلك. إن ما يخلط الأمور عليه ويجعل رؤيته قاصرةً، هو هذا الامتزاجُ بين عواطفه وأفكاره، الامتزاج الذي لا محيد عنه والذي لايستطيع له ردآً. هنالك حقائقُ أساسيّة تتملّص منه. يشعر بها، بحضورها الأكيد في نفسه، ثم تختفي فجأةً. فإذا استطاع بشكلٍ ما، أن يمسك بالخيط الرفيع الذي يفترض أنه يربط بين تلك الحقائق، فهل سيقدر بعدئذ...

في البدء، أو على الأصح إذا ابتدأ من واقع حاله الآني: أين هو، على سبيل المثال؟ محاصر، مطرود، منهوك القوى، مهدود، مطارد؛

وكل هذا لايجدي. لايمكن أن يجدي. كان قلبه ضيقاً وهو يحسّ بتياراتٍ غامضةٍ تعتمل في داخله، في جهةٍ من نفسه، ولا يد له عليها. في البدء، هو هارب منها، هذه هي الحقيقة الأولى. هارب من الجسد النحيل المتلاين حول جسمه؛ من حرارتها، من حبّه لها. هارب من حبيبته، من زوجته. من القبلات والابتسامات ومن نظرات الحب. من سعادته. غير أن هذا... لاينبغي أن يكون. إنه من الحقيقة مظهرها فقط، وهو آخر الأمر لا معنى له. لكنه أيضاً... أيوجد شيءٌ آخر وراء هذه الإشارات الظاهرة؟ المعنى الآخر، مثلاً، الذي يلازم منيرة، ويختفي وراء صورتها الفذة المشرقة. أمورها الأخرى التي تخيفه، ترعبه حتى الموت. أمورها الغامضة المعقدة، التي تركّبت، بمعزل عنها، واحتوتها ثم حملت إليه، بعد ذلك، ما أرادته، هذه الأمور، له... الفناء. الدمار. إنه هو نفسه وجه الموت الذي يحيطه هذه الساعة. تبدى له أولاً في وجه حبيبته، وهو يعلن عن نفسه الآن بهذه الأصوات المتوحشة. إلا أن هذا ليس كلّ شيءٍ. كان مهتزّ الأوصال، يرتجف في وقفته أمام النافذة، أمام الليل الصاخب. لأن منيرة أيضاً، تلك التي منحته عيبها ومأساتها، لم تختر هي بالذات أن تكون معيبة. هي، منيرته الرائقة كالسماء، لم ترد عيبها. لقد حدث لها ذلك، حدث لها. لم تفعله هي. لكنها، تلك الصافية كنجمة الصباح، اختارته هو نفسه، بذاته، من أجل أن تكون له. وهذه.. وهذه هي دلالتها الأصيلة، وكل ما عداها أقنعة زائفة لا علاقة لها بروحها. أقنعة الفناء التي أمكنه أن يمزقها أخيراً.

تمسك بأطراف السرير قربه. خُيِّل إليه أن أصوات الرصاص تبتعد عنه وأن الدنيا تصمت من أجله. كان في أشدّ حالات الانفعال والاضطراب، غير عارفٍ ما سيحصل له. إنها البقاء إذن، حبيبته تلك،

إنها الحياة في جوهرها.

صرخ بفرح طاغٍ وهو يهزّ السرير بعنفٍ، صرخ هاتفاً بما لا يدري. باسمها، ربما، يناديها. بحبه لها، ربما. وتفجرت دموعه وهو يلقي بجسده المتعب على الفراش.

وبكى طويلاً دون أن يفارقه شعور بالفرح يفيض من داخله، وأحسّ بيقين أن من بين ظلام غرفته الصغيرة الكريهة الرائحة هذه، سيلد فجره، فجر حياته. ثم أغرقته لجة من النوم مباغتة. نام مثلما لم ينم منذ سنين، نوم الأطفال الهادئ العميق.

ولم توقظه الأصوات الراعدة إلا حوالي الحادية عشرة صباحاً من يوم السبت الحزين هذا.

لم يقل لهما شيئاً حين نزل قربهما قبل الظهر بقليل. وجد العجوز في المطبخ تهيئ لهم الغداء، والحاج جالساً على السرير ملتفاً ببطانية خضراء ينشر نظراته العدائية في الفضاء ولايتكلم إلا بالتركية. وأكلوا واجمين الخبز اليابس العفن المنقوع بالمرق.

ثم بدأ المطر الحزين يتساقط، بُعيد الظهر؛ وكان يشرب شايه بصمت وقد صمّم أن يتركهما بعد أن يهبط الظلام. لم يقل لهما ذلك وشعر أنه غير ملزمٍ بإخبارهما عنه. ماذا يربط بينهم، إذا وضعنا جانباً تآلفهم خلال الساعات الأخيرة؟ إنهما ينتميان إلى هذا المكان بشكل من الأشكال وقد ينجوان ببقائهما فيه. بالإضافه إلى أنه يشعر الآن بأن لديه ما يجعله متفردًا عنهما. لقد صار العالم وتفاصيله الأخرى شيئاً ثانوياً بالنسبة إليه. حتى الخوف أصبح ضمن إطار فكرته أحد العوائق ذات المواصفات الخاصة التي يجب اجتيازها. والشخص الوحيد بين البشر الذي يمكن أن يكون لوجوده معه الآن معنى ما، لايوجد معه، وحسراته

في هذا المجال، عدا أنها لا تنفع، هي التي تزيد من شدّة إلى هذا الشخص الغائب... إليها.

ومرَّ الشابان الملتحيان، وأخبرهما بما أرادا فعادت للحاج هلوسته التركية اللامترابطة. أعلمته العجوز أنه يعتقد أنهم سيموتون جميعاً هذه المرة. بقي يعبث باستكان الشاي الفارغ بين يديه. سمع العجوز تسأله:

- أستاذ مدحت، يعني تقول، أبو سها، يرجع علينا الليلة؟

توقف الحاج، ناظراً إليه كأنه يريد أن يوجه إليه هذا السؤال أيضاً. لقد نسي حسين وما يخصه. أدهشه ذلك. لم يفكر به منذ آماد! قال لهما:

- إنشالله. عندك فد سكارة خالة؟

- لا والله يا ابني. خلصت سكايرنا من الصبح.

هتف الحاج بحنق كلاماً سريعاً بالتركية أجابته عليه فعاد إلى لغطه زائغ البصر.

لم يهتم كثيراً برد فعلهما ولم يحاكم نفسه على تصميمه على تركهما. لقد كان سيتركهما ولو كانا أبويه. إنه أمام امتحان حياته الذي اختاره بنفسه وعن اقتناع، ولم تكن فرحة الأمس وراحة قلبه لتأتياه اعتباطاً. لقد كشف، إلى الأبد، سرّها وسرّه؛ علاقتهما ودلالتها. وكان بوده، رغم انفعاله، أن يحدّث العجوزين بهدوء وأن يطمئنهما قبل رحيله. أراد أن يحدثهما عن أمور جوهرية يستطيعان فهمها بحيث يسهل عليهما الانتظار، وكان عقربا الساعة في رسغه يشيران إلى الخامسة إلا بضع دقائق حيثما دوّى الانفجار الأول. اهتزَّ البيت اهتزازاً مروعاً ووقع استكانه على الأرض فانكسر حالاً. صرخت العجوز:

- الله. يا أرحم الراحمين.

قفز هو من مكانه وخرج من الغرفة. كان الحوش، باهت الضوء، يبدو خرباً لغير سبب. سمع أصوات صراخ غير بعيدة عنهم. اتّجه نحو باب الدار. نادته العجوز. كانت واقفة، مقوّسة الظهر، تحت سقيفة الطارمة تستند بيدها إلى إطار الباب:

- ابني مدحت. أستاذ مدحت.

تلاقت نظراتهما. كانت تبكي بلا دموع. مغضّنة الوجه كمن يقاسي ألماً لا يطاق. لبث صامتاً، خافق القلب. سمعها:

- رايح؟

لم يجبها.

- الله وياك ابني. الله وياك. بس لا تنسانا. الله وياك.

- لا يظلّ بالك خالة. آني لازم أرجع. لايظل بالك.

فتح الباب الخارجي أثناء ما كان يتكلم معها، وخُيِّل إليه أنها لم تسمع كلماته الأخيرة. كان الدرب ضاجاً بالنداءات والصراخ وبأصوات الرصاص والناس يتراكضون بفزع مجرورين نحو موضع معين. ركض معهم. كانت الدار تبعد حوالي المئة متر، وكانت مقطوعة الرأس منهارة الجدران، يحيطها المسلحون ويتصاعد منها الدخان. قيل له دون أن يسأل إن قنبلة سقطت عليها، وكان عويل بعض النساء من المجتمعين يزيد من شدة الانفعال. علم أن الدار كانت خالية وأن عبد الكريم قاسم أعدم بعد الظهر بقليل. أحسّ بالمطر، الذي خفّ كثيراً، يبلل شعره ووجهه وثيابه. ابتعد بهدوء عن الجمع. خطر له أن انتظار الظلام أمر ضروري له في حالته هذه، وقرر أن يقوم بجولة خلال الأزقة. وجد بعد نصف ساعة من السير المتعرّج في دروب المنطقة المبللة القذرة، أنها لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، وأن كل زقاق يبدأ من درب لينتهي بآخر وليبدأ الآخر لينتهي

في ثالث. وحين عثر، مصادفةً، على فسحةٍ يبين منها الشارع عن بعد، كان عليه أن يبتعد مسرعاً تحاشياً للطلقات ولصرخات التحذير التي انهالت عليه من حيث لايعلم.

حوالي السادسة مساءً، عندما كان قريباً من أحد المقاهي الفارغة، والظلام قد تكاثف، انفجرت القنبلة الثانية في مكانٍ ما من الحي. جلس على أريكة خشبية عارية ينشد الراحة ويحاول أن ينظّم أفكاره. كان المقهى في ناحية منعزلة نسبياً. لاحظ قبل أن يصل إليه شخصاً يسلم سلاحه إلى آخر ثم يصافحه ويمضي. حيّرته هذه البادرة الغريبة وكانت وجوه المارين القلّة تعكس خوفاً غير مستتر. اضطرب بعض الشيء. ليس الأمر بمثل السهولة التي تصوّرها. مسح المطر عن وجهه وشعره. أحسّ لأول مرة بخشونة الشعر في لحيته. ماذا ستقول له حين تراه؟ اشتهى أن يشرب شاياً حاراً. هل سيستطيعان الكلام؟ يمسكها ويلمسها ويتحسس نعومتها، يديها وذراعيها وشعرها، ويتملى من رؤيتها ويمر بأنامله على وجهها.. على العينين اللوزيتين والفم والشفتين. يلمس امرأته فيها، حبيبته. ويعتذر لها. يهمس لها باعتذاراته كلها، ويقول لها ما هي منه وكيف أعطت حياته شكلاً ووجهة أخرى. اشتهى أن يشرب شاياً حاراً. تلفت حواليه. انتبه إلى فتى صغير يقف في زاوية داخل المقهى الفارغ. أشار إليه. لم يبالِ بإشارته. ياالله، كم يعجبه أن يدخن سيجارة ويعقبها باستكان شاي!

سينتظر بعض الوقت كي يهدأ قليلاً. لابد أن يتسلل قبل ارتفاع القمر. أشار مرةً أخرى إلى الفتى فرآه يقترب منه ببطء. مرت أمامه جماعة مسرعة من النساء يسحبن أطفالاً معهن. كان جميل الوجه، يضع على رأسه «عرقجيناً» كبيراً ينزل إلى ما فوق عينيه. سأله ألا يوجد

أحد يخدم في المقهى. هزّ له رأسه بالنفي ولم يتكلّم. كان دقيق الملامح، تنطوي نظراته على الكثير من الشك والخشية. كلمه مرةً أخرى برفقٍ. طغى على صوته هديرٌ عالٍ لإطلاقات قريبة. رأى الفتى يتلفّت برعبٍ وعلى وجهه علامات توجّعٍ. أعاد عليه طلبه. انتبه إلى نفسه يتكلم بلهجة متوسِّلة. بقي الفتى صامتاً. كان في حوالي الثانية عشرة من عمره، تبدو عليه بعض مظاهر الأنوثة. سأله أين يمكنه أن يشتري سجائر، وقبل أن يجيبه ارتفع من ورائه نداء:

– جوانا، جوانا. تعاي لچ بالعجل.

كان أحد الشبان يقف أمام باب داخل المقهى وهو يشير بذراعه إلى الفتاة. ركضت حالاً بعد أن ألقت عليه نظرة تعاطفٍ غريبٍ. أقبل الشاب نحوه. كان ملتحياً، عدائي المظهر:

– نعم، أخي؟

– العفو. ردت فد شاي من فضلك.

– ماكو أخي.

قالها بلهجة قاطعة. استغرب ملحت ذلك:

– زين. من فضلك، أقدر أطلب فد سيكارة؟

– آني ما يدخن.

كانت عينا الشاب تحاولان النفاذ إلى أعماقه لمعرفة جنسه ونوع انتمائه.

– ها! العفو. أقدر استراح شويّة هنا؟

– ماكو مانع. هذا مو كهوة أخي. حسينية.

ثم رآه يمضي متعجلاً كأنه أنهى عملاً معقداً.

استضاء بعد لحظات مصباح كهربائي ضعيف في نهاية المكان.

أراحه ذلك. إنه إشارة مودة من نوع خاص، وهو يحتاج إليها. صار حساساً تجاه كل إيماءة لها دلالة. ولاسيما تلك التي لاتعلن عن نفسها، تترك لها أن يفهمها، أن يسبر غورها مفتشاً عن المعنى. لم يكن معقولاً أن تحدثه عن الأمر قبل الزواج. كان سيكون جبناً، معاهدة، عقداً رخيصاً من عقود العبودية، تدبيراً احترازياً يبعث على التقزز. أما أن تمنحه حياتها دون شروط، لأن العلاقات الإنسانية الأصيلة لا تحتمل الشروط، فذلك لأنها مخلصة شجاعة. وهي لم ترد أن تمتحنه. لقد لمست حبه عن كثب، ولعلها أحسّت أن بمقدورها أن تثق بفهمه لها. تلك العزيزة!

ماج قلبه، وهو جالس بمفرده على التخت الخشبي في زاوية شبه مظلمة، بشوق طاغ لمنيرة. شوق لرؤيتها، للحديث معها، للإحساس بوجودها قربه. شعر بخفقان في صدره كله، فعصر أصابعه فيما بينها بشدة. كان بحاجة إلى عملٍ عنيفٍ يقوم به ليقترب منها، عمل متميز ذي دلالة يعبر فيه لها ولنفسه عن أنه تمسك بالحياة، بالبقاء؛ وأنه استوعب شقاءه/موته، وأنه هزم هذا الشقاء/الموت لأنه كان أكبر منه حين أدرك طبيعته. أما هي، فإنها قمة اختياره للتوهّج الحياتي الذي يحتوي ويستوعب كلّ أشكال الفناء.

شعر بحركةٍ خفيفةٍ جنبه. كانت الفتاة جوانا، تقف حاملةً بين أصابعها سيجارة وشخّاطة، ووجهها تضيئه بشكل غير مرئي ابتسامةٌ خجولةٌ. تناولهما منها وهو يشكرها بحرارة. انتبه إلى خصلات صغيرة من الشعر الذهبي تتبدى من تحت «العرقجين» وإلى الارتفاع غير الاعتيادي في صدرها. ابتسم لها وسألها عن اسمها فأجابته. كان صوتها رخيماً ناعماً. لو تكلمت أول الأمر لما انخدع بمظهرها.

أشعل السيجارة وسحب منها نفساً طويلاً. شعر بدوار لذيذ في

رأسه. نفث الدخان، مغمض العينين. ما ألذّ الممارسة البسيطة لمباهج الحياة! رأى جوانا لاتزال قربه، تتطلع إليه بفضولٍ وعطفٍ. قال لها ألا يمكن أن تدبّر له قدحاً من الشاي فأجابته وهي تبتسم:

- لا. ماكو.

كانت عيناهازرقاوين كبيرتين، تنطقان حين لاتتكلّم هي. كم كان غبياً حين حسبها صبياً! سألها مرةً أخرى عن الطريق إلى الشارع العام. بدأ الاهتمام على وجهها في الحال. تطلعت ناحية الباب لحظة ثم عادت تنظر إليه. أشارت إشارةً خفيفةً ناحية اليسار:

- منا.

كانت تومئ إلى زقاق سلكه من قبل يؤدي إلى فسحة مكشوفة ثم منحدر نحو شارع «الكفاح»، وكان ذلك أخطر مسلك عرفه، وهو مرصود من الجانبين.

- أشكرك. هذا ما يفيدني.

- وين تريد تروح؟

حرك ذراعه باتجاه الأفق البعيد، من اليمين إلى اليسار:

- لهناك.. بره.. إلى الخارج.

- لويش؟ تشرب شاي؟

ثم ابتسمت بخفّة. ترددت آنذاك أصداء رهيبة لإطلاقات متلاحقة. تلفتت الفتاة بهلع ولاحظ كتفيها يرتجفان قليلاً.

- لاتخافين عمو. روحي خشّي للبيت.

نظرت إليه صامتة، يختلط، على وجهها، الرعب بالقلق والتذمّر. ثم أشارت إلى الشخاطة:

- أنطيني الشخاطة.

أعادها إليها معتذراً. بحث في جيوبه فعثر على نصف دينار مدعوك. أخرجه وقدمه إليها:

- هذا.. لك، عمو.

هزّت رأسها ثم مدّت يدها بتردّد وأخذت منه العملة الورقية.

- سمعي جوانا، عمو. أرجوك، أكو فد درب ما يبين يوصلني للشارع؟ مو هذا. واحد لاخ. آني أريد أروح لأهلي.

سكنت. بان عليها كأنها تمعن الفكر في أمرٍ ما. طوت النصف دينار وهي تزمّ شفتيها ثم رفعت نظرها ومرت به على الباب لحظة. همست:

- من الخرابة.

وأشارت بيدها نحو اليمين بشكل مستتر:

- إمشي من هنا. أول طريق على اليمنة. ادخل به إلى الأخير، يوجد زقاق على اليسار. هناك أكو خرائب.. من عندها تقدر..

قطعت جملتها وتراجعت إلى الوراء قليلاً. تلفّت. لم يجد أحداً. كانت عيناها حزينتين فابتسم لها وشكرها. سحب نفساً عميقاً من سيجارته. رآها تتراجع وتمشي على مهلٍ نحو المدخل، ثم سمع انصفاق الباب. لم يشعر أن هنالك موجباً لخداعه. كانت أصداء الطلقات النارية لاتزال تتعالى في الهواء. سينهي سيجارته هذه ثم يمضي. أن تقرّر مرة عن قناعة، يعني أن تتلاشى التساؤلات والشكوك؛ فإذا بقيتْ تنخر القلب، فيجب أن تُعامل كأمورٍ من الدرجة الثانية أو الثالثة في الأهمية؛ لو إذا أمكن أن تعدّ كميات معينة، أو غير معينة، من المشاعر تنتاب شخصاً ليس هو أنت بالذات، ولكنه يمتّ إليك بشكلٍ من الأشكال؛ عند ذاك يمكن أن تصير أو لاتصير، أن تكون أو لا تكون كما يقولون. وكلّ هذا بعبارة جديدة أن تُستوعب أو أن تنجو. أخذ نَفَساً آخر

من سيجارته فشعر بالدخان حاراً في فمه فرماها. لبث ساكناً لحظات ثم قام من مكانه. زرر سترته واتجه في سيره إلى اليمين. كان الجو، بعد المطر، منعشاً مشوباً برائحة التراب، والدرب مستقيماً عكّر الأرض، يضفي عليه المصباح الكهربائي الوحيد صبغة من الإيهام. وكان يسير بحذر، متنصتاً إلى الانفجارات وإلى وقع أقدام غامضة تأتي مسرعة من جهة وتمر دون أن يرى أحداً. لاحظ مدخل الزقاق المنشود عن يمينه بعد حوالي عشرين متراً. كان مضاء هو الآخر بمصباح كهربائي أحمر ولا يتجاوز عرضه المترين. دخله وأخذ يسير بمحاذاة الجدار. لم يكن هنالك أحد. أفاده السير والهواء البارد الرطب. مر من تحت المصباح الكهربائي. ارتسم ظله على الأرض السوداء، طويلاً متمايلاً ثم اختفى فجأة. لم يرَ غير بابين يطلان على الزقاق. كانا مغلقين. سقطت عدة قطرات من الماء على رأسه أثناء تقدمه. زلقت قدمه مرة فتمسك بالحائط واستأنف سيره. أحدّ بصره وهو يحاول أن يتبين موقع الزقاق الآخر، وكان يتنفس بعمق وبعض القلق يداخله. ماذا سيفعل إذا لم يجد الخرابة؟

كان الظلام دامساً حينما انتهى الزقاق إلى مفترق طُرق صغير. على اليمين استمر الدرب في تلويه، أما على اليسار فإنها الدربونة التي لا منفذ لها كما يبدو. كان الأمر بدهياً. لايمكن لمثل هذا المسلك الذي لا يزيد عرضه على المتر والنصف، أن يؤدي إلى منفذٍ ما. سار خطوات قليلة في بطن الدربونة، ثم توقف. كان النور الشاحب المنبعث من المصباح البعيد، لايضيء غير مدخل الزقاق الضيق. رأى باباً كبيراً أسود ذا مسامير بارزة على يمينه، وارتفع عن اليسار حائط مقوس. أمامه كانت الظلمة. تقدم متحسّساً بحذر موضع قدميه. شعر بالأرض لينةً، ذات زلق. أمسك بالحائط جنبه. كان الظلام داكناً لا يخترقه البصر بسهولة.

رفع عينيه فتبين له الأفق منكشفاً على مبعدة؛ وخيل إليه أنه يلمح، تحت النجوم المتألقة، بقايا بناء مهدّم. عاد يمشي بثقة محاولاً أن يميز موقع أقدامه. لم يكن مطمئن النفس كثيراً، ولا خائفاً. فارقته هواجس متعددة، إلا أن ثقل قلبه لم يخفّ؛ وكان يريد أن يعتقد أن ذلك أمر طبيعي. بعد خطوات، وتحت النور الخفيف جداً المنثال من السماء والنجوم تميز الخطوط المبهمة المتداخلة لحيطان الخرابة. توقف مبهوراً. أدرك في تلك اللحظة أنه في دخيلة نفسه لم يكن يصدق تلك الفتاة الصغيرة جوانا، وأنه كان يائساً حتى قبل أن يجرب. اقترب متهجساً من الدار المهدومة. كان السياج واطئاً، وعمودا الباب المخلوع يرتفعان حوالي المترين. صعد الدرجة العالية وتوقف في إطار المدخل. اتسعت رقعة السماء أمامه بكل بهرجها ولمعانها. لم يكن القمر قد ارتفع بعد، إلا أنه لن يتأخر طويلاً. تعوّدت عيناه على العتمة التي تخفي المكان. أخذ يحدق إلى المسافات القريبة منه على الأرض. كانت الخرابة داراً صغيرة لم يكمل بناؤها لسببٍ أو لآخر، وكان عليه أن ينتقل إلى الجهة الأخرى منها المطلة على الشارع العام. ارتجف فجأة لرشقة عنيفة من الطلقات، بدت له أكثر رهبةً مما اعتاد. خطر له أن من الممكن أن يسير بمحاذاة السياج وأن يصل إلى الجهة المقابلة دون خطر الوقوع في حفرة أو الاصطدام بشيء ما. أمسك بالجدار المتصل بعمود الباب وبدأ مسيرته. شعر بسترته تحتك بالحجارة فابتعد قليلاً. كانت عيناه تزوغان وهو يمعن النظر أمامه، وكانت تعميان أحياناً ثم تعود بعض الكتل والألوان الغامقة تتميّز عما حولها. اصطدم بكومة سوداء صلبة لم يستطع معرفة كهنها. ترك الحائط ودار حول الكومة. زلت به قدمه ففقد توازنه وكاد يسقط، إلا أنه استند إلى الأرض فاستقام جسده. تلوثت أصابع يده بالطين. تطلع حواليه. كانت الانفجارات تشتد وتتعالى

باستمرار دون هوادة. بعضها خشن الصدى ينبعث من الأفق والبعض الآخر قريب كأنه ينطلق من الشارع المقابل. رأى الجدار قريباً منه فخطا نحوه محاذراً السقوط وتشبث به. آلمته ذراعاه وخدشت راحتي يديه الحجارة المسننة. استأنف السير وهو ينفض الطين عنه. كان يلهث وأنفاسه تتردّد بسرعة. أزعجه أن يترك هذا الجهد البسيط مثل هذه الآثار على جسمه. كيف سيمكنه إذن... ؟

انعطف نحو السياج فوجد نفسه يطلّ على الشارع العام. كانت الخرابة تبعد عنه حوالي الخمسين أو الستين متراً، وهي مرتفعة ما يقرب من المترين عن مستواه. هكذا قدّر المسافات. بدا له الشارع خالياً بشكل رهيب، مظلماً، تتعاكس على أرضه السوداء أضواء مجهولة المصدر. الأرض الفارغة التي تفصل الخرابة عن الشارع، كانت محاطة بالبيوت. عبر الشارع، ميزت عيناه وهو يطلّ من وراء السياج، مداخل بعض الطرق والأبواب. لم يشاهد أحداً، وكانت أنفاسه لاتزال سريعة وقلبه خافقاً. هبت عليه نسمة باردة منعشة. رفع نظره إلى السماء. الصيف الماضي، في السطح قبيل الفجر، وقف أمام سريرها وهي جالسة تحلم! لا تحس له وجوداً كأنها في عالم آخر! كان الفجر فضيّاً يخالطه نورُ القمر، وكان باستطاعته أن يتفوّه باسمها وأن تسمعه. كم يبدو كل شيء بعيداً، بعدَ النجوم، بعدَ الأزل! ولكم تغيرت دنياهما منذ ذلك الحين! لم يرتكبا جرماً، ولكنهما استسلما للأحداث التي لفتهما بمنطقها المعوج، المهلك. صارا ضحايا للآخرين. الآخرون.. الآخرون، أولئك الخونة.

كان حزيناً وهو يقف هكذا وراء الحاجز الحجري، يعبث بأصابعه وينظفها من الطين، وتراوده أفكار وذكريات لامعنى لها الآن. سمع صوتاً حاداً ولمح في الشارع سيارةً تقبل من اليمين كالسهم المجنون وتمرق

أمامه ثم تختفي في الجهة الأخرى. كان الماء يتطاير حواليها وعجلاتها تصرخ كالحيوان الجريح. أرعبته رؤيتها. ماذا ينتظره، ترى، وهو يحاول العبور؟ إلا أن النجاة، ثم البقاء، لا تستمدُّ قيمتها الحقيقية إلا من الأخطار التي أحاطتها، من معوقاتها. ورغم ذلك، فالنتيجة، لا الوسيلة، هي المهمة؛ وسيكون للحياة والبقاء دائماً أبطالٌ من نوع خاص.

تلاعبَ ضوءٌ قويٌّ عدة مرات، في الناحية الأخرى، ثم اختفى. نبهه هذا إلى أن وقته محدود وأن عليه أن يعمل الآن. كان السياج يصل إلى أسفل صدره. تحسَّس سطحه فوجده مبللاً، لزجاً بعض الشيء. قرر أن يصل إلى الزاوية الحادة التي يشكّلها جدار البيت على اليمين مع الشارع. كانت تلك هي أقرب نقطة بين طرفي الشارع. رفع جسمه وأخذ يتمعن أسفل السياج. خُيِّل إليه، على الضوء الضعيف الذي أحال الرؤية إلى سراب، أن كميات من الحجارة الصغيرة تتكوّم تحته على مسافات مختلفة. جمع قوّته ورفع إحدى ساقيه ثم تحوّل، بحركات مقتصدة، إلى الجانب الآخر. تدلى بعد ذلك رويداً رويداً. لمست قدماه ما ظنه الأرض، فتمهل قليلاً ثم أفلتت يداه السياج. لم يستطع حفظ توازنه فانزلق ووقع على ظهره. فاجأه سقوطه. اعتدل مرتبكاً وجلس على الأرض بمواجهة الشارع. شعر بألم في ظهره وجنبه. تطلع يميناً ويساراً. لم يتحرك شيء أو ضوء أو إنسان. تحسَّس مواطن الألم في جسمه وفركها. زكمت أنفه رائحة كريهة هي خليط من روائح البول والبراز والأطعمة الفاسدة. قام من مكانه منحني الظهر وسار إلى جوار الخرابة متجهاً إلى اليمين. تعثر عدة مرات. توقف يستجمع أنفاسه ونفسه. كانت لعلعة الرصاص تزداد حدةً بين فترةٍ وأخرى. هذه الأصوات التي لا معنى لها، هي الآن في صراع معه ضد فكرته. لعله ينجو لو اختبأ في هذه الخرابة حتى تنقشع

الأمور. لكن الدلالة ستختلف آنذاك، دلالته هو. وقف ملتصقاً بحجارة الجدار المطلّ على الشارع الفسيح. التصق به كأنه يريد أن يندس بين مسالك الحجر الضيقة. لن ينجو من نفسه، لو انتظر مستسلماً إلى أن يأتي من ينقذه. لن تكون هذه هي النجاة. كلا. كان الشارع طويلاً، يمتد دون التواء، لامع الصفحة مستوياً؛ وكان الرصيف الترابي الذي يفصله عنه يبلغ عرضه ثلاثة أمتار أو أكثر بقليل. أما الشارع الميلط فقد قدر عرضه بحوالي عشرة أمتار، يبدأ بعده الرصيف الترابي الآخر الذي يجب أن يكون عرضه، افتراضاً، ثلاثة أمتار أخرى. بعد ذلك، تتفتح مسالك النجاة وطرقها. كانت أمامه إذن مسافة تتألف من ستة عشر متراً. قل عشرين. كم يحتاج من وقت ليقطعها ركضاً؟

إن متسابقي مسافة المئة متر يقطعونها في اثنتي عشرة ثانية أو أكثر. لنقل إنها خمس عشرة ثانية بالنسبة إليه. حسناً. بكم يقطع العشرين متراً؟ التناسب طردي. خمسة عشر في عشرين تقسيم مائة. الناتج هو ثلاثة. ثلاث ثوان! لنقل مرة أخرى، إنها خمس. خمس ثوان وينتهي كل شيء.. أم يبدأ كل شيء؟

أطلّ، محاذراً، برأسه من حافة الجدار. كان الشارع، آتياً من الأفق، معتماً في بدايته ثم يُضاء بمصابيح متفرقة حمراء. لا أحد هناك، وقد يبقى الوضع هكذا خمس ثوان أخرى وعند ذاك...

سحب نفسه إلى الوراء. يطرق الباب عليهم. كان قلبه قوي النبضات خافقاً، ولعلهم لن يعرفوه للوهلة الأولى. ثم سيراها. سيناديها أول ما يدخل. وسيراها. يرى ذلك الوجه الحبيب إلى نفسه، وسيأخذها إلى ناحية ليضمها إليه ويعتذر لها. كلا. لن يعتذر لها. تحرك فجأة. لم يدرِ لماذا اختار أن يتحرك تلك اللحظة. اندفع بحماس وخفة، فلامست

وجهه نسائمُ الليل الباردة. اجتاز الرصيف بلمحة خاطفة. لم تخذله ساقاه. لن يعتذر لها بالطبع، لتلك العزيزة. سيقول لها فقط إنه جاء إليها، من أجلها، هي زوجته، لأنه انتصر على كل أفكار الفناء فيه. بدأ الشارع المبلل وأرضه المبلطة بالقير. كان يركض بثقة وهو يتطلع إلى الأفق وإلى انفتاح السماء فوقه، حينما شعر بلسع النار في فخذه الأيمن. لم يسمع صوت الإطلاقات النارية. انكب على ركبتيه بعنف وكان مندهشاً مبهوتاً. لم تمر تلك الثواني الخمس من عمره بسلام إذن. أمسك بموضع الألم المهول في فخذه فتبللت أصابع يده بسائل دافئ. تلفت حائراً. لم يرَ أحداً. أراد أن يهتف مستنجداً، أن يقول لهم إن عليهم أن يتركوه يحيا وألا شأن لهم بموته. رأى لمعة نور خافت في زاوية مظلمة من أقصى الجهة الأخرى. فهم معناها. لبث منتظراً فترة زمنية لم تتجاوز عشر معشار الثانية ودامت، له، دوام العالم والإنسان: ثم عرف، قبل أن يفترسه الألم الرهيب في صدره وكتفه، أنه لم ينجح. وتلوى جسده الملوّث بالطين والدماء، يرتجف بشكلٍ مروّعٍ على أسفلت الشارع الخالي.

فؤاد التكرلي

باريس: ١٩٦٦/٢/٩ - بغداد: ١٩٧٧/٩/٥.

- ١٣ -

انتهت الزيارة قبيل السادسة مساءً، وعندما خرجنا من بناية المستشفى الحزينة، ضيعنا ربع ساعة في انتظار سيارة تاكسي لم تأت. كان الهواء لطيفاً في الشارع الخالي، وضوء الشمس، الذي لم يختف بعد، يضفي على المكان مسحة من الإبهام واللاواقعية. وكن، الصغيرتان ومديحة ملفوفة بعباءتها، يقفن قربي صامتات. خطر لي أن العاصفة الترابية والمطر الذي تساقط ليلة أمس، هو الذي جعل الجو معتدلاً هكذا. تعوّدنا ألا نرى ربيعاً في منتصف نيسان؛ تعوّدنا ألا نرى ربيعاً على الإطلاق. يقرض الشتاء عظامك ببرده، ثم يفتّتها الصيف، على حين غرة، بحرّه المريع. كنا واقفين إذن، أمام غروب الشمس، قريباً من شاطئ النهر، ننظر يميناً وشمالاً متأملين قدوم عربة تقلّنا إلى البيت. لم تستمر الزيارة غير ساعة أو أقل. فرح بنا حين فتحنا باب الغرفة عليه. كان مستلقياً على فراشه بدشداشة بيضاء طويلة. قفز كالزنبرك واحتضن ابنتيه، وبدا عليه كأنه يريد أن يحتضن مديحة أيضاً. إلا أنه خجل وتلاعبت الحمرة في وجنتيه ثم لوى فمه ومسح أنفه وعاد يضم

ابنتيه إلى صدره. جلسنا حوله ووضعنا أكياس الهدايا التي أحضرناها معنا على الأرض قرب السرير. قعدت سناء وسها على الفراش قربه. كان شاحب الوجه، تكثر التغضّنات في رقبته وحول فمه؛ وكان يتكلم بتردد دائم وعدم ثقة وهو يشير بيديه لغير سبب. أخبرنا حالما جلسنا أنه لم ينم منذ يومين وأن مديره السابق جاء لزيارته وأنه يشتهي تدخين سيجارة ولا يدري لماذا لا يسمحون له بذلك. ثم قام ففتح نافذة تطل على الحديقة ووقف قربها مديراً ظهره إلينا وقال كأنه يحدّث نفسه:

- الكوكوختي، اليوم الصبح، هواية كان حلو صوتها. ما أدري وينها هسه؟

نظرت مديحة إليّ. كانت في عينيها الحائرتين أسئلة وأمارات قلقٍ عميق. سألته:

- حسين، المهم أنت شلون دتحس بنفسك؟

رفع ذراعيه قليلاً ثم كتفيه ولم يستدر وهو يجيبها:

- آني! آني زين. شكو بيّ؟

ران علينا الصمت لحظات. كانت الصغيرتان على طرف السرير، كعصفورتين، تنظران إليّ وإلى أمهما بعيون لامعة. كنت مترعجاً منذ البدء، ولكنني تعوّدت، هذه الأيام السوداء، أن أتقوقع وأن أستطيع الابتعاد بنفسي عن العالم. لم أكن جباناً بشكل خاص ولا يائساً؛ ولكني أقنعت نفسي أن أموت ميتتي الخاصة. ولقد خيل إليّ، في الأسابيع الأخيرة، أن هذا الإنجاز يجب أن يسجل لي. إذ، في هذا العالم المخبول المحطم، لم تعد للموت خصوصيته التي طالما تشدّق بها المفكرون والشعراء؛ وهو قد فقد مجانيته أيضاً، وصار، عدا أنّه يُصنع بالجملة، حيوانياً.

تراجع حسين عن النافذة ووقف أمامنا:

- آني مديحة، ما بي شي تره. يعني.. جوه.. في داخلي.

ضرب على صدره عدة مرات فارتفع صوت أجوف:

- داخليّاً أريد أقول، روحيّاً.. كلشي ما بي. بالعكس. تأكدي بالعكس. كريم يعرف. كلش قوي داخلياً، روحياً.

كانت كتفاه هزيلتين، إحداهما أعلى من الأخرى، وقماش الدشداشة الطري ينسدل على عظام صدره وانخفاض بطنه:

- حكيت للمدير شلون اخترت أدخل المصحّ. قلت له ماكوأحد يقدر يؤثر عليّ. آني صرت.. يعني.. صار عندي إيمان مفاجئ. الحياة دتتبدل. ماكو واحد قواد يقول..

ألقى نظرة سريعة على ابنتيه:

- ... الحياة دتتراجع. تمام؟

كنت أنظر إليه؛ أريد أن أصدقه. وصف لي، أول مرة زرته بعد أسبوع من دخوله المصحّ، كيف فاجأه ذلك الرعب من الموت. كان يسير صباحاً قرب ساحة باب الشيخ حينما وقع في شباك ذلك الشعور. لم يعرف كيف ولا لماذا. امتلأ قلبه بفزع من الموت، موت أكيد سيحلّ به عن قريب. لم يكن الأمر مجرد فكرةٍ تجول في الذهن وتبعث على الخشية. كان مرتاعاً هلعاً، كأن قاتلاً يسدّد نحوه سلاحه وسيرديه، عن تصميم، خلال لحظات. اضطربت نفسه وارتبك سيره. دخل أحد المقاهي القريبة وارتمى على تخت خشبي. لم يكن قد شرب الليلة السابقة وكان يلهث مثل كلب جائع مبلل رُفس ألف مرة. وفي تلك الحالة المزرية من الانهيار والفزع واللاتوازن، خطر له أن يخرج من دائرة حياته وأن يبدلها

كما يقول:

- ... كان عندي إيمان قلت له. شفت أكو أمل كبير بالعالم داير مدايري. الثورة وأفق.. يمكن آفاق تجديد وإصلاح. كل هالشي شجّعني. لاكت هالملاعين الوالدين ديصعبوها هواية عليَّ. هسه الجكاير لويش مانعيها؟ سرسرية. أوغاد.

ثم أسرع متجهاً نحو النافذة، وقبل أن يصلها استدار وعاد إلى السرير فقعد قرب ابنتيه. سألته مديحة:

- أراد شي منك أبو سرمد؟

نظر إليها بعينين غائمتين:

- منو؟

- أبو سرمد؟

- منو أبو سرمد؟

- الله لا يحيّر عبده. أبو سرمد يابه، هذا اللي كان مديرك.

- المدير؟ ها. أبو سرمد. كلشي ما راد. جاء ديشوفني. آني قلت له راح أكتب مقال عن تجربتي هاي، يمكن أحد يستفاد منه. قال كلش ممتاز.

- يعني ما قال لك شي عن الوظيفة.. شي؟

- طبعاً. طبعاً.

ثم أخذ يقطع شعيرات في طرف رقبته وهو يلوي تقاطيعه كلما انتزع شعرة.

- شنو طبعاً؟

توقف لحظة:

- اصبري شويّة عيني مديحة. خلّ دا أتفرّغ وأكتب المقال وأنشره والله كريم.

- يا مقال، يابه؟ إحنا نريدك تصير زين وترجع تشتغل. لو..

- ميخالف. ميخالف. اصبري شويّة الله يخليك. كل شي يصير زين. بس هذولة الأطباء لو تحكون معاهم على الجكاير.

ثم مدّ يده وأخذ يعبث بشعر ابنته سها. ابتسمت هذه بخجل ونظرت إلى أمها. عاد يتكلم:

- المسألة مديحة، آني هسه صار عندي تطوّر. هسه دا أعرف آني كنت مريض ولازم أتعالج. هاي تره خطوة عظيمة يعني. قبل ما كنت أعرف آني بأيّ حال. هسه.. آني أعرف.

ثم انكمش على نفسه. سحب يده من شعر ابنته وتشابك كفاه وهما مطروحان في حجره:

- هسه دا أعرف. الله، سبحانه وتعالى، خلاّني أعرف. سبحانه وتعالى، سبحانه وتعالى. وراء قدر مدحت الله يرحمه، بقيت عشر أيام ما خليت قطرة بحلقي. قطرة وحدة ما خليت بحلقي. عشر تيام! كنت مثل النايم. ما عندي وكت أشرب أو أفكر بالشرب. شلون هاي؟ ما أدري. بلاكت سبحانه وتعالى.

كان يتكلم بإخلاص وصدق، هذا السكير الذي استعاد وعيه؛ وقد أسبغ على وجهه ونظراته الشاردة هيئة الموحى إليه. ولم يكن ذلك يلائمه كثيراً. ويخيل إليّ أنه سبحانه وتعالى لم يتدخل إلا في بث رعب غير محدود الأفق في قلب هذا الرجل، تلك الأيام. كان الرعب في الهواء، في ذرات الهواء، على مدى الساعات؛ ولم يكن رعبه ولا رعبي: لم

يكن رعباً شخصياً. كنت أراه. أصطدم به. في الوجوه والإشارات والأصوات، وكنا ننوء بحمله. وحين جاءنا حسين، السبت ضحىً، بعد ليلة لم يذق فيها النوم أحد من أهل البيت، شاحباً مضمخاً بالعرق وأخبرنا بقصته، كان ينز رعباً. وصف ليلته. يتجول هائماً على وجهه في شوارع بغداد وأزقتها، هو وأصدقاء له، وكيف لم يستطع العودة إلى حيث يسكن لأن الحي كان محاصراً. لم تسمع منه سوى أن مدحت لم يكن معه وأنه، ربما، قد حوصر هناك. كنا قرب المطبخ، متحلقين حوله. أنا ووالدتي ومديحة وهي، ثم جاء أبي. لم يبقَ لنا سوى أن نستخلص أكثر ما نستطيع من معلومات من هذا المخلوق المتكسّر.

كان العتاب والتأنيب والتقريع أموراً غير ذات موضوع؛ وكنت أخشى أن يكون كاذباً في كل ما يقوله. أخذته معي بعد أن غسل وجهه وأكل لقمة. أصرت هي أن ترافقنا. لبست عباءتها وأخفت نصف وجهها وأبقت العينين الصفراوين المبتلتين، ظاهرتين. سرنا دون كلام. كان حسين يعرج ويسير بتثاقلٍ كأنه يريد أن يدعنا نسبقه. هز رأسه حين سألته هي هل أجاب مدحت بشيء عما أرسلته له، ولم ينظر إليها ولاحظت فمه يتقلص وجفونه ترتجف.

كان الهياج في الشارع لا حدود له، والانفجارات تتتابع مختلطةً مع أصوات الراديوات العالية في المقاهي. وكان النهار جميلاً مع بعض الغيوم والشمس مبهجة. دخلنا الجامع واجتزنا ساحته وتوقفنا قرب الباب الآخر. كان الحصار حقيقياً ولقد لمسناه عن كثب. لبثنا وقتاً طويلاً في مكاننا ذاك. رأيتها تتطلع، عبر مقهى «ياس»، إلى مدخل الحي، دون أن ترمش أهدابها، دون أن تتعب. لم يكن كل أولئك المسرعين،

مسلحين وخائفين وغيرهم، ليدخلوا ضمن إطار رؤيتها. كان العالم عندها، شخصاً واحداً لا يأتي. وأنهكنا الانتظار والجوع وما يدور حولنا، وعدت معها بمفردنا إلى البيت. لم نتحدث في طريق العودة. كنا، أنا وهي، قد انقطعنا عن تبادل الكلام منذ أسابيع، قال لنا هذا المجنون إنه سيبقى وقد يستطيع تدبير أمره والدخول إلى الحي، ووعدنا أن يأتي إلينا بعد ذلك. كان من المضحك أن نصدقه.

- ... هذوله الأطباء هنا يقولون هاي أول خطوة للأمام. يقولون إنت أول مساعد لنفسك. أنت إذا تريد تشفى، تشفى؛ إذا تريد تصير زين، تصير زين، يقولون إحنا نقدر نساعدك، لاكت أنت...

- وإلى متى راح تبقى هنا؟

- آني أدري! هم يقررون شْوكت أطلع، الأطباء. تره مديحة هاي مو مستشفى اعتيادي. أقصد، هم الأطباء، ديعتبرون هاي فد تجربة يعني.. يقولون رائدة.. يعني بالعراق. الناس المدمنين، يعالجوهم ويخلوهم يواجهون الحياة مرة لاخ. يقولون هاي أول نوبة. ما أدري عد، صدك، كذب. بس آني واثق..

قطع كلامه وقام إلى النافذة.

لم أرد أن أكلمه. كنتُ مشاهداً وكنت مصراً على أن أبقى هكذا. بدا لي أنه يحدث نفسه كي يرمم ما ينهدم منها مع الزمن؛ ولم أكن مشفقاً عليه ولا متحمساً لمشروع تغيير حياته. لعلي لم أفهم الفرق بين ماضيه وبين ما يحاول أن يخلقه. لم أفهم تفاؤله بين أنقاض عالم بريء يتخرّب. لم أفهم كيف يمكن أن يجد إنسان الحياة جميلة والموت مطبق على الأفق. ذلك اليوم، بعد الظهر، والمطر يتساقط إثر الإعلان عن

إعدام عبد الكريم قاسم، شعرت بطعم غريب في فمي؛ وقلت في نفسي إني سأموت عن قريب. كنت واقفاً، قرب الزيتونة، تحت مخبأ، أتطلع إلى الباب الكبير. أخلد والداي إلى غرفتهما بعد أن فقدا كل طاقة للاستمرار على التظاهر بالصبر. كانا، لاشك، يبكيان معاً بمعزل عنا. لابد أنهما قد أدركا، مثلي ومثلها، بأن مصير مدحت اختلط، بمصادفة قاتلة، مع الأحداث الفائرة؛ وأن حياته وموته متوقفان على أمور نجهلها ولا يد لنا فيها. كان المطر يتساقط بغزارة وأوراق الأشجار تتلاعب. رأيت جدتي أم حسن أول الأمر. خرجت تتمشى من غرفتهم بمفردها، ثم توقفت تنظر إلى السماء. مكثت تنظر إلى الأعلى بشكل غير مفهوم. كأنها رأت إشارةً ما في الغيوم الكثيفة، أو كأنها كانت تكلم أحداً. مضت بعد قليل تدخل غرفة أخرى. كانت متشحة بالسواد، بيضاء الوجه، لا تبين عليها أية أمارة على عاطفة ما. ثم سمعت، بين نقرات المطر على ورق الزيتونة، باباً يصفق في جهة من الطابق الأعلى، ولمحت شبحاً أسود آخر من طرف عيني. كانت تحمل عباءتها في يدها وتسير بسرعة وخفة نحو السلم. توقفتْ قليلاً أمام غرفتي ثم تابعتْ مسيرها. أحسستُ دون سبب ببعض الاضطراب. عرفت قصدها ولبثت في مكاني. ترددت قليلاً عند خروجها من فتحة السلم. كانت بثياب زرقاء داكنة. شاحبة الوجه. نشرت العباءة بين يديها وهمت بوضعها على رأسها حين رأتني. توقفت، لحظة، عن الحركة وهي تتطلع إليّ. ثم بدا عليها كأنها صممت على شيء فالتفّت بالعباءة وغطت بها جسمها. كانت المسافة بيننا حوالي عشرة أمتار، قطعتها بخطوات قصيرة متعجلة، وحين وصلت إلى قربي همست:

- آني رايحة مرة لغ، يمكن..

ومرت. كانت عيناها تبرقان، طويلتين لوزيتين فوق الأنف الدقيق. تبعتُها. تناثرت قطرات المطر على وجهي وشعري. سألتها هل أخبرت أحداً بخروجها فأجابت بأنهم نائمون جميعاً. كنا نسير صامتين، بحذر على الأرض الترابية المبللّة. كلّمتني دون أن تنظر إليّ متسائلة عما إذا كان كل شيء سينتهي بعد أن مات عبد الكريم قاسم. لم أجبها. أردت أن أقول لها بأني لا أدري. توقفنا في منعطف زقاق قريب من مكاننا السابق قبالة الحي المحاصر. قيل لنا إن المنطقة ستقصف بالمدافع وإن الهجوم عليها لن يتأخر. كان الرصاص يلعلع باستمرار ومن كل ناحية، وكانت متوجهة بكليتها إلى المدخل المظلم البعيد، واقفة جنب الحائط، لا يبرز منها غير وجهها؛ وجهها الجميل المشرق رغم القلق والرعب. تمنيت لو كنت أسبّب مثل هذه اللهفة في نفس امرأة مثلها! وكانت، دون أن تراني أراقبها، تتنفس بعمق وتتنهد ثم تمسح قطرات المطر عن جبينها. بقينا بعض الوقت. كنت قلقاً، لا أتوقّع خيراً؛ وكانوا حولنا يتراكضون ويتدافعون وتختلط شتائمهم وضحكاتهم، والرصاص يتعالى وتتردد أصداؤه. سمعت ساعة الجامع ترن وتدق دقات لم أستطع عدها. كنت أقف على مبعدة منها. لاحظت أحدهم يقترب منها أكثر مما يجب. تحركت ببطء فالتفتت نحوي. دنوت منها. نظرت في عينيها. رأيت فيهما عذاباً غريباً لا يسعه العالم. كانت شقية بمعنى الشقاء المطلق. اتكأت إلى جوارها على الحائط وسكتُّ.

ثم توتر الجو خلال دقائق. ركضت جماعات من جهة شارع الكفاح وعاد أفراد مدججون بالسلاح نحو الشارع مرة أخرى. بعد ذلك علا هديرٌ

وقرقعةٌ غير مألوفين، فتراجع الناس وتراجعنا مثلهم. لم يتسنَّ لنا أن نتكلم، حين ارتفع انفجار كبير على مبعدة منا. هتف شخص بأن القصف قد بدأ وسيخرّبون كل البيوت هناك. كم كانت مرتعبة، هلعة! تقلّصت ملامحها وتطايرت نظراتها على الأشياء والوجوه. أمسكت بذراعها من خلف العباءة فسحبتها بشدة. عدت أمسكها بإصرار. كنت أتمسّك بها في الحقيقة، بالرمز الذي تبقّى في حياتي. نظرت إليّ، شاحبة الوجه مرتجفة الشفتين، تبدو رقبتها الفضية مغطاة بخصلة هاربة من شعرها. كانت عيناها المتلامعتان بغضب تسألانني عما أروم، عما أسعى إليه. وخلال هنيهة، ذرّة زمنية، وكلانا في خضم تلك الموجة العارمة من الصخب والموت والتخريب والفزع اللامتناهي، تدفعنا الأيدي وتتقاذفنا الأجساد، أضاء منها بشكل ما، بزغ من مجمل وجودها، خيالُ ذلك الرمز الآخر في حياتي: فؤاد. تداخلت أمارات وجهه كما اعتدت رؤيتها مع هذه الخطوط اللينة لوجهها الجميل. صارت، أمامي، مخلوقاً ذا وجهين، ذا حياتين. وانتهت الرؤيا مع الصراخ واللهاث والتراكض عبر الساحة خلفنا. هجمت علينا جموع خائفة فبعثرتنا، لكنني لم أتركها؛ وكنت مهاناً معها ونحن نرجع منخذلين نقصد البيت. ثم رأيتها تلتفت بذعر إلى الوراء حين رجّع الأفق صدى انفجار عظيمٍ آخر وقع على مبعدة. كأنها كانت تتلقى تلك القنابل بقلبها، بروحها! وكانت، سائرة على الرصيف، بين أضواء الغروب، بين الليل والنهار، رقيقة نحيلة تطرق إلى الأرض وتعيد على نفسي كلّ ذكريات العذاب الطويل الذي مضى. وكنت أتساءل، لا عن سبب هذا التلاحم بين مخلوقين في نفسي، بل عمّا سيعمله بي. لقد استَلّ فؤاد من حياتي بقسوة دون أن أستطيع

الوصول إليه، الاقتراب من قلبه! وها هي، ملفوفة بغموضها وبما يعمله الآخرون بها، توشك على الانفلات من حياتي. كنت قد نقصتُ، فقدتُ شيئاً. منذ ذلك المساء الذي تحدثنا فيه؛ وبسبب ذلك الحديث لم أشعر أن بإمكاني، ذاتياً أو اعتماداً على ما في نفسها تجاهي، أن أدنو منها بعد الزواج. كان بإمكاني أن أتمزق قريباً منها. ذلك حق لم أفقده. وكنت أستطيع أن أتذوّق دم حبيبتي المجروحة. ذلك أيضاً حق لم أفقده. ولكني كنت محروماً حرماناً مطلقاً، بكل ما يحمله الإطلاق من تحجّر وبلادة، من التفوّه بكلمة أمامها، من نفخ الهواء باتجاهها. كانت خلف قلبي، وكنت بكل هذه الموازين التي تثقل كاهلي أريد أن أصدق بأن هنالك، من جانبي، تضحيةً ذات شكل خاص، وبأن ليس من المستحيل أن نفرح. كنت خارج حياتها، وكانت تنظر إليّ كخارج، إلى الأبد، من حياتها. ولم نتبادل، كما قلت، حديثاً ذا معنى خلال تلك الأشهر. وكنت غير رافض لكل ذلك، لأنها قد تنعم بحياتها وقد أستطيع، بعد كل هذا، أن أشفى أو أتلاشى مثل نبتة في صحراء.

ثمّ.. ثمّ، ولغير سببٍ ظاهرٍ وعلى حين غرة، اختلّ كل شيء. فَقَدَ نظام الحياة معناه، وبدا أننا، نحن المذهولين، لن نستغرب أن تسقط الشمس علينا خلال النهار. وارتبكنا لأننا صرنا، عداها، شخصاً واحداً، طفلاً صغيراً تتملكه رغبة في البكاء لأن لغز الحياة لايُحلّ. وذهبت أفتش عن أخي، كما يعملون في الأساطير. لا من أجل أحد. أبداً. لا من أجل أحد، بل من أجل أن أستطيع أن أحيا أنا. وفشلت ولم تقترب هي مني. حتى حين شحبتْ وأظلمتْ نظراتها. كانت أبعد عني من الجميع. تستمع إليّ أحدثهم ووجهها يضيء في نفسي وهي لا توجّه إلي

كلاماً. ولم تترك لي الأحداث المتلاحقة بسرعة أن أمعن النظر في مصيري. ولكني، وأنا أسير بتثاقل خلفها ذلك المساء المدلهم من شباط، قررت ألاّ أموت بعدها.

ركبنا العربة العتيقة دون شكوى. أرهقنا الانتظار العقيم في الشارع الموحش الخالي. جلست قرب مديحة وتلاصقت سها وسناء على المقعد الصغير أمامنا، مبتسمتين تتبادلان الهمس. لم يبقَ من الشمس إلا حمرة داكنة في طرف الأفق الغربي، وسارت العربة تتمايل ببطء فهب نسيم بارد علينا. تركنا حسين حين لم يعد لديه ما يقوله، وصار الصمت يثقل عليه وعلينا. ضحكت سها وكلّمت أمها:

- يوم، شوفي سناء شوتقول على بابا.

تساءلت مديحة:

- كريم، أقول أكو فايدة منه؟ أشو خبصات وأطبّاء ورواح ومجيء وآني ما شفت فيه للآن فد تغيير، فد تقدم. شنو رأيك أنت كرومي؟

- على كلٍّ حال.. يعني.. أحسن من قبل. أكيد.

بماذا يمكن أن نقيس حياة الإنسان وتقدمه وتطوره، حين نجد، على المدى البعيد، أن ليس للقيم أو لزوايا النظر، أي ثبات؟ وكنت أريد أن أقول لمديحة بأني لست مهتماً بزوجها، لم أكن مهتماً به. إنه إشارة لسراب؛ ولكنها لاتستطيع العيش دون سراب من هذا النوع، مادام هو حياً. عادت سها إلى حديثها:

- يوم. يوم.

- شبيك ولچ؟

كانت العربة تتراقص بتمهُّل على أرض الشارع العكرة:

- يوم، شوفي سناء شوتقول على بابا. تقول كأنة خراًعة خضرة. أي والله يوم، هي قالت.

وكان الهواء منعشاً يثير الخيال لسببٍ مجهولٍ. هتفت مديحة:

- ولچ مو عيب عليك؟ ذاك اليوم كنتِ مريضة ما تعرفين تحكين حكاية عدلة. ولچ مو أبوك هذا.

كانت سناء تنظر إليها ساكنة. أجابت:

- يوم، ليش هو مريض بابا؟ آني شفته ما به أي شيء.

وقعت طريحة الفراش حين كان الجميع مشغولين بوفاة مدحت. لم يعرها أحد انتباهاً، حتى جاء الوقت الذي أصابتها فيه نوبة هلوسة رهيبة. أيقظتنا بعد منتصف الليل بصرخاتها الثاقبة. ركضت إلى غرفتهم. كانت على فراشهم الواسع تحتضن أمها.. وشعرها القصير مضطرباً ووجهها وعيناها في احمرار الدم وهي تصرخ:

- لا. لا. لا يوم. لا. لا.

وأمها تضمّها إلى صدرها بشدةٍ وتهتف بآياتٍ من القرآن وببعض التعاويذ. ثم دخلت أمي وعمتي واشتركتا مع مديحة في محاولة تهدئتها. قالت عمتي:

- عيني هاي أسنانها. لايظل بالكم.

وكانت الصغيرة قد ابتعدت عن أمها وأخذت تنظر إلى الغطاء نظرات رعبٍ. تمسكت بها أمها مرةً ثانيةً تريد إعادتها إلى أحضانها، لكن سناء كانت تقاوم بشكل لاشعوري وهي تتمتم بكلمات غير متميزة وتقرض أسنانها بعضها ببعض. ثم أخذت مديحة تبكي وتصرخ هي الأخرى فأسرعت إليهما أمي ودفعتها جانباً واحتضنت الصغيرة على

الرغم منها.

كنت أشقى من أن أستطيع مساعدتهم في تهدئة سناء، ولذلك بقيت على جهة من الغرفة، متوتر الأعصاب، أراقبهن يحاولن بحنانهن إعادتها إلى رشدها، إلى عالمنا المعقول. وكانت عمتي قد استقرت على الفراش، تردّد أقوالها عن المرض وأسبابه، حينما طرقت أذني كلمة أو كلمتان مما كانت تقذفه الصغيرة من فمها:

- لاع. لاع. ركضي عليّ. خالو لاع. لاع. لاع.

ثم صرخت صرخةً عاليةً وأغمي عليها.

وها هي الآن أمامي، لم يبق عليها أثر من مواجهتها الأولى لقسوة الحياة، غير هذه المسحة من الأسى التي لا تخطئها العين والتي تكسو وجهها بشكلٍ غامضٍ. لم تنعزل عنا، مثلها؛ ولم يفتر حماسها لكل ما يجري في البيت؛ لكنها فقدت شيئاً من نغمتها المرحة وسرورها التلقائي في علاقاتها مع الآخرين. وكانت الوحيدة تقريباً التي ترافق منيرة وتجالسها وتحادثها وتجرؤ أن تضحك معها أحياناً. ولقد رأيتها تقبّل يدها بخفةٍ ونحن نخرج عصر ذلك الثلاثاء المظلم، أنا وهي وحسين وسناء، لنذهب إلى الحي في خطوتنا الأخيرة لمعرفة مصير مدحت. لم يكن منطقياً أن تأتي معنا رغم إصرارها الطفولي. كنا نعلم أننا بصدد أن نرى أشياءً قد لا تسرُّ القلب؛ ثم إن المهمة جدية وعسيرة على نفوسنا بما يكفي، دون حاجة لتعقيدها بإحضار الأطفال. شكت إليها وتوسلت بها واحتضنتها دامعة العينين، كي تتغلب على اعتراضات أمها. ورأيتها تقبِّل يدها ونحن نترك الباب الكبير خلفنا.

كان الحي بعد مضيّ أيامٍ من الحوادث، لايزال كبيت ورق ديس

بالأقدام. لم تكن الأزقة مظلمة كما تصورتها وكنا نسير مسرعين أكثر مما يجب. كنت أشعر بنبضات قوية تشمل جسدي كلّه وتدقّ كياني؛ وكنت على يقين بأننا سنجد أخي أو نكشف عن محله. ولهذا كانت خيبتي عظيمة حين فتحت لنا الباب تلك العجوز البيضاء الوجه وأدخلتنا إلى الحوش المظلم بعد أن تعرفت بوجوم على حسين ثم بادرته بالسؤال عن مدحت. كيف سنجد أثراً له في محل يسألونك عنه فيه؟ ورأينا ذلك الحاج الذي التاث عقله فراح يردد الأسماء والحكايات الغريبة باللغة التركية، ثم اجتمعت هي بالعجوز. كأن هذه الأخيرة أدركت بغريزتها أن هذه المرأة هي ذات الشأن فيما يخص مدحت. أمسكت بيدها وأجلستها قربها على التخت ثم راحت تحدثها عن أيامهم الأخيرة. كنت مضطرباً حزيناً، أحسُّ بشيءٍ يتشقّق في داخلي. كانت تصغي إليها وفي وجهها لهفةٌ شديدةٌ. قالت إنه خرج قبل أيام، مساء السبت كما تتذكّر، حينما كانت السماء تمطر.. ولم يعد. تركهما بمفردهما جائعين. وقالت إنها عرفت أنه لن يعود وكانت تتمنى أن يبقى معهما ولكن قلبها أعلمها أنه مشغول الفكر والنفس بأمورٍ مهمةٍ أخرى. وقالت إنها ودّعته وتمنّت له السلامة، ولعله لايزال في مكان ما سالماً غانماً. ثم مدّت يدها بشكلٍ عفوي وضغطت على ذراع منيرة وسألتها ألا تقلق لأنه من الرجال الطيبين الذين لايمكن لأحد أن يصيبهم بمكروهٍ.

كنت أنصت إلى كلام العجوز المتقطّع، يفترسني إحساسٌ بأنها تنعاه لنا. كان صوت الحاج، المستمر في إنشاده المجنون، يأتي من الغرفة الصغيرة المجاورة متراخياً خافتاً، وكنت أريد أن أبعد عن نفسي ذلك الإحساس الكريه بأية طريقة. سألتها أين قضى أيامه ولياليه في

البيت. تقطع صوتي الأجشّ عدة مرات خلال الجملة القصيرة التي تفوّهت بها. التفتوا إليّ. كانت عينا منيرة حادتي النظر رغم تلألؤ الدموع فيهما. أشارت العجوز إلى أعلى في الوقت نفسه الذي تكلم فيه حسين:

- فوق. فوق. بغرفتي. بفراشي كان ينام.

قامت منيرة فجأة وأرادت أن تصعد إلى الطابق الأعلى، كأن ذلك أمر مقرّر مفروغ منه. كانت سناء ملتصقةً بها بشكلٍ من الأشكال، تختفي أحياناً وراء قماش العباءة الأسود أو تندس قربها أو تسير بخفة جنبها. لم نجد شيئاً معيناً في الغرفة الجرداء ومكثنا واقفين ندير أبصارنا الفارغة فيها. اقتربت هي من الفراش القذر ثم مدت يدها متردّدة وقلّبت المخدة تنظر ما تحتها. تراجعت. كانت الأرض مكسوةً بطبقةٍ من التراب وبعض القاذورات. لم نكن نبحث عن شيءٍ معين؛ إلا أن أمراً غامضاً لعله وجود مدحت السابق في المكان، جعلنا ننتظر أن نعثر على إشارة ما. هنالك، خلال لحظات الصمت المخيم مع الظلام، التفتت منيرة إلى حسين وسألته:

- أعطيتَ الورقة لمدحت، أبو سها؟

كان خجلاً حينما رافقنا إلى غرفته وهو يكّرر عبارات الاعتذار، وأما حين سمعها تسأله ذلك السؤال فقد بدا عليه أنه يريد أن ينهزم منا. أشعل سيجارةً. كانت رائحة العرق تفوح منه:

- طبعاً. طبعاً.

- يعني، ما نسيتها أبو سها؟

- طبعاً. شلون آخر. معقولة أنسى؟

- العفو. شكراً.

ثم اقترحتْ أن ننزل.

وسرنا بعد ذلك على غير هدى في تلك الطرقات الملتوية المظلمة، ولم نكن ندري عماذا كان يجب أن نبحث وبأي شيء يجب أن نبدأ. رأينا أناساً كثيرين وبيوتاً مفتوحة الأبواب وأخرى مهدّمة ومقاهي مسدودة وبقايا صخبٍ وهلعٍ منطبعةً على الوجوه. كنتُ حزيناً أمرّ الحزن، خائر القوى، أحاول أن أخفي كلّ ذلك. كان الحزن سهلاً وقتئذ، وكنا بحاجة إلى من يبدو غير حزين لسببٍ معقولٍ لديه، من أجل أن يصير أمارة خير وتفاؤل بالحياة. وعدنا قبيل منتصف الليل وكانت سناء تعرج في سيرها المضطرب قرب منيرة. تاه منا حسين بعد قليل من اجتيازنا باب الجامع الثاني. لم ينهكنا الحزن أو الإرهاق أو معاني الرعب، قدر ما استنزف نفوسنا القلقُ. القلق الحاد الواخز بأن كل شيء يمكن أن يقع لمدحت وأن ليس بإمكاننا أن نمنعه. ووجدت والديّ ينتظران قرب السرداب الصغير منكمشين على التخت تحت ضوء المصباح الكهربائي البعيد. جلستُ قربهما وأسرعت منيرة وسناء إلى الطابق الأعلى دون كلام. كانا منهوكين أكثر مني وظهر على أبي أنه يوشك على البكاء بين لحظةٍ وأخرى. كان يضع لفافاً غامقاً من الصوف حول رأسه ويتشبث بأطراف عباءته الصوفية. وسألاني وسألاني وبقيا يسألان، كأني كنت أملك مصير أخي وأخفيه عنهما. وكان بودي أن أشرح لهما ما تركت في نفسي كل هذه المشاهد وكل هذا البحث والتقصّي، وكيف كنت أحسُّ بشكلٍ غامضٍ بأن المستقبل المظلم جداً لن يلبث أن يكشف عن وجهه. إلا أن تلك الكتلة من الغضون في وجه أمه، يعمّقها نور المصباح

الشاحب، وشفتيها المعوجتين ونظرة التوسل اللانهائي في عينيها، جعلتني أتراجع من أمامهما. كانت العربة المتمايلة بوهن تهزّ رأسيّ سها وسناء ذات اليمين وذات اليسار، وكانت أنوار الشارع المتلاحقة على سحنتيهما تبدي مدى التعب الذي ينتابهما؛ وكنت أتمتع ببرودة النسمات، غير متمنٍ أن نصل إلى أي مكان. لم تعد الأهداف عندي، موضوعاً يمكن البحث فيه؛ ورغم ذلك، فإن هنالك قراراتٍ سرية كنت متأكداً في أعماق نفسي أن شخصاً ما يجب أن يتخذها. ذلك أن النهاية تكون أحياناً ضمن بعدين: أحدهما اللاتناهي الأبدي والثاني شريان القلب. وفي تلك الأمسية، أواخر رمضان، حين أطلاً أخيراً، عدنان وحسين، بوجهي مَنْ يبتّ بالمصائر، وأخبرانا بما جاءا من أجله، شعرت أنني أواجه نهايةً من نوعٍ خاص.

جاءا دون مقدمات وبضجّة مفتعلة؛ وكنا، على حافة اليأس، نتلمس أتفه الإشارات إلى مدحت. أرادا أن يقابلا منيرة. خرجت من غرفتها في الطابق الأول دون أن تعلم مَنْ كان يطلبها. كانا جالسين في الطارمة قرب السرداب الصغير على التخت الخشبي، ينفثان دخان سيكارتيهما بعنفٍ. أسرعتُ قبلها. كانت مديحة وأمي معهما. لاحظتُ حالاً أن عدنان يلبس ثياباً خاكية وينتفخ بشكلٍ من الأشكال. نظر إليّ نظرة حادة وصافحني دون اهتمامٍ. كانت أمي تكلمهما بلهجتها المستكينة المتوسلة لغير سبب. لم أدرِ ما يريدان بالتحديد وخمنتُ أن لحضورهما علاقةً بأخي. كانا ساكتين، لا يجيبان على أسئلة أمي المستمرة. سألتُ حسين، كما أذكر، عما لديه وهل هنالك أخبار جديدة فأشار برأسه إلى عدنان. التفتُّ إليه. سمعت وقع قدميها على الباحة

قرب السلم. وقف فجأة. كان طويلاً عريض الصدر. أطفأ سيجارته باضطراب تحت قدميه. تقدمت منا، ترتدي ثوباً أزرق فضفاضاً وفي عينيها أمارات تساؤل. توقفت على بعد خطوات. سكنتْ حين تعرفت على عدنان. لبثت ساكنةً لا تتقدم، مصفرةَ الوجه، تتجمد ذراعها اليمنى أمامها. لم نتكلم، جميعاً، لحظات، كانت أطول من أعمارنا.

خاطبها عدنان:

- شلونك خالة؟

خُيِّل إليّ أن الارتجاف في صوته يُعبِّر عن رهبةٍ خفية. تلامعت عيناها الطويلتان وتحركت أجفانها بسرعة لبعضِ الوقت. لم تجب. تكلم وهو يعبث في جيوبه:

- آني.. آني متأسف.. مو خوش وكت جئت. بس آني قصدي المساعدة بهالظروف. الأخ أبو سها جاني أول البارحة لبعض الوقت. لم تجب. تكلم وهو يعبث في جيوبه:

- آني.. آني متأسف.. مو خوش وكت جئت. بس آني قصدي المساعدة بهالظروف. الأخ أبو سها جاني أول البارحة ورحنا. رحت وياه.

أخرج بطاقة صغيرة أبقاها في يده:

- رحت وياه.. من أجل.. المهم إحنا ما ننسى أقرباءنا.

صمت لحظات متردداً:

- آني متأسف خالة منيرة، بس أعتقد تره.. يعني مدحت..

لحظات أخرى:

- هاي بطاقة هويته، أخذتها من الجماعة، أصدقائي. عثروا.. عثروا عليها بجيبه. آني متأسف. البقية بحياتك.

كان قلبي يخفق بشدة، ولم يمنعني العويل الذي أطلقته مديحة وأمي بعدها، من ملاحظتها وهي تتكئ على الحائط قربها وترفع يدها لتخفي عينيها. ومنذ تلك اللحظة في الزمان - وأنا محاط بهم، وأنا معها بمفردنا، وأنا وسط العالم لا أجد أحداً غيرها، وهم يتبادلون عبارات التعزية وهي تنهار على كرسي بجانبها وهم متشبثون بعدنان يسألونه عن التفاصيل وعن القتل والجسد والدفن، وأبي ينزل وصراخ الأطفال - وأنا لا أرى غير النهاية التي بدت لي الآن على أوضح صورة: طريقين اثنين.. بدأ أحدهما ذات مساء مع وجه فؤاد أمام غروب الشمس، وانجرفتُ معه فأخذته اللجة إلى الهاوية المظلمة وبقي في نفسي وانطبعت نهايته على حياتي؛ وكانت الطريق الأخرى مع الغسق الأحمر وهي تملأ سمائي، ولم أنجرف معها، جبناً وغباوة؛ ونجوتُ مقطوعَ الأوصال، ووصلت إلى النهاية الثانية وأنا ماأزال أحمل نهايتي الأولى؛ وهكذا صار في حسابي أن تتكرّر النهاياتُ، وكان ذلك هو الجحيمُ بالذات.

كانت العربة، بخيولها الهرمة المتعبة، تجرجر نفسها على الشارع، ونحن سكوت وأنا أعجب كيف ينقضي كل شيء وكيف يرى الناس ذلك ولا يتحركون ولا يموتون. دفنّا أخي مدحت بخيالنا وتحاشينا أن يزعج حزننا أحداً. كنا، حتى النهاية، خجلين مرتبكين، لا يعتورنا وهْمُ الشهداء أو الأبطال. وجاؤوا يعزوننا على استحياء، الأقارب وبعض الأصدقاء. وجلس حسين مع أبي في الإيوان، وشعرت أنه كان سعيداً بهذا الانتماء الجديد وبهذه اللحية الشعثاء وبالمهمات الصغيرة التي كان يسرع لإنجازها. كما حضر عدنان مرتين أو ثلاثاً برفقة والديه. أراد كل

مرة أن يرى خالته منيرة، وكان ذلك سلوكاً لا يسير مع التقاليد بسهولة. ولم ينل مبتغاه؛ وكنت أحسُّ، ليلاً والكل نيام، أنها تريد أن تضع نهايةً أخرى على حياتي. لم أكن أستطيع الكلام معها؛ وكان ذلك الوجه الشاحب يبعث فيّ اضطراباً لا مثيل له. كانت، والسواد يشملها، تتلألأ بينهم؛ وكلما أردتُ أن أرى العالم حولها فشلتُ وتركزت أنظاري على الجدائل المتهدّلة حول كتفها النحيلة وعلى الفم المطبق بتصميم.

مِلنا مع استدارة العربة فتضاحكت الصغيرتان. نهرتهما مديحة وكانت أضواء شارع الكيلاني حمراء خافتة والضجة فيه على أشدها. أوقف الحوذي عربته على مبعدة من مدخل الطريق فنزلنا نسير. تأخرتُ عنهن، فصرن أمامي كتلاً سوداء متحركة. كانت الرغبة لاتزال تموج في نفسي: ألا أصل إلى أي مكان. ودفعنا الباب الكبير الموارب ثم اجتزنا المجاز المظلم. كان الحوش ساكناً إلا من زقزقة عصافير مترددة. صعدن إلى الطابق الأعلى وجلست على التخت قرب السرداب الصغير. كنت متعباً، ولم يكن مصدر تعبي هذه المعيشة الحزينة المتقلبة فقط، ولا الأفق المسدود أمامي ولا هذه المخلوقات المشوهة المريضة التي أحيا معها. كنت متعباً من عجزي، من ارتباكي، من تملص الأشياء من بين يدي؛ وكانت هي أول اهتماماتي وآخرها. صارت هكذا منذ وفاته وأخذت تكبر في نفسي يوماً بعد يوم؛ وكان كلُّ شيء يخصّني ويخصُّها يبعث فيّ التعب، كلّ شيء.

سمعت نداءً باسمي:

- كرومي يابه.

ظننتها أمي، وبدهني أن أكتشف أنه أبي. كان صوته متكسراً خفيضاً:

- كرومي يابه. ليش قاعد تحت؟ تعال شوية قربنا.

- نعم. نعم.

ثم قمت دون عجلة.

لقيتُ أمي مضطجعةً على الأريكة في الإيوان، متلفعةً بالسواد، تشدّ صدغها بخرقةٍ سوداء أيضاً وتجلس عند رأسها أم منيرة تدخن بهدوء. سألتهما عن حالهما فأجابتا باقتضاب.

جلستُ قرب قدمي أمي. كان الغطاء يخفيهما فأمسكتُ بهما وضغطت عليهما برفق. كلمتني أمي:

- شلونه أبو سها، عيني كرومي؟ أشو مديحة ما حكت شي. راحت هي وبناتها واختفوا بالغرفة.

- زين والله حسين. هواية زين. يقول مرّ عليه أبو سرمد، مديره السابق.

- لويش؟ قابل راح يشغلوه مرة أخرى؟

- إذا صار زين.. ليش لا.

علقت أم منيرة:

- سبحان الله.

عادت أمي تتساءل:

- يعني تقول بعد ما يشرب؟ ما يحط المشروب بحلقه؟

- الله يدري. يمكن.

- سبحان الله.

- الله يسمع من فمك. بلكي يرجع لأهله ويصير براسه خير.

- تالي عمره!

رأيت أبي يخرج من غرفته ويضغط على زر المصباح الكهربائي:

- ليش قاعدين بالظلمة؟

ثم قعد على كرسي قريب. سمعت خطوات خفيفة. كانت سناء في ثوبها الأسود القصير تبدو كطير مصبوغ الريش. كلّمتها أمّ منيرة:

- سناوي عيني، وينها منيرة؟

- بالغرفة يمكن بيبي. أروح عليها أشوفها؟

- مو هسه عيني. شوية لاخ. أريد الشيشة مال حبوب النوم. أخذتها أول البارحة وما رجعتها.

- وينها أمك سناوي؟

- نايمة بيبي.

- شنو نايمة؟ لويش؟

- شوية داخت من العريانة، بيبي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

تساءل أبي:

- شنو دايخة، جدو؟

- دايخة جدو. ما أدري والله شنو. هي قالت دايخة وراسي يدور.

حاولت أمي النهوض:

- يمكن تعبانة. خلي أقوم آني أشوف هموم العشاء مالكم.

كلّمني أبي:

- شلونه حسين، كريم؟

- زين بابا. يصير أحسن.

- إنشالله. يستاهل. خوش ولد.

كانت أمي تهمّ بالقيام فأجابته:

- إذا كان خوش إنسان كما تقول، فالله لايقطع به.

وأخذت تفتش عن نعليها. سألتها سناء:

- وين رايحة، بيبي؟

- للمطبخ.

- أجي معاك؟

- لاع. روحي شوفي أمك، سناوي.

كنتُ قلقاً، تبهظ قلبي الأفكار المضنية المجهولة الأساس. أردتُ أن أراها. لم أتبادل معها حديثاً منذ أسابيع وكانت تتحاشاني مثلما كنت أفعل؛ وكان يجب أن يحدث شيء بيننا. قمتُ:

- آني راح أروح أشوف مديحة.

كلم أبي أمي:

- اجلسي أنتِ لعد. لايزال هناك وقت للعشاء. لعل مديحة استراحت. خليها تنزل هي لتحضير العشاء.

كانت السماء وضّاءةً وأنا أمرّ أمام باب غرفتها وألمحها خلال زجاج النافذة جالسة في ناحية. وجدتُ مديحة منحنيةَ الرأس مضطربة الشعر. سألتها عما بها. لم تقل شيئاً محدداً وكانت عيناها غائرتين. ثم نهضتْ بهدوء وخرجتْ.

بقيت بمفردي في الغرفة الرمادية الخالية. كان العالم مشعثاً حولي، لا تربطني به صلة، وكنت أحس بفوضاي ولا مبالاتي ترتدان إلى قلبي. ارتميت على كرسي أخفف من اضطراب أطرافي. كانوا يضجون في الخارج كعادتهم التي لم تتغير، طعاماً وشراباً إلى آخر العمر.

سمعتُ باباً يفتح ثم يغلق. كانت هي في الغرفة المجاورة ولقد خرجت منها هذه اللحظة لتستأنف المشاركة في الحياة. أقول تستأنف، لأنها تتراجع بانتظام عن دورة الحياة. أخذت تقلّص من وقت وجودها مع الآخرين. لا تكلّم أحداً ولا يكلّمها أحد؛ خشيةً أو رهبةً أو احتراماً لحزنها. لا أدري. بالنسبة إليّ، خوفاً من الانهيار. وهي لاتساعد في شؤون البيت، لم تعد تساعد. تذهب إلى مدرستها يومين أو ثلاثة وتغيب بقية أيام الأسبوع. بعذر المرض مرةً وبأعذارٍ أجهلها مرة ثانية. لأي شيء تهيئ نفسها ؟ وماذا يتبقى لي لو اختفت من هذا العالم؟ كنت جزعاً، غارقاً في جزعي، غير قادرٍ على فهم شيءٍ معين. ماذا يلمّ بي إذن؟ وكانت الظلمة تحتويني، تبعث في جسدي راحةً واستقراراً وتشعرني بأني بعيدٌ عن كل شيءٍ وبأني حققت رغبتي في ألا أصل إلى أيِّ مكانٍ. مددتُ ساقيّ أمامي ثم أغمضت عينيّ هنيهةً. هنالك سلسلة من التراكيب، التي لا أفهمها، تصوغ حياتي بشكلٍ ما. سلسلة تتألف من ماضيّ وشخصياته وما عملته أو لم أعمله ومن حسراتي وتمنياتي. وهي، هذه السلسلة، إذا ظننتها فكرةً مجردة فإنها ستغتالني بالتأكيد. لكنني أتحسّسها فقط، لا أفهمها ولا أنكرها. مثل هذا الجزء الذي يتأكلني منذ بعض الوقت. جزء مجنون يكمن في زاوية خفية مني، لا أناله ولا أستطيع التخلّص منه. ما سببه، يا ربي؟ وهل هو النذير لي بأني سأموت عن قريب؟ وهل أن ملازمةَ هذه الفكرة لي تعني أنها ستتحقق؟

كنت أضع يدي على خدّي، أنظر خلال الظلام الخفيف ولا أصدق شيئاً مما يمر في ذهني. إني أنجرف مع هواجسي. ولكني، كي لا أنجرف على الأقل، يجب أن أعرف سبب هذه الهواجس اللعينة. إني أفكر

دائماً، إلا أني لا أصوغ فكرةً محددةً. إن ينبوع الذهن الأزلي يأخذني من هنا إلى هناك، في نزهات كئيبة أو مفرحة، دون أن أُثبّت المكان الذي أملكه. ومع ذلك، فأنا معرّض، خلال هذه النزهات الفكرية - الروحية، أن أُخدع بفكرةٍ تدفعني إلى عملٍ مهلكٍ. أنا شخصٌ ضعيفٌ إذن، لايملك قراراً يصدره لأنه مسوق بنوازع لا يعرفها. أيمكن أن يكون البشر جميعاً على هذه الشاكلة العرجاء؟ نادوا عليّ فجأة. هببت من مكاني مسرعاً. كانوا في كل مكانٍ من البيت والمصابيح مضاءة. لم أجد من ناداني؛ كلهم مشغولون بشيء ما، يروحون ويجيئون وأنا أراهم جميعاً.. عداها. كان أبي متربعاً على الأريكة في الإيوان. لعله هو الذي ناداني. إنه يخشى الوحدة بشكلٍ غريبٍ. سرت إليه. مررتُ بغرفتها المغلقة دائماً، ثم بغرفتي. توقفت. غيّرت فكري ودخلت الغرفة. سمعت أبي ينادي. لم أجبه. كنت أريد البقاء هنيهات أخرى وحدي. استلقيت على الفراش. أمسكت بالحائط. إنه يعزلني عنها. هذا الخليط من المواد الغبية، يفصل بيننا. إلا أن الأمر ليس كذلك كما أعرف جيداً. لايمكن الفصل بين اثنين يريدان اللقاء. والعكس أيضاً يجب أن يكون صحيحاً؛ حين لا تنفع قوى الدنيا كلها كي تتلامس الأنامل. وحينذاك، ماذا سيتبقّى؟

كنت حزيناً بالطبع وأنا أستلقي هكذا، تاركاً الأفكار تتوارد عليّ وتشكّل مزاجي حسب لونها. هذه السنة، لو رسبت في صفي فسوف أطرد من الكلية، وأضيف إلى حزن العائلة آنذاك مادة جديدة. إلا أنهم لن يلوموني، بل سيجدون لي كل المعاذير والأسباب التي تسوّغ سقوطي مرةً أخرى. وهكذا سأنجو، ولكن.. هل ينتهي العذاب؟ فتح باب غرفتي ببطء وأطلّ عليّ خيال أبي متوجساً:

- كرومي يابه.. نايم؟

أجبته ثمّ قمتُ من الفراش وخرجت.

* * *

ما هو الموتُ لدى الإنسان؟ أن يفقد عزيزاً إلى قلبه؟ أن يفقده في العالم المادي ولا يستطيع أن يجده؟ ما معنى ذلك؟

إن الفناء لا يُفسر، مثل الكون اللامحدود. لايمكن للعقل أن يقبله، ولذلك نشأت الأديان، ربما. وأما الموت.. فلماذا يؤلم هكذا.. يؤلم الأحياء؟ ألأنه يحمل إليهم التناقض الأزلي بين الموجود واللاموجود؟ لأن العزيز الغائب يعيش في النفس، يبقى عائشاً بعد غيابه المادي؟

فؤاد، العزيز الذي غاب، أعرف أنه غاب إلى الأبد، سيموت معي مرةً ثانية. سيموت مع موت أبيه مرة أخرى. عند ذاك سينتهي الألم في حياتنا، سينتهي التناقض. أمّا قبل ذلك..

كنت أتمشّى في الظلام بعيداً قرب السلم، في الجانب الآخر من الطابق الأعلى. وكانت السماء داكنةً بلوريةً، يضيئها القمر الذي لا أراه. سكنوا بعد العشاء، منذ ساعة أو ساعتين، وبقيت ألوب بمفردي في الظلمة. ثم انطفأت الأنوار واحداً إثر الآخر، إلا النور الخافت جداً في غرفتها. كنت أتأمل حياتي، محاولاً أن أدفع القلق الذي لم يتركني منذ أمدٍ. إن بعض الأمور الخفية تتبدى لي على حين غرة. لماذا يرتبط موت أخي بتيار عميق الإبهام من تأنيب الضمير في نفسي؟ ماذا عملتُ، من ناحية أخرى، كي يلقى فؤاد حتفَهُ؟ ألأنا مخلوقٌ مشوّه، يتأرجح وجوده بين إله الشرّ المطلق وبين سبابة الطفل الوليد؟

تلك الليلة، حين كنا معاً، أنا وفؤاد، كنت في أوج غروري؛ واثقاً

لا من قوتي بل من ضعفه، سعيداً بهذه الثقة. لم يكن يستطيع الاقتراب منها، امتلاكها؛ وكان ذلك بسبب علمه أن هذا العمل سيودي به أخيراً. كنّا في الهول المختنق بالدخان ومن حولنا رواح ومجيء مستمران. الزبائن والقحاب ومن يدور بينهم، وكنت شبه سعيد لأني كنت أظن أن بمقدوري أن أعمل ما يخشاه هو. كان يعلم أن حياته لن تبقى كما هي بعد أن يمتلكها عن هذه الطريق، وكنت منتشياً لأن رفيق روحي يتعذّب! يا للإنسان.. يا للإنسان!

كنت في بطن الظلمة، قرب الأغصان العالية لشجرة الزيتون، أقف متخاذلاً. بعثتْ فيَّ الرهبة هذه الأفكارُ. كنتُ أخشى أن أكتشف في ساعة الصراع هذه، أموراً أخرى قد تقضي عليّ. كان النور في غرفتها خافتاً وكانت بعيدةً عني. لقد ارتبطتْ به. رضيت بذلك لأني لم أقل لها شيئاً. ثم وقعت لهما الفاجعة الغامضة.. لأني لم أقل لها شيئاً. هل يمكن أن تكون الأمور على هذا المنوال؟ هل يمكن أن يحدث لي شيء كهذا؟ وهي لم تكلمني منذ ذلك المساء. أعرف ذلك؛ ولا أدري لماذا أفكر بكل هذا الآن. ومدحت نفسه، لماذا حصل له أن ابتعد عنها بهذا الشكل المرفوض؟ عنها هي، دون غيرها؟ وماذا يربط، أخيراً، بين حديثها معي وعمله؟

كنت مأخوذاً بشيء سحري، فكرة أو وحي أو هاجس، وكنت مرعوباً وأنا أُعمِل الذهنَ وأحاول أن أتذكر كل كلماتها ذلك المساء في السطح عند غروب الشمس. لم أكن أسمع منها كلمات مفهومة، بل كنت أنصت إلى صوتها فقط؛ إلى النغمة التي ترافقه وتلهب قلبي. كان بودي أن أطير بها، أن أشق صفحة السماء مبتعداً معها عن كل عوالمي هذه. لم

تقل لي شيئاً، هذا هو كلّ شيء. ولم أفهم أنا شيئاً ولا أزال.

كنت أتطلّعُ، عبر الحوش الأسود، إلى غرفتها وأنا أشعر بنفسي مهدودَ الكيان. إنها تبدو كالفنار الأخير في حياتي. بعدها، ستوجد الظلمات والقسوة والضياع.

لمحت طيفاً. شيئاً كالطيف، يقطع النور الخافت في غرفتها. يقطعه لحظةً واحدةً، رمشة عين. ألا تزال إذن مسهدةً.. مثلي؟

كنت خائفاً من كلّ شيء، منها ومن العالم ومن فعل الحياة، وكانت هي، رغم ذلك، ملجئي الوحيد. سرت ببطء شديد ممسكاً بالمحجر الخشبي. لقد تجمعت في يدها مفاتيحُ نفسي، هلاكي ونجاتي، ربما. كان الصمت تاماً، يلفني وأنا أدبّ متردّداً نحوها. لن تسدّ الباب بوجهي، لأني لا أطلب منها شيئاً. سأقفُ على حافة عالمها أتساءل، أتساءل فقط. تعثرت قرب غرفتي، لكني تشبثت بالمحجر وتوقفت مجهداً على بعد خطوتين أو أقل. كان الباب موارباً، مفتوحاً ومغلقاً في الوقت نفسه، لا يترك أي انطباع بوجود أحد داخل المكان. تحركت بتثاقل نحوه فسقط عمود الضوء الشاحب على وجهي، ورأيتها تراني. كانت جالسة على الأريكة الطويلة، في الزاوية المقابلة، وهي لا تزال في ثيابها السوداء، تضع إحدى ذراعيها على الأخرى وتنظر نحوي. لم أتقدّم بعد أن دفعتُ الباب وتسمّرت على العتبة. كنت أمامها، لا أرى شيئاً بوضوح، ولكني أحسست أن أعماقي تزدحم بقوى عنيفة لا أدركها. وكانت تتطلع إليّ، ولون عينيها وسط الأهداب السوداء الطويلة يبدو أصفر لامعاً. همستُ:

- العفو، حبوب النوم عندك؟

هزّت رأسـهـا بالنفي، ولم تحـوّل بصـرها عني. شـعـرت أن تلك الكلمات التي تفوّهت بها أتعبتني. لبثت أنتظر منها أن تتكلم. كان فمها مطبقاً وخصلات من شعرها الأشقر تتلاعب قربه. تساءلت:

- حبوب النوم.. وينها؟

- ما أدري.

بارداً صوتها كان كحدّ السكين.

- لويش.. تحتفظين بها.. عندك؟

خُيِّل إليّ أنها تعتدل قليلاً عند كلامها:

- مـا عندي حـبوب النوم قلت لك. روح للصـيدليـة تحت، فـتش عليها. لويش جاي علي؟

- لاع.

صمتٌ هنيهة:

- عندك هي. أنتِ أخذتيها من أمك. هي قالت. أخذتِ القنينة كلها.

أغمضتْ عينيها لحظات ثمّ رمت يديها بضجر إلى حجرها وأمالت رأسها إلى اليمين:

- شنو هالحكي؟ شتريد تكول من فضلك؟

لم تعد تنظر إلي. انتبهت إلى أن صوتي كان مرتجفاً طوال الوقت، متكسّراً لا قرار له. سكتُ، مثل الدنيا الصامتة حولنا. شعرتُ أني وصلت في كلامي معها إلى الحدود التي تفصلنا. كنت قلقاً، كما أنا منذ أمد الدهر، ولكني فهمت الآن معنى هذا القلق. الآن، فقط، وبسبب أني أقف أمامها هكذا، كالمتسول، وأطلب منها، دون كلام، أن تمنحني معنى ما لحياتي، أن تمنحني حياتها. كانت تعرف جيداً أن لكلماتي

أبعادها الأخرى، ولم أكن بوضع أستطيع معه أن أنكر أيَّ شيء.

رفعت عينيها إليّ بغتةً، بكل سعتهما، بكل عمق وسحر لونهما المضيء المترجرج:

- لاع. ما عندي هيكي فكرة.

كانت حزينةَ الصوت، حزينةَ الهيئة، حزينة الملامح، حزينة الروح:

- ما عندي استعداد للموت، إذا تقصد هالشي.

ثم أبعدتْ وجهها عني وسكنت بعض الوقت:

- أنت تتصورني كريم بصور غريبة. كل وكت أنت هالشكل. ما أدري لويش. يمكن شكلي ديأثر عليك. يمكن عندك عواطف ما تعرفها أنت نفسك. ما أدري.

حركت كتفيها إلى الأعلى حركةً بالغة الصغر أعطت لكلمتها الأخيرة معناها المؤلم الذي أرادته:

- بس آني بنت من هالبنات، ما عندها حظ. واحدة من بنات الناس الله ما راضي عليها. لازم عندي ذنوب ما أدري بيها، لازم. بس الله لازم يرحم بي بالتالي ويخليني أنسى.

- تنسين؟

- ليش لا؟ ليش لا؟

كانت لهجتها حادةً يساورها الغضبُ:

- آني هم مثل الناس. يمكن ما عندي..

توقّفتْ:

- يمكن ما عندي أمل بالمستقبل، لاكت..

لم أعرف لِمَ قاطعتها:

- منيرة.

كان اسمها أغنيةً في فمي، هتافاً سعيداً من القلب وددت أن أهتف به، ولم يكن بوسعي النكوص. تراجعت في جلستها بشكل ما، وأشاحت بوجهها عني. وقع بصري على صدرها، على الارتفاعين اللذين كانا يعلوان ويهبطان ببعض السرعة. سمعتها:

- يبين ماكو فايدة من الحكي الواضح.

لحظة:

- آني تعبانة من فضلك كريم وما أعتقد هذا شي جديد عليك. كلنا تعبانين. بس كل شي له حدود. أكو ناس يتحمّلون...

توقفتْ. وضعت يدها، في هيئة ذهول، على حنكها أسفل فمها وهي زائغة البصر. بدا عليها وكأنها أضاعت فكرة كلامها فجأة، وأن ليس لها رغبة باستئناف البحث عنها.

- منيرة.

كنت، هذه المرة، أناديها، أسعى إليها كي تسمعني:

- منيرة.

رفعت وجهها إليّ، الوجه المنور، وجه حبيبتي البعيدة عني:

- لاتخليني بوحدي. لا تتركيني منيرة.

ظهرتْ عليها علامات دهشة طفيفة مع حركة حاجبيها. أنزلت رأسها فتكورت خصلات الشعر حول وجهها ووجنتيها:

- وين أروح من فضلك إذا أريد.. أترك؟ إنت ما تدري أني صرت مملوكة للعائلة.. مسجلة باسمكم؟

- لا تحكين هالشكل. إنت تعرفين قصدي كلش زين.

- أرجوك. أرجوك. ما أعرف شي آني.

- لا. تعرفين. تعرفين أنت منيرة نوع عواطفي نحوك.

- عواطفك خليها لك. دتفتهم؟ عواطفك..

كانت نارية النظرات، انقلبت، بين جملة وأخرى، إلى لبوةٍ غاضبة، رفعت يدها بحركة قاطعة ووضعتها حاجزاً بيننا:

- .. خليها لنفسك. لاتدخلني بأمورك الخاصة. ما إلك علاقة بي. دتفتهم؟

لم يكن صوتها، الحاد النبرات، مرتفعاً، إلا أنه كان يعمل تمزيقاً في أحشائي. استأنفت كلامها:

- لا. ما أريد عواطف بعد ولا أريدك تدخلني بحياتك. روح عني، خلّيني أرتاح. تعبانة آني. تعبانة منكم كلكم. ما أريد شي. خلوني أرتاح بس.

كانت مرتجفةَ اليدين، تتنفس ببعض الاضطراب، غير أن صوتها بقي ثابتاً. شعرت بحيرة رغم توقعي لما يمكن أن تقوله. إنها لاتفهم أني لا أريد شيئاً:

- منيرة، عبالي أقدر أساعدك. عذريني. عبالي..

بدوت متوسلاً أكثر مما قدرت، فتوقّفت. كانت جامدة في جلستها كأنها لم تسمع ما قلت، تتطلّع إلى جهةٍ أخرى غير وجهي. خيل إليّ، لغير سبب، أنها على وشك الانهيار أو الصراخ. تكلّمتُ:

- منيرة أرجوك، لاتقسين علي. إنت أعز شخص بحياتي. لاكت آني إنسان عاجز ومتردد. ما أعرف شسوي. صدقيني منيرة، أنت هسّه كل شي بحياتي. لاتخلّيني أفقد الأمل.

- إنتَ مو إنسان عاجز. إنت مثلي ومثل كل الناس هنا، إنسان مشوَّه، مريض.

كانت باردة النظرات، متقبضة الملامح:

- آني كنت أعرف هالشي، كنت أعرف كلش زين، وأردت أعيش منعزلة، على الهامش. ما خليتوني. ما خلاني. هو كان مريض أكثر مني. كان عاجز ومشوه أكثر مني ومنك؛ وجبان.

كان الحقد يفور من وجهها، من فوهتي عينيها، وهي تطلق كلماتها كالمجنون الهادئ الأعصاب:

- أنت تخاف منه. لاكت آني ما أخاف من أحد. آني أعرف هسَّه حقيقتكم. جبناء. ما تعرفون منو يحتاج مساعدة ومنو المخلص ومنو السيىء الحظ والدنيا واقعة به. جبناء وأغبياء. ما يريد يفتهم ولا يريد يعرف منو المجرم ومنو البريء. أنت، هسه! أنت!! وجاي تقول لي أنت عاجز! ليش ما أعرف آني؟ ليش ما أعرف آني؟

تمسَّكتُ بحافة الباب قربي واتكأت عليها. كنت أرتعش؛ كل ذرة في جسمي كانت ترتعش. لم يكن بمقدوري أن أتحمّل كراهية هذه الفتاة التي أعيش من أجلها:

- لاتحكين هالشكل منيرة. الله يخلّيك، لا تحكين هالشكل.

- شكو جاي واقف فوق راسي لعد؟ شتريد مني؟ إذا حكي ما تريد أحكي. شتريد، أعمل لعد؟ شتريد مني؟ قول؟ شتريد؟ تريدوني أموت؟ لا، ما أموت. ما انتحر. فات الوكت على هالأشياء. وأنت آخر واحد له حق يطلب مني أي شي.

- آني ما أريد منك شي منيرة. ما أريد شي. بس أعطيني فرصة

لخ. اعطيني فرصة أعيش. لا تحطمين حياتنا دون سبب.

- يا حياة! حياة مَنْ أحطم؟ أنت مجنون؟

ونظرت إليّ بحدة.

أردت أن أقترب منها، إلا أن شيئاً ما في وجهها أوقفني. ذلك الاحمرار البسيط في عينيها وتلك الرجفة في شفتها السفلى وما كسا هيئتها بشكل غامض.. نوع من التحفز وقسوة غير اعتيادية في ملامح الوجه الجميل. لبثت أنظر إليها، شاعراً بأني أفترس على مهل وأني، رغم ذلك، غير قادرٍ على الفرار. تكلمتْ:

- لا تخليني أعيد عليك الكلام. قلت لك آني تعبانة هواية.

ثم صمتت هنيهات:

- أنت لازم تعرف أنت ما لك علاقة بي. لا هسّه ولا بالمستقبل. ما أريد واحد آخر منكم. خلوني أرتاح أقول لك. ما عندي بعد طاقة للحياة هالشكل. كلهم يسألون ويحكون، كلهم عبالهم عندي شي خفي أضمّه عليهم. كلهم يعاتبون ويتهمون وهم أجبن الناس، وهم أغبى الناس.

- أرجوك منيرة.

أخرجت منديلاً أبيض مسحت به فمها:

- ماكو واحد يقدر شقاء غيره وسوء حظه. كلّ واحد يريد حقه بس. مجانين. وين أكو حق بهالدنيا!

جثوت، دون علمي، أمامها. كانت دموعها تسح، تفيض من عينيها البالغتي الصفرة، وهي لاتبالي بها؛ تحدّق إلى نقطة معينة ثم تبعد بصرها إلى نقطة أخرى. مرت نظراتها على وجهي وأنا جاثٍ:

- ما يقبل يتفاهم. يموت وما يتفاهم. ما يتنازل يسمع كلمة، كلمة

واحدة، وآني عبالي..

رفعت يدها بالمنديل وأشارت بها:

- قلت يمكن.. يختلف. يمكن يعرف حالي، يحنّ عليّ. بلكي الله يخلّيه يعرف ويشفق.

تقلّص فمها بعلامة استهزاءٍ ويأسٍ، ثم رأيتها تراني جاثياً، بلا جدوى، قربها:

- كلكم جبناء كريم، لأن ما عندكم قلوب تشفق على أحد. حتى بعد ما تعرفون الغلط، ما تهتمون بالبريء والمظلوم.

أخفت وجهها المبلل بين يديها ثم زفرت زفرةً حارةً وهمست:

- راح اتخبل. يقول لي آني حبيبته ويموت بلا كلمة. بلا إشارة. راح اتخبل. لويش هالقسوة يا ربي؟ لويش؟

كنتُ، مثلها، أبكي وأنا أتأمل كتلة الشعر عن كثب وأصابعها الدقيقة البيضاء. كنا، كلانا، أمام الباب المسدود. عرفتُ ذلك الآن بعد أن استمعتُ إليها. كأني كنت أجهل كلَّ شيءٍ!

قمتُ ثم مددت يدي فلمست صدغها النديّ برقةٍ. لم تتحركْ. لبثتْ تنشج وجسمها يختض ويهتز مضطرباً. تراجعت ببطءٍ ثم انسللت من غرفتها وأغلقت الباب خلفي.

كان الليل صامتاً. وقفتُ مستنداً إلى المحجر الخشبي أتطلّع حولي في الظلام. لم يبق لديّ، بشكل أكيد، شيء يمكن أن أفقده في المستقبل. ذلك إحساسٌ فريدٌ لا يجربه كلُّ الأحياء، حين تبدأ الخاتمة. وكنت هادئَ النفس كمن خُدِّر؛ لا أرى شيئاً أمامي، شاعراً أني قد أستطيع، بمساعدتها، أن أدرك معنى الانتهاء.

هذه الكتلة من الورق لا تحوي ما ينسب إليها من تنهدات وكلام وأنين وابتسام؛ أو من سموّ وعذاب ورعب وأشواق؛ أو من عيون وشفاه ودم ودموع. وهي إذ ترمى بعيداً فلن يصدر منها احتجاجٌ أو عتابٌ. إنها صفحاتٌ خرساء لا ضرر منها ولا فائدة أيضاً. ومن الخير لها وللجميع أن تُهمل بسكون وأن تنسى.

إنّ ما يجعل (الرجع البعيد) رواية كبيرة كاملة التميز والصوت، هو التقاطها صوت التاريخ المحتجب في العلاقات اليومية، الذي تعيد الكتابة تركيبه كي تحجبه من جديد، أو الذي لا تظهره الكتابة كاملاً إلا إذا احتجب؛ وما وظيفة الإيقاع المأساوي في الرواية إلا تحقيق هذا الحجب الواشي، والذي يظل قائماً حتى في لحظة وصول المأساة الكاملة. فكأنّ ديالكتيك الحجب والإظهار لا يعلن عن مصدر المأساة في الحاضر والماضي بقدر ما يشير إلى أبعادها المحتملة في المستقبل.

د. فيصل دراج
١٩٨٥

وهكذا كانت الرواية في رحلة الزمن والإنسان، معاناة بشرية هي الأخرى، وكانت في تداخلاتها وأزماتها وتوتراتها واندفاعاتها في البناء وتنقيطاتها الدلالية والرمزية والانمائية كشخوصها أنفسهم: مدحت وكريم وحسين ومنيرة، في لعبة الموت والحياة.. فالسكون هو النهاية والحركة هي الحياة. وقد تتخذ الأخيرة مسارات متباينة ومسالك مختلفة. لكن الفعل يكتسب معناه من خلال الألق الإنساني ومن خلال تجاوز الأناني والصغير والعادي؛ بحثاً عن قيم جديدة، تمنح التغيير بُعده الصحيح حتى وإن بدت في أصدائها الآن رجعاً بعيداً.

د. محسن الموسوي
١٩٨٨


ISBN 284305596-2
9 782843 055966